تنسيق ورفع محمود العثماني

في تاريخ العرب الحديث وجهاد الأندلسيين

تأليف
د/ رأفت غنيمي الشيخ
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
وعميد كلية الآداب ــ جامعة الزقازيق

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

دار الثقافة للطباعة والنشر
٢١ شارع كامل صدقي بالفجالة
ت ٩١٦٠٧٦١ - القاهرة

في

تاريـــخ العـــرب الحـــديث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعتبر التاريخ العربى الحديث مجالا خصبا للدراسات العلمية بما يشتمل عليه من حركات ديناميكية حددت مسار الشعوب العربية على الأرض . واذا كان الاسلام قد أوجد منذ القرن السابع الميلادى حركة ديناميكية ذات تأثير ثقافى كبير ودائم فى كل بلد وصل اليه مستندا الى الدين الاسلامى كعقيدة ، واللغة العربية كوسيلة لنشر هذه العقيدة وحفظها ، فان الشعوب العربية التى حملت الفكرة العربية مع العقيدة الاسلامية قد حافظت على جوهر الفكرة وأصل العقيدة .

واذا كان بعض المؤرخين يعتبرون بداية التاريخ العربى الحديث بقدوم الأتراك العثمانيين الى الأقطار العربية فاتحين ، بينما البعض الآخر يعتبر هذه البداية تأتى مع أوائل القرن التاسع عشر ، والبعض الثالث يرى أن بدايته تأتى فى منتصف القرن التاسع عشر .

واذا كان بعض المؤرخين يعتبرون نهاية التاريخ العربى الحديث عند نهاية القرن التاسع عشر . والبعض الآخر يعتبر بداية الحرب العالمية الأولى نهاية منطقية للتاريخ العربى الحديث . والبعض الثالث يعتبر الحرب العالمية الثانية هى النهاية المنطقية للتاريخ العربى الحديث .

واذا كان لكل فريق رأيه وعنده من الأدلة ما تؤيد هذا الرأى أو ذاك ، فان الرأى عندنا هو أن التاريخ العربى الحديث يبدأ منذ دخول العثمانيين الى الأرض العربية وينتهى مع نهاية الحرب العالمية الأولى

ليبدأ التاريخ المعاصر ، ومن هذا المنطلق تقوم دراستنا للتاريخ العربى انحديث على النحو التالى ..

أولا : دراسة عامة عن الحكم العثمانى للاقطار العربية .

ثانيا : دراسة تمثيلية للحركات الاستقلالية فى بعض الأقطار العربية .

ثالثا : دراسة تفصيلية للحركات السلفية فى الوطن العربى .

رابعا : دراسة عن الصراع بين الشعوب العربية والأطماع الاستعمارية .

واننى اذ أسوق هذه الدراسة المتكاملة آمل أن يكون الله قد وفقنى فى عرضها العرض السليم ، راجيا من الله دوام التوفيق ،

دكتور رأفت الشيخ
حلمية الزيتون ١٩٧٥
اكتوبر

مقـــدمة الطبعـــة الثـــانية

منذ أن صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب تلقيت بعض الملاحظات والاطراءات من الكثيرين من المتخصصين ومن المهتمين بتـــاريخ الأمة العربية فى هذه الفترة المهمة من تاريخها المجيد •

ورغم أنه تم تصوير هـــذا الكتاب أكثر من مرة لتلبية طلبـــات القراء فى مصر وفى الأقطـــار العربية الشقيقة ، فاننا اليوم نقوم بطباعته بعد ادخال عدة تعديلات عليه وان كانت طفيفة فانها كانت لازمة •

وفى اعتقادى الدائم أن تاريخ العرب الحديث فى الفترة الممتدة من القرن الســادس عشر منذ دخول العثمانيين الى الأقطـــار العربية حتى قبيل حدوث الغزو الاستعمارى الأوروبى لهذه الأقطار فترة مهمة للغاية لفهم تطورات احداث فى التاريخ المعاصر للوطن العربى •

وعلى هذا فقد استبعدت الباب الرابع من هذا الكتاب والخاص بالاستعمار الأوربى للأقطار العربيـــة على أمل أن يضـــمه كتاب عن تاريخ العرب المعاصر الذى يضم أيضا حركات كفاح الشـــعوب العربية من أجل استقلال أقطارها عن الاستعمار الأوروبى حتى منتصف القرن العشرين •

أرجو أن أكون قد وفقت فيما اتخذته نحو اعـــادة طبع الكتاب بصورته المعدلة وعلى الله قصد السبيل ،

دكتور رأفت غنيمى الشيخ

ذو القعدة ١٤٠٩ هـ

يونيـــو ١٩٨٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة الطبعــة الثــالثة

يسعدنى أن أقدم الطبعة الثالثة من كتابنا : فى تاريخ العرب الحديث حيث أضفت بابا رابعا لأبوابه الثلاثة ، واذا كان الباب الأول تناول الوطن العربى تحت الحكم العثمانى ، وتناول الباب الثانى العصبيات المحلية فى الوطن العربى فأن الباب الثالث تناول الدعوات السلفية فى الوطن العربى ..

وأما الباب الرابع فقد تناول بعض مظاهر اليقظة العربية الاسلامية موزعة على ثلاثة فصول ، تناول الأول منهـا موضوع ارتباط خروج المسلمين من الأندلس بحركة الجهـاد البحرى الاسـلامى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وتناول الثانى موضوع الجهاد البحرى الاسلامى فى الخليج العربى ، وتناول الثالث موضوع الجامعة الاسلامية ..

آمل أن أكون قد وفقت فى اضافة هذا الباب الرابع للكتاب ليسد جانبا من الدراسات التاريخية للأمة العربية الاسلامية فى عصـــورها الحديثة . وعلى الله قصد السبيل ..

دكتور رأفت غنيمى الشيخ
الزقازيق نوفمبر ١٩٩١ م

الباب الأول

الوطن العربى تحــت الحــكم العثمـــانى

الفصل الأول : الزحف العثمانى نحو الوطن العربى ..

الفصل الثانى : نظم الحكم العثمانى فى الوطن العربى ..

الفصل الأول

الزحف العثماني نحو الأقطار العربية

- موقع الوطن العربى .
- الوطن العربى قبيل قدوم العثمانيين .
- العلاقات العربية الأوروبية قبيل قدوم العثمانيين .
- أسباب الزحف العثمانى نحو الوطن العربى .

موقـــع الوطن العـــربى

الوطن العربى يشمل من الناحية الجغرافية تلك الأرض الممتـــدة من ايران شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، ومن البحر المتوسـط شمالا الى المحيط الهندى والبحر العربى ووسـط أفريقيا جنوبا ، وهى مساحة كبيرة تقارب مساحة القارة الأوروبية ، ولو اجتمعت الدول العربية كلها فى دولة واحدة لكانت الدولة الثانية فى العالم من حيث الامتداد بعـــد الاتحاد السـوفيتى[1] .

ومن الأمور الجـــديرة بالملاحظة بالنسبة لمســاحة الوطن العربى وامتداده أن هذه المساحة تمثل رقعة واحـــدة متصلة لاتكاد تفصل بينها فواصل طبيعية فلا يوجد داخلها بحـــار واسعة أو صحراوات شاسعة أو جبال مرتفعة ، كما أن حدود الوطن العربى مع غيره من الأقطار غير العربية حدود طبيعية سواء فى المشرق أو المغرب ، ففى المشرق البحـــر المتوسط والجبال من الشمال الغربى والمحيط الهندى وبحـــر العرب وخليج عمـــان والخليج العربى من الجنوب والجنوب الشرقى ، وفى المغرب البحر المتوسط من الشمال والصحراء الكبرى وخط تقسيم المياه بين نهرى النيـــل والكنغـــو وهضبـــة البحيرات وهضبط الحبشة من الجنـــوب .

وتقع الأرض العربية مناخيا بين المنطقة المعتدلة والمنطقة المدارية وتمتد من خط عرض ٤ درجة الى خط عرض ٣٧ درجة شمالا ، وهذا الامتداد ليس عيبا أو له آثار سلبية بل على العكس من ذلك فانه امتياز للوطن العربى وآثاره ايجابية على نشاط السكان البشرى وتعدد الغلات الزراعية بما يساعد على التكامل بين أقطـــار الوطن العـــربى ويدفعها الى الارتباط والوحدة لمصلحة كل الأقطار .

---

(١) د. عزة النص : احوال السكان فى العالم العربى ص ٣٢ .

وأما سكان الوطن العربى البالغ عددهم حوالى مائة مليون نسمة فانهم يتميزون بتجانس عنصرى أى أنهم ينتمون الى جنس واحد ينتمى الى المجموعة الجنسية المعروفة بجنس البحر المتوسط ثلثهم تقريبا ف قارة آسيا والباقى ف قارة أفريقيا ، ولا يقلل من وحدة الجنس ف أقطار الوطن العربى وجود قلة زنجية جنوب السودان أو أقلية كردية ف شمال العراق •

وقد حاول المستعمرون الأوروبيون أن يكرسوا فرقة وانقسام العرب وبعدهم عن بعضهم البعض بترويج الادعاءات غير الحقيقية والقائلة بوجود اختلاف جنسى بين العرب ، بأن أهل الشام فينيقيون وأهل العراق أشوريون والمصريون فراعنة والسودانيون أفارقة ، وأهل شمال أفريقيا بربر وهذه ادعاءات مغرضة لأنه ثابت علميا أن هذه الصفات التى ألصقت بالعرب هنا وهناك ف أقطار الوطن العربى انما هى صفات ثقافية وليست صفات جنسية كما أنه من الثابت أن العرب يرجعون الى أصل واحد ••

ولعل الوحدة الثقافية التى تظلل أقطار الوطن العربى من أهم علاماته المميزة ذلك أن اللغة العربية هى لغة كل العرب ف الوطن العربى ، وهى اللغة السائدة ف مشرقه ومغربه ولا يقلل من سيادتها وجود لهجات محلية مشتقة من اللغة العربية ذاتها ، أو وجود لغة خاصة بالأقلية الكردية الموجودة ف شمال العراق وسوريا واللغة الخاصة بالأقلية الزنجية ف جنوب السودان ، علما بأن الأكراد والبربر يتكلمون اللغة العربية •

وأما الدين الاسلامى الذى هو دين غالبية العرب ف الوطن العربى الذين تصل نسبتهم أكثر من ٩٠٪ من عدد سكان الوطن العربى ، فانه يعتبر من عوامل الوحدة الثقافية بين أقطار الوطن العربى ، ورغم وجود أقلية مسيحية وأقلية ضئيلة يهودية فان ارتباط المسيحية والاسلام ساعد على الوحدة العربية بين العرب ف الوطن العربى الواحد •

ويشمل الوطن العربى جناحين أحدهما فى آسيا والثانى فى أفريقيا ، فأما الجناح الأسيوى فيضم ما عرف بمنطقة الهلال الخصيب ، ومنطقة المربع العربى ، والهلال الخصيب عبارة عن قوس أو هلال يبدأ طرفه الشرقى فى حوض نهرى دجلة والفرات أى العراق — النصف الشرقى من الهلال — ثم ينحرف الى الغرب ليضم اليه سوريا ولبنان ، ثم ينحدر الى الجنوب ليشمل فلسطين والأردن • وقد بقى النصف الغربى من الهلال قرونا عديدة يعرف باسم سوريا أو بلاد الشام الى أن أزيلت وحدته بعد الحرب العالمية الأولى(٢)

ووحدات الهلال الخصيب السياسية هى : العراق ، سوريا ، لبنان ، المملكة الأردنية الهاشمية ، وفلسطين ، وأما المربع العربى فيشمل شبه الجزيرة العربية ويضم الوحدات السياسية التالية : المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية اليمنية ، وجمهورية اليمن الديمقراطية* ، ودولة الكويت ، ودولة قطر ، ودولة البحرين ، ودولة الأمارات العربية المتحدة ثم سلطنة عمان •

ويضم الجناح الأفريقى من الوطن العربى كل من جمهورية مصر العربية ، وجمهورية السودان الديموقراطية والجمهورية العربية الليبية ، والجمهورية التونسية والجمهورية الجزائرية الديموقراطية ، والمملكة المغربية ، والجمهورية الموريتانية الاسلامية ، وجمهورية الصومال وجمهورية جيبوتى •

واذا كانت صورة الوطن العربى الراهنة بهذا التفتت والانقسام الذى كان نتيجة لجهود وسياسة الاستعمار • فقد كان هذا الوطن عند ظهور الاسلام فى شبه الجزيرة العربية وعند تأسيس الدولة العربية الاسلامية قد تأثر فى القرن السابع الميلادى بحركة الاسلام الديناميكية وبالحركة العربية التى ظهرت بها قوة اللغة العربية التى رافقت الاسلام

---

(٢) د. محمد انيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ج •

* تم توحيد اليمنين عام ١٩٩٠ تحت اسم الجمهورية اليمنية .

كدين فى انتشاره السريع ، وقد أثرت الحركتان العربيـــة والاسلامية على المجتمع العربى فى أنحاء الوطن العربى من القرن السابع الميلادى حتى الوقت الحاضر ، وظهر تأثيرهما فى جميــع مرافق حيـــاة المواطن العــربى .

وتعتبر حضارة الوطن العربى الاسلامية العربية خلاصة تفاعلات بين ثقافات واتجاهات وأجناس وشعوب مختلفـــة تآلفت وامتزجت فى ظل الخلافة الاسلامية التى ظهرت أولا فى شبه الجزيرة العربيـــة عندما ظهر الاسلام وانتشر فى أيام الخلفـــاء الراشدين ، ثم فى ظل دمشق عاصمة الأمويين ، فبغداد عاصمة العباسيين ، ثم فى ظل القـــاهرة عاصمة آخر خلافة عربيـــة .

وعلى الرغم من انتقال مركز السلطة من مكة والمدينة المنورة الى دمشق فبغداد فالقـــاهرة ، فقد وجدت وحــدة مشتركة بين أقطـــار الوطن العربى كان أساسها كما ذكرنا وحدة الجنس والأرض والثقافة المتمثلة فى اللغة العربيـــة والدين الاسلامى ، وكان قوام الوحـــدة الثقافية الاسلامية ثلاثة هى :

١ — الوحدة الروحية التى تجمع شعوب المنطقة العربية .

٢ — ارتباط السلطة الدينية بالسلطة الزمنية ، فقد كان الخليفة هو الزعيم السياسى الى جانب كونه الزعيم الدينى للمسلمين .

٣ — شيوع مبادىء الاخاء والمساواة التى تحطم الحواجز بين الناس دون النظر الى الجنس أو اللون ، وهذه المبادىء تستند الى شرائع الدين الاسلامى .

وقد تعرض الوطن العربى لانقسامات داخلية بعد ضعف الخلافة العباسية حتى رأينا دويلات اسلامية تقوم هنا وهناك فى أنحاء الوطن العربى ولكنها لم تنفصل عن الخلافة الاسلامية ، كما لم يضع حكام هذه الدويلات أية قيود أو حواجز تحول دون انتقال المواطن العربى من قطر لآخر أو تحول دون اتصال العرب فى المغرب بأخوتهم عرب

المشرق • بل استمر العرب وحدة شعبية وان اختلفت حكوماتهم وتعددت دولهم ، فبلاد العرب لكل العرب •

الوطن العربى قبيـــل قدوم العثمانيين

وكانت ظروف الوطن العربى فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى أى عند زحف العثمانيين نحو الوطن العربى على النحو التالى :

أولا : مصر والشـــام والحجاز تحت حكم سلاطين المماليك منـذ انتهاء الدولة الأيوبية ووقوف المماليك ضد الخطر الصليبى فى الشام والخطر المغولى الذى دمر بغداد وكل سكانها عام ١٢٥٨ م ــ ٦٥٦ هـ ، ولكن وحدة الشام ومصر تحت حكم المماليك استمرت بعد هزيمة المغول عام ١٢٦٠م ٦٥٨هـ فى عين جالوت حتى تم الزحف العثمانى واحتلال بلاد الشام ومصر عام ١٥١٧ م •

ثانيا : العراق • بقيت العـــراق تحت سيطرة المغول منـــذ عام ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م حتى خضعت لدولة الشاه اسماعيل الصفوى الشيعية التى أسسـها فى فارس عام ١٥٠٠ م وامتد بها الى العراق عام ١٥٠٨ م وأخذ يبسط بها المذهب الشيعى •

ثالثا : الخليج العربى ، وتتكون أقطاره من مسقط وعمـــان وقطر والبحرين وامارات الساحل المتصالح والكويت ، فقد كانت تسكنها قبائل عربية تعمل بالتجارة واستخراج اللؤلؤ والرعى ، وقد تعرض بعضها للاحتلال من قبل البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر مثل البحرين ودولة هرمز التى كانت دولة مزدهرة مقرها على شاطىء الخليج وتضم الجزيرة المواجهة والتى تحمل نفس الاسم ، أما عمان فقد كانت أكثر مناطق الخليج تنظيما سياسيا بسبب وجود امامة المذهب الأباضى بجبال عمان بالداخل ، كما كانت أقرب الى المجتمعات الحضرية • وواضح من هذا أن أقطار الخليج العربى كانت تحكمها التنظيمات القبلية حتى أوائل القرن السادس عشر وهو الوقت الذى بدأ فيه الزحف العثمانى على أقطار الوطن العربى •

رابعا : اليمن والجنوب العربى • كان الأئمـة الزيديون يحكمون اليمن ويعترفون لدولة المماليك فى مصر بالسيادة عليهم شأنهم فى ذلك شأن أشراف مكة الذين يحكمون الحجاز ، وأما الجنوب العربى — وهى حضرموت وعدن — فكانت تابعـة لليمن ولم تنفصـل عنها قبل قدوم العثمانيين الى اليمن •

خامسا : نجد والاحساء • هذه المنطقة تمثل أكبر قسم من شـبه الجزيرة العربية ، وكانت تخضع لتنظيمات قبلية طبقا للقبائل التى تسكن تلك الجهـات •

سادسا : السودان • فقد كانت انتشار الاسلام فيه أيام حـكم المماليك لمصر دافعا لكى تعيش القبائل السودانية فى ظل الولاء للمماليك ، ولكن السودان لم يكن موحدا ولم يكن الحكم فيه مركزيا حتى قامت دولة الفونج الاسلامية عام ١٥٢٢ م وحاولت توحيد وادى النيل فى دولة اسلامية عربية بعد أن تعددت دوله وممالكاته •

سابعا : ليبيا : كانت ليبيا تعيش فى ظل دويلات صغيرة متعاقبة حتى أحتلها الأسبان عام ١٥١٠ م ثم أهداها الأسبان الى فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يتخذون من جزيرة مالطة مركزا لنشاطهم الصليبى والقرصنة فى الحوض الغربى للبحـر المتوسط ، عام ١٥٣٥ م • وقد ظل فرسان القديس يوحنا فى ليبيـا حتى طردهم منها العثمانيون عام ١٥٥١ م •

ثامنا : تونس : كانت تحكمها الدولة الحفصية من عام ١٢٢٨ — ١٥٣٤ م وقد امتد سلطانها فى بعض فترات التاريخ شرقا الى طرابلس ، وحكمها أكثر من عشرين أميرا من الأسرة الحفصية ، وقد امتدت الدولة الى الأندلس أيضا فى بعض فترات التاريخ •

تاسعا : الجزائر : حـكمها أمراء أسرة بنـو عبد الوديد الذين اتخـذوا من تلمسان مركزا لدولتهم فى الجزائر ، وهم من أهل البلاد المتحضرين وبلغ عدد من تولى الحـكم منهم عشرة أمراء ، بين عـام ١٢٣٥ — ١٤٠٠ م ، حتى سقطت فى يد المسيحيين الأسبان •

عاشرا : مراكش : حكمها أمراء بنى واطس ومركزهم فاس من عام ١٤٧٠ — ١٥٥٠ م ووقفوا يواجهون المسيحيين الأسبان ، ويواجهون الأسرة الشريفة فمراكش حتى ظهر الأسطول التركى فى البحر المتوسط أمام الشواطىء المغربية .

العلاقات العربية الأوروبية قبيل قدوم العثمانيين

ولنا أن نتساءل عن طبيعة العلاقات العربية الأوروبية قبيل زحف العثمانيين على أقطار الوطن العربى ؟ — ان الاجابة على هذا التساؤل يجب أن تشمل بيان نشاط كل من البندقية وجنوة ، وأسبانيا وفرسان القديس يوحنا والبرتغال الى جانب ابراز آثار الغزو الصليبى للأقطار العربيـــة .

فيما يتعلق بكل من البندقية وجنوة فقد كانتا حريصتين على اقامة علاقات طيبة وسلمية مع أقطار الوطن العربى فى أفريقيا الشمالية وفى آسيا باعتبار هذه الأقطار تطل على البحر المتوسط وهى طريق التجارة مع الهند ، وكلا البلدين — البندقية وجنوة — تركز نشاطها فى التجارة ، ولذلك نجدهما تتنافسان للفوز بالعلاقات الأقوى والأحسن مع أقطار الوطن العربى وخاصة مصر قلب هذا الوطن وبها أقصر طريق الى الهند .

وفيما يتعلق بأسبانيا فان هناك تاريخ بعيد منــذ الفتح العربى للاندلس واقامة الدولة الأموية هناك ثم الدويلات المنقسمة على نفسها أمام تزايد القوى المسيحية واتحادها حتى تم اجلاء آخر وجود اسلامى من أسبانيا عام ١٤٩٢ م وعندئذ اتخذت أسبانيا سياسة صليبية انتقاما للمد العربى الاسلامى فى أراضيها وعملت أساطيل الأسبان على مهاجمة السواحل العربية فى شـمال أفريقيا بل واحتلال بعض هذه الأقطـار كما سبق أن ذكرت ، وقد استمرت العلاقات الأسبانية العربية متوترة وغير طيبة وحتى مجىء العثمانيين الى الأقطار العربية وصدامهم مع الأســبان .

وفيما يتصل بفرسان القديس يوحنا ، فقد كانوا بقايا الغزو الصليبى لفلسطين ولما تم طردهم منها انتقلوا الى جزيرة رودس وبقوا بها يهددون أقطار المشرق العربى حتى طردهم الأتراك العثمانيون منها فانتقلوا الى جزيرة مالطة ومنها مارسوا نشاطا صليبيا بالتعرض لسفن وسواحل الأقطار العربية الاسلامية فى شمال أفريقيا ووصل الأمر الى احتلالهم لطرابلس عام ١٥٣٥ م حتى طردهم منها الأتراك العثمانيون عند مجيئهم الى طرابلس عام ١٥٥١ م ٠

وأما ما يتعلق بالبرتغال فكانت تشارك الأسبان عداءهم للعرب والمسلمين وتشارك أسبانيا أيضا فى ضرورة اتباع أسلوب صليبى ضد الاقطار العربية والاسلامية ومن ثم اتجهت البرتغال الى أعمال الكشف الجغرافى المرتبط بمحاربة المسلمين أينما وجدوا ، فلما نجح البرتغاليون فى الوصول الى مياه الهند اصطدموا بالمسلمين العرب بزعامة سلطنة المماليك فى مصر والشام وكانت الهزيمة للجانب العربى عام ١٥٠٩ م أمام بومباى فيما عرف بمعركة ديو البحرية ، ومن ثم استولت البرتغال على جزيرة هرمز المتحكمة فى مدخل الخليج العربى ، وجزر البحرين فى الخليج ، وأخذت تهدد وتتعقب سفن العرب والمسلمين العاملين فى الهند والشرق الأقصى لحرمانهم من أن يكون لهم نشاط ينافسهم فى هذه الجهات التى احتكروها لأنفسهم ٠

وفيما يتعلق بآثار الغزو الصليبى فانه يمكن القول بأنه نظرا لفشل الغزو الصليبى لفلسطين بطرد الصليبيين على يد العرب المسلمين ، لم تنته الروح الصليبية الأوروبية ضد أقطار الوطن العربى ، بل يمكن القول أن هذه الروح كانت المحرك للمشروعات الاستعمارية الأوربية فى أقطار الوطن العربى لا فى القرن التاسع عشر فقط بل قبل ذلك وبعد ذلك والى الآن باعتبار أن الحركة الصليبية هى فى واقع الأمر حركة استعمارية اتخذت من الدين ستارا لتحقيق أهدافها الاستغلالية ٠

ولنا أن نتساءل أيضا عن حقيقة الزحف العثمانى وأسبابه نحو أقطار الوطن العربى ؟ وللاجابة على هذا التساؤل نقول أن بناء الدولة العثمانية الفتية كان أوروبيا حيث انطلقت من شبه جزيرة آسيا الصغرى وأنقضت على الدولة البيزنطية الهرمة المتاخمة لها فى البلقان . وأخذت تهزمها فى كل الميادين حتى فتحت القسطنطينية واستولت عليها واكتسحت شبه جزيرة البلقان . ولم يتوقف العثمانيون فى زحفهم الا بعد أن وصلوا الى أبواب فينا عاصمة النمسا . وكانت أقطار الوطن العربى والاسلامى تنظر الى انتصارات العثمانيين وفتوحاتهم على حساب الدولة البيزنطية نظرة ملؤها الاحترام والحماس والتأييد فى الوقت الذى جعلت هذه الانتصارات العثمانيين ينظرون الى أنفسهم نظرة حماة الدين الاسلامى والدول الاسلامية .

ولكن الدولة العثمانية بعد أن زادت فى التوسع غربا توقف الزحف أو كاد وفى مقابل ذلك وجدناها تتجه شرقا وتزحف نحو أقطار الوطن العربى لتستولى عليها . فما الذى دفع الدولة العثمانية الى الاستيلاء على الأقطار العربية ؟

* هل أن الدولة العثمانية قد وصلت الى درجة التشبع فى فتوحاتها فى أوروبا ولم يعد أمامها فى نهمها للفتوحات سوى أقطار الوطن العربى . أو بعبارة أخرى أن الدولة العثمانية قد وصلت الى أقصى مدى فى الغرب يمكن أن تصل اليه ولا يمكنها تجاوز هذا المدى فاذا أرادت التوسع فليس أمامها الا الشرق ؟

* أو هل كان السبب هو رغبة الدولة العثمانية السنية المذهب فى الوقوف أمام خطر الصفويين الشيعة فى فارس الراغبين فى السيطرة على العالم الاسلامى ؟

* أو هل كان الدافع هو اتجاه الدولة العثمانية الفتية والقوية

التصدى لأطماع البرتغال فى البحر الأحمر والخليج العربى ومداخلهما وايقاف التهديدات والأخطار البرتغالية الموجهة ضد الأقطار العربية الاسلامية ، وذلك بعد أن فشلت دولة المماليك فى مصر والشام فى القضاء على التهديدات والأخطار البرتغالية .

* أو هل كان الدافع هو رغبة العثمانيين فى شن حملات لتأديب الأسبان وفرسان القديس يوحنا فى البحر الأبيض المتوسط والذين يهددون نشاط الأسطول العثمانى فى هذا البحر كما يهددون أمن وسلامة الأقطار العربية الاسلامية المطلة على هذا البحر وخاصة فى شمال أفريقيا .

* أو هل كان الدافع لهذا الاتجاه العثمانى هو الأطماع لدى سلاطين آل عثمان فى تكوين امبراطورية مترامية الأطراف حول البحر المتوسط تجعل من هذا البحر بحيرة عثمانية ؟

وهذه الدوافع على كثرتها هى فى واقع الأمر من استنتاجات المؤرخين ، ومن ثم تعددت ، ولهذا وجب علينا أن نناقشها قبل أن نسجل رأينا حول الدافع الذى جعل العثمانيين يزحفون نحو الأقطار العربية .

بالنسبة للدافع الأول فنحن لا نستطيع أن نغفل أن الفتوحات العثمانية استمرت فى أوروبا فى عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم حتى وصلت الى أسوار فينا عام ١٥٢٩ م الا أننا فى نفس الوقت لا يمكن أن نغفل أن الدولة العثمانية وعاصمتها الآستانة لم يكن فى مقدورها أن تتوغل أكثر من هذا . فلكل دولة مدى معين فى التوسع ودولة مركزها الآستانة من المعقول أن يقف مداها عند المجر »[٣] .

وفيما يتصل بالدافع الثانى الذى يرجع اتجاه العثمانيين نحو الشرق الى التصدى لأطماع الصفويين الشيعة ، فان المؤرخ البريطانى

---

(٣) د. محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٠٠ .

أرنولد توينبى Toynbee على رأس المؤرخين القائلين به ، ولا يقلل من هذا الرأى كون السلطان سليم عند انتصاره على الشاه اسماعيل الصفوى فى موقعة جالديران عام ١٥١٤ ودخوله عاصمة الدولة الصفوية تبريز واستيلائه على مناطق العراق الشمالية . أنه لم يشأ أن يستمر فى زحفه داخل فارس وعاد الى عاصمة ملكه لأن « اختلاف المذاهب بين العثمانيين السنيين والفرس الشيعة جعل العثمانيين لا يرحبون بالسيطرة على فارس خوفا من عدم استتباب الأمور لهم فيها »[٤] .

وفيما يتعلق بالدافع الثالث والرابع والخاصين برغبة العثمانيين فى الوقوف أمام الخطر الاستعمارى الأوروبى من ناحية البرتغال والأسبان وفرسان القديس يوحنا فاننا نعتبر هذا الدافع نتيجة وليس سببا لاتجاه العثمانيين نحو أقطار الوطن العربى وأن كنا يجب أن نذكر أن العثمانيين هم الذين طردوا فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس وساقوهم أمامهم حتى استقروا فى جزيرة مالطة .

أما بالنسبة للدافع الأخير والخاص برغبة سلاطين آل عثمان فى تكوين أمبراطورية مترامية الأطراف ، فانه رغم أنه من المحتمل أن يكون السلطان سليم قد تطلع الى أن يضم الى ملكه الأراضى المقدسة فى الحجاز ، الا أن فكرة ضم الشام ومصر ثم بقية البلاد العربية لم تكن فى ذهنه وفى مخططه ولكن الظروف هى التى أدت الى حدوث هذا الضم فقد قال السلطان سليم للسلطان طومانباى بعد انكسار الأخير ووقوعه فى قبضة الأول ما نصه . والله ما كان قصدى أذيتك ، ونويت الرجوع من حلب ، ولو أطعتنى من الأول وجعلت السكة والخطبة باسمى ما جئت لك ولا دست أرضك[٥] ولكن الهزائم التى حاقت بسلاطين المماليك أطمعت السلطان سليم فى احتلال ممتلكاتهم فى الشام ومصر

---

(٤) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٤١ .
(٥) ابن زنبل احمد الرمال : آخرة المماليك فى مصر ص ١٢٦ .

والحجاز، ومن ثم أغرته انتصاراته ليواصل فتح بقية الأقطار العربية ٠

والرأى عند هو أنه لا يمنع من أن تكون معظم هذه الدوافع أوكلها مسئولية مسئولية مشتركة عن اتجاه الدولة العثمانية الى الشرق والتوسع بالاستيلاء على الأقطار العربية ، واذا كانت ظروف الدولة العثمانية القوية قد هيأت لها التوسع ، فان ظروف الوطن العربى قد سهلت على الدولة العثمانية تحقيق اتجاهها للتوسع ٠٠

كانت العـــراق وفارس قد عانت من الـــدمار والفوضى نتيجـــة الاغارات المغولية المدمرة الشيء الكثير حتى استطاعت الدولة الصفوية فى أوائل القرن السادس عشر تكوين وحدة سياسية من العراق وفارس على أساس دينى شيعى يعـــادى المذهب السنى الذى تدين به الدولة العثمانية بانتصاراتها على الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية)فى الغرب٠

واذا كانت مصر والشام قد نجتـــا من الاغارات المغولية المخربة بواسطة سلاطين المماليك ، الا أن دولة المماليك رغم ضخامتها ـــ حيث كان لها السيادة على الحجـــاز الى جانب مصر والشـــام ـــ كانت فى أوائل القرن السادس عشر قد وصلت الى حالة من الأعياء الشـــديد بسبب تحول تجارة الهند والشرق الأقصى عن طريق مصر والبحـــر الأحمر الى طريق رأس الرجاء الصـــالح ٠ وبسبب حـــروب المماليك المستمرة وبصفة خاصة ضـــد الزحف البرتغالى على منـــافذ البحـــار العربيـــة الجنوبية وليس أدل على ضعف المماليك من هزيمتهم أمام البرتغاليين فى مياه الهند فيما عرف بمعركة ديو البحرية عـــام ١٥٠٩ م ولذلك كانت مقاومتهم للزحف العثمانى نحو الشام ومصر مقاومة غير عنيدة بل كانت قوتهم مفككة ٠

أما أقطار الوطن العربى فى شمال أفريقيا ليبيا وتونس والجزائر فقد دخلت فى حظـــيرة الدولة العثمانية دون مقاومة من ســـكانها بل برغبة من بعض أهلها للتخلص من تهديدات الدولة الأسبانية المسيحية

وتهديدات فرسان القديس يوحنا القراصنة بل ورغبة من مواطنى هذه الأقطار العربية فى أن تقضى الدولة العثمانية الاسلامية الفتية على السيطرة المسيحية فى مياه هذه الأقطار العربية وبعض شواطئها . وقد سارعت الدولة العثمانية الى بسط سيطرتها على أقطار الوطن العربى فى المغرب حتى تحكم الحلقة حول البحر المتوسط وتكتمل السلسلة العربية من الأقطار الداخلة فى حوزة السلطنة العثمانية .

حدث اذن زحف واستيلاء عثمانى على الأقطار العربية نتيجة توفر عوامل أو ظروف هيأت لهذا الزحف والاستيلاء سواء فى داخل الدولة العثمانية أو فى أقطار الوطن العربى وقد استمر هذا الاستيلاء طوال أربعة قرون تعرضت فيها الأقطار العربية لتطورات داخلية وخارجية كقيام حركات استقلالية فى أنحاء الوطن العربى ، وظهور حركات سلفية اصطدم بعضها بالدولة العثمانية ، الى جانب الثورات المحلية ضد الحكم العثمانى ، بالاضافة الى الزحف الاستعمارى الأوروبى على أجزاء من الوطن العربى التى هى ولايات عثمانية .

وأما المدة التى بقيت فيها أقطار الوطن العربى خاضعة للحكم العثمانى ، فانه رغم أن السيطرة العثمانية استمرت لمدة أربعة قرون كما ذكرت الا أن استمرار هذه السيطرة طوال هذه القرون الأربعة حدثت فى أقطار دون أخرى وأعنى فى الأقطار التى لم تتعرض لغزوات استعمارية أوروبية والتى بقيت تحت السيطرة العثمانية حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

وتفصيل ذلك أن الشام بأقسامه الأربعة المعروفة حاليا وأعنى سوريا ولبنان وفلسطين والأردن ، والعراق والحجاز ومعظم شبه الجزيرة العربية بقيت تحت السيطرة العثمانية طوال القرون الأربعة من أوائل القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن العشرين . وأما مصر فقد بقيت تحت السيطرة العثمانية مع مشاركة مملوكية فى الحكم منذ عام ١٥١٧ م حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر وبقيت بها ثلاث سنوات من ١٧٩٨ ــ ١٨٠١ م حيث فصلت مصر عن الدولة

العثمانية ، ثم عادت مصر ولاية عثمانية وان ظهر بها محمد على منذ عام ١٨٠٥ م فى حركة قصد بها الاستقلال الذاتى مع التبعية للدولة العثمانية ، واستمرت أسرة محمد على تحكم مصر حتى حدث الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ م ولكنه لم يغير من علاقة مصر بتركيا حتى عام ١٩١٤ م عندما أعلنت انجلترا حمايتها على مصر وفصلها عن تركيا تاديبا لتركيا بسبب انضمامها الى ألمانيا ضد انجلترا وحلفائها فى الحرب العالمية الأولى . وما جرى على مصر انسحب على السودان الذى دخل تحت سيادة الدولة العثمانية منذ أن فتحه محمد على فى العشرينات من القرن التاسع عشر .

وأما ليبيا فقد ظلت تحكمها الدولة العثمانية منذ عام ١٥٥١ م حتى حدثت بها حركة أحمد القرمانلى ذات الاستقلال الذاتى عام ١٧١١ م والى عام ١٨٣٥ م ؛ ثم عادت ليبيا تحت الحكم المباشر للدولة العثمانية حتى احتلتها ايطاليا عام ١٩١١ م فأنهت السيادة العثمانية على ليبيا .

وأما تونس فقد بقيت ولاية عثمانية منذ عام ١٥٣٤ م وفى القرن السابع عشر شهدت تونس حركات استقلالية وراثية تدين بالتبعية للدولة العثمانية كالأسرة المرادية والأسرة الحسينية حتى حدث الغزو الفرنسى لتونس عام ١٨٨١ م وأما الجزائر فكانت جزءا من الامبراطورية العثمانية منذ عام ١٥١٨ م ولكنها استمرت تدين بتبعية اسمية للسلطنة العثمانية بل كانت الجزائر تملك حق عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية دون الرجوع الى السلطان ، وظل هذا الوضع قائما فى الجزائر حتى احتلتها فرنسا عام ١٨٣٠ م . ورغم أن الأتراك العثمانيين لم يستولوا على مراكش ، الا أنه منذ وجودهم فى الجزائر أخذوا يتدخلون ضد الأشراف العلويين حكام مراكش من ١٦٥٤ — ١٨٣٠ م كما أخذوا يحرضون أعداء الأشراف العلويين للثورة ، ولكن تدخلاتهم وتحريضاتهم لم تؤد الى استيلاء الأتراك العثمانيين على مراكش ، ومن ثم بقيت مراكش غير خاضعة للحكم العثمانى حتى احتلتها فرنسا عام ١٩١٢ م .

الفصل الثانى

نظـم الحـكم العثمـانى فى
الوطن العربى

* مقـــــدمة
* ايجابيات الحكم العثمانى
* سلبيات الحكم العثمانى

مقدمة

خضعت الأقطار العربية للحكم العثمانى بتنظيماته التى وضعها سلاطين آل عثمان وبصفة خاصة سليمان بن سليم الأول الذى عرف بسليمان القانونى رغم أن الأقطار العربية التى خضعت للحكم العثمانى وتنظيماته وفى مقدمة هذه الأقطار مصر بطبيعة الحال كانت أكثر تحضرا من الدولة العثمانية ، ويرجع المؤرخون هذه التنظيمات العثمانية الى تأثيرات عوامل متعددة هى :

اولا : بيئة الأتراك العثمانيين[1] الأصلية فى وسط آسيا التى أثرت على ثقافة الأتراك بصفة خاصة ، وخاصة اللغة والعادات والتقاليد القبلية وان كنا يجب أن نوضح أن تأثير هذا العامل ضعف واستمر فى الضعف مع مرور الزمن ومع بناء الدولة واتساعها فى أوروبا وفى الأقطار العربية وتأثر الأتراك بالبيزنطيين والعرب وثقافاتهم .

ثانيا : الحضارة الفارسية وما اشتملت عليه مظاهر الفخامة والتبجيل والاحترام للسلاطين الى جانب التنظيمات الادارية والسياسية فى الدولة فضلا من اعتبار أصحاب الملل — أى غير المسلمين — مستقلين بأمورهم الداخلية ، كل ذلك وجد طريقه الى نظم الحكم العثمانى أما عن طريق الدولة السلجوقية فى فارس أو عن طريق العرب الذين تأثروا بالحضارة الفارسية أو عن طريق الدولة البيزنطية التى جاورت السلاجقة واحتكت بهم ، واذا كان المؤرخون قد اختلفوا حول الطريق الذى سلكته الحضارة الفارسية الى تنظيمات الحكم العثمانى ، واذا كانوا قد اختلفوا فى مدى تأثير الحضارة الفارسية فى العثمانيين فمما لا شك

---

(١) الأتراك العثمانيون احدى قبائل الاتراك العديدة سواء التى بقيت فى بيئتها فى اواسط آسيا او رحلت الى آسيا الصغرى ، وهذه القبيلة تنسب الى عثمان مؤسس الدولة فى هضبة الاناضول بآسيا الصغرى .

فيه أن هناك تأثيرا حضاريا فارسيا ف التنظيمات العثمانية وان كانت بمرورها قد صـــهرت هذا التأثير الفارسي مع غـيره من تأثيرات لدى العثمانيين وأصبحت تكون سلوكا عثمانيا .

ثالثا : تأثيرات العرب الدينية واللغوية فى مجالات التعليمومجالات العبادة والقضاء والافتــاء ، ويرجــع بعض المؤرخــين ما جبلت عليه التنظيمات العثمانية من جمود وتحفظ الى التأثيرات العربية التقليدية ، ولكن هؤلاء المؤرخين يسرفون ف ذلك وينسون أن تأثيرات بيئة وســـط آسيا الرعوية القبلية وتأثيرات الحضارة الفارسية لها دورها الأكبر ف التحفظ والتمســك بالتقاليد ومقاومة كل الحركات التقدمية ف المجتمع العثمانى .

رابعا : تأثيرات البيزنطيين على التنظيمات العثمانية خاصـــة ف النواحى الادارية والضرائبية ومظاهر العظمة والأبهــة ف البلاط الى جانب تمتع الأجانب بامتيازات محددة تتفق مع نظام الدولة . كل ذلك يفسر كثيرا من التنظيمات العثمانية ..

كان العرب يشكلون الجزء الاسلامى الأكبر ف مجموعة ولايات الدولة العثمانية وبهذا كانوا أكثر الولايات العثمانية تأثرا بالتنظيمات العثمانية ، ايجابيا وسلبيا وكان العــرب ينظرون الى الدولة العثمانية قبل اتجاهها الشرقى نظرة اكبار وفخار لما كسبته للمسلمين من فتوحات ف بلاد الروم ، كما ظل العرب بعد خضوعهم للحكم العثمانى ينظرون الى العثمانيين باعتبارهم حماة للدين الاسلامى بل وباعتبارهم المحافظين على الخلافة الاسلامية .

نظـام الحـكم العثمـانى

وضع السلطان سليمان القانونى لحكم الولايات العثمانية ــ ومنها الأمصار العربية ــ نظاما للحكم يقوم على توزيع السلطة بين ثلاث قوى كانت على النحو الآتى : ــ

اولا : الوالى : ويلقب بالباشا وهو نائب السلطان فى حكم الولاية وله سلطة تنفيذ أوامر السلطان والرئاسة على جميع الموظفين العثمانيين فى الولاية ، وان كانت سلطته مقيدة بوجود قوى أخرى تشاركه فى السلطة مثل رؤساء الجند والعصبيات المحلية ، كما أنها محدودة بفرمان يصدر من السلطان بالتعيين لمدة سنة قابلة للتجديد •

ثانيا : رؤساء الجند : وهم قادة الفرق أو الاوجاقات • تلك الفرق الموكول اليها الدفاع عن الولاية ضد الغزو الخارجى وحفظ النظام والأمن الداخلى وخاصة بالتصدى للثورات التى قد يقوم بها أهالى الولاية ضد الحكم العثمانى ، ومن اجتماع قادة الفرق يتألف مجلس شورى الوالى المسمى بالديوان الذى له السلطة الكبيرة فى ادارة الحكومة حيث لا يستطيع الوالى أن يبرم أمرا الا بموافقة أعضائه ، فهم بمثابة سلطة رقابة واشراف على سلطة الوالى ، وحتى عندما انقسم الديوان الى ديوان كبير وديوان صغير ظل لسلطة قادة الجند القوة فى مواجهة الوالى •

ثالثا : العصبية المحلية : خيرمثل للعصبية المحلية وسلطتها فىحكم الولاية ، المماليك فى مصر حيث أصبح لهم حكم الأقاليم المختلفة للولاية بحكم أنهم أعرف بأهل البلاد وظروفها ، وفى وقت ضعف الدولة وجندها تقوى شوكة العصبية المحلية حتى يصير فى امكانهم عزل الوالى أو الاستئثار بالنفوذ دونه •

وكان يساعد هذه القوى الثلاث مجموعة من الموظفين يعينهم السلطان العثمانى مثل الكتخدا أى وكيل الوالى والدفتردار المسئول عن الشئون المالية والسلاح دار (السلحدار) المسئول عن أمور التسليح والخازن دار (الخزندار) المكلف بالخزانة العامة للولاية •• الخ •

ايجابيات نظـــام الحـــكم العثمانى

يمكننا أن نعدد التأثيرات الايجابية للتنظيمات العثمانية فى الحكم على الأقطار العربية فيما يلى :

اولا : ان سيطرة العثمانيين على أقطـــار الوطن العربى قد وحد هذه الأقطار فى اطار سياسى واحد بعد أن كانت كيانات متنافرة وتكاد تكون متباعدة بين بعضها البعض منذ أن سقطت الوحـــدة الاسلامية نتيجة ضعف الخلافة العباسية وظهور زعامات طامعة فى الحكم فى أنحاء العـــالم العربى ، وبصفة خاصة بعد أن تعرضت بغداد للتدمير المغولى الشامل فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى الموافق منتصف القرن السابع الهجرى .

ورغم أن هذه الوحدة السياسية قد حققت استقرارا نسبيا فى أقطار الوطن العربى ، فقد فرضت جمودا وعزلة على نشـــاط العرب فى مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة ، ولم يعد العرب يشاركون العالم بنشاطهم فى هذه المجالات ، بل تسبب العثمانيون فى قتل النشاط الاقتصادى المزدهر فى معظم أقطار الوطن العربى . ففى مصر مثلا نقل السلطان سليم الأول الى العاصمة العثمانية عند رحيله من مصر عام ١٥١٨ م أكثر ما فى القلعة وما فى منازل السلاطين والأمراء من الذخائر والنفائس والكتب ، كما أخـــذ ما كان من ذلك فى المساجد والأربطـــة والزوايا ، حتى أعمدة الرخام» (٢) ولقد ذكر الجبرتى أنه فقد من مصر نيف وخمسون صنعة .

ثانيا : يعتقد بعض المؤرخين أن السيطرة العثمانية على أقطـــار الوطن العربى قد وقفت أمام خطر الصفويين الشـــيعة للسيطرة على العـــالم العربى السنى خاصة وأن الشاه اسماعيل الصفوى غزا العراق

---

(٢) محمود الشرقاوى مصر فى القرن الثامن عشر ص ١٠ .

عام ١٥٠٨ م بحجة ضم مزارات الشيعة فى النجف الأشرف وكربلاء وهى الأماكن التى لها تقدير واحترام كبيرين عند الشيعة فى كل أنحاء العالم الاسلامى • ونحن نتفق مع هذا الرأى حيث أن الصفويين استمالوا بعض الرعايا العثمانيين فى الأناضول لاعتناق مذهب شيعى فوضوى عرف باسم « قزل باش » أى الرأس الأحمر ، كخطوة للقضاء على المذهب السنى فى الدولة العثمانية ، ولا نستبعد أنه اذا نجح الصفويون فى ذلك بنشر مذهبهم فى الدولة العثمانية وسيطروا عليها أن يتجهوا الى الشام ومصر لفرض سيطرتهم ومذهبهم عليها •

ثالثا : استطاع العثمانيون وقف توغل البرتغاليين فى البحار العربية فى البحر الأحمر والخليج العربى بعد أن عجز المماليك وحلفاؤهم العرب من المغاربة وغيرهم عن الوقوف أمام تهديدات البرتغال لأقطار الوطن العربى ، فكما علمنا انهزم التحالف المملوكى العربى أمام البرتغاليين فى ديو أمام بومباى عام ١٥٠٩م • ولكن يجب أن ندرك أن العثمانيين لم يستطيعوا طرد البرتغاليين من المنطقة العربية ، ويجب أن ندرك أيضا أن العثمانيين بوقفتهم هذه أمام البرتغاليين قد فرضوا حمايتهم على أقطار الوطن العربى ضد الأطماع الاستعمارية الأوروبية حتى أواخر القرن الثامن عشر عندما بدأ الضعف يدب فى كيان الدولة العثمانية ذاتها •

رابعا : استطاع العثمانيون ملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردوهم من ليبيا عام ١٥٥١ م بعد أن سبق لهم أن طردوهم من جزيرة رودس التى انتقلوا اليها بعد طردهم من فلسطين على زمن سلاطين المماليك فى مصر والشام ، كما استطاع العثمانيون كسر شركة الأسبان فى حوض البحر المتوسط الغربى • وفرضوا حمايتهم على أقطار الوطن العربى فى الشمال الأفريقى ووقفوا ضد تهديدات الأسبان وفرسان القديس يوحنا للأقطار العربية فى شمال أفريقيا •

خامسا : فرضت الدولة العثمانية أثناء صدامها مع البرتغاليين حول مداخل البحار العربية تقليدا جديدا يقضى بمنع دخول المراكب

المسيحية فى البحر الأحمر بحجة أنه يطل على الأماكن المقدسة للمسلمين فى الحجاز . وهو التقليد الذى ظلت الدولة العثمانية متمسكة به حتى أواخر القرن الثامن عشر[٣] . وهذا التقليد قد أفاد أقطار الوطن العربى ومنع الدول الاستعمارية الأوروبية من تحقيق أطماعها فى العالم العربى .

سادسا : استفادت شعوب الأمة العربية الاسلامية من الحكم العثمانى المسلم فى تقوية الحياة الدينية الاسلامية . وذلك أن الحكام الأتراك حافظوا على مشاركة الشعوب العربية الاسلامية فى الاحتفالات الدينية ومراعاة الشرائع الاسلامية وكل ذلك انعكس على تأكيد القيم والمبادىء الدينية فى نفوس العرب المسلمين .

وكان الاتصال بين العرب فى موسم الحج أو التعليم بالجامع الأزهر وغيره من المساجد التى أدت دورا دينيا وتعليميا من عوامل ترابط العرب المسلمين واتصالهم الوثيق بعضهم ببعض وتأصيل القيم الدينية فى نفوسهم خاصة أن التعليم كان جوهره دينيا ، وكان يؤدى وظيفة اجتماعية بما يضفيه على المتعلم من مركز أدبى واجتماعى ومادى . وبقى مثلا فى مصر « نفوذ العلماء لدى السلطات الحاكمة التركية المملوكية واقبال هذه السلطات على تشجيع العلماء من رصد أوقاف معينة على بعض المعاهد وحضور الكثير من الأمراء والمماليك دروس العلماء فى المدارس والمجالس الخاصة . ومنحهم الهدايا والمنح للعلماء من وقت لآخر . كذلك كان السلطان العثمانى يهدى رجال الأزهر الكثير من الهدايا أو يأمر بمرتبات تصرف من الضربخانة — دار سك النقود — وكان يجارى السلطان العثمانى فى ذلك سلطان المغرب ولا سيما السلطان محمد فى القرن الثامن عشر »[٤] .

سابعا : استفادت أقطار الوطن العربى من سياسة الدول الأوروبية وعلى رأسها انجلترا الداعية الى المحافظة على الدولة العثمانية

(٣) د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٢٨ .

(٤) د. محمد أنيس : ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة جـ ٣ ص ١١٠٨ .

وممتلكاتها حتى القرن التاسع عشر ومن ثم تمتعت أقطار الوطن العربى بالحماية العثمانية ، وان كنا يجب أن ننبه الى أن هذه الحماية كان ثمنها عزلة الشعوب العربية عن التيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى أوروبا .

ثامنا : استفادت الشعوب العربية من كون الحكم العثمانى للأقطار العربية كان حكما غير مباشر ، حيث لم يتدخل العثمانيون لتغيير البناء الاجتماعى والاقتصادى السائد فى العالم العربى قبل القرن السادس عشر ، ومن ثم احتفظ العرب تحت الحكم العثمانى بمؤسساتهم السابقة ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم . وليس أدل على ذلك أن العثمانيين أبقوا على التقسيم الشائع فى المجتمعات العربية الاسلامية الى طبقات : رجال السيف ، ورجال القلم ، والتجار ، وأصحاب الحرف ، وأهل الذمة ، والعبيد . كما أبقوا على انتظام أصحاب الحرف فى طوائف لكل منها شيخ ينظم شئون العاملين فيها ويكون حلقة الاتصال بينهم وبين رجال الحكومة . ونتيجة للحكم العثمانى غير المباشر ، ونتيجة لبقاء التراث العربى بعيدا عن تدخل التنظيمات العثمانية ، فقد استفاد العرب فى بقاء الفكرة القومية ومقوماتها فى نفوسهم الى أن تهيأت لها الظروف فى أوائل القرن العشرين لتنطلق الىمجال الاعلانوالتحرك نحو الوجود والتحقيق.

سلبيات نظام الحكم العثمانى

يمكن لنا تحديد التأثيرات السلبية للحكم العثمانى على أقطار الوطن العربى فى النقاط التالية : ــ

أولا : فهم العثمانيين لوظائف الدولة ومسئولياتها نحو رعاياها ، ذلك أن هذا الفهم كان يقوم على أن مهمة الدولة ومسئولياتها تتمثل فى ثلاثة أمور فقط هى :

١ ــ الدفاع عن الولايات ضد أية اعتداءات خارجية ، وهذا يستلزم وجود قوات عثمانية تدافع عن البلاد أو تشارك فى مهاجمة الدول المعادية للسلطنة كما تحافظ على الأمن والنظام فى البلاد ،

فمهمتها عسكرية بوليسية فى آن واحد لكى تضمن بقاء الولايات تدين بالتبعية للسلطنة العثمانية . وبطبيعة الحال فالقوات التى وجدت بالولايات العربية لم تكن عربية بل كانت عثمانية بتشكيلاتها مما أفقد المواطنين العرب الاحساس بقدرتهم على حماية بلادهم والدفاع عنها .

٢ ــ تحصيل الأموال الأميرية (الضرائب) على تنوعها . ثم توزيعها على وجوهها المختلفة عن طريق ادارة مالية . وأهم وجوه انفاق هذه الأموال هو ارسال الجزية السنوية للسلطان التى تعرف بالميرى الى جانب الهدايا السنوية وفى المناسبات المتعددة كمناسبة صدور فرمان بالولاية أو انعام سلطانى بلقب .. الخ ولم يكن ذلك يتطلب أكثر من الاشراف على الموظفين الذين يجمعون الضرائب والملتزمين ولا يهم ما يقع على الرعايا من ظلم أو اجحاف .

٣ ــ الفصل فى الخصومات بين الناس ، وهذا يستلزم من الدولة اقامة نظام قضائى حسب ما تقضى به الشريعة الاسلامية ، وهذا أمر له أهمية عند السلطان العثمانى باعتباره خليفة المسلمين فى نفس الوقت .

ولم يكن فهم العثمانيين لوظائف الدولة ومسئولياتها يدرك أن هناك أمورا أخرى على درجة من الأهمية تدخل فى وظائف الدولة مثل التعليم والصحة والتنمية الاقتصادية والرعاية الاجتماعية ، ولذلك فقد تركت الدولة العثمانية هذه الأمور للافراد والهيئات تقوم بالصرف عليها باعتبارها خارجة عن مسئولياتها التى حددتها الأنظمة الموضوعية.

فاذا احتاج الناس الى تعليم أبنائهم عهدوا بهم الى بعض من يحسنونه أو قد لا يحسنونه ، واذا احتاجوا الى علاج من مرض بحثوا عنه عند بعض الأدعياء وأما الزراعة فتسير على مألوف ما اعتاده الفلاحون العرب الذين يخضعون للملتزمين ، فى الوقت الذى تركت فيه أمور الصناعة فى يد أصحاب الحرف ينظمونها فى طوائفهم ويتوارثون

العمل فيها خلفا عن سلف ، وأما التجارة فقد خضعت لتأثيرات الامتيازات التى منحت للاوروبيين فى الولايات العربية فى مجال التجارة وغيرها من المجالات • كل ذلك يجرى دون تدخل من الدولة العثمانية لترسم سياسة ، بل ان ترك هذه المجالات قد أدى الى حدوث أنهيار اقتصادى وفوضى سياسية وتأخر اجتماعى وعزلة ثقافية حلت بالوطن العربى •

ثانيا : نظرة العثمانيين الى المجتمع وتقسيمه الى طبقتين متميزتين هما :

١ ــ الطبقة الحاكمة التركية التى كونت داخل مجتمعات أقطار الوطن العربى أرستقراطية حاكمة منعزلة عن بقية أجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها واحساسها بذاتيها ، وكانت هذه الطبقة التركية تستمد كيانها من القوة العثمانية ، وكانت حريصة على عدم الاختلاط بالشعوب العربية باعتبارهم ــ العرب ــ أدنى مرتبة ووظيفتهم خدمة الطبقة الحاكمة •

٢ ــ الرعايا العرب فى بلادهم الخاضعة للحكم العثمانى بتصوراته وفهمه • وعلى الرعايا خدمة الحكام ومدهم بما يحتاجون اليه ، كما كان على الرعايا تنظيم أمورهم الحياتية حسب مألوف ما اعتادوه قبل مجىء العثمانيين ، فاستمرت الطوائف الحرفية تؤدى دورها المعتاد تحت اشراف مشايخ الطوائف ، وبقيت الطوائف الاجتماعية بمكانتها دون تدخل العثمانيين كأهل الذمة ، وأصحاب القلم أى العلماء • وغيرهم ••

ولا شك أن هذه النظرة العثمانية القاصرة نحو تقسيم المجتمع قد تركت تأثيرات سلبية على المجتمعات العربية أدت الى عدم شعور المواطن العربى بالولاء للدولة العثمانية بل أحس كل مواطن بولائه لوطنه وقطره العربى الذى ولد فيه ، ولعل هذه التأثيرات السلبية تفسر لنا ضآلة الحكم العثمانى فى أقطار الوطن العربى رغم السنوات الطويلة التى خضعت فيها الأقطار العربية للحكم العثمانى •

« وهنا تبدو الفروق واضحة بين سياسة العثمانيين وبين سياسة العرب حين انطلقوا من قلب الجزيرة العربية فى موجات بشرية متلاحقة ، فاتحين مبشرين برسالة الاسلام والعروبة فقد اقترب العرب من سكان البلاد الأصليين منذ نهاية القرن الثانى ومطلع القرن الثالث للهجرة » (٥) .

ثالثا : الشك وعم الثقة فى ممثلى السلطة العثمانية فى الولايات العربية ، وكانت نتيجة ذلك أن الوالى وهو الذى ينوب عن السلطان فى حكم الولاية والذى كان يشعر بالشك فى تصرفاته ويخضع لرقابة من قوى عثمانية أخرى فى الولاية كقادة الفرق العثمانية المعروفة بالأوجاقات ، والكتخدا وهو وكيل الوالى ، الى جانب ما سارت عليه التنظيمات العثمانية من تقصير مدة حكم الوالى خوفا من استقلاله بالولاية ، وعدم جمع السلطتين المدنية والعسكرية فى يده ، وجعل تعيين القاضى والكتخدا بل والدفتردار المسئول عن الأمور المالية فى يد السلطان لا فى يد الوالى .. كل ذلك يجعل الوالى يشعر بعدم الاستقرار وعدم الاطمئنان لبقائه فى الولاية فلا يرتبط بولايته ولا بمشروعات يفكر فى انجازها فى الولاية ، وانما ينحصر تفكيره فى جمع أكبر قدر من الأموال لنفسه يحتفظ بها عند عزله من منصبه .

ثم ان عدم الثقة فى الوالى أدت الى تقسيم السلطة بينه وبين قادة الفرق العثمانية والعصبيات المحلية ، مما أدى الى التشاحن والخلافات بين أطراف السلطة الثلاث وبالتالى تحملت الشعوب العربية نتائج هذه العلاقات .

رابعا : الرجعية وعدم التجديد ، وكانت السياسة التى جرى عليها الحكم العثمانى فى البلاد العربية ذلك أننا رأينا الحكم العثمانى يبقى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة فى المجتمعات العربية كما كانت قبل الغزو العثمانى للاقطار العربية ، بل أننا نرى

---

(٥) د. عبد العزيز الشناوى : من ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة جـ ٦ ص ٦٦٨ .

أن مجمــوعة القوانين التى وضعت فى عهــد سلاطين آل عثمان الأول سليم وسليمان قد بقيت نافذة المفعول وأساسا سار عليــه السلاطين الذين خلفوا أصحاب القوانين وواضعيها وهــذا دليل على أن الدولة العثمانية لم تكن ترحب كثيرا بأى تجديد فى نظم الحكم السائدة أو فى عادات الناس وتنظيماتهم الاجتماعية ..

وإذا كانت المجتمعات العربية قد استفادت من السياسة الرجعية العثمانية فى أنها حافظت على التراث العربى ، الا أن هذه السياسة قد أدت مع طول المدة التى بقيت فيها المجتمعات العربية تحت السيطرة العثمانية الى تخلف الأقطار العربية فكريا واقتصاديا واجتماعيا الى جانب التخلف السياسى ..

خامسا : الطابع العسكرى للحكم العثمانى فى الأقطار العربية ، الذى تمثل فى اعتبار الجيش العثمانى أداة للحرب وأداة للحكم معا ، باعتبار أن الجيش العثمانى غزا وسيطر وفتح أقطار الوطن العربى ، ومن ثم يتفرع منه أداة الحكم فى الولايات .. ولا شك أن ذلك لــه تأثيره السلبى الخطير على الجيش نفسه الذى يبتعد بذلك عن وظيفته الأصلية وهى الدفاع عن البلاد ، وعلى العرب الذين يخضعون لحــكم عسكرى يبعدهم عن حياتهم المدنية ويقاسون خشونة وغلظة الحــكام العسكريين الأتراك .

سادسا : سوء الادارة العثمانية التى تجلت فى الاهتمام بالمدن والبلاد الواقعة على سواحل البحار والطرق الرئيسية دون الاهتمام بالمناطق الصحراوية والريفية والنائية من أقطار الوطن العربى ، رغم أن هذه المناطق تمثل الجانب الأكبر من الأقطار العربية ، وتركها العثمانيون فى يد رؤساء القبائل والعائلات يدبرون أمرها بما تعودوه من أساليب الحرب القبلية ، ولا عجب فى ذلك فقد كان العثمانيون يهتمون بالأقطار العربية التى تدر عليهم أموالا أكثر من غيرها ، فقد كان اهتمامهم بمصر مثلا أكثر بكثير من اهتمامهم بليبيا أو اليمن .

سابعا : اعطاء الأوروبيين امتيازات اقتصادية وثقافية ودينية فى الأقطار العربية ، مما أدى الى فتح الأقطار العربية للنفوذ الاستعمارى الأوربى الذى مارس نشاطه التجارى والتعليمى فى ظلّ هذه الامتيازات بانشاء البنوك والوكالات التجارية والمدارس والكنائس ، والادعاء برعاية المسيحيين ، مما كان له أثره الخطير على أقطار الوطن العربى أدى فى النهاية الى تحقيق الأطماع الاستعمارية الأوروبية عندما حانت الفرصة بضعف الدولة العثمانية وتفككها ..

ثامنا : فرض العزلة على الوطن العربى ، وحرمان الشعوب العربية من الاتصال بالحضارة الأوروبية الناهضة بدعوى الخوف على الأقطار العربية من أطماع الدول الأوروبية الاستعمارية ، واذا كانت الأقطار العربية قد استفادت حقيقة ببقائها بعيدة عن أطماع الدول الأوروبية قرابة ثلاثة قرون تحت الحكم العثمانى أى الى أواخر القرن الثامن عشر ، فان العزلة التى عاشتها الأقطار العربية قد جعلتها تتخلف مئات من السنين عن الأقطار الأوروبية الناهضة بل وسلبتها ثقتها فى نفسها وفى قدرتها على استعادة مجدها الأول كدولة موحدة كبرى فى منطقة الشرق الأوسط سبقت حضاراتها المزدهرة الحضارة الأوروبية الناهضة فى القرن التاسع عشر ، ومع ذلك فالقطر الذى تهيأت له فرصة يكسر فيها نطاق العزلة المفروضة عليه استطاع أن يبنى نفسه فى المجالات المختلفة على أسس حديثة ، ومصر فى مطلع القرن التاسع عشر على يد محمد على خير دليل على ذلك .

« وقد ساعد على سلبية الحكم العثمانى فى المجتمعات العربية أن العثمانيين لم يكن لهم رصيد حضارى يقدموه للحياة العلمية فى مصر — وفى غيرها من الولايات العربية — فلم يتعلم المصريون — وغيرهم من العرب — اللغة التركية ، ولم يدخلوا اللغة التركية فى الكتاتيب »[٦] .

---

(٦) د. محمد انيس : ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ج ٣ ص ١١٠٧ .

الباب الثانى

الحـركات الاسـتقلالية

فى

الوطن العربى

مقدمة

أختلف المؤرخون حول أسباب وطبيعة الحركات الاستقلالية التى قامت هنا وهناك فى أنحاء الوطن العربى ، وأختلفوا حول تسميتها هل هى حركات انفصالية تسعى الى اعلان الاستقلال الكامل عن الدولة العثمانية ام أنها مجرد رغبة للحكم الذاتى فى ظل السيادة العثمانية .

فيذكر بعض المؤرخين أن أسباب هذه الحركات انما ترجع الى ظلم الأتراك وثقل وطأة الحكم التركى ورجاله على الشعوب العربيـــة مما دفع بالبعض الى استغلال ضيق الشعوب العربية واظهار الرغبة فى التصدى للمظالم الواقعة على الشعوب العربيـــة من أجل مساندته لارتقاء كرسى الولاية ..

ويذكر البعض الآخر أن أسباب هذه الحركات الاستقلالية انمـــا هى راجعة أصلا الى نزعات فردية ومطامع شخصية تتصـــل برغبـــة أصحابها فى السيطرة على سلطة كاملة تحقق له أملا أو حلما راوده منذ صغره كما فى حالة المماليك ..

وأما عن طبيعة هذه الحركات فيذكر البعض أنها كانت تركية رغم قيامها فى ولايات عربية بأعتبار أن معظم القائمين بها أتراك يعملون فى خدمة الدولة العثمانية وطمعوا فى حكم وراثى طويل ، بينما يذكر بعض المؤرخين أنه مع التسليم بذلك فانه كانت هناك حركات عربية كثورات القبائل العربية فى الولايات العربية ضد الحكم التركى وثورات دروز لبنان كالأمير المعنى فخر الدين بجبل لبنان ، وحركة الشيخ ظاهر العمر فى جنوب سوريا ، وهذا فى نظرهم دليل على حيوية الشعب العربى وعدم استسلامه لسلبيات الحكم العثمانى .

والرأى عندى أنه لا يمنع أن تكون الحركات الاستقلالية فى الوطن العربى ترجع الى وجود نزعات شخصية ومطـــامع فردية عند بعض

الموظفين الأتراك فى الأقطار العربية ، وترجع أيضـا الى فساد أنظمة الحكم العثمانى بصفة خاصة فى القرن الثامن عشر الذى شهد انهيارا للتوازن الذى حرص على وجوده السلطان سليمان القانونى فى تشريعات الحكم بين الوالى من ناحية والعصبيات المحلية والأوجاقات العثمانية من ناحية أخرى ..

كما أننا نؤيد الرأى القائل بأنه رغم ثورات القبائل العربية وظهور زعامات عربية كالشيخ ظاهر العمر والأمير فخر الدين المعنى وغيرهما فان قادة أغلب الحركات الاستقلالية كانوا من العنصر التركى الراغبين فى حكم ذاتى وراثى فى أسراتهم تحت السيادة العثمانية ، وهذا ما جعل الشعوب العربية لا تعضد هذه الحركات بل طالبت السلطان العثمانى عندما فسدت الأمور فى ظل الحركات بعزل أصحابها ، كما سنرى فى ليبيا فى ظل حكم الأسرة القرمانلية .

ولم تكن سياسة الدولة العثمانية حيال هذه الحركات سوى تعبير عن الأفلاس الذى أصاب الحكم العثمانى ، فكانت تلجـأ الى ارسال الحملات العسكرية للقضاء على ثورات القبائل العربية ، واذا فشلت فى ذلك لجأت الى سياسة تغيير الباشوات أو تضطر الى تثبيت الباشا لمدة طويلة وتقبل حكم أسرته وراثيا اذا أثبت أفراد الأسرة طاعة وخضوعا وقدموا الأموال اللازمة للسلطان ورجال دولته ..

ونتيجة لذلك قامت أسرة حاكمة فى بعض الولايات العربية مثل حكم الأسرة القرمانلية فى ايالة طرابلس الغرب (ليبيا) ، وحكم آل العظم فى الشام وحكم أسرة حسن باشـا والمماليك فى العراق ، وحكم أسرة محمد على فى مصر وحكم الأسرة الحسينية فى تونس .

كما قامت حـركات فردية متعددة تحمـل مشروعات ذات طابع انفصالى عن الدولة العثمانية مثل حركة الأمير فخر الدين المعنى الدرزى بجبل لبنان ، وحركة الشيخ ظاهر العمر فى فلسطين وجنوب سوريا ، وحركة على بك الكبير فى مصر .

وهذه أمثلة للحركات الاستقلالية فى أقطار الوطن العربى تحت الحكم العثمانى نسوقها لنتعرف من خلالها على تاريخ هـذه الأقطار الخاضعة للسيادة العثمانية ، وسـوف نسوقها حسب ترتيب حدوثها زمنيا ، ولكن يجب أن نلاحظ أن معظم هذه الحركات حدثت فى القرن الثامن عشر وهو القرن الذى شهد أنهيار التنظيمات العثمانية بصورة أفضت الى حدوث مثل هذه الحركات .

الفصل الثالث

الأسـرة المعنيـة فى لبنـان

* لبنـــان .
* الأمير فخر الدين الأول .
* الأمير فخر الدين الثانى .
* الأسرة الشهابية .
* لبنان بعد الشهابيين .

لبنـــان

لبنان ذلك القطر العربى المستقل تحت اسم الجمهورية اللبنانية الآن كان عند الزحف العثمانى على أقطار الوطن العربى عبارة عن قضاء من أقضية بلاد الشام ، وقد قسم الحكم العثمانى بلاد الشام الى ثلاث باشويات هى :

١ ــ باشوية الشام ومقرها دمشق وتضم معظم بلاد الشام .

٢ ــ باشوية حلب وتشمل شمال سوريا .

٣ ــ باشوية طرابلس (فى لبنان) وتشمل الساحل .

ولبنان له وضع جغرافى وتاريخى خاص ، ذلك أن ثلثى أراضيه عبارة عن جبال عالية بينها وديان تتصف بالعمق والضيق ، كما أن السهول الواقعة بين الجبال نجدها محدودة الامتداد فى الغرب حيث تكاد الجبال أن تصل الى مياه البحر المتوسط ، فيما عدا سهل البقاع الخصيب الذى يفصله عن البحر جبال عالية تجعل الأمطار التى تسقط عليه قايلة الى حد ما .

وعلى هذا نجد أن الجبال والوديان التى تتخللها حيث تكثر الأمطار ذات موارد أكثر من السهول الداخلية ، وينتج عن ذلك تركز السكان حيث تتوفر الموارد ، على أن الشرائط الطبيعية وحدها لا تكفى لتعليل التكاثف البشرى الشديد فى الجبال اللبنانية ، بل هناك الأسباب التاريخية والطائفية التى حملت الدروز والموارنة على الاعتصام بالمرتفعات الأمينة حفاظا على كيانهم[١] .

وسكان لبنان لهم وضعهم الخاص من حيث تركيبهم الاجتماعى والدينى الا أن فكرة العروبة عندهم تتجلى فى منازع الشعب ومشاعره أكثر ما تتجلى فى النصوص التشريعية والأحكام الدستورية ، ان ايمان

(١) د. عزة النص : احوال السكان فى العالم العربى ص ٥٦ .

الشعب اللبنانى بثقافته العربية وحرصه على القيام بواجباته نحو اخوانه فى الأقطار العربية لا يقلان عن ايمانه بالحقيقة اللبنانية[٢] •

واذا كان العثمانيون قد استولوا على لبنان عام ١٥١٦ م بالاضافة الى المناطق الجبلية من سوريا وفلسطين ، فان وضع لبنان الخاص كان يستدعى من الدولة العثمانية تعاملا خاصا ، ذلك أنه كان هناك تركيب اجتماعى يقسم السكان الى قيسية ويمنية ، وتركيب دينى يقسمهم الى مسلمين ومسيحيين ، بل كان التقسيم الدينى أكثر تفصيلا فوجدنا بين المسلمين ، سنة وشيعة ودروزا يحاولون الانتساب للمسلمين ، ووجدنا بين المسيحيين موارنة كاثوليك وأرثوذكس وغيرهم ، واذا كان الحكم العثمانى لم يفهم طبيعة الشعب فى لبنان ومن ثم جهل بكيفية حكمه الحكم السليم فلا عجب أن نرى لبنان يكون أول قطر عربى يثور ضد الحكم العثمانى بعد أن تم فتح الأقطار العربية وخضوعها للدولة العثمانية •

الأمير فخـــر الدين الأول

عهد السلطان سليم الأول العثمانى بأمر لبنان والمناطق الجبلية فى سوريا وفلسطين الى الأمير فخر الدين المعنى الدرزى الأول الذى ينتمى الى الأسرة المعنية — من الدروز فى لبنان — مقابل أن يعترف هذا الأمير بالسيادة العثمانية ويقدم للدولة فى استانبول الجزية السنوية، ومعها دلائل خضوعه لها •

الا أن اشتطاط الدولة العثمانية فى طلباتها قد دفع الأمير فخر الدين الى أن يعلن العصيان ضد الدولة ويثير القبائل فى لبنان مما عجل بالصدام بين الدولة العثمانية التى هالها أن يخرج عن طاعتها حاكم معين من قبلها يحكم باسمها ويخضع لها وبين الأمير فخر الدين وقد ظل هذا الصراع بين الطرفين طويلا والحرب فيه سجال بين الجانبين حتى انتهت حياة الأمير عام ١٥٤٤ م فى بلاط باشا الشام بدمشق •

---

(٢) د. جميل صليبا : الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام ص ١٢ .

ولكن موت الأمير فخر الدين لم ينه الصراع بين الأسرة المعنية والدولة العثمانية اذ واصل ابنه قرقماس الكفاح ضد حملات التنكيل التركية التى أرسلت لابادة الدروز ومن والاهم من أهل لبنان ، ولكن قرقماس لقى حتفه عام ١٥٨٥ م مع كثيرين من زعماء لبنان وقادته أثناء حرب القوات التركية الكبيرة التى نزلت الى لبنان للتنكيل بأهله .

الأمير فخـــر الدين الثـــانى

لم يكن مقتل قرقماس فى ساحة المعركة ضد الأتراك نهاية للصراع بين الطرفين لأن ابنه فخر الدين الثانى تولى الزعامة من بعده ، وبالتالى واصل الصراع ضد الأتراك . وقد امتاز هذا الأمير بالحنكة السياسية ، فرغم أنه كان درزيا الا أنه كان يتقنع بقناع المسيحية أمام المسيحيين ، ويدعى الانتماء للمسلمين السنيين أمامهم وذلك لكســب ود كل هؤلاء وليستطيع تحقيق أهدافه .

بدأ الأمير فخر الدين الثانى زعامته عام ١٥٩٠ م فأخذ يبث عيونه فى الآستانة وعند كبار الزعماء وقصور الباشوات ، وذلك لكى يقف على أسرار الجميع ومن ثم يستطيع تدبير المؤامرات للتخلص من منافسيه ومعارضيه وليوقع الفرقة فى صفوف أعدائه ، وقد كانت صفاته هذه سببا فى أن اعتبره بعض المؤرخين تلميــذا مخلصا لمكيافيللى الأديب الايطالى صاحب كتاب الأمير .

ورغم أن الأمير فخر الدين الثانى كان قد شارك جان بلاط الكردى الثورة على الباب العالى منذ سنة ١٦٠٣ م ولكن الدولة لم تتعرض له حتى بعد هزيمة جان بلاط بل تركت اليه حكم البلاد الواقعة فى حوزته لقاء جزية سنوية يدفعها(٣) وكانت مهارته هى سبب موقف الباب العالى الودى منه ، ذلك أنه بعث للسلطان العثمانى بجزية ضخمة وأعلن أن كل ما يغتنمه فى حروبه سيتقاسمه مع الباب العالى فكانت النتيجة كما

---

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٥٣ .

رأينا موافقة السلطان على تعيينه واليا على جبال لبنان والمناطق الساحلية التابعة له وعلى قسم كبير من سوريا وفلسطين .

ولكن الامير فخر الدين الثانى لم يكن ليقبل الاستمرار فى الخضوع للدولة العثمانية وعول على طرح سيادتها عليه جانبا حتى ولو استدعى الأمر الى تحالفه مع الدول الأجنبية المسيحية ، لذلك وجدنا الأمير يشرع فى الثورة على تركيا عام ١٦١٣ م بعد أن أعد جيشا كبيرا وقوى حصون بلاده وتفاوض مع دوق تسكانيا الامارة الايطالية الذى عمرت نفسه روح المغامرة ويبغى فتح أسواق جديدة لتجارة فلورنسا[٤] ، كما تفاوض فخر الدين مع أسبانيا ومع بابا روما من أجل مساندته فى حربه ضد الدولة العثمانية .

وكان فخر الدين قد استولى على بعلبك عام ١٦١٠ وأخذ يهدد الشام بالاحتلال مما دفع العثمانيين الى ارسال حملة عسكرية كبيرة نزلت فى لبنان وأجبرت فخر الدين على الفرار من لبنان الى ايطاليا حيث مكث هناك خمس سنوات فى ضيافة كوسموس الأول بن فرديناند حاكم تسكانيا ، وأخذ وهو مقيم عنده يحثه على تكوين حملة صليبية جديدة لاحتلال فلسطين وطرد الأتراك من بلاد الشام ولكن كوسموس لم يبد تحمسا لهذا المشروع وقد أظهر فخر الدين أثناء مقامه فى تسكانيا من دلائل البذخ والظهور بمظهر الأثرياء جدا مما جعل النفوس تتأثر بشخصيته ومظهره .

وكان عداء الأمير فخر الدين الثانى لتركيا من الشدة بحيث أنه سعى الى تكوين حلف مع فرنسا والبابوية وفرسان القديس يوحنا فى مالطة وأسبانيا وفلورنسا فى ايطاليا للعمل ضد الدولة العثمانية ، الا أن الظروف الدولية لم تكن تسمح بتكوين هذا الحلف .

وكان الأمير فخر الدين الثانى قد حاول لكسب تأييد هذه القوى الأوروبية أن يظهر بمظهر الزعيم ، صاحب النفوذ الكبير الذى أتى لينال

---

(٤) نفس المرجع ونفس الصفحة ، وفلورنسا امارة ايطالية .

مســاعدة أوروبا المسيحية على استرداد البقــاع المقدسة فى مقابل مساعدته ــ خاصة فى البحر ــ على الاستقلال من حكم الترك . ولكن أوروبا المسيحية لم تتحمس للمشروع التحمس الكاف ، وخشى البابا أن لا يجدى المشروع الا فى اثارة غضب الترك ودفعهم الى الانتقام من رعاياهم المسيحيين[٥] ..

وفى عام ١٦١٨ م عاد الأمير فخر الدين الثانى الى لبنان بعد أن عفا عنه السلطان العثمانى الجديد عثمان الثانى ، ليجد أمه الحكيمة نسب فى أثناء غيبته استمرت تدافع عن بلاده باسم حفيده أحمد على ضد باشا دمشق[٦] . الا أن الأمير فخر الدين اعترف بالأمير الجديد ولكنه تولى العمل الفعلى فى الامارة حيث اندفع فى العمل على فرنجة بلاده وأخذ يعمل على تطوير اقتصادياتها ، وتنظيم بيروت بما يقربها من المدن الأوروبية ، واهتم بالتعليم وحرص على ارسال عدد من الشباب اللبنانيين للتعليم فى ايطاليا ، وشجع الأوربيين على دراسة اللغة العربية وآدابها .

ولم يكن الأمير فخر الدين الثانى ليقبل الخضوع للحكم العثمانى حتى ولو كان هذا الحكم صاحب الفضل عليه باعادته الى بلده ، ولذلك رأيناه يعلن راية الثورة ضد الدولة العثمانية مرة أخرى عام ١٦٣١ م وزحف الى أن استولى على الساحل السورى حتى مدينة أنطاكية . ورفض السماح لجيش من جيوش السلطان حشد لحرب فارس أن يقضى فصل الشتاء فى دياره وطرد هذا الجيش بقوة السلاح[٧] .

وفى عام ١٦٣٣ م أرسلت الدولة العثمانية قوات بحرية الى لبنان وكلفت باشوات الشام الزحف برا الى لبنان ضد الأمير فخر الدين وابنه الأمير على ، والتقى الطرفان فى ١٥ نوفمبر فى معــركة فاصلة دارت

---

(٥) د. احمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ص ٢٤١ .

(٦) كارل بروكلمان : نفس المرجع السابق . ص ٥٤ .

(٧) نفس المرجع ونفس الصفحة .

فيها الدائرة على المعنيين وقتل فيها الأمير على واستسلم بعدها الأمير فخر الدين الى العثمانيين فأرسل الى استانبول حيث أعدم عام ١٦٣٥ م وأما الأمارة المعنية فقد دمرت ونهبت ممتلكاته .

عادت السيطرة التركية كاملة على لبنان بعد انهيار امارة الأمير فخر الدين الثانى ، وحتى تحكم الدولة العثمانية سيطرتها على لبنان وعلى الدروز بصفة خاصة فان العثمانيين أنشـأوا عام ١٦٦٠ م ايالة رابعة تتكون من المناطق الساحلية التى كانت تابعة لايالة الشام ، ومهمة هذه الايالة الجديدة مراقبة دروز لبنـان والموارنة واخماد الثورة من جانبهم بالاستعانة بايالة طرابلس[٨] .

وكانت سيطرة الأتراك عنيفة على لبنان قضت على ما اجتهد فيه الأمير فخر الدين لاقامته فى امارته . فقد كان لبنان فى حكومة فخر الدين المعنى يتنسم حرية الحكم ريثما جاءت جيوش الترك[٩] . ولكن المقاومة استمرت ضد الأتراك طوال القرن السابع عشر ، واتسم الصراع بدخول فريق منافس للمعنيين فى لبنان ذلك أن الأسرة المعنيـة وتنسب الى القيسية وتلقبت بالحمرقادت الصراع ضد أسرة علم الدين اليمنية الملقبة بالبيض المؤيدين من الأتراك .

وحتى عام ١٦٩٧ م استمر الصراع بين الأسرتين القيسية واليمنية كانت الغلبة فى كثير من الأحيان للقيسية ، كان يستتبع تغلبها توطيد سلطتها فى لبنان واعادة مجدها القديم حتى اذا انقرضت الأسرة المعنية فى ذلك العام استمرت القيسية بزعامة أسرة درزية أخرى هى الأسرة الشهابية .

---

(٨) د. محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٥٤ .

(٩) د. زكى المحاسنى وآخرون : دراسـات فى النهضـة العربية الحديثة ص ٢٩٣ .

الأســـرة الشـــهابية

تسلم الأمير الدرزى بشير الشهابى الأول السلطة فى لبنان ولكنه ووجه عام ١٦٩٨م بثورة قام بها المتاولة الشيعة الذين يسكنون المنطقة الجبلية بين بحر الجليل وصيدا بزعامة شيخ يمنى ، ولكن الأمير الدرزى بشير الأول وكان من القيسية تحالف مع باشا صيدا وباشا طرابلس وأخضع ثورة المتاولة ، وعين الشيخ ظاهر فى صفد وهو ينتمى الى أسرة قيسية تدعى بنو زيدان[١٠] .

ولكن الصراع لم يتوقف بين الأسرة الشهابية وبين الدولة العثمانية التى كانت كثيرا ما تلجـأ فى صراعها الى استخدام اليمنيين فى هـذا الصراع ، واذا كان التحالف العثمانى اليمنى قد نجح عام ١٧١٠م فى الاطاحة بالأمير حيدر الشهابى ، فان الشهابيين لم يستسلموا وتمكنوا فى العام التالى من القضاء على كافة زعماء أسرة علم الدين اليمنية مما دفع الأتراك الى التخلى عن معاداة الأسرة الشهابية والتدخل فى شئون لبنان الداخلية لمدة طويلة .

حتى اذا تسلم القيادة بشير الثانى فى أواخر القرن الثامن عشر ١٧٩٥ م عمل على وضع جميع لبنان تحت سلطته ودخل فى صراع مع أحمد باشا الجزار حاكم عكا (ايالة صيدا) المنتصر على حملة نابليون عام ١٧٩٩ م ، ووقف الباب العالى مؤيدا لبشير الثانى ضد استفحال نفوذ أحمد الجزار ، ومنح بشير الثانى حكم مناطق البقـاع والجبل الشرقى وجبيل وصيدا ، وأصبحت تبعية بشير الثانى للسلطان العثمانى مباشرة بدلا من تبعيته لباشوية عكا وواليها الجزار .

وكان ذلك مثار خلاف وصراع بين الرجلين حتى توفى الجزار عام

---

(١٠) د. محمـــد انيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث المعاصر ص ٦١ .

١٨٠٤ م ، فاخذ بشير الثانى يعمل لاصلاح الأحوال فى لبنان ويضع السلطة كاملة فى يده بقوة مستخدما العنف والبطش بالانقساميين الطائفيين ، ورغم ذلك أتسم حكمه بطابع التقدم ، وجنى أثار النهضة الاقتصادية فى عهده بالعيش فى ترف تجلى فى قصره المسمى بيت الدين الذى يعتبر ذا شهرة معمارية فى لبنان .

وقد استطاع بشير الثانى بالخديعة حينا وبالحرب حينا وبالمهادنة حينا آخر أن يستقطب القوى المتنافرة فى لبنان ، فمع أنه كان درزيا بصفة رسمية ألا أن هذا لم يمنعه أن يظهر أمام الموارنة بأنه مسيحى وأن يدعى اعتناقه الديانة المسيحية حتى يضمن ولاء الموارنة وخضوعهم له فى ظل وحدة لبنان .

ومنذ عام ١٨٢٠م بدأت متاعب بشير الثانى بسبب مطالب باشا عكا الكثيرة التى دفعت اللبنانيين الى الثورة حتى هرب بشير الثانى الى مصر عام ١٨٢٢ م ، وكان هروبه سببا فى ظهور أسرة درزية أخرى برئاسة الشيخ جنبلاط ، حتى اذا نجح محمد على فى الحصول على عفو من السلطان العثمانى لبشير الثانى ، عاد الى لبنان كحليف لمحمد على عام ١٨٣١م وبقى الى ١٨٤٠ عندما غادر لبنان للمرة الأخيرة .

لبنـــان بعـــد الشهابيين

استمر لبنان يعيش جوا من الانقسامات والطائفية حتى ثارت فتنة دينية عام ١٨٥٧ م بين الدروز والموارنة كانت نتيجتها مذبحـــة لـــكلا الطرفين شملت صيدا وحاصبيا وراشيا ودير القمر وزحلة الى جانب عدد كبير من القرى المجاورة لبيروت ، وامتدت المذابح الى سوريا ، ويرجع المؤرخون هذه المذابح الى مؤامرات لعب فيها الدور الأول القنصل الفرنسى فى بيروت .

وكانت هذه المذابح دافعا لكى يعلن الامبراطور الفرنسى نابليون الثالث أنه سوف يتدخل لايقاف المذبحة بحجة أن فرنسا تحمى الموارنة الكاثوليك ، وبالفعل نزلت قوات فرنسية فى أواخر أغسطس ١٨٦٠م الى

ميناء بيروت ولكن بعد أن التزمت فرنسا أمام انجلترا وروسيا والنمسا وتركيا بأن الاحتلال مؤقت لن يتجاوز ستة أشهر ولن يزيد عدد الجيش الفرنسى عن ١٢ ألف جندى ، وظل هذا الجيش حتى ٥ يونيو ١٨٦١ م عندما جلا عن لبنان تحت ضغط الدول الأوروبية .

ونتيجة لهذه المذابح وتداخل الدول فى أمور لبنان فقد وضعت لجنة دولية فى يونيو ١٨٦١م نظاما أساسيا جديدا لحكم لبنان جعل بمقتضاه جبل لبنان منطقة تحكم حكما ذاتيا تحت رئاسة حاكم مسيحى يخضع للباب العالى مباشرة ، وبالتالى يختاره السلطان العثمانى ويعينه وعرف باسم المتصرف يساعده مجلس ادارى مكون من ١٢ عضوا عضوان من كل طائفة من الطوائف الدينية الكبيرة الست هى : الدروز ، المارونيين ، السنيين ، الشيعة ، الروم الأرثوذكس ، الروم الكاثوليك .

وقد اعتبر النظام الأساسى منذ عام ١٨٦٤م وحتى عام ١٩١٤ م دستورا دائما بعد أن صادقت عليه الدول الكبرى وهى انجلترا والنمسا وروسيا وتركيا ، فى عام ١٨٦٤ م ، وان كانت عدة تعديلات طفيفة قد أدخلت عليه كانشاء منطقة مارونية أخرى وتعديل عدد ممثلى الطوائف فى المجلس الادارى المعاون للمتصرف .

الفصل الرابع

اسرة حسن باشا والمماليك

فى العراق

* أحوال العراق منذ الفتح العثمانى .
* اسرة حسن باشا .
* العلاقات بين المماليك والدول الأجنبية .
* العراق بعد حكم المماليك .

احـــوال العراق منـــذ الفتـــح العثمانى

كان العراق قد سقط فى يد الصـفويين[1] عام ١٥٠٨م وهم شيعة . وصادف هذا تطلع العثمانيين الى الشرق بعد أن اتسعت فتوحاتهم فى الغرب ــ فى أوروبا عبر البلقان ــ ووصلت الى مداها ، ومن هنا حدث الصدام بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة على أرض العراق عام ١٥١٤م ، وكانت العراق بذلك أول قطر عربى تدخله القوات العثمانية غـــازية .

وكان سقوط العراق فى يد الصفويين على يد زعيمهم الشاه اسماعيل الصفوى الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة فى ايران والذى استمر فى الحكم من ١٥٠٠ الى ١٥٢٤ م . ويذكر بعض المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ البريطانى توينبى Toynbee أن الشاه اسماعيل الصفوى مسئول عن تحول العثمانيين فى فتوحاتهم نحو الأقطار العربية وهو التحول الذى أدى الى صـــدام بين الصفويين الشـــيعة والعثمانيين السنة ، وذلك بمحاولات اسماعيل اثارة العثمانيين بشتى الطرق .

ورغم انتصار القوات العثمانية بقيادة سليم على القوات الصفوية بقيادة اسماعيل فى سهل جالديوان عام ١٥١٤ ودخول السلطان سليم الى العاصمة الصفوية تبريز واستيلائه على أموال وكنوز الشاه ونسائه ، فان هذا الانتصار لم ينه العداء بين الفريقين ، بل استمر طويلا وكان

---

(١) ينتسب الصفويون الى الشيخ صفى الدين صاحب طريقة صوفية فى اردبيل باذربيجان من بين عدة طرق صوفية انتشرت هناك اثناء الاضطراب الذى عم ايران والعراق عقب سقوط دولة المغول الكبرى . وقد اصبح لهذه الحركة قوات عسكرية تتخذ لباســا للراس عبارة عن تاج احمر ذا اثنى عشر ذؤابة كناية عن الاثنى عشر اماما ، ولهذا اطلق عليهم العثمانيون « قزل باش » اى الرءوس الحمراء د. محمد انيس .

العراق ميدانا للصراع والمعارك بين الطرفين ، مما جعل العراق موزعا توزيعا متوازنا بين السنة والشيعة .

ورغم حملة سليم لم يخضع العراق كله للحكم العثمانى ، بل خضع شماله فقط فى الموصل ودياربكر ، وحتى فى هذه المناطق لم يكن الحكم العثمانى مستقرا كل الاستقرار . أما العراق الأوسط والجنوبى فقد ظل فى يد الايرانيين ،[٣] وكان هذا الانقسام من أسباب استمرار الصراع بين الأتراك العثمانيين والصفويين ، واستفاد المغامرون وقبائل الأكراد وحكام الولايات التركية المجاورة للدولتين من هذا الصراع لمصالحهم الشخصية ، وفى عام ١٥٣٣ قاد السلطان سليمان العثمانى حملة عسكرية استولى فيها على بغداد وانضمت البصرة آنذاك الى العثمانيين طواعية ؛ وبذلك أصبح العراق كله تقريبا خاضعا للدولة العثمانية حتى عام ١٦٣٣ عندما أعاد الصفويون الكرة واستولوا عليه وبقوا به لمدة خمس سنوات الى أن قاد السلطان العثمانى مراد حملة عسكرية عام ١٦٣٨ استولى بها على العراق واعاده الى حظيرة الدولة العثمانية .

ولم تكن حملة مراد على العراق آخر مراحل الصراع بين الايرانيين والعثمانيين حول العراق ، اذ أنه بعد سقوط الأسرة الصفوية فى ايران على يد نادر شاه عام ١٧٣٣م حاول هذا الشاه الجديد الاستيلاء على العراق ولكنه فشل ، ثم أعاد الكرة من عام ١٧٤٣ الى عام ١٧٤٧م عندما توفى نادر شاه ، وعقدت بين ايران وتركيا معاهدة حددت الحدود التقليدية بين الدلتين مع دخول العراق فى حوزة الدولة العثمانية ، وبهذه المعاهدة أنتهت فترة الصراع الطويلة بين الايرانيين والعثمانيين والتى كان العراق ميدانها .

مما يجب الاشارة اليه أن البصرة كان لها وضع خاص ، فقد ، استولى عليها الفرس — الصفويون — أولا فى سنة ١٦٩٧ ثم تركوها

---

(٣) د. محمــد انيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٣٨ .

بعد عامين ، ثم أغار عليها نادر شاه عام ١٧٤٣ م ثم ارتد عنها[٣] ، وكانت البصرة بحكم موقعها على شط العرب على رأس الخليج مصدر اهتمام الدول الأوروبية ، وقد استفادت العشـــائر العربية هناك من الاهتمام الى جانب استفادتها من الصراع الايرانى العثمانى •

اســـرة حســـن باشـــا

وفى ظل الصراع الايرانى العثمانى حول العراق كانت حاجة الدولة العثمانية الى اقرار الأمور فى العراق دافعا لكى تظهر أسرة حاكمة تحكم العراق منذ أوائل القرن الثامن عشر وأستمر حتى عام ١٨٣١م • هذه الأسرة هى أسرة حسن باشا الذى تعين فى عام ١٧٠٤م ، وقد نجح حسن « فى اخضاع القبائل العربية المنفردة حتى لم يعد فى استطاعة الباب العالى أن يستغنى عن خدماته »[٤] •

ظل حسن باشا فى الحكم متخذا من بغداد مقرا له ونادرا ما كانت كل أقاليم العراق تخضع لحكمه ، اذ كانت الموصل والبصرة كثيرا ما يعلن حكامهما عدم خضوعهما لباشوية بغداد ، وبقى حسن باشا فى الحكم حتى عام ١٧٣٤ م حيث خلفه أبنه أحمد فى الباشوية •

وكان حسن باشا ومن بعـــده أبنه أحمد قد نجحا فى البقـــاء فى الباشوية بسبب تكوين قوة عسكرية من المماليك تحت امرة كل منهما ، وكان لهؤلاء المماليك منزلة كبيرة عند حسن باشا وأحمد باشا بسبب دورهم فى القضاء على الثورات المستمرة للقبائل العربية ، مما دفع أحمد باشا الى اتخاذ قائد الفرقة المملوكية كتخدا له ـــ أى وكيلا أو نائبا ـــ وزوجه من أبنته ويدعى سليمان أغا •

وعندما توفى أحمد باشا عام ١٧٤٧م وكان سليمان أغا يقوم بحملة عسكرية فى البصرة حاولت الدولة العثمانية انهاء حكم هذه الأسرة واعادة

---

(٣) د. احمد عزت عبد الكريم : دراسات فى النهضة العربية الحديثة ص ٢٣٠ •

(٤) د. محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٥٠ .

العراق الى الحكم العثمانى المباشر ولـكن جند الانكشارية فى بغداد رفضوا قبول الباشا الجديد الذى أرسله السلطان العثمانى • وزحف سليمان أغا من البصرة ودخل بغداد بالقوة وأعلن أنه الباشا الشرعى ، وطلب من السلطان العثمانى اصدار فرمان بذلك ، وقد ساعده على بلوغ هدفه تقديمه الهدايا وحاجة الدولة العثمانية الى استمرار استقرار الأمور فى العراق على الحدود مع ايران فى نفس الوقت الذى كانت قد عقدت فيه معاهدة بين ايران وتركيا لأنهاء النزاع بينهما •

وبصدور فرمان من السلطان العثمانى بولاية سليمان أغـا عام ١٧٤٩م تبدأ سلسلة الباشوات المماليك فى العراق التى استمرت حتى عام ١٨٣١ م • ولكن مما تجدر الاشارة اليه أن الدولة العثمانية حاولت أكثر من مرة أنهاء حكم المماليك فى العراق ولكن محاولاتها لم تكن تستمر حتى يعود الباشوات المماليك الى الحكم مرة أخرى • ومن أمثلة ذلك سليمان باشا الكبير (بويوق سليمان) زعيم المماليك الذى ساعدته شركة الهند الشرقية فى تولية باشوية بغداد وبقى بها من ١٧٨٠ الى ١٨٠٢م •

ومما يذكر حول تولية سليمان الكبير أن المقيم البريطانى فى بغداد « وسط سفير دولته فى الأستانة لصالح الباشا ، فأثاب الباشا الشركة الانجليزية على ذلك بالرعاية والعطف اللذين أسبغهما عليها وعلى نشاطها فى العراق فى مدى عشرين عاما وقد أجابته الشركة الى ما طلبه فى سنة ١٧٨٢م من سلاح وعتاد فجليتهما له من بومباى ، ثم أردفت ذلك بعدد من المدربين الانجليز جاءت بهم من الهند »(٥) •

وكان آخر الباشوات المماليك وأعظمهم فى العراق هو داود باشا الذى حكم من عام ١٨١٧ الى ١٨٣١م •

---

(٥) احمد عزت عبد الكريم : مرجع سبق ذكره ص ٢٣٢ •

وكان داود باشا من جورجيا وبيع فى طفولته الى سليمان باشا الكبير . وقد استطاع بمهارته وتعلمه ان يصبح مستشارا لسليمان باشا ثم زوجا لأبنته ، وبعد وفاة سليمان باشا اصبح مغضوبا عليه وعمل معلما باحد مساجد بغداد فكون علاقات مع رجال الدين وافراد الشعب العراقى الى جانب تكوينه اتباعا من المماليك وهذه القوى ساعدته على ارتقاء الولاية .

وقد حكم داود باشا العراق حكما مطلقا لمدة ١٤ سنة ، وكان يعاصر محمد على فى مصر وقد قلده فى سياسته القائمة على تركيز السلطة فى يده واحتكار تجارة الاستيراد والتصدير ، وزراعة أصناف جديدة من المحصولات كالقطن وقصب السكر ، وقد أدى تنفيذه لسياسة تمركز السلطة فى يده الى خوض معارك طويلة ضد القبائل العربية وضد أكراد شمال العراق ، واذا كان قد استطاع اخماد ثورات القبائل العربية فان اخضاع الأكراد قد أدى به الى الصدام مع الايرانيين الذين يؤيدون الأكراد ضد داود باشا .

وقد كان العداء بين داود باشا والايرانيين عنيفا أنقلب أثره المدمر على الايرانيين الشيعة المقيمين بالعراق والمصالح الايرانية فى العراق ، وأنتهى هذا العداء بتوقيع صلح أرضروم فى مارس ١٨٢٣م الذى أنهى اجراءات داود ضد الايرانيين فى العراق وأعاد كردستان الى الحكم التركى .

وفى عهده ساءت العلاقة بينه وبين الانجليز ، وعندما صدر الأمر بحل فرق الانكشارية عام ١٨٢٦م وأخذ الباشا يدرب جيشا جديدا رفض الانجليز مساعدته فى تدريب هذا الجيش وأمداده بالضباط والفنيين والأسلحة ، مما اضطر الباشا الى استخدام ضابطين من فرنسا لتدريب جيشه وأنشأ بعض المصانع الحربية التى عهد بالاشراف عليها لخبير سويسرى ، وفى عهد داود باشا ، بدأ الحديث عن فتح مواصلات سريعة بين أوروبا والهند عن طريق الفرات ، وذلك باستخدام السفن التجارية فى دجلة والفرات ، وأتى الى العراق جماعة من الفنيين الانجليز لعمل

مسح لهذا الطريق والوقوف على مدى امكانياته »[٦] .

وبسبب صدام داود باشا بالانجليز كأدلة هؤلاء فى البلاط العثمانى وبسبب هزيمة الأتراك فى حربهم ضد روسيا عامى ١٨٢٨/١٨٢٩ م وفرض غرامة حربيه كبيرة عليهم يدفعونها للروس طلب السلطان محمود الثانى مساهمة باشواته فى دفع هذه الغرامة ، ولكن داود باشا رفض دفع آية أموال بل وقتل المبعوث التركى الذى وصل الى بغداد فى ديسمبر ١٨٣٠م مما جعل البــاب العالى يعلن تمرد داود باشا ويرسل جيشا لمحاربته .

أرسل السلطان محمود الثانى عام ١٨٣١م قوة عسكرية عثمانية الى العراق دخلت بغداد ــ التى كانت تعانى من انتشار مرض الطاعون بها ــ ولم يستطع داود المقاومة بل استسلم للقوة حيث نفى الى الجزيرة العربية حيث عمل شيخا للحرم النبوى فى المدينة المنورة الى أن مات هناك ، وبنفيه أنتهت أسرة حسن باشا والمماليك فى العراق ليعود الحكم العثمانى المباشر الى هذا القطر العربى الذى كان أول قطر عربى تغزوه القوات العثمانية .

العلاقات بين المماليك والدول الأجنبية

ونتساءل قبل الاسترسال فى الحديث عن الحكم العثمانى فى العراق بعد سقوط أسرة حسن باشا والمماليك فى العراق ، ماذا كانت علاقات هذه الأسرة بالدول الأجنبية لقد كان الاهتمام الانجليزى بالعراق سببه « اتخاذ الخليج والعراق وشمال بلاد الشام طريقا للمواصلات السريعة بين لنــدن والسلطات البريطانية فى الهند . هذا الى جانب الأهميــة العسكرية للخليج العربى بالنسبة للهند ، وان كان هذا الاهتمام العسكرى لم يظهر بشكل واضح الا بعد الحملة الفرنسية على مصر[٧] .

---

(٦) نفس المصدر ص ٢٣٤ .

(٧) د . محمد انيس ، الشرق العربى ص ٦٩ .

وكانت انجلتــرا فى ســبيل ذلك قد تحالفت مع ايران على طرد البرتغاليين من الخليج (من هرمز) وورثت الامبراطورية الهولندية من جوز الهند الشرقية ، وفى الوقت الذى كان الانجليز يبدون اهتمامهم بالعراق كانت أسرة حسن باشا والمماليك تحكم ذلك القطر العربى فى ظل تبعية أسمية للسلطان العثمانى بينما ينفردون بالحكم فى العراق ويدعمون استقلالهم الفعلى عن الدولة العثمانية ، وهم فى ذلك فى حاجة الى تأييد دولة أجنبية قوية ضد محاولات السلطنة العثمانية انهاء حكمهم وضد شاهات ايران للاغارة على ملكهم . وكانت انجلترا هى تلك الدولة الأجنبية التى سارعت الى تأييد هؤلاء الباشوات .

وقد احتلت التجارة الانجليزية فى العراق وايران الاهتمام الأكبر عند انجلترا ، وكانت « شركة الهند الشرقية البريطانية تعد وكالتها التى أنشأتها بالبصرة عام ١٦٤٢م مركز تجارتها الرئيسى ، ولكنها لم تنشىء لها تمثيلا فى بغداد الا فى سنة ١٧٥٥م وجعلته أولا تابعا للبصرة[٨] وقد شجع الحكومة البريطانية على انشاء هذه الوكالة ما تمتع به العراق من استقرار واصلاح فى عهد الباشوات المماليك الذين كانوا فى حاجة الى علاقات طيبة مع الانجليز .

وكان هذا التقــارب بين الباشوات المماليك والانجليز لمصــلحة الطرفين ، ففى الوقت الذى أيد الانجليز فيه الباشوات المماليك أمام أطماع شاهات ايران وأمام محاولات السلطان العثمانى انهاء سيطرة الباشوات المماليك على العراق . رضى هؤلاء الباشوات « بتطبيق قاعدة الامتيازات التى كانت تمنحها الدولة العثمانية للأوربيين وهى ٣٪ الأمر أدى الى نشاط التجارة البريطانية فى الخليج العربى »[٩] .

ولكن العلاقات الطيبة بين الطرفين شابها فتور بل وعداء فبعــد أن أصبح فى بغداد مقيم بريطانى ثابت أصبح له اختصاصات قنصلية عام ١٠٨٢م وأصبحت بغداد منذ هذا التاريخ القاعدة الأولى للنفوذ

---

(٨) د. احمد عزت عبد الكريم . مرجع سبق ذكره ص ٢٣٢ .

(٩) د. محمد انيس : الشرق العربى .

الانجليزى فى العراق بعد أن كانت البصرة تحتل هذه المكانة ، وعلى الرغم من أن الباشا استمر يرعى المصالح البريطانية فى العراق ويقدم التسهيلات للرعايا البريطانيين حتى فى وجود حالة حرب بين انجلترا والدولة العثمانية عام ١٨٠٧م .

رغم كل ذلك فقد اتخذ داود باشا آخر الباشوات المماليك منذ عام ١٨١٧ موقفا عدائيا من النشاط الانجليزى الذى كان على قمته القنصل الانجليزى جيمس ريتش Rich منذ عام ١٨٠٨م . ويبدو أن نشاط القنصل المتزايد واتصالاته الواسعة مع الموظفين الاتراك والاشراف وشيوخ البادية قد اثار « مخاوف داود باشا حتى أنه لم يتورع عن أن يعلن عام ١٨٢٠ أنه لا توجد حقوق أوروبية فى بغداد . واردف ذلك بزيادة الرسوم الجمركية على البضائع البريطانية وأصبح داود باشا واثقا أنه لن يستطيع الاعتماد على شركة الهند الشرقية أو السفارة البريطانية فى الأستانة ، بل أخذت هذه السفارة على عاتقها أن تكيد لداود باشا فى الدوائر العثمانية حتى نهاية حكمه عام ١٨٣١م[١٠] .

وعلى الرغم من أن العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية كانت فى مجملها علاقات طيبة وودية ، الا أنه بالنسبة للعراق فى عهد أسرة حسن باشا والباشوات المماليك لم تستطيع فرنسا أن تنافس بريطانيا فى هذه الولاية العثمانية ، ورغم أنه كان لفرنسا قنصل فى البصرة الا أن المصالح الفرنسية فى العراق لم تكن كبيرة ، وكان الوكلاء الفرنسيون لا يلقون رعاية ولا اهتماما من السلطات الحاكمة بسبب ما عرف عن انهيار النفوذ الفرنسى فى الهند ، وانعدام أى نفوذ لها فى الخليج[١١] . ومع ذلك ورغم اعتقال الفرنسيين فى جميع أنحاء الدولة العثمانية ومنها العراق عقب غزو بونابرت لمصر عام ١٧٩٨م الا أن باشوات العراق استخدموا بعض الفرنسيين ، فقد استخدم سليمان باشا طبيبا فرنسيا واستخدم داود باشا ضابطا فرنسيا أيضا لتدريب جيشه بعد أن اختلف مع انجلترا كما سبق أن ذكرت .

(١٠) د. احمد عزت عبد الكريم : مرجع سابق ص ٢٣٣ .
(١١) نفس المصدر ص ٢٣٢ .

ومما يجب الاشارة اليه أنه رغم فشل الحملة الفرنسية على مصر بقيادة بونابرت فقد استمرت سياسة محاربة المصالح البريطانية فى الهند من أسس تحركات الامبراطور نابليون الأول ، حيث وضع خطة منذ عام ١٨٠٥ لانزال قوات فرنسية فى لبنان تزحف عبر العراق عن طريق وادى نهر الفرات الى الخليج •

ولتحقيق هذه الخطة اتفق رجال الأمبراطور الفرنسى مع حافظ على باشا الوالى التركى الذى استولى على السلطة فى العراق بعد موت سليمان باشا الكبير عام ١٨٠٢م لقاء أن تقدم فرنسا مساعدات فنية ومعدات حربية لاعداد وحدة عسكرية نظامية على النسق الأوروبى ، وقد ساعدت هذه القوة العسكرية سليمان الصغير (كوجوك) ابن أخى حافظ باشا — الذى أغتيل عام ١٨٠٧م للسيطرة على الأمور فى العراق ، كما ساعدته فرنسا لدى الباب العالى فى الاعتراف سليمان الصغير واليا على العراق ، ولكنه عزل عام ١٨١٠ بتأثير الانجليز بسبب صداقته للفرنسيين •

العراق بعد حكم المماليك

عاش العراق بعد حكم المماليك تابعا تبعية كاملة للدولة العثمانية ، وحرص الولاة الذين حكموه باسم السلطان العثمانى من عام ١٨٣١ الى ١٩١٤م على اخضاع العراق للحكومة المركزية باستانبول والقضاء على آثار استقلال العراق الذى عمل له الباشوات المماليك ، وقد أدت سياستهم هذه الى أن تصبح سلطتهم على العراق وهمية وضعيفة عجزت عن القضاء على القبائل العربية المتحاربة فيما بينهما أو المحاربة للباشوات للاتراك ، وهذه القبائل ساندها محمد على والى مصر الذى كان يطمع فى ضم العراق الى الكتلة العربية التى حرص على اقامتها فى هذه المنطقة بعد أن ضم بلاد الشام والحجاز والسودان الى مصر بصفة خاصة •

وكانت سلطة الباشوات الأتراك ضعيفة أيضا فى مواجهة أكراد شمال العراق الذين يؤيدهم شاهات ايران ، وقد استمرت الحرب دائرة بين

الباشوات الأتراك وبين الأكراد من عام ١٨٣١ الى عام ١٨٤٢ م حتى عقدت في مايو عام ١٨٤٢ معاهدة أرضروم الثانية بين تركيا وايران • حددت الحدود بين الدولتين تنازلت بمقتضاها ايران عن السليمانية ومناطق أخرى مقابل تنازل تركيا لايران عن الساحل الأيسر لشط العرب ومناطق أخرى ، ولكن هذه المعاهدة لم تنه الانتفاضات الكردية ضد الحكم التركي المباشر الذي بقيت سلطته وهمية •

وطبقا لمنشور التنظيمات الخيرية الذي صدر في يونية ١٨٥٦ م انقسم العراق « الى ثلاثة ايالات : ولاية بغداد ، ولاية البصرة التي أنشئت عام ١٨٧٤ ، وولاية الموصل التي أنشئت عام ١٨٧٩ م »[١٢] وأعادت هذه التنظيمات تنظيم جهاز الدولة ولكنها لم تنه اساءات الموظفين وابتزازهم الأموال لمصالحهم الخاصة •

وقد شهدت العراق عهدا من الاصلاح في عهد ولاية مدحت باشا (١٨٦٩ — ١٨٧١) حيث شمل الاصلاح نواحي متعددة كالتعليم ونظام الحجر الصحي ، ومع ذلك بقي نظام « الطابو »[١٣] • أو ادارة تسجيل الأراضي ، من أهم الأعمال التي تمت على يد مدحت باشا وهو نظام كان يهدف الى استقرار القبائل في الأراضي الزراعية[١٤] هذا الى جانب اهتمامه بربط العراق بحريا بكل من استانبول ولندن بعد أن فتحت قناة السويس للملاحة العالمية ، وغير ذلك من مشروعات المواصلات لربط أجزاء العراق بعضها ببعض وربطها مع سوريا وتركيا ، وادخال الخدمة العسكرية ، ولكن هذه المشروعات لم يقدر لها التنفيذ حيث نقل مدحت باشا عام ١٨٧١ الى أدرنة •

---

(١٢) اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث تأليف لونجرج ، د. محمد انيس الشرق العربي ص ١٢ .

(١٣) يعني الطابو قيام ادارة التسجيلات ببيع اراضي الحكومة باقساط صغيرة سهلة الدفع ومنح هذا الحق بصفة خاصة لشيوخ القبائل بحيث تسع قطعة الارض القبيلة التي يتولون رئاستها وقد ادى هذا النظام الى ان اصبح الكثير من شيوخ القبائل ملاكا زراعيين واقطاعيين كبارا .

(١٤) د. محمد انيس : الشرق العربي ص ١٣١ .

وقد استمر الوضع غير مستقر فى العراق بسبب أنقسام العراق الى سنة وشيعة استغله سلاطين آل عثمان لبقاء نفوذهم فى العراق مع محاباة للسنة العراقيين ، وانقسام العراق الى عرب واكراد على استعداد للثورة مستمدين التاييد من قوى خارجية ، وانقسام العراق الى حضر وبادية مع أختلاف التكوين الثقافى والاجتماعى بين سكان المدن والقبائل والعشائر العربية المتمسكة بتقاليدها البدوية الراسخة فى القدم .

حاول الولاة الأتراك اقتفاء أثر مدحت باشا ولكنهم فشلوا فى تحقيق اية برامج اصلاحية فى العراق وذلك لانشغال الدولة بأحداثها الداخلية المتمثلة فى الصراع بين السلاطين وبين العثمانيين الجدد (يكى عثمانلر) وهم جماعة من الضباط الأتراك والموظفين والمثقفين الأحرار ، ذلك الصراع الذى انتهى بحدوث انقلاب مايو عام ١٨٧٦ ضد السلطان عبد العزيز ، وانقلاب أغسطس من نفس العام ضد مراد الخامس وكانت نتيجته المناداة بعبد الحميد سلطانا فى ظل دستور وضعه مدحت باشا الذى اختاره السلطان وزيرا . ثم انقلاب عبد الحميد عام ١٨٧٧م ضد الدستور ونفى مدحت باشا .

وترك العراق نهبا لأطماع الدول الأوروبية وصراعها ، فبينما حصل الألمان على مد خط سكة حديد بين برلين الى بغداد ، وقفت انجلترا أمام هذا المشروع لأنه يهدد المصالح البريطانية فى العراق والخليج والهند ، وحصلت انجلترا على احتكار التجارة مع العراق ، واحتكار نقل البضائع بين العراق وانجلترا .

استمر الوضع فى العراق على هذا النحو فى ظل حكم السلطان عبد الحميد الذى حاول التأثير فى الأقطار العربية عن طريق الترويج لفكرة الجامعة الاسلامية التى تعيد له السيطرة الكاملة على تلك الأقطار لتقف ضد النفوذ الأجنبى المتزايد فى ولايات الدولة وخاصة الولايات العربيــة .

استمر هذا الوضع حتى ثورة ١٩٠٨ بقيادة جماعة الاتحاد والترقى

أو تركيا الفتاة ضد استبداد السلطان عبد الحميد ، ورغم فرح العراقيين وبقية العرب بهذه الثورة وموازرة العرب للقائمين بها ، الا أن العراقيين شاركوا مع اخوتهم العرب فى تشكيل الجمعيات السرية المناهضة لسياسة التتريك التى اتبعتها حكومة الاتحاديين والمعادية للعروبة .. تلك الجمعيات التى كانت مقدمات لصدام بين العرب والأتراك فى الحرب العالمية الأولى انتهت بانحسار الحكم التركى عن العراق وغيره من أقطار المشرق العربى .

الفصل الخامس

الأســـرة الحســـينية فى تونــس

* تونس قبل الأسرة الحسينية .
* الأسرة الحسينية .
* تونس بعد الأسرة الحسينية .

تونس قبل الأسـرة الحسينية

كان اتجاه الدولة العثمانية الى بسط نفوذها فى أقطار الشمال الأفريقى مما يكمل سلسلة الفتوحات العثمانية فى المشرق العربى ، وفى نفس الوقت لأحكام الحلقة حول البحر المتوسط ، بالاضافة الى مطاردة الأسطول الأسبانى وفرسان القديس يوحنا الذين طردهم العثمانيون من جزيرة رودس واستقروا فى جزيرة مالطة ، مطاردة هؤلاء بسبب اغاراتهم الصليبية ضد الأقطار الاسلامية فى شمال أفريقيا •

واذا كان النفوذ العثمانى قد وجد طريقة الى الجزائر باعلان خير الدين باربارسا عام ١٩١٨م ولاءه للسلطان سليم الأول الذى سارع بالانعام عليه بلقب بك وتعيينه « بجلر بك » أى أمير الأمراء • فان النفوذ العثمانى قد وجد طريقة الى تونس عام ١٥٧٤ م بانتصار سنان باشا قائد الأسطول التركى على التحالف الصليبى المكون من فرسان القديس يوحنا وأسبانيا والبندقية •

ومنذ عام ١٥٧٤م صارت تونس باشوية عثمانية خاضعة مباشرة للسلطان العثمانى ، وطبق عليها نظام الحكم الذى وضعته الدولة العثمانية لحكم ولاياتها ، وكان الى جانب الباشا وقادة الفرق العثمانية — الانكشارية — ورؤساء البحر ، قوة أخرى لها مكانتها وهى سلطة أغوات القوات غير النظامية الذين عرفوا بالدايات حتى تغير الاسم عام ١٧٠٥ الى لقب الباى •

ومنذ عام ١٦١٢م الى ١٧٠٢م حكمت تونس أسرة البايات المعروفين بالأسرة المرادية نسبة الى مؤسسها الأول المعروف باسم مراد بك الذى حكم من ١٦١٢ — ١٦٣١ م ، وتلاه أبنه حموده من ١٦٣١ — ١٦٥٩ م الذى استطاع اقرار الأمور فى تونس بالقضاء على ثورات القبائل العربية وصد هجمات فرسان القديس يوحنا على السواحل التونسية •

وخلف حموده بك مراد بك الثانى من ١٦٥٩ ـــ ١٦٧٥ م الذى اشتهر بقسوته ، ولكنه ترك أبناءه بعده يتصارعون مع عمهم على منصب الباى حتى انتهت الأسرة المرادية عام ١٧٠٢م بقتل جميع أفرادها على يد أغا ابراهيم .

وعادت تونس الى الحكم المباشر العثمانى حتى استطاع زعيم الفرسان الأغا حسين بن على ان يستغل فترة الفوضى والخلاف التى أعقبت انتهاء حكم الأسرة المرادية ، والتنازع على السلطة فتحبب الى أهل البلاد والى بعض قادة الجند حتى نادوا به بايا على تونس عام ١٧٠٥ م ، ولكنه لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذى يقبل أن يعيش تحت رحمة قوى أخرى يمكنها أن تعزله متى شاءت .

الأســـرة الحسينية

استطاع حسين بن على مؤسس الأسرة الحسينية أن يجعل حكمه فى تونس وراثيا منذ عام ١٧١٠ م واستمرت الأسرة تحكم حتى حدث الاحتلال الفرنسى لتونس عام ١٨٨١م ، وقد عمل مؤسس الأسرة على المحافظة على الحكم الوراثى ووقف ضد كل تدخل من دايات الجزائر أو من الدول الأوروبية ، وضمن فى تونس عهدا من الأمن والاستقرار والتقدم الاقتصادى ، والأزدهار العمرانى وتعاون مع الدول الأوروبية على قدم المساواة بعقد المعاهدات التجارية التى تدر دخلا لبلده ورواجا لأهلهـــا .

توالى أفراد هذه الأسرة على الحكم كان منهم محمد بك بن حسين مؤسس الأسرة الذى حكم لمدة ثلاث سنوات من ١٧٢٦ ـــ ١٧٢٩ م ، وخلفه أخوه على بك الذى حكم فترة طويلة من ١٧٢٩ ـــ ١٧٨٢ م ، والذى شهد عهده سلاما مع الدول الأوروبية خاصة انجلترا وفرنسا ،كما شهد استقرارا للأمور فى تونس ، وخلفه حموده بك بن على من ١٧٨٢ ـــ ١٨١٤ م الذى استطاع حل فرق الانكشارية وتشتيت أفرادها بتأييد التونسيين ، كما استطاع انهـــاء العلاقة الخاصـــة التى تربط تونس بالجزائر ، وواصل سياسة عقـــد المعاهدات التجارية والسياسية مع

الدول الأوروبيـــة • كما واصـــل سياسة مؤسس الأسرة فى الناحية العمرانية •

وخلف حموده بك على الباى محمود بن محمد بك من ١٨١٤ — ١٨٢٤ م ، وبعده حسين بك من ١٨٢٤ — ١٨٣٥م ، الذى واجه التنافس الانجليزى الفرنسى للاستئثار بالنفوذ الأعلى فى تونس ، كما شارك أسطول الباى حسين بك فى معركة نوارين البحرية ببلاد اليونان ودمر هناك مع الأسطولين التركى والمصرى وذلك استجابة منه لطلب السلطان العثمانى ، كما أنه حفاظا على كرسى الحكم وعلى تونس وقف موقف الحياد من الغزو الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠م •

وجاء للحكم الباى أحمد من ١٨٣٧ — ١٨٥٥ م فى وقت تعيش فيه تونس أزمة مالية وقوة عسكرية ضعيفة بعد تحطيم الأسطول التونسى فى نوارين دون تعويض من السلطان العثمانى ، ولذلك وجدنا الباى يستسلم لنفوذ الدول الأوروبية الكبرى وخاصة انجلترا وفرنســـا ، فظهرت المدارس والكنائس الأجنبية ، ومع ذلك ظل مستعدا للاعتراف بالسيادة العثمانية ، بل ولم يتقاعس عن المشاركة فى حرب القرم فى صف السلطان العثمانى •

وجاء بعده الباى محمد الصادق الذى استمر فى الخضوع للنفوذ بصفة خاصة حتى زادت الامتيازات الفرنسية فى تونس بصورة كثيرة وان كانت المصالح الايطالية فى تونس قد وجدت طريقها هى الأخرى للانتشار فى تلك البلاد ، ولا غرو فى ذلك فكلتا الدولتين كانتا تطمعان فى الاستيلاء على تونس بل وتتنافسان على ذلك تنافسا حادا •

ولكن الباى فى نفس الوقت استمر يبدى اعترافه بالسيادة العثمانية على تونس ، بل ويساهم فى الحرب التركية الروسية عام ١٨٧٧ م بتقديم مساعدات غذائية للقوات التركية المحاربة ، وفى نفس الوقت كان يبدى قلقه من الأطماع الفرنسية والايطالية السافرة لاحتلال تونس •

وجاء بعد محمد الصادق الباى محمود الذى حكم من ١٨٦٤ م الى مجىء الاحتلال الفرنسى عام ١٨٨١ م ، الذى اشتهر عهده بأزمة مالية

أدت الى تدخل انجليزى فرنسى فى شـئون تونس الداخلية أفضى فى النهاية الى الاحتلال الفرنسى .

واذا كان الحكم فى الأسرة الحسينية كان حكما وراثيا فانه كان لأكبر افراد الأسرة ، ولم يكن ليصبح سارى المفعول الا بعد صدور فرمان من السلطان العثمانى بتعيين الباى الجديد ، ونظرا لموقع تونس بل والجزائر فى مواجهة أوروبا كانت الفرامانات السلطانية تسمح للبايات وللدايات فى الجزائر بعقد المعاهدات التجارية والمالية بما يدعم الاستقلال المالى لهذه الولايات .

وكان الباى هو رئيس الدولة ، وبالتالى فهو قائد عام القوات المسلحة ، وان كان الباى يستعين بوزراء فى تصريف الشئون الداخلية ، وان كان يقلل من سلطة الوزراء وجود امتيازات ضخمة للأجانب أدت الى خراب البلاد الاقتصادى بسبب تهرب الأجانب من المساهمة فى الاقتصاد التونسى رغم ضخامة ما يمتلكونه فى تونس من أملاك واسعة ، وبسبب مقاومتهم لكل اصلاح مالى أو دستورى والاحتماء بالقناصل وعدم المثول أمام القضاء الوطنى .

تونس بعد الأسرة الحسينية

كان احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ مقدمة طبيعية لاحتلالها لتونس وقد حاول بايات تونس كسب ود فرنسا لتأجيل الاحتلال الفرنسى لبلادهم من ذلك أن الباى حسين الذى حكم من ١٨٢٤ الى ١٨٣٥ م سارع الى القنصل الفرنسى ماثيودلسبس ليبدى له موافقته على ما فعلته فرنسا بجارته ، ويبدى استعداده لتموين جنود الحملة باللحوم اللازمة ، بأرسال رجلا من خاصته الى الجنرال برومون Bourmont — قائد حملة الاحتلال الفرنسية للجزائر — ليهنئه بالنصر الذى كسبه[1] .

---

(١) د . زاهر رياض : شمال افريقيا فى العصر الحديث ص ١٨٣ .

ومن ذلك الحين عاش بايات تونس تحت تهديد وخوف من احتلال فرنسي مرتقب ، ولذلك لم يستطيعوا الوقوف أمام المطالب الفرنسية المتزايدة التى أدت الى مزيد من الامتيــازات الفرنسية فى تونس فى مجالات السياسة والاقتصاد بل وحتى فى النواحى الروحية كاجبار الباى على بنـــاء كنائس واقامة تماثيـــل للقديس كتمثال القديس لويس . وكان نتيجـــة هذه الامتيازات أن ارتبكت أحـــوال البلاد السياسية والاقتصادية ، وكان نتيجة لهذا الارتباك تدخل أجنبى للاشراف على الشئون المالية لتونس .

ونتيجة لضعف البايات وتخاذل تركيا ، وزيادة امتيازات فرنسا، أنفتح باب التدخل والتنافس الأجنبى فى تونس بصورة وضعفت البلاد تحت اشراف دولى على الأقل من الناحية المالية ، ذلك أن انجلترا لم تكن لتقبل امتداد النفوذ الفرنسى من الجزائر الى تونس ، كما أن ايطاليا تطمع منذ زمن طويل أن تحذو فى تونس حذو فرنسا فى الجزائر ، وان كانت لم تجرؤ على أن تخطو خطوة حاسمة فى هذا السبيل خشية أن تخلق بذلك أزمة دولية[٢] .

وانتهى الأمر بتونس الى الوقوع تحت الاحتلال الفرنسى ، الذى حدث بصورة تدريجية فزحفت القوات الفرنسية من الجزائر الى الأراضى التونسية بحجة تأديب بعض القبائل التى تعرضت للمصالح الفرنسية ، ولم تفرض الحماية الفرنسية مباشرة ، وانما فرضت على الباى عقـــد معاهدة يضع نفســـه تحت وصاية فرنسا مع بقائه فى كرسى الحـــكم مسلوب السلطة .

---

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٧٢٩ .

الفصل السادس

الأســــرة القرمانلية

* أحوال ليبيا قبل القرمانليين .
* أحمد القرمانلى .
* محمد القرمانلى .
* على القرمانلى الأول .
* أحمد القرمانلى الثانى .
* يوسف القرمانلى .
* على القرمانلى الثانى .
* تقييم الحكم القرمانلى .
* العصر العثمانى الأخير .

أحوال ليبيـــا قبل القرمانليين

استولى الأسبان على طرابلس الغرب (ليبيا) عام ١٥١٠م واستمروا بها حتى عام ١٥٣٥ حينما تنازلت عنها أسبانيا لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يتخذون من جزيرة مالطة مقرا لهم بعد أن طردهم الأتراك العثمانيون من جزيرة رودس ، والذين كانوا ــ كما كان الأسبان ــ يشنون حربا صليبية ضد الأقطار الاسلامية العربية المطلة على البحر المتوسط . وقد ظل فرسان القديس يوحنا يحتلون طرابلس حتى عام ١٥٥١ عندما قدم الأتراك العثمانيون وأخذوها منهم بناء على استنجاد بعض أهلها بهذه القوة الاسلامية الفتية وأعنى قوة الأتراك العثمانيين .

ورغم أن الأسبان ثم فرسان القديس يوحنا لم يستولوا على كل ليبيا واقتصر استيلاؤهم على مدينة طرابلس وما جاورها ، فان هذه المدينة قد « نبعت أهميتها من اتصالها بمصر وموقعها الجغراف على طريق الحج العظمى من المغرب الى مكة ثم من الطرق التجارية بين أفريقيا وأوروبا ، فمن طرابلس كان هنالك طريق بحرى قصير نسبيا ــ ولهذا فهو أمين ــ الى أوروبا مارا بجزيرة مالطة ثم صقلية[1] الى جانب طرق القوافل التى تربط طرابلس بالأقاليم الأفريقية عبر الصحراء الكبـرى .

كانت هذه الظروف دافعا للأسبان ثم فرسـان القديس يوحنا للاستيلاء على طرابلس والبقاء بها ، كما كان من أسباب هذا الاستيلاء أيضا « أن أهلها بعد دخولهم ف طاعة الموحدين كثرت أموالهم وتجاراتهم وأطمأنوا ولم يشتغلوا بالحرب حتى لم تكن لهم به خبرة »[2] .

وكان استيلاء العثمانيين على طرابلس الغرب يمثل اكمال الحلقة ف أملاك الدولة العثمانية بعد استيلائهم على العراق ومصر والشام

---

(١) ريتشارد توللى : عشر سنوات ف بلاد طرابلس ص ٨ .

(٢) ابن غلبون : تاريخ طرابلس الغرب ص ٩٢ .

فى أوائل القرن السادس عشر ، وبعد أن امتد نفوذهم بصفة فعلية على الجزائر عام ١٥١٨ م ولذلك كان مجيئهم الى طرابلس الغرب أمرا طبيعيا يتسق مع تطور الحوادث التى مرت بأقطار الوطن العربى الذى أخذت أجزاؤه تخضع للقوة العثمانية الواحدة بعد الأخرى .

كما كان استيلاء العثمانيين على طرابلس الغرب يمثل قمة الصراع البحرى بين الأسطول العثمانى وأساطيل الدول الأوروبية المنافسة المتمثلة فى الأسطول الأسبانى ، وأسطول فرسان القديس يوحنا تلك الأساطيل التى مارست نشاطا صليبيا ضد الأراضى العربية الاسلامية .

استمر تسلط فرسان القديس يوحنا على طرابلس حتى وصول حملة عسكرية عثمانية بقيادة « سنان باشا » قائد الأسطول التركى الى طرابلس فى ١٣ شعبان ٩٥٨ هـ الموافق ١٦ أغسطس ١٥٥١ ثم ، ومن هذا التاريخ أصبحت طرابلس الغرب ولاية عثمانية كغيرها من الولايات العثمانية فى الوطن العربى الكبير .

استمر الحكم العثمانى المباشر لليبيا من ١٥٥١ م حتى عام ١٧١١م فيما عرف بالعصر العثمانى الأول الذى انتهى ليبدأ حكم الأسرة القرمانلية ، وقد عاشت ليبيا أثناء هذا العصر وبصفة خاصة أواخر القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر تعانى من الفوضى الشاملة التى حلت بالبلاد نتيجة سوء الحكم والادارة وقيام الثورات الشعبية فى مختلف أنحاء البلاد ، والفتن بين جند الانكشارية والقولوغلية[٣] الذين انصرفوا عن مهمتهم الأصلية وهى الدفاع عن البلاد الى مومة أخرى سعوا من ورائها الى الكسب والشهرة وهى عزل الولاة أو الثورة

---

(٣) القولوغلية او القول او غلية طبقة اجتماعية جديدة نتجت من ان درغوت باشا ثانى الولاة الاتراك احضر معه عدة آلاف من جند الانكشارية ، وبمرور الزمن اختلطت بالأهالى وتناسلت فتكونت طبقة القول او غلية التى كانت قليلة العدد فى اول الأمر ثم سرعان ما تكاثرت وزاد نفوذها بما حصلوا عليه من امتيازات عسكرية ومالية .

عليهم والسلب والنهب من الأهالى ، وتولية من يشاءون فى منصب الولاية حتى وجدنا ترزيا يتولى منصب الولاية « لمدة سبعة أشهر عام ١٠٩٨هـ ، يدعى ابراهيم الترزى[٤] ووجدنا بائعا للقهوة هو عثمان القهوجى يتولى الولاية لمدة ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين عاما • وقد وصفه ابن غلبون[٥] بأنه « كان يطبخ القهوة بسوق الترك » ويصفه أحمد النائب[٦] بأنه « كان غظا ذا جفاء وغلظة ، عاجزا عن القيام بأعباء الولاية ، بايعه الجند فى الليلة التى خلعوا فيها سلفه محمد الامام عام ١١١٢ هـ » •

وقد تولى حكم ليبيا فى أوائل القرن الثامن عشر من ١٧٠١ الى ١٧١١ م تسعة ولاة انصرف الكثير منهم — كغيرهم من الولاة الذين سبقوهم — الى الأشتغال بمصالحهم الشخصية دون القيام بأى عمل للقضاء على حالة الفوضى التى كانت تعم البلاد ، وكانت هذه الحالة تستلزم وجود شخصية قوية تستفيد من هذه الحالة لتظهر أمام الناس كمنقذ من هذه الحالة التى تعانى منها البلاد •

ويمكن أن نلخص الظروف التى عاشتها ولاية طرابلس الغرب (ليبيا) أثناء العصر العثمانى الأول والتى أدت فى النهاية الى ارتقاء أحمد القرمانلى للحكم فى طرابلس واليا فيما يلى :

أولا : « موقع هذه الولاية من الممتلكات العثمانية وبعدها عن الاستانة ، وعدم تصور الحكومات العثمانية المتعاقبة لحقيقة الوضع فيها[٧] جعل هذه الولاية لا تأخذ من اهتمام الدولة العثمانية الشيء الكثير ، هذا الى جانب أن هذه الولاية لم تكن تدر أموالا كثيرة على الدولة ، ولذلك لم يكن لولاية طرابلس الغرب ولا لشعبها صوت مسموع عند الباب العالى •

---

(٤) طاهر الزاوى : ولاة طرابلس ص ٣٠٢ .
(٥) ابن غلبون : مرجع ذكرى ص ٧٠ .
(٦) احمد النائب : المنهل العذب .
(٧) محمد مصطفى بازامة : بداية المأساة او التمهيد السياسى للاحتلال الايطالى ص ٣٠ .

ثانيا : رغبة الحكومة العثمانية فى بقاء ليبيا ولاية عثمانية أدى الى « عدم ابقاء الوالى فى مركزه لفترة طويلة مخافة أن يستقل بالبلاد مما أدى الى أن جميع الولاة الذين تولوا حكم البلاد لم تكن لهم سياسة واضحة ومحددة فى استغلال الأراضى الزراعية أو تشجيع الصناعات المحلية أو التجارة الداخلية والخارجية كما لم تكن لهم سياسة معينة فى نشر التعليم والعناية بالصحة ، ولم تكن هذه السياسة العثمانية خاصة بولاية طرابلس الغرب فقط بل كانت سياسة عامة(٨) » خضعت لها كل الولايات العربية .

ثالثا : سعة رقعة البلاد وقلة عدد السكان فيها وانعدام المواصلات وبطء الحركة كل ذلك أخر سيطرة العثمانيين على كل ليبيا بل أدى الى أن تكاد سيطرة الوالى العثمانى تقتصر على المدن الساحلية فقط ، بينما البلاد الداخلية لا تخضع لهذه السيطرة ، وكثيرا ما أعلنت الثورة عليها ، ولقد ظهرت ثورات كثيرة من الليبيين ضد هذه السيطرة وصعب على الولاة اخضاعها .

رابعا : التمسك باحتلال ليبيا واستمرار هذا الاحتلال كهدف استراتيجى يسهم فى تأكيد سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط ومعظم البلاد المطلة عليه وخصوصا فى قارتى آسيا وأفريقيا ، وقد استدعى هذا أن جاء احتلالهم لطرابلس قاصرا على الساحل دون النظر كثيرا للداخل ، بل أن اخضاع فزان وبرقة جاء متأخرا بعد احتلال طرابلس بسنوات كثيرة ، ونتيجة لذلك « انحدرت هيبة الوالى والدولة وكثرت الفتن المتلاحقة وثورات القبائل(٩) » فى الدواخل .

خامسا : كان اهتمام الدولة العثمانية بولاية طرابلس الغرب عسكريا أكثر منه مدنيا واقتصرت عناية بعض الولاة على بعض المدن الساحلية ، ولذلك لم تنتعش البلاد فى أيامهم ، بل بالعكس تجمدت

---

(٨) د. رأفت الشيخ : تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة ص ٢٤ .

(٩) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ٢٤ .

حيث كانت ، مما جعلها مسرحا للفوضى وسوء الحكم ، كما تميز هذا العصر العثمانى الأول بسياسة المحافظة على الوضع القائم كما هو دون تغيير ، والحرص على استمرار بقاء البلاد تدين بالولاء للسلطان العثمانى ، وقد دفع هذا العرض الولاة على عدم ادخال تغييرات أساسية فى نظم البلاد الداخلية ولا فى حياة أهلها .

احمــــد القرمانلى

أدى ضعف الدولة العثمانية وانهيار تنظيمات الحكم العثمانية فى أوائل القرن الثامن عشر الى استئثار الكثيرين من قادة الجند أو زعماء العصبيات المحلية بالسلطة المحلية فى بلادهم ، ومن بين هؤلاء كان أحمد القرمانلى ، وهو « أحمد بن يوسف بن محمــد بن مصطفى القرمانلى نسبة الى القبيل (القبيلة) المشهور بأرمن الأناضول ، كان أبوه عاملا وبعده ولى خليل باشا ــ والى طرابلس الغرب ــ ابنه أحمد القرمانلى عمل أبيه على ساحل المنشية »[١٠] .

وكان أحمد القرمانلى سليل أسرة تركية جاء مؤسسها الأول كأحد جنود القائد التركى درغوت باشا فى عام ١٥٥٣ الى طرابلس وتزوج زوجة عربية ليبية ، ثم تدرج أفراد هذه الأسرة فى المناصب المختلفة فى ولاية طرابلس الغرب حتى تولى أحمد عمالة المنشية ــ وهى ضاحية من ضواحى مدينة طرابلس تقع على الساحل ــ من قبل الوالى . ويذكر المؤرخون أن اسم قرمانلى يرجع الى انتماء الأسرة الى بلدة قرمانيا الواقعة جنوبى هضبة الأناضول بآسيا الصغرى ، فهو تركى الأصل[١١].

كان أحمد طموحا واسع الحيلة ولذلك وقف موقف المتفــرج من الخلافات التى كانت قائمة بين الباشا والديوان وجند الانكشارية والقول أو غلية ، وأظهر أنه لا يتجاوز لأى فريق ، وأنه الشخصية التى يمكن

---

(١٠) ابن غلبون : مرجع سبق ذكره ص ١٩٠ .

(١١) حسن محمود : ليبيا بين الماضى والحاضر ص ١٨٠ .

لها السيطرة على الموقف ، وذلك حتى يفوز برضاء الجميع ، وكان موقفه حكيما اذ كفى نفسه شر الانغماس فى هذا الصراع مؤقتا حتى يضعف أطراف الصراع فيسهل أمامه طريق الوصول الى كرسى الولاية .

وقد استطاع أحمد بهذه السياسة أن « يستقطب كثيرا من جند الانكشارية وأعضاء الديوان بل ومعظم أعيان طرابلس ، وأن يؤثر فيهم حتى أجمعوا على توليته واليا على طرابلس الغرب[١٢] وكانت « بيعته على يد أهل البلدين الساحل والمنشية ضحوة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخر عام ١١٢٣هـ»[١٣] وقد كان أخلص المؤيدين له « طوائف القواوغلية وعرب الجبل[١٤] » وكان عمره أنذاك خمس وعشرون سنة .

كان على أحمد القرمانلى لكى يحصل على فرمان سلطانى بتثبيته فى ولاية طرابلس الغرب واستقرار الأمور فيها ولذريته من بعده أن يتخلص من الأخطار والصعوبات التى واجهته منذ اليوم الأول .

كانت الصعوبات التى واجهت أحمد القرمانلى تتمثل فى الداخل والخارج ، أما الصعوبات الداخلية فكانت التخلص من الضباط الانكشارية الطامعين فى الحكم والراغبين فى بقاء أمر تولية الولاة بأيديهم ، وقد استطاع أحمد القرمانلى تدبير مذبحة لهؤلاء الضباط فى منزله الريفى قرب ضريح سيدى الهانى بالمنشية بعد أن أقام حفلة كبيرة لحوالى ثلاثمائة ضابط من قادة جند الانكشارية الذين يخشى انقلابهم عليه ، وبعد الحفل ذبحهم رجاله .

وكان أعيان طرابلس هم الذين ساهموا فى اختياره واليا عليهم فقد ظل يلاطفهم ويتودد اليهم حتى حصل على فرمان من السلطان بتثبيته

---

(١٢) د . رافت الشيخ : مرجع سابق ذكره ص ٣٨ .
(١٣) ابن غلبون : مرجع سبق ذكره ص ١٦١ .
(١٤) احمد الدجانى : احاديث عن تاريخ ليبيا فى القرنين ١٨ . ١٩ ص ٢٥ .

فى ولاية طرابلس الغــرب ، وحتى تخلص من بقيــة الصعوبات التى واجهته ، ثم أهمل مشورتهم ونسى تأييدهم له وتصرف كحاكم مطلق لا يقبل حتى شفاعتهم .

وكان على أحمد القرمانلى كذلك التخلص من الفتــن والثورات الداخلية حتى تستقر له الأمور ، ولذلك بدأ منذ توليته فى استئصال بذور الثورات فأخمد كل محاولة لاثارة التمرد والفتن وأعدم كل من ارتكب جرما وكل من تآمر ضده ، وقد قضى بقسوة على ثورات أهالى تاجوراء وترهونة ومسلاتة وغيرهم حتى دانت له البــلاد واستتب له الأمر . « وكانت هذه الثورات كافية للقضاء على الأسرة القرمانلية واكن من حسن حظ أحمد باشا أنها لم تقم فى وقت واحد ولا فى مكان واحد . لذلك سهل عليه القضاء عليها حتى استقرت له الأحوال وصفت له الأمور فانصرف الى العناية بالاصلاحات »(١٥) .

وكانت الصعوبات الخارجية التي واجهت أحمد القرمانلي قد تمثلت فى سعى أحمد لتثبيت نفسه فى الولاية ومواجهة الدول الأجنبية،أما علاقة أحمد بالسلطان العثمانى فقد تأزمت بسبب اختيار أهل طرابلس لأحمد واليا على البلاد فى ٢٧ يوليو ١٧١١ وهو اختيار يغضب السلطان الذى شعر بأنه مفروض عليه من قوى لا تملك حق الاختيار ، وزاد العلاقة سوءا مقاومة أحمد القرمانلى للباشا المعين بفرمان سلطانى وهو خليل باشا ، وقتله فى معركة انتصر فيها أحمد عند مدينة صبراتة قرب الحدود مع تونس .

وحاول أحمد القرمانلى استرضاء السلطان فأرسل وفدا من أهالى طرابلس الى الآستانة بعد مقتل خليل باشا لشرح ما حدث والمطالبة بفرمان يثبت أحمد القرمانلى واليا على طرابلس الغرب ، وحمل الوفد معه هدايا ثمينة ، كما « نظم مظاهرات علنية احتفالا بانتصار السلطان ضد بطرس الأكبر »(١٦) قيصر روسيا فى الحرب الدائرة بين الطرفين .

---

(١٥) حسن محمود : مرجع سبق ذكره ص ١٨٥ .

(١٦) احمد الدجانى : مرجع سبق ذكره ص ٢٦ .

وعندما أرسل السلطان أحمد الثالث مبعوثا خاصا للتحقيق فى مقتل الوالى المعين خليل باشا ، استقبله أحمد القرمانلى « بمزيد من الاعتناء وبالغ فى تعظيمه واكرامه »[١٧] وأنهى المبعوث مهمته دون أن يقابل أحدا من الناس أو قادة الجند فى طرابلس وعاد محملا بالهدايا لنفسه وللسلطان ، وتابع سياسة ارسال الهدايا للسلطان حتى أصدر له فرمانا بالولاية .

وكانت علاقات أحمد القرمانلى مع الدول الأوروبية تتسم بالعداء بسبب سياسته البحرية القائمة على توجيه سفن الأسطول التى بناها لمهاجمة سفن الدول الأوروبية فى عرض البحر المتوسط . وفرض على هذه الدول دفع اتاوات تنظمها معاهدات نظير عدم تعرض سفن أسطوله لسفنهم وتجارتهم وكانت معظم الدول الأوروبية تخضع لشروطه ضمانا لسلامه سفنهم ، وكانت كل من « انجلترا وهولندا »[١٨] من أوائل الدول الأوروبية التى سارعت الى دفع الجزية المعتادة لقاء عدم الاعتداء على سفنها العاملة فى البحر المتوسط .

وقد اهتم أحمد القرمانلى بالأسطول فأعاد له شهرته القديمة التى كانت له أيام « سنان باشا » و « درغوث باشا » وقد أعلن الجهاد ضد السفن الأوروبية فيما عدا السفن التى تعهدت بلادها بدفع الأتاوة السنوية له ، « وقد كسب من وراء مهاجمة — والتهديد بمهاجمة — السفن الأوروبية الغنائم والأموال الكثيرة[١٩] ، وقد أدى تهديده للسفن الأوروبية الى القاء الرعب فى قلوب الأوروبيين من القوة البحرية فى عهده ، « كما ضمن عدم مهاجمة الشواطىء الليبية بواسطة السفن الأوروبية »[٢٠] .

---

(١٧) أحمد النائب : مرجع سبق ذكره .

(١٨) د. زاهر رياض : شمال افريقيا فى العصر الحديث ص ١٠٥ .

(١٩) د. حسن محمود : مرجع سبق ذكره ص ١٨٢ .

(٢٠) د. رأفت الشيخ : مرجع سبق ذكره ص ٣٩ .

ويؤثر عن أحمد القرمانلى أنه كان يتولى بنفسه قيادة الجند للقضاء على الفتن والثورات الداخلية ، وقد استطاع أن يستعيد السيطرة عن اقليم فزان الذى كان بعيدا عن السيطرة الكاملة للحكم التركى ، وبضم اقليم فزان تحت سيطرته فتحت طرق التجارة عبر الصحراء من أفريقيا وسارت القوافل بين طرابلس والمدن الأفريقية فى جنوب وغرب القارة ؛ وكانت هذه القوافل ثلاث « الاولى تتجه جنوبا عبر واحة فزان الى بحيرة تشاد ، والثانية تنعطف جنوبا غربا عبرغدمس وغات الى تمبكتو الأسطورية ، والثالثة تسير جنوبا شرقا عبر واحة الجفرة ثم سواكن وزيلا Zila الى وادى ودارفور الغنى بنصبه وثرواته »[٢١] واستفادت الولاية كثيرا من دخل تجارة القوافل ، وانتعشت احوال اهل البلاد الاقتصاديه فضلا عن أن هذه التجارة كانت مصدر لزيادة أموال خزينة الباشا .

ونتيجة لتوفر الأموال فى خزينة الباشا اخذ يتجه للانشاءات ولتعمير البلاد فأنشأ جامعة المشهود عام ١٧٣٧ — على منوال الولاة الأتراك الذين سبقوه — على أنقاض المسجد الذى كان عمرو بن العاص قد أسسه عند فتح مدينة طرابلس ، وألحق أحمد باشا بمسجده « مدرسة أوقف عليها الأوقاف الكثيرة وهى التى لا زالت قائمة للآن تحت اسم كلية أحمد باشا »[٢٢] . كما أنشأ القلاع والحصون وضمن تزويد مدينة طرابلس وميناءها بمورد ماء عذب دائم .

حكم أحمد باشا القرمانلى ولاية طرابلس الغرب ٣٤ عاما من ١٧١١ الى ١٧٤٥ م استطاع خلالها تثبيت حكم الأسرة القرمانلية فى ليبيا ، وتأكيد السيطرة القرمانلية على كل أنحاء البلاد بما حقق وحدتها ، وبعد أن تخلص من قادة جند الانكشارية المناوئين له والفتن والثورات الداخلية اتجه لأصلاح أحوال البلاد واستعان بأعيان البلاد فى جميع الأموال اللازمة للصرف على مشروعاته الاصلاحية وفى ارسال الهدايا

---

(٢١) ريتشارد توللى : مرجع سبق ذكره ص ٨ .

(٢٢) طاهر الزاوى : معجم البلدان الليبية ص ٣٠٢ .

للسلطان العثمانى حتى يضمن بقاءه فى الولاية بل وليحصل منه على فرمان يجعل ولاية طرابلس الغرب وراثية لبنية من بعده .

ويذكر المؤرخون أن عهد أحمد القرمانلى كان « أحسن عهود الأسرة القرمانليه بل وأحسن العهد التركى كله »[٢٣] وذلك استنادا الى أعماله وصفاته فانه مثلا قد « اتخذ جمعية علمية لحسم النوازل والمحاكمات الشرعية ، وكان لين العريكة يؤثر العدل والانصاف »[٢٤] وانه « هو الذى أسس قوانين الدولة وأحيا رسوما دائرة من قواعدها »[٢٥] .

محمــد القرمانلى

توفى أحمد باشا القرمانلى كما تذكر أكثر المصــادر منتحرا عام ١١٥٨هـ الموافق ١٧٤٥ م وخلفه ابنه محمد « بفرمان عالى الشأن ولم تظهر خلال مدته منافسة داخلية بما مهد له والده »[٢٦] لأنه كان يتمتع بسمعة طيبة فأجمع الناس عليه رغم أنه لم يــكن أكبر أولاد أحمــد القرمانلى وكان الابن الأكبر يدعى محمود ولكنه لم تكن له صفات محمد الشخصية ولا خبرته بأمور الحكم التى خبرها محمد فى حياة أبيه .

ورث محمد القرمانلى حكم البلاد الليبية بعد أن استقر أمرها وزادت ايراداتها وأصبحت مهابة الجانب من الدول الأوروبية ، ولكنه كان حريصا على بقاء العلاقات الطيبـــة بين طرابلس الغرب وكل من فرنسا وانجلترا ، وان كان قد اهتم بالأسطول وبدأ به نشاطا ضد السفن الأوروبية التى ليس بينه وبينها اتفاقات فأقلق ذلك الدولة البحرية بصفة خاصة وأسرعت الى عقد المعاهدات معه لتأمن شره فتم عقد معاهدة مع

---

(٢٣) طاهر الزاوى : ولاة طرابلس ص ٢٢٣ .

(٢٤) احمد النائب : مرجع سبق ذكره ص ٢٢٥ .

(٢٥) ابن غلبون : مرجع سبق ذكره .

(٢٦) احمد النائب : مرجع سبق ذكره .

حكومة النمسا عام ١٧٤٩م ، ومع الدانمرك فى شهر فبراير من نفس السنة عام ١٧٥١ ، ومع فرنسا فى مايو ١٧٥٢م ، وكانت معاهدات الدول الضعيفة مثل النمسا والدانمرك وغيرها تنص على أن تدفع هذه الدول جزية معلومة للباشا « وأما الدول القوية ــ كانجلترا وفرنسا ــ فكانت تمارس الضغط على باشا طرابلس وتقوم بتظاهرات عنيفة فى ميناء المدينة ، وأما الباشا فكان يعرف كيف يفرق بين هذين النوعين من الدول فيتقبل هدايا النوع الأول بثقة ، ويقدم الترضيات للنوع الثانى »(٢٧) .

وكانت هذه المعاهدات تتم دون استئذان الباب العالى ، ويصف أحمد النائب عمليات أسطول الباشا بقــوله : وكان أمراء الأساطيل أصحاب شجاعة واقدام ، وكانوا يهجمون بمراكبهم على الأعداء بسواحل البحر الأبيض فيقتلون ويسلبون » ويضيف النائب معلقا على عقــد الاتفاقية بين الباشا وانجلترا أن « عقد هذه المعاهدة جاء بعد ضغط من انجلترا نتيجة استمرار الغزوات التى قام بها أسطول طرابلس فى تلك الفترة »(٢٨) .

والواقع أنه « اذا كان عقد مثل هذه المعاهدات يعطينا فكرة صادقة عن مدى تطور القوة البحرية الليبية ومركزها فى البحر الأبيض المتوسط فانه كذلك يرينا مدى ما وصلت اليه ولاية ليبيــا من استقلال ومظهر للسيادة الخارجية لأن هذه المعاهدة التى عقدت بين ليبيــا وانجلترا ــ وغيرها ــ تمت بدون علم السلطان(٢٩) .

واذا كان محمد القرمانلى حريصا على احترام المعاهدات المبرمة بين الولاية وبين الدول الأوروبية وأعلن ذلك أمام قناصل الدول الأوروبية

---

(٢٧) احمد الدجانى : مرجع سبق ذكره ص ٣٤ .

(٢٨) احمد النائب : مرجع سبق ذكره .

(٢٩) مصطفى بعيو : فى تاريخ لوبيا ص ١٠٠ .

الذين توجهوا اليه للتهنئة بولايته ويقدمون له الهدايا فى أيام حكمه الأولى خوفا من نتائج الصدام بالدول الأوروبية الكبرى ، الا أن أعضاء الديوان مارسوا ضغطا لكى يستجيب لاستمرار أعمال الغزو والقرصنة ضد السفن الأوروبية بدعوى الجهاد الاسلامى ضد المسيحيين وقد استطاع الباشا « بصعوبة وبعد معارضة شديدة الحصول من الديوان على استثناء السفن فرنسا وانجلترا »(٣٠) . وان كان هذا الاستثناء لم يتحقق بالكامل بسبب قيام قادة السفن الطرابلسية بمهاجمة السفن الفرنسية بما أوقع الباشا فى خلاف مع فرنسا وعندما حاول استرضاءها ثار عليه جند الانكشارية وخاصة من الألبان والأرناؤوط المغامرين .

ولم تخل فترة حكم القرمانلى من ثورات وفتن شهدتها البلاد مثل فتنة أحمد بن حسن كيخيا صهر الباشا واخوته ، ومؤامرة الألبان والأرناؤوط لخلع الباشا ، وثورات درنة وغربان ، واذا كان الباشا قد نجح بالفعل فى اخماد هذه الثورات والمؤمرات الا أنه كان من نتيجة ذلك فقدان الباشا لخيرة جنوده المخلصين مما اضطره الى استدعاء وتجنيد بضع مئات من الجند الانكشارية من مدينة أزمير التركية ، كما كان من نتيجة ذلك أعتلال صحته بسبب جهوده للتخلص من الثورات والمؤامرات المناوئة له وبسبب « ادمانه شرب الخمر فاضطربت حياته ، وتوفى يوم ٢٤ من يوليو ١٧٥٤ وله من العمر ٤٥ سنة ، ودفن الى جانب والده بمقبرة جامع أحمد باشا »(٣١) .

---

(٣٠) رودلف ميكاكى : طرابلس الغرب تحت اسرة القرمانلى ،تعريب طه فوزى .

(٣١) رودلف ميكاكى : مرجع سبق ذكره .

على القرمانلى الأول

تولى على القرمانلى حكم الولاية وعمره ثلاث وعشرين سنة بعـد فترة حكم أبيه التى دامت تسع سنوات والتى شهدت مظاهر الضعف بسبب تعدد الفتن والمؤمرات ، وقد أدرك قادة الانكشارية حداثة الوالى الجديد فالتفوا حوله وأمسكوا بزمام السلطة الفعلية فى البلاد ، ومارسوا سياسة مهاجمة سفن الدول الأوروبية مما أفسد العلاقات بين الولاية والدول الأوروبية ونتج عن ذلك تعرض مدينة طرابلس لقصف من مدافع السفن الأوروبية .

كما نتج عن الصدام بين الولاية والدول الأوروبية حدوث احتكاك بين سفن الولاية وبين سفن جمهورية البندقية المؤيدة من قبل انجلترا وفرنسا كان سببه أن « غنمت عسـكر الانكشارية سفينتين من سفن تجار جمهورية البلنسيان (البندقية) فطلب قنصلها استردادهما من على باشا ولم ييسر له لاصرار العساكر وضعف نفوذه فيهم . فاتفق أن أحد ضباط طرابلس قدم بأسطوله الى أحد مراسى البلنسيان غازيا فبرز اليه أسطولها وتواقعوا فقتل الضابط وبعض الطائفة وأسر الأسطول ، فلما سمعت العساكر لاذوا بالانقياد وانعقد الصلح بين الحكومتين وجرت معاهدة ثانية »[٣٢] .

ومع ذلك لم تتوقف عمليات مهاجمة الأسطول الطرابلسى لسفن الدول الأوروبية بسبب انتشار المجاعة والقحط منذ عام ١٧٦٧ بصفة خاصة وبسبب عجز الحكومة عن دفع مرتبات الجند ، بالأضافة الى الثورات والفتن التى قامت هنا وهناك فى أنحاء البلاد التى ثارت بسبب الأساليب التعسفية التى لجأ اليها رجال الباشا فى جمـع الأموال من القبـائل .

---

(٣٢) احمد النائب : مرجع سبق ذكره .

وقد استحكم الضعف فى الولاية وساءت حالتها . وانحلت عرى الايالة وأهمل على باشا التنسيقات العسكرية والتنظيمات السائرة . وثقل عليه اعطاء مرتبات العساكر وعجز عن القيام بمهام الأمور فتتابع فرار العساكر ، وخلا الجو للانذال ، حتى صار النهب والغصب بالسبل والأسواق علنا من غير مبالاة »[٣٢] .

وقد وصف نائب قنصل فرنسا حال طرابلس فى أثناء حكم على باشا بقوله ان الباشا لا يحكم الا رعايا متمردين ومناطق جدباء واكداسا من الأطلال والخرائب وأن المدينة التى يقيم فيها ليس فيها الا الخراب والدمار ، كما أن قصره ينهار من جميع جوانبه ، أما أسوار المدينة فعديمة الجدوى بسبب تهدمها فى كثير من الأجزاء ، وأما الحصون والبطاريات المعدة بمدافع قديمة وفاسدة فانها تتداعى كلما أطلقت لتحية البوارج الحربية التى تأتى لالقاء مراسيها فى الميناء وأن سبع سنوات من القحط ضاعفت عدد الموتى والمهاجرين . ثم تفشى الطاعون فزادت هذه الكوارث وأصبحت طرابلس صحراء مقفرة »[٣٤] .

ويصف رودلفو ميكاكى[٣٥] حكم على باشا بقوله : وقد استسلم للبكجرية (الانكشارية) فسلبوه الارادة ، وصاروا يحكمون البلد باسمه وليس له من الأمر شىء ، وفى أيامه سنة ١٧٦٧ أصيبت البلاد بقحط شديد وهاجر كثير من الناس الى تونس ومصر وفى عهده سنة ١٧٨٥ م أصيبت طرابلس بطاعون أنتشر فى جميع القطر ومات من سكان المدينة وحدها سبعة وعشرون ألف شخص ، وكان عهده عهد قلاقل ولم يكن لديه من القوة ما يؤهله للصمود أمامها .

كان لابد أن يتطلع أهل طرابلس الغرب الى الأستانة لكى تنقذهم مما حل بهم فى عهد باشا القرمانلى ، وقد انتهــزت السلطنة الفرصة

---

(٣٢) أحمد النائب : مرجع سبق ذكره .

(٣٤) أحمد الدجانى : مرجع سبق ذكره ص ٤٣ .

(٣٥) رودلفوميكاكى : مرجع سبق ذكره .

حين عرض مغامر يدعى « على برغل »[٣٦] على السلطان سليم الثالث أن يحقق أمل السلطنة فى التخلص من حكم الأسرة القرمانلية وأن يكون له حكم طرابلس • وعرض أن يعد الحملة العسكرية التى سينهى بها حكم القرمانليين على نفقته الخاصة وتعهد باقرار النظام فى الولاية وبأن يدفع للسلطة جزية سنوية •

ولما وافق السلطان سليم الثالث على طلب على برغل منحه فرمان بتعيينه واليا على طرابلس ، وجمع على برغل مجموعة من المغامرين والمرتزقة عددهم ٤٠٠ رجل حملهم على ثمانية سفن صغيرة الى طرابلس فوصلها فى ٢٩ يوليو ١٧٩٣م ونزل هؤلاء الرجال الى طرابلس وقرىء الفرمان فما كان من على القرمانلى وأسرته الا الهرب من طرابلس والالتجاء الى تونس •

أما شخصية على برغل وسياسته فانه كما يذكر الجبرتى أصله من مماليك محمد باشا حاكم الجزائر ، وكان أهل طرابلس مترددين فى قبوله واليا عليهم « ثم اتفق رأى العموم بتمكين البلاد لعلى باشا برغل لأن عدم قبوله عين الخروج من طاعة أمير المؤمنين ونقض لبيعته وذلك شقاق وشقاوة الدارين والعياذ بالله تعالى ، مع أن دفع هذه الأساطيل — سفن على برغل — وعلى فرض محوهم وازالتهم فلا يؤمن بأس السلطنة السنية »[٣٧] •

وكان على برغل قاسيا متغطرسا كثير الأطماع ، وقد اتضحت صفاته هذه من أول أيامه بطرابلس ، اذ أنه « لما استولى على طرابلس أباحها لعسكره ، ففعلوا بها أقبح وأشنع من التمرلنكية (يقصد جنود تيمورلنك المغولى) — من النهب وهتك النساء والفسق والفجور •

---

(٣٦) يذكر البعض ان كنية « برغل » تعنى بالتركية القمح المسلوق المكسر اشتهر بها على لانها كان يطعم البرغل بدلا من الأرز .

(٣٧) احمد النائب : مرجع سبق ذكره .

وسبى حريم متوليها وأخذهن أسرى ، وفرض على أهل البلد وأخذ أموالهم[٣٨] .

وساءت علاقته برعايا وقناصل الدول الأوروبية أيضا حتى طلب من القناصل تقبيل يده عند المثول بين يديه ولم يتخل عن طلبه هذا الا تحت تهديد الأسطول البريطانى الذى دخل ميناء طرابلس مهددا . كما زادت وطأته على الناس حتى اصطدم بوالى تونس حمودة باشا الذى ساعد القرمانليين على العودة الى طرابلس ، وفى ليلة التاسع عشر من يناير ١٧٩٥ ، بعد أن ظل واليا لمدة سنة وخمسة أشهر ، ذبح ما عنده من الرهائن والأسرى[٣٩] ثم « نزل الى المراكب بما جمعه من الأموال والذخائر ، وأخذ معه غلامين جميلين من أولاد الأعيان شبه رهائن وهرب الى الاسكندرية وحضر الى مصر ، ونزل ضيفا عند مراد بك وأنزله فى قصر بالجيزة »[٤٠] .

أحمد القرمانلى الثانى

كان لعلى القرمانلى ثلاثة أبناء هم حسن وأحمد ويوسف ، وفى أواخر عهد على القرمانلى فى طرابلس اختلف الأخوة الثلاثة وثار بينهم نزاع كان محركة أصغرهم يوسف الذى اتصف بالطمع والتهور ، وقد عانى الطرابلسيون من هذا النزاع وما نتج عنه ولما كان على القرمانلى يؤهل ابنه الأكبر حسن لولاية الحكم بعده فقد حقد عليه يوسف وقتله فى ٣٠ يوليو ١٧٩٠م واستمر النزاع بين يوسف وأحمد حتى جاء على برغل الى طرابلس وهرب القرمانليون الى تونس .

بعد هرب على برغل الى مصر عاد القرمانليون الى طرابلس وتنازل على القرمانلى لابنه أحمد فى رجب سنة ١٢٠٩هـ الموافق يناير ١٧٩٥ ، وكان أحمد هذا « سكيرا منهمكا فى ملذاته »[٤١] ، ثم فى « أواسط

---

(٣٨) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .
(٣٩) رودلفوميكاكى : مرجع سبق ذكره .
(٤٠) عبد الرحمن الجبرتى : مرجع سبق ذكره .
(٤١) رودلفوميكاكى : مرجع سبق ذكره .

شعبان ــ من العام التالى ــ خرج أحمد بك لناحية تاجوراء للخلاعة وزيارة الأولياء فيها على الرسم المعتاد فانتقضت عليه الأهالى باغراء أخيه يوسف ففر الى مصراته ومنها الى مالطة »[٤٢] •

يوســف القرمانلى

نجح يوسف فى الوصول الى كرسى الولاية أخيرا عام ١٧٩٦م بعد أن قتل أخيه الأكبر وثار على أخيه الأوسط أحمد مستغلا اهماله شئون الحكم وانغماسه فى الملذات وأخذ يتقرب الى الأهالى مبينا لهم أنه يستطيع انقاذ البلاد من الفوضى التى تعيشها فى ظل أحمد القرمانلى الثانى اذا مكنوه من الولاية •

وقد لجأ أعيان طرابلس الى باشا تونس وقنصل فرنسا فى طرابلس للتوسط عند السلطان العثمانى حتى يصدر فرمانا بتولية يوسف ، فوافق السلطان على تولية يوسف ، وله من العمر حوالى ثلاثين سنة ، وقد اعترف به أبوه على وأراد ابعاد أخيه الذى هرب فعرض عليه حــكم بنى غازى ودرنة ولكن أحمد رفض هذا العرض وعاد الى تونس عن طريق مالطة •

نظرا لمــا اتصف به يوسف من الشدة والبطش فقد كان المتوقع أن يمارس بطشه بصورة أكبر بعد أن أصبح الحاكم الوحيد والأعلى للبلاد ، الا أن يوسف « ظهر بمظهر يخالف كل المخالفة المظهر الذى كان يبدو به ، فلم تعد توجد القسوة فى أعماله ، بل امتاز بصرامة عادلة كانت تشوبها كياسة لم يكن ينتظر توافرها فى أمير أفريقى »[٤٣] •

قضى يوسف سنوات حكمه الأولى فى التعامل مع ثلاثة قوى القوة الأولى جند الانكشارية والقول أوغلية ، والقوة الثانية القبائل العربية

---

(٤٢) احمد النائب : مرجع سبق ذكره .

(٤٣) رودلفو ميكاكى : مرجع سبق ذكره .

فى أقاليم ليبيا الداخلية ، والقــوة الثالثة الدول الأوروبية بأساطيلها وقناصلها المقيمين فى طرابلس •

أما بالنسبة للقوة الأولى فقد استطاع استخدامها لتحقيق أغراضه فى التخلص من الثورات الداخلية وفى ممارسة أعمال الحرب البحرية ضد السفن الأوروبية ، وكان يوسف يعتمد على مؤازارة بعض القبائل العربية فى ليبيا له مما منحه قوة فى تعامله مع جنده ، ولم يستطع هؤلاء الجند أن يكونوا خطرا عليه الا بعد أن لجأ يوسف الى الدعة والترف وأسرف فى الملذات وأهمل النشاط العسكرى •

وأما القوة الثانية وهى القبائل العربية فقد شعرت بأن عهدا جديدا قد بدأ وأحسن حالا من سابقه ، ولكن لم تمض سنوات قليلة حتى ثار « أهل غريان بزعامة الشيخ عبد الوافى عام ١٨٠٣م ، وثار أحمد سيف النصر فى فزان عام ١٨٠٦ وتعرض لبعض سفن الأجانب كانت بمرسى سرت »(٤٤) الى جانب ثورات غدامس ونالوت بالجبل الغربى وترهونة وسرت • « وعلى الرغم من أنه تمكن من القضاء على كل هذه الثورات بالشدة فانها هدت — من غير شك — كيان الدولة فى الوقت الذى كان على الباشا فيه أن ينصرف كلية الى التغلب على مصاعبة الخارجية ، وقد تعددت بتعدد الدول الأوروبية »(٤٥) •

وقد زلزلت الثورات الداخلية أركان الحكم فى طرابلس الغرب على عهد يوسف القرمانلى « وكان الناقمون من الأسرة القرمانلية كثيرا ما يؤيدون الثوار هنا وهناك • ولما كانت الخزينة خاوية لم يكن باستطاعة يوسف باشا أن يرسل جيوشه الى مختلف الجهات لذلك كان كثيرا ما يلجأ الى المهادنة ويعترف بالزعيم الثائر حاكما لمنطقة الثورة »(٤٦) •

---

(٤٤) طاهر الزاوى : ولاة طرابلس ص ٢٣١ .

(٤٥) د . حسن محمود : مرجع سبق ذكره ص ١٩٠ .

(٤٦) د . نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال الايطالى ص ٤٤ .

عاصر يوسف القرمانلى أحداثا أوروبية وعربية فماذا كان موقفه منها وماذا كان موقفه من الدول الأوروبية وخاصة أنه كان يحتاج الى أموال كثيرة للصرف منها على مشروعاته وحملاته العسكرية ضد الثوار داخل ليبيـــا ؟

لقد حدثت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م بعد سنتين من بداية حكمه فى طرابلس ، وتولى محمد على ولاية مصر عام ١٨٠٥م ، وغزت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠م ، وحدث صدام حربى بين الباشا والولايات المتحدة الأمريكية الى جانب التنافس بين انجلترا وفرنسا حول ليبيا فكيف كانت علاقات الباشا وموقفه من كل هذه الأطراف ؟

كانت علاقات يوسف باشا بفرنسا طيبة من البـــداية وهذا يفسر مساعدة يوسف للحملة الفرنسية على مصر ، وتلبية مطالب فرنسا أثناء صراعها مع انجلتـــرا على النفوذ فى طرابلس ، فعندما احتل نابليون بونابرت مصر عام ١٧٩٨م وبعد أن تم تدمير الأسطول الفرنسى فى أبى قير أراد نابليون أن يكون هناك اتصال برى بين الحملة فى مصر وبين فرنسا « فكتب رسالة الى القنصل الفرنسى فى طرابلس بتاريخ ٢٢ يناير ١٧٩٩م يطلب منه فيها أن يتصل بيوسف باشا ويرتب معه أمر مرور الرجال والذخائر من فرنسا بطريق ليبيا ، وانتهى هذا الاتصال بعقد معاهدة بين يوسف باشا والقنصل الفرنسى عام ١٨٠١م تؤمن لنابليون ما أراد »(٤٧) .

وقد أستاءت انجلترا من هذا الاتفاق الذى يؤمن للحملة الفرنسية فى مصر سبل بقائها هناك خاصة وأن يوسف باشا سمح للفرنسيين أن يتخذوا من ميناء درنة منفذا لتلقى الامدادات المرسلة من فرنسا الى جنود الحملة الفرنسية فى مصر ، وأنه كذلك رفض الســماح للسفن الانجليزية بالتردد على الموانى الليبية مما دفع انجلترا الى فرض حصار بحرى تجارى شديد .

---

(٤٧) د. نقولا زيادة : مرجع سبق ذكره ص ٤٩ .

وقد استاءت تركيا أيضا من موقف يوسف باشا ، ذلك ان السلطان العثمانى أراد اخراج الفرنسيين من مصر بحملة عسكرية من اتجاهين أو جبهتين جبهة الشرق يتولاها حاكم دمشق وحاكم عكا الجزار لمهاجمة مصر بطريق فلسطين وسيناء وجبهة الغرب يتولاها يوسف باشا من ليبيا، ولكن يوسف حاول استرضاء السلطان ولكنه حرص على بقاء علاقاته الطيبة مع فرنسا ، ومن ثم أخذ يعد جيشا بكثير من التمهل وأعلن أن الجيش لتحقيق مطلب السلطان العثمانى ، وفرض على الفرنسيين المقيمين بطرابلس الاقامة الجبرية فى منازلهم وذلك بالتفاهم مع قنصل فرنسا بطرابلس وقد أظهر يوسف للمبعوث العثمانى هذه الجهود حتى ينقلها للسلطان ، وتنفس يوسف الصعداء حين جلت الحملة الفرنسية عن مصر فى أواخر عام ١٨٠١م •

ورغم ذلك فقد ظل الصراع بين انجلترا وفرنسا حادا للتمتع بالنفوذ الأعلى فى ليبيا • ورغم أن فرنسا كانت تتمتع بصداقة يوسف باشا الا أنه بعد أن استولى الفرنسيون على الجزائر عام ١٨٣٠ وأظهر الشعب الليبى استياءه من هذا الغزو تقدمت فرنسا بمطالب الى يوسف باشا تدل على تشدد لا يفسره سوى ضعف حكم يوسف وفساده ودعاوى المستعمرين وأباطيلهم ، وهذه المطالب تتلخص فيما يلى :

١ — يجب أن يقدم الباشا اعتذارا الى القنصل الفرنسى « روسو » عن اهانة ألحقها به من قبل •

٢ — يجب أن يلغى الباشا كل الاحتكارات التجارية •

٣ — يجب أن يمتنع حالا عن استرقاق الأوروبيين •

٤ — لايجوز للباشا أن يطلب من الدول الأوروبية أن تدفع مترر ات أو هدايا •

٥ — لا يجوز للباشا أن يقوى أسطوله •

٦ — يتوجب على الباشا أن يدفع لفرنسا تعويضات حربية تمكن الحكومة الفرنسية من التعويض على رعاياها بسبب ما خسرته فى ليبيا أو اقرضته لليبيـــا •

٧ ــ أن يكون لفرنسا حقوق الدولة الأفضل رعاية[٤٨] •

وبسبب ضعف الباشا قبل هذه المطالب المهينة وعقد مع فرنسا معاهدة فى أغسطس ١٨٣٠م • ودفع لفرنسا مبلغ ٨٠٠ ألف فرنك فرنسى ومع ذلك فقد وقف القنصل الفرنسى عام ١٨٣٢م الى جوار على باشا القرمانلى الثانى ابن يوسف الذى تنازل له والده عن الحكم تحت ضغط ظروف البلاد فى الوقت الذى كان القنصل الانجليزى يقف مع الساخطين على الاسرة القرمانلية والذين يتخذون من المنشية مقرا لهم •

وفى نطاق الصراع الأنجليزى الفرنسى على النفوذ فى طرابلس تبنت انجلترا فى مؤتمرى فينا ١٨١٥ واكس لاشابل ١٨١٩م ، معارضة سياسة العدوان على السفن الأوروبية التى يقوم بها الأسطول الليبى ، وقد تم اتخاذ قرار بالرد على الموقف الليبى بالقوة وأبلغ قادة الأسطولين الانجليزى والفرنسى هذا القرار ليوسف باشا بطرابلس الذى قبله •• ومع ذلك فانه عندما أراد يوسف تقوية أسطوله وطلب من القنصل الانجليزى المساعدة تقدمت له انجلترا بالمساعدة المطلوبة •

وأما علاقة الباشا بالولايات المتحدة الأمريكية ، فترجع الى أن السفن الليبية تعرضت للسفن الأمريكية التجارية العاملة فى البحر المتوسط ، وأنذر يوسف باشا الولايات المتحدة عام ١٨٠٠م بأنها اذا لم تدفع كل سفينة جزية سنوية ، وهدية سنوية من الحكومة الأمريكية فان السفن الليبية سوف تهاجم السفن الأمريكية وتسلبها ما تحمله • ولما لم يرد الرئيس الأمريكى على انذار يوسف باشا أخذت السفن الليبية تهاجم السفن الأمريكية مما دفع الرئيس الأمريكى الى تكليف بعض القطع البحرية الحربية الأمريكية بمعاقبة الباشا ، وبالفعل حاصرت هذه القطع ميناء طرابلس وأخذت تضربه بالقنابل ، ولكن حدث أن جنحت سفينة أمريكية تدعى فيلادلفيا على الشاطىء الليبى فى ٣١ أكتوبر ١٨٠٣م فأسرها جنود يوسف باشا وأخذوا بحارتها البالغ عددهم ٣٠٠ أسرى •

---

(٤٨) د. نقولا زيادة : مرجع سبق ذكره ص ٤٩ .

ورفض يوسف باشا اطلاق سراح السفينة الأمريكية فيلادلفيا وبحارتها الا اذا تعهدت الولايات المتحده بدفع مطالبه السابقة ، ومن ثم اتجهت الولايات المتحدة الى أسلوب آخر تجبر به الباشا على اطلاق سراح السفينة وبحارتها ، وتولى هذه العملية القنصل الأمريكى فى تونس ويدعى ايتون ويروى دكتور نقولا زيادة[٤٩] تفاصيل العملية بقوله : —

وضع ايتون نصب عينيه ضرورة احتلال طرابلس ، ولكنه أدرك أن الهجوم من البحر ليس ممكنا ، ولا يمكنه الهجوم برا من الغرب لأن باى تونس لا يسمح له بذلك ففكر بمهاجمة طرابلس من الشرق وفكر فى أن يقنع أحمد أحد القرمانليين الطامعين فى حكم ليبيا بأن يقود الحملة . وكان أحمد يومها فى مصر ، وقد وضع نفسه تحت تصرف أحد أمراء المماليك ، فذهب ايتون الى مصر ، واتصل بأحمد واقنعه بمرافقة الحملة، وحصل له على اذن بمغادرة البلاد ، وقاد الحملة التى كان رجالها من البدو والمالطيين واليونان الى درنة التى احتلها فى ٢٦ أبريل ١٨٠٤م . والظاهر أن يوسف باشا خشى العاقبة بعد سقوط درنة فقبل بالمفاوضة ورضى بأن يطلق سراح الأسرى الأمريكيين مقابل ٦٠ ألف قرش بدل ٤٠٠ ألف قرش كان قد طلبهــا قبل ذلك ، أما أحمــد فقد أعيــد الى الاسكندرية حيث ظل الى حين وفاته سنة ١٨١١م .

وفى الوقت الذى كان يوسف القرمانى يحكم ولاية طرابلس الغرب ظهر على مسرح الأحداث فى القطر المجاور — مصر — محمد على الوالى الذى اتبع نفس أسلوب أحمد القرمانلى مؤسس الأسرة فى طرابلس لارتقاء كرسى الولاية ، ولكن محمد على كان من الذكاء ما دفعه الى اعداد كوادر فنية من المصريين لبناء البلاد بناء حديثا مستمرا بعكس ما فعله القرمانليون ، وفى الوقت الذى كان فيه محمد على يتجه الى بلاد الشام لضمها الى مصر عام ١٨٣٣ بعد أن اتسع ملكه فشمل الحجاز والسودان

---

(٤٩) د. نقولا زيادة : مرجع سبق ذكره ص ٤٧ .

كان يوسف قد اضطر للتنازل عن الحكم لأبنه على باشا الثانى عام ١٨٣٢م وهناك رواية(٥٠) تذكر أن محمد على كان قد فكر فى غزو برقة واستخلاصها من حكم يوسف القرمانلى المنهار وضمها الى مصر ، ولكن هذه الرواية تحتاج الى أدلة أكثر للتثبيت من حقيقتها ، وان كان محمد على عام ١٨٢٩ قد خضع لاغراء فرنسا لكى يحتل الجزائر ولم يثنه عن ذلك سوى خوفه من الصدام مع انجلترا ، مما يوحى بأنه كان له أطماع فى برقة كما تذكر الرواية المذكورة .

هكذا كانت حياة يوسف القرمانلى حيث يجد المؤرخ المنصف فى بداية حكمه « ما يفسح المجال للأمل فى الأصلاح ، حتى اذا ما قارب النهاية من سيرته وجد من الشناعات ما يبعث الحسرة فى النفوس ويفتح باب اليأس على مصراعيه ، ويرغمه على القول بأن عهد السيطرة التركية على ليبيا قد قعد بها عن اللحاق — فى التقدم — بجارتيها مصر وتونس »(٥١) .

ذلك أن يوسف باشا « لما انتقل من طور الشبيبة الى طور المشيب استهان بأهل الايالة — ولاية طرابلس الغرب وحملهم — بمقتضى ما كان له من اطلاق التصرف من مصاريف شهواته وألوان لذاته — أكثر من طاقتهم ، حتى آل الأمر الى فاقته وفاقتهم ، وباع من أسطولها الحربى ، وسك مدافعها النحاس فلوسا ، وأرخى عنان التصرف لأبنائه وأصهاره وقسم الايالة بينهم ، فأرسلوا العمال من طرفهم ، وساءت سيرتهم ، وعظم ظلمهم ، واتخذوا طرقا للجباية وفق مصالحهم الذاتية ، وغير ذلك مما نقم من أعماله . وأذن بزواله . انهمك فى الملذات ومعاشرة المضحكين

(٥٠) ذكرها المؤرخ الليبى مصطفى بعيوف محاضرة له بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية اثناء انعقاد ندوة المؤرخ الجبرتى فى ابريل ١٩٧٤م بالقاهرة .

(٥١) طاهر الزاوى : مرجع سبق ذكره ص ٣٢٣ .

والصفاعين وسماع الألحان »[٥٢] .

كما أن يوسف باشا اضطر الى الاقتراض من الأجانب والى فرض الضرائب على الناس لكى يواجه الانفاق المتزايد على ملذاته وعلى حملاته العسكرية ضد الثوار « ووجد قنصل الأنجليز وقنصل فرنسا سبيلا الى الدس ضده ، وتخلى عنه كثير من أنصاره ، ولم يجد سبيلا للخروج من هذا المأزق الا التخلى عن الحكم وفى يوم ١٢ من أغسطس سنة ١٨٣٢م الموافق ربيع الآخر سنة ١٢٤٨ هـ عقد اجتماعا حضره أولاده ووزراؤه وأعيان البلاد وعلماؤها ، وقرر تنازله عن الحكم لابنه على ، وجعل ابنه ابراهيم وليا للعهد »[٥٣] .

على القرمانلى الثانى

ورث على الثانى الحكم ولكنه ورث معه ثورة عنيفة واضطرابات خطيرة أدت فى النهاية الى القضاء على الأسرة القرمانلية فى ولاية طرابلس الغرب ، وقد ظل على فى الحكم من ١٨٣٢ الى ١٨٣٥م واجه فيها من الثورات والحروب الأهلية وعوامل القحط الشىء الكثير التى أدت الى سقوط حكمه وأسرته معا .

وقد بذل على الثانى كل جهوده لاستتباب النظام والأمن فى البلاد ولكنه لم يوفق لأنه كان مكروها من المواطنين والجند على السواء بسبب قسوته من ناحية وبسبب المساوىء التى ورثها عن أسلافه من ناحية أخرى .

ورغم أن والده يوسف باشا تنازل له عن الحكم فى أغسطس ١٨٣٢ الا أن « الفرمان السلطانى لم يصله الا فى العام التالى ١٨٣٣ بعد مرور اثنى عشر شهرا (من ربيع الآخر ١٢٤٨ الى ربيع الآخر ١٢٤٩هـ) ولكن الثوار من أهل البلاد أصروا على عدم الاعتراف بولايته « ودامت الفتن والحروب الأهلية نحو العامين »[٥٤] .

---

(٥٢) احمد النائب : مرجع سبق ذكره .
(٥٣) رودلفو ميكاكى : مرجع سبق ذكره .
(٥٤) احمد النائب : مرجع سبق ذكره .

وفى أوائل شهر المحرم عام ١٢٥١هـ الموافق ٢٦ مايو ١٨٣٥م وصل الى ميناء طرابلس أسطول عثمانى كبير يحمل نجيب باشا الوالى العثمانى الجديد الذى قرر السلطان ارساله الى طرابلس الغرب لانهاء حكم الأسرة القرمانلية واعادة الولاية الى الحكم العثمانى المباشر ، وعندما رسا الأسطول فى الميناء دعى على باشا الثانى الى سفينة القيادة فى ٢٨ مايو حيث كان ينتظره نجيب باشا الذى أخبره بفرمان السلطان بعزله وأنه يجب أن يذهب الى الآستانة مركز السلطنة هو وأسرته ومن يريد أن يصحبه معه • ثم نزل نجيب باشا تاركا على القرمانلى على السفينة وقرىء الفرمان على الناس الذى ينص كذلك على تعيين نجيب باشا والياء

ويعلق أحمد النائب[٥٥] على هذه الأحداث بقوله : وقتل محمد القرمانلى نفسه ، وفر أخوه أحمد الى مالطة ، وأرسل على القرمانلى الى الآستانة ، وانقرض بيت آل القرمانلى وتفرقوا أيدى سبأ وحصل المنى ، والله يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، وهذه ثمرة التصرف بالشهوات ، وغض الطرف عن الغوائل والآفات ، واستعمال الشدة فى موضع المداراة » •

تقييم للحكم القرمانلى

حكمت الأسرة القرمانلية ولاية طرابلس الغرب حكما وراثيا مدة مائة وأربعا وعشرين سنة (١٢٤) من ١٧١١ الى ١٨٣٥م (١٢٨ سنة هجرية من جمادى الآخر ١١٢٣ الى المحرم ١٢٥١هـ) حكم خلالها ستة من أمراء الأسرة ومع ذلك لم يستطيعوا الاحتفاظ بالبلاد لأنه لم تكن لهم ــ شأنهم فى ذلك شأن الولاة الأتراك فى العصر العثمانى الأول ــ سياسة واضحة ومرسومة لحكم البلاد وتنميتها والمحافظة عليها والأخذ بيدها ، كما حدث لمصر فى عهد محمد على الذى عاصر يوسف باشا وعلى باشا الثانى ولذلك لم تكد ولاية طرابلس الغرب تشعر بشىء من

---

(٥٥) نفس المصدر .

الاستقرار فى بداية حكم الأسرة القرمانلية حتى عادت الى حالة الفوضى الشاملة التى كانت عليها البلاد فى العصر العثمانى الأول .

وكانت السياسة الوحيدة التى حرص على اتباعها أمراء الأسرة القرمانلية هى الحصول على الأموال بكل وسيلة للصرف منها على حياة البذخ التى كانوا يحيونها فى قصورهم الفخمة ، وكانت سياستهم هذه ذات شقين : الشق الأول فرض الضرائب على الناس واتخاذ الأساليب التعسفية فى جمعها على يد جند الانكشارية والقول أو غلية الذين كانوا من أدوات الأمراء القرمانلية فى حكم البلاد .

وأما الشق الثانى من سياسة الأمراء القرمانليين فى حكم ليبيا فكانت اتباع أسلوب الجهاد الاسلامى فى البحر المتوسط . حقيقة كان هذا الأسلوب سائدا فى تلك العصور فى البحر المتوسط ، ولكنه لم يكن أسلوب دول بل كان أسلوب أفراد وعصابات ولجوء الأمراء القرمانليين الى المغالاة فى هذا الأسلوب ، وان كان فى البداية قد در عليهم الأموال الطائلة وأوقع الرعب فى قلوب الأوروبيين الا أنه أدى فى النهاية الى التحالف بين الدول الأوروبية ضد هذا العمل ومن يقوم به .

فقد قررت الدول الأوروبية فى مؤتمراتها ــ كما أشرت سابقا ــ محاربة أعمال الجهاد البحرى ولذلك وقفت من الولاية موقف العداء ، بل حاولت كل دولة أوروبية أن تفرض على الولاية ــ أواخر عهد الأسرة القرمانلية ــ الأتاوات والشروط كما كانت هى تفعل ذلك مع الدول الأوروبية . ولعل فشل يوسف باشا فى فرض سياسته البحرية على الولايات المتحدة ثم احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠م أدى الى ضعف ليبيا بحريا بل والى القضاء على سيطرة الأسطول الليبى .

ونخلص من كل ذلك الى أن ولاية طرابلس الغرب فى عصر الأسرة القرمانلية لم تستفد شيئا ذا بال نتيجة لتلك السياسة غير المرسومة ونتيجة استمرار الفوضى والثورات والحرب الأهلية التى شهدتها البلاد

والتى كان أهل الولاية ضحيتها الأولى اللهم الا ما قام به مؤسس هذه الأسرة أحمد باشا من اشتراك بعض الوطنيين فى الجيش وفى ادارة البلاد ليستجلب محبة الناس ، « خاصة بعد أن جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، وان كانت اللغة التركية لم تختلف تماما ، الا أن هذا العمل من جانبه كان سنة طيبة نسج على منوالها من جاء بعده من أبناء أسرته »[٥٦] .

العصر العثمانى الأخير

عاد الحكم العثمانى المباشر الى ولاية طرابلس الغرب بانتهاء حكم الأسرة القرمانلية عام ١٨٣٥م واستمر حتى عام ١٩١١م عندما احتل الايطاليون البلاد وأنهوا الحكم التركى الذى حكم ليبيا ٣٦٠ سنة .

جاء هذا الحكم العثمانى المباشر « بعد أن ضاق المواطنون ذرعا بما ساد بلادهم من فتن واضطرابات حرمتهم الأستقرار المنشود لينصرفوا الى حياتهم العادية ، وجاء — كما حدث فى منتصف القرن السادس عشر — بعد أن طلب بعض المواطنين من السلطان العثمانى تخليص البلاد من الفوضى والانقسامات التى حدثت فى عهد الأسرة القرمانلية وبصفة خاصة فى أواخر حكمها[٥٧] .

وان كان بعض المواطنين فى الولاية قد شعروا بالفرح لمجىء الحكم العثمانى الذى أنهى السيطرة القرمانلية ، فان غالبية أهل الولاية نظروا الى مجىء الولاة العثمانيين من استانبول نظرة شك وتردد حيث لم يقم نظراؤهم — قبل عصر الأسرة القرمانلية بما يرضى أهل الولاية من أعمال مفيدة تأخذ بيدهم الى التقدم والأزدهار ، ولذلك سرعان ما ناصب أهل الولاية الدولة العثمانية العداء وأبوا الخضوع للسلطة الحاكمة ، لأن الحكم العثمانى عاد للبلاد وأعاد معه النظام الفاسد السابق ولم يحاول تغيير ما أدى الى سخط الشعب قبلا .

---

(٥٦) د. حسن سليمان محمود : مرجع سبق ذكره ص ١٨٥ .

(٥٧) د. رأفت الشيخ : مرجع سبق ذكره ص ٤٤ .

لقد بقى العصر العثمانى الأخير فى ولاية طرابلس الغرب ما يقرب من سبعة وسبعين عاما تولى الحكم خلالها ثلاثة وثلاثون واليا تراوحت مدة ولاية بعضهم بين سنة وعدة شهور ، وكان أول هؤلاء الولاة هو رءوف باشا[٥٨] الذى جاء بعد أن أنهى نجيب باشا حكم الأسرة القرمانلية واستبعدها الى الآستانة وقد أبقى بطرابلس يوسف باشا لكبر سنه مع أفراد أسرته ، « وتوالى مجىء الولاة بعد رءوف باشا وكان كل منهم يأتى ولا يكاد يستقر حتى يصدر فرمان بعزله وبتولية غيره فى ولاية ليبيا ، ولذلك كان الوالى يسعى بمجرد وصوله الى البلاد فى جمع أكبر مبالغ من المال ممكنة لأنه يعلم مسبقا أن بقاءه فى منصبه لوقت قصير »[٥٩] .

لقد صرف الولاة العثمانيون كل وقتهم فى ولاية طرابلس الغرب فى محاولات مستمرة للقضاء على ثورات أهل البلاد ، تلك الثورات التى قامت فى معظم أنحاء الولاية فكان يتزعم الثورة فى مصراته « عثمان أغا » وفى « يفرن » بالجبل الغربى « غومة المحمودى » ، وفى فزان « عبد الجليل سيف النصر » ، وفى برقة « عادل » . ولم تكن هذه الثورات مجرد أعمال فردية بل كانت مظهرا لما طبعت عليه القبائل من حب للحرية وعدم الخضوع للسيطرة الأجنبية ، ونجحت هذه الثورات فى اجهاد سلطة الحكومة العثمانية فى الولاية واضعافها ، وان كانت هذه الثورات قد فشلت فى تحقيق أملها وهو التخلص من العثمانيين واقامة حكومة محلية من بين أهل البلاد فان ذلك يرجع الى التنافس والصراع الذى كان يحدث بين زعماء هذه الثورات وجهلهم بالطرق الكفيلة بنجاحهم وتحقيق أهدافهم الى جانب المجاعات التى كانت تصيب البلاد فتحد من هذه الثورات ومن ولاء الناس لها والتفافهم حولها .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الولاية فى أثناء هذا العصر قد شهدت

---

(٥٨) تذكر بعض المصادر اسمه محمد رائف بدل رءوف .

(٥٩) د . حسن محمود : مرجع سابق ص ١٩٢ .

احداثا لها دلالاتها منها ثورات قومية عام ١٨٨١ احتجاجا على الغزو الفرنسى لتونس وعام ١٨٨٢ ضد الاحتلال الانجليزى لمصر ، وان أهل الولاية كان ولاؤهم عربيا لا عثمانيا ، فعلى سبيل المثال « وعلى ما روى الرحالة الأوروبيون كان غومــة المحمودى يعتبر أحــد الناطقين باسم القومية العربية المقاومين للاحتلال التركى »[٦٠] .

كما أن بعض الليبيين فكروا عنـدما قامت الحــرب بين الدولة العثمانية وروسيا عام ١٨٥٣م رأوا أن « الفرصة سانحة لاعلان استقلال بلادهم عن السلطنة فاشترت بعض القبائل السلاح وطلب بعض الزعماء مساعدة فرنسا عن طريق قنصلها »[٦١] ولئن كانت هذه الفكرة لم تأخذ طريقها الى التنفيذ فلأن يد الليبين لم تجتمع كلها على هذه الفكرة ثم أنه حدث فى عهد السلطان عبد الحميد « أن طلبت الحكومة من الوالى تجريد الأهالى فى ولاية طرابلس الغرب من السلاح وتفتيش الزوايا السنوسية لضبط ما عسى أن يوجـد بها من أسـلحة ، وكان ذلك من الأسباب التى دفعت السيد المهدى السنوسى الى الانتقال من واحة الجغبوب الى واحة الكفرة والايغال فى الصحراء »[٦٢] .

واذا كانت الولاية قد لاقت الأهمال من جانب الدولة العثمانية وولاتها فى النواحى الاقتصادية والعمرانية ، ونواحى العدل ، فانها لاقت الأهمال فى نواحى الصحة والتعليم أيضا ، وصدق من قال « أما العلوم والمعارف العصرية فلا توجد عندهم بل لايشمون لها رائحة»[٦٣] .

انتهت مأساة الحكم العثمانى لليبيــا عام ١٩١١ لتبــدأ مأساة

---

(٦٠) د. نقولا زيادة : مرجع سابق ص ٥٦ .

(٦١) نفس المرجع : ص ٥٧ .

(٦٢) مصطفى بعيو : مرجع سابق ص ١٠٧ .

(٦٣) حلة الحشائش الى ليبيا ص ١٩٠ .

الحكم الايطالى للبلاد الذى جاء نتيجة حتمية لسياسة الحكم العثمانى حتى صدق القول بأنه ما من بلاد عربية كانت تحت الحكم العثمانى استطاعت أن تحكم نفسها بنفسها بعد انفصالها عنه ، بل انتقلت من حكم العثمانيين الى حكم أجنبى آخر قبل أن تصل الى الاستقلال »[٦٤].

---

(٦٤) مصطفى بعيو : مرجع سابق ص ٦٥ .

الفصل السابع

آل العظـــــم

فى ســـــوريا

* ✻ سوريا قبل آل العظم .
* ✻ ظهور اسرة العظم .
* ✻ سوريا بعـــد آل العظم .

ســـوريا قبـــل آل العظم

لم يكن وقوع بلاد الشام فى يد السلطان سليم الأول العثمانى عام ١٥١٦م الا بداية لفترة من الحكم العثمانى الطويل الذى يستمر لمدة أربعمائة سنة ظهرت خلالها مثالب التنظيمات العثمانية وما ساعد على قيام حركات ثورية واستقلالية فى أنحاء الشام ، واذا كانت الأسرة المعنية الدرزية قد بادرت برفع راية الثورة ضد الحكم العثمانى اعتبارا من عام ١٥١٦ نفسه فان سوريا قد شهدت حركة أخرى وان كانت حركة سلمية مع الدولة العثمانية ، تمثلت فى تولى آل العظم الحكم فى سوريا لمدة بلغت ستين سنة ، الى جانب وقوع حركة استقلالية ثالثة فى جنوب سوريا هى حركة الشيخ ظاهر العمر ..

ولمـــا كان لكل شىء أصل وسبب ، فان ارتقاء آل العظم للولاية فى سوريا قد حدث بسبب توفر ظروف معينة اضطرت الدولة العثمانية الى الاستعانة بأفراد هذه الأسرة لتولى مقاليد الحكم فى ايالات سوريا، وهذه الظروف تمثلت فيما أصاب سوريا من فوضى واضطراب بعد أن كانت الحالة فى بداية الحكم العثمانى طيبـــة والأمن مستتب والحيـــاة الاقتصادية نشطة ومستقرة .

ومصـــــدر الفوضى التى أصابت ســــوريا كانت من المسئولين عن استقرار الأمن وأعنى من القوات العسكرية المتمركزة هناك ، سواء المحلية أو الوافدة من مركز الدولة العثمانية ، واذا كانت مدينة حلب قد شهدت طوال قرنين من الزمان تقريبا من بداية الحكم العثمانى من الاســـتقرار والأزدهار الاقتصادى حتى أصـــبحت أكبر وأهم المراكز التجارية فى الليفانت بسبب وقوعها على الطرق المؤدية الى تركيا من ناحية والعراق من ناحية أخرى ، فان النزاع بين القوات المحلية فى المدينـــة والتى عرفت باسم الأسياد أو الاشراف[1] من ناحية وبين القـــوات

---

(١) يدعون الانتســاب الى الرسـول عليه الصـلاة والسـلام .

الوافدة وأعنى الانكشـــارية ، أدى الى تدهــور النواحى الاقتصادية واضطراب نشـاط السكان .

أما دمشـق فقد كانت المدينة الكبرى فى الشام ذات الوضع التاريخى والأدبى والروحى فقد شـهدت هى الأخرى منذ بدايد الحكم العثمانى رخاء وأنتعاشا فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى ، الا أنها فى أوائل القرن الثامن عشر شـهدت فترة من الفوضى والاضطراب أيضا بسـبب النزاع بين الانكشـارية السلطانية وهى القابقول وبين الانكشارية المحلية التى تسمى يردلية[٢] .

وفى وسـط هذا الاضطراب والفوضى التى انتشرت فى سوريا لجأ اباشوات اعثمانيون الى أساليب ساهمت فى أزدياد الفوضى خاصة فى زمن الباشـوات الضعاف ، ذلك أن هؤلاء الباشـوات لجئوا الى استخدام جنود مرتزقة عرفوا بالمغاربة معظمهم من الجزائر والمغرب وتونس ، وآخرين من التركمان .

ولكن هؤلاء الجند كانوا عاملا جديدا فى الاضطراب ، وقد أدت الاضطرابات المتوالية وخصوصا فى حلب الى انهيار الزراعة ، فالرحالة الفرنسى فولنى VOLNEY يذكر فى سـنة ١٧٨٥ م أن أكثر من ٣٢٠٠ قرية فى ايالة حلب كانت مسـجلة اسماؤها فى سجلات الضرائب ، ولكن لم يبق منها ذلك العام أكثر من ٤٠٠ قرية ، أما بقية القرى فقد هجرها سكانها[٣] .

---

(٢) د. محمد انيس ود. حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٥٨ .

(٣) د. محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٥٢ .

اســـرة العظـم

فى وسط هذا الاضطراب الذى حدث فى حلب لاقت دمشق فترة من الاضطرابات حتى ظهرت أسرة حكمت هذه الايالة لمصلحتها — أى مصلحة الأسرة — ولمصلحة الدولة العثمانية فى نفس الوقت ، بمعنى أن آل العظم سعوا الى تولى باشوية دمشق — الشام — وأثبتوا أمام السلطان العثمانى أنهم جديرون بثقتـه — رغم كونهم عربا — لأن باشوات هذه الأسرة حققوا أمل السلطان ورغبته ..

كانت دمشق مثار اهتمام السلطان العثمانى باعتبارها تتحكم فى طريق الحجاج الآتين من تركيا ومن شمال سوريا وتأمين هؤلاء الحجاج فى الطريق أمر له أهميته عند السلطان العثمانى باعتباره حامى حمى الاسلام والمسلمين ، وتعرض الحجاج الى سلب ونهب البدو فى طريق الحج عبر بلاد الشام الى الحجاز مما يؤثر فى مركز السلطان الدينى باعتباره خليفة المسلمين .

وحرص السلطان العثمانى على سلامة الحج استدعى منه أن يعهد الى باشا دمشق بقيادة حملة عسكرية لمرافقة قوافل الحجاج كل موسم لحمايتها من اغارات البدو ، وكثيرا ما كان هذا الباشا يحمل لقب أمير الحج ومن ثم يتولى امداد هذه القوافل بما تحتاج اليه من مؤن ورعاية طوال عبورها أراضى بلاد الشام حتى الأراضى المقدسة .

اذن اعتبر السلطان العثمانى حـدوث اضطراب فى ايالة دمشق أمرا لا يمكن السكوت عليه ، ولكن ماذا يفعل ؟ .. من الطبيعى أن يلجأ الى تغيير الولاة ، وعندما لجأ الى هذا الحل لم يكن يتصور أن آل العظم الذين لجأ اليهم عام ١٧٢٤ م سيضطر الى تثبيتهم فى الباشوية رغما عن نظم الحكم العثمانية التى تميل الى تقصير مدة الباشا فى الولاية ، ورغما عن أن تثبيت أسرة أمر يخشاه السلطان العثمانى .

ولنا فى تاريخ العراق فى أوائل القرن الثامن عشر — عام ١٧٠٤ م

بصفة خاصة — دليلا على اضطرار السلطان العثمانى الى مخالفة التنظيمات العثمانية وقبوله المرغم على تثبيت الحكام الذين يكونون أسرات وراثية فقد حكمت العراق أسرة حسن باشا حكما وراثيا ، فلا بأس أن تحكم أسرة العظم فى سوريا هى أيضا حكم وراثى .

اذن كانت استعانة السلطان العثمانى بآل العظم على أمل أن ينتهى الاضطراب والقلق فى ايالة الشام — دمشق — ولقد استطاع آل العظم بالفعل ضمان الأمن والاستقرار فى الايالة وبالتالى تثبيت السيادة العثمانية على الايالة مما أدى الى عدم استطاعة الدولة العثمانية الاستغناء عن خدمات هذه الأسرة ..

كان أول باشوات آل العظم هو اسماعيل باشا الذى نقل من باشوية صيدا الى باشوية الشام — دمشق — عام ١٧٢٤ م كما ذكرنا . واستطاع اسماعيل أن يخضع حركات التمرد فى دمشق ويعيد الى المدينة نوعا من الاستقرار ، واستمر ماسكا بزمام الأمور مستعينا بجنده من مماليك البوسنة والمغاربة حتى طرد هو نفسه من دمشق عام ١٧٣٠م(٤).

وتوالى أفراد أسرة العظم فى حكم باشوية الشام بل وتولى غيرها من باشويات الشام بعد اسماعيل العظم ، فنسمع عن سليمان باشا العظم الذى تولى باشوية الشام من عام ١٧٣٢ م الى ١٧٤٢ م حتى توفى فى تلك السنة والأمور مستتبة فى الباشوية وخلفه ابن أخيه أسعد باشا العظم الذى حكم حتى عام ١٧٥٦ م تصدى خلال مدة حكمه الطويلة لمحاولات الخروج عليه من قبل البردلية والدروز والطامعين فى الباشوية ..

ذلك أن الفرقة العسكرية المعروفة بالبردلية ثارت ضد أسعد باشا وكان يتزعمها الدفتردار سيد فتح الله الذى كان رأس أسرة كبيرة فى دمشق ، ولكن أسعد استطاع عام ١٧٤٦ م أن يقبض على فتح الله

---

(٤) د. محمد انيس ود. رجب حراز : المرجع السابق ص ٥٩ .

وعلى عدد كبير من اليردلية وأن يقتلهم جميعا[٥] • كما اصطدم بحسين باشا بن مكى الذى كان حاكما لصدا واستطاع عام ١٧٥٦ انتزاع دمشق من أسعد باشا العظم •

وفى عهد أسعد باشا اتسع نفوذ أسرة العظم بتوالى أفرادها فى باشوية دمشق وباستقرار الأمور فى أيديهم وتولى أسعد نفسه ايالة حلب منذ عام ١٧٥٥ م ، الى جانب أنه حصل على موافقة السلطان بتعيين أقاربه وأتباعه فى باشويات طرابلس وصيدا •

ورغم اتساع نفوذ آل العظم ، ورغم ضيق الدولة العثمانية من هذا الاتساع فقد اثبتت الأحداث أنهم أجدر بتأييد الدولة العثمانية ضد الخارجين عليهم ومن ثم فان دمشق شهدت فترة من الاضطراب منذ خروج أسعد العظم منها عام ١٧٥٦ م الى أن تعين عثمان باشا العظم المعروف بعثمان الصادق ١٧٦١ م ، وحدثت خلال الخمس سنوات هذه صدامات بين القابيقول من ناحية واليردلية وحلفاؤهم الدروز من ناحية أخرى ، كما تعرضت قوافل الحج لاغارات قبائل البدو •

وجاء تعيين عثمان باشا ـ الصادق ـ دليلا جديدا على اعتراف الدولة العثمانية بحاجتها لباشوات هذه الأسرة لضمان الأمن والاستقرار فى سوريا ، ذلك أنه منذ أوائل الثلاثينات من هذا القرن ـ الثامن عشر ـ ظهر على مسرح الأحداث فى جنوب سوريا رجل عربى طموح تواق الى الحكم هو الشيخ ظاهر العمر ، وكان ازدياد خطر ظاهر العمر فى ايالة صيدا قد أجبر السلطان على تأييد آل العظم فى باشوية دمشق وتعيين أقاربهم وأتباعهم فى ايالات صيدا وطرابلس وفى حلب أحيانا[٦] •

ورغم أن عثمان باشا العظم فشل فى صد التحالف المملوكى المصرى الشامى أى تحالف جند على بك الكبير وجند الشيخ ظاهر العمر حتى

---

(٥) د. محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٥٣ .

(٦) د. محمد انيس و د. رجب حراز : نفس المرجع ص ٦٠ .

دخل هؤلاء الجند دمشق نفسها عام ١٧٧١م مما جعل الدولة العثمانية تعزل عثمان باشا وتعين باشا آخر مكانه فان آل العظم عادوا الى الحكم مرة أخرى فى دمشق فشخص محمد باشا العظم عام ١٧٧٨ م الذى حكم حوالى عشرة سنوات حكما مستقرا بصورة سبق فيها غيره من الباشوات حتى صار محل تقدير أهل الايالة .

سوريا بعد آل العظم

بأنتهاء حكم آل العظم فى سوريا عام ١٧٨٦ م عادت الانقسامات والفتن فى الايالة مما جعلها تفقد الأهمية التى كانت لها ، بل أن تصبح تابعة لايالة صيدا خاصة بعد أن انتزع باشا صيدا أحمد الجزار ايالة دمشق وضمها الى حكمه عام ١٧٩٠م . وبتسلط الجزار على دمشق عاشت الايالة أسوأ ما عرفته من حكم وحكام حتى عام ١٨٠٤ م ..

لقد كان من مظاهر سوء حكم أحمد الجزار فى دمشق فرض الضرائب الباهظة على الأهلين . وانخفاض العملة ، واسراف الباشا فى اراقة الدماء ، مما اضطر الكثيرين من أهالى البلاد الى الهرب من دمشق الى لبنان أو حلب فرارا من بطش الجزار وارهاقه .

وخلف أحمد الجزار فى حكم جنوب سوريا قائد جيشه المسمى سليمان باشا ، أما فى دمشق فقد توالى على حكمها الباشوات مطيحا اللاحق منهم بالسابق ، فى الوقت الذى كان على هؤلاء الباشوات مواجهة المد السعودى حملة دعوة التوحيد الى بلاد الشام . واستمر الوضع على هذا النحو من عدم الاستقرار حتى اتجه الى الأقطار الشامية عام ١٨٣١ م محمد على باشا وابنه ابراهيم باشا من مصر .

وبالجملة فقد كانت فترة حكم أسرة العظم فى سوريا فترة ذات فائدة لتلك البلاد ، وان كانت تلك الأسرة دعمت السيطرة العثمانية على تلك الجهات ، فان ذلك كان لفائدة مشتركة وجنتها الدولة العثمانية كما جناها أهالى سوريا .

الفصل الثامن

حـركة الشـيخ ظاهر العمـر

فى فلسـطين

* ايالة صيدا .
* ظاهر .
* ظاهر والدولة العثمانية .
* ظاهر العمر وعلى بك الكبير .
* نهاية الشيخ ظاهر .
* ظاهر العمر والدول .
* تقييم حركة ظاهر .
* ماذا بعد ظاهر .

ايــالة صيــدا

خضعت بلاد الشام منذ دخول العثمانيين اليها فى أوائل القرن السادس عشر لنظم الحكم العثمانية وطبقا لهــذه النظم فقد انقسمت بلاد الشام الى ثلاث ولايات هى : ولاية[1] (ايالة) حلب وتضم مناطق شمال الشــام • وولاية طرابلس وتشمل بلاد وسط الشــام ، وولاية دمشق[2] وتضم البلاد الجنوبية من سورية وكل فلسطين •

وقد ظل هذا التقسيم سارى المفعول حتى عام ١٦٦٠ م حيث أعيد تقسيم بلاد الشام الى أربعة ولايات باضافة ولاية صيدا التى ضمت المناطق الساحلية لبلاد الشام ، وكانت حيفا وبلاد حارثة ويافا وجبل نابلس وغزة فى فلسطين تابعة لايالة الشام الواسعة ، ومن ثم كانت ايالة صيدا ضيقة ضيق سيف البحر لا تتجاوز مدن الساحل وضواحيها وبلاد صفد لأن أكثر البلاد الداخلة بحدودها ولا سيما العالية فى الجبال كان الغالب فيها الحكم الاقطاعى حيث لم يكن للوزير يد الا ماندر[3] •

وكان الدافع أمام الدولة العثمانية لانشاء ولاية رابعة ببلاد الشام عام ١٦٦٠ م — وهى ولاية صيدا — هو مراقبة الدروز والموارنة فى لبنان وضمان عدم تجدد الثورات من قبل هؤلاء أو أولئك بعد التجربة المريرة التى مرت بها الدولة العثمانية فى اخماد ثورة الأمير فخر الدين المعنى الدرزى •

وحتى تحقق هذه الولاية الجديدة رسالتها فى اخماد ثورات الدروز أو الموارنة فقد قضت التنظيمات العثمانية بأن تتعاون الولاية الجديدة

---

(١) الولاية كالايالة او مشتقة منها (ميخائيل الصباغ) .

(٢) كانت تعرف ايضا باسم ولاية الشام .

(٣) ميخائيل نقولا الصباغ : تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيدانى ص١٠ .

(صيدا) مع ولاية طرابلس ، وتتعاون الولايتان الساحليتان مع ولاية دمشق باعتبارها أكبر ولايات بلاد الشام .

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أكتسبت ولاية صيدا مركزا خاصا بين ولايات الشام ، أى أصبحت أكثر مكانة بين ولايات بلاد الشام ويرجع ذلك الى توفر عدة عوامل هى :

أولا : تجدد النزاع مع دروز لبنان .
ثانيا : تطلع البكوات المماليك فى مصر الى جنوب بلاد الشام .
ثالثا : نشاط الأوروبيين التجارى فى صيدا[٤] .

وكما هو معلوم فى التنظيم العثمانى لحكم الولايات ، كان يلى ولاية صيدا — شأنها شأن بقية الولايات — واليا وزيرا أو نائبا للسلطان كما كان يسمى — بيده السلطات العسكرية والمدنية (المالة والادارية والقضائية) ، وكان يلتزم الولاية من الباب العالى بمال معلوم مع هدية سنية من المال على وجه ثابت .

وكانت ولاية صيدا — كغيرها من الولايات — مقسمة الى اقطاعيات يلتزم كل مقاطعة منها شيخ من البيوت القديمة ذات الحيثية ، من الوالى رأسا أو من أمير أعظم منه نظير مبلغ معين من المال لا يقبل الزيادة يقال له مال الميرى يدفعه الشيخ مع هدية مالية يقال لها عوائد[٥] . وأصحاب المقاطعات لا يدعون الباشا يتدخل فى شئون بلادهم ويقاومونه اذا حاول التدخل متحصنين فى حصونهم وجبالهم ومستندين الى اتحاد كلمتهم . ذلك أن هؤلاء المشايخ كانوا يتحصنون فى قلاع قديمة من بقايا آثار الصليبيين بالجبال ، ويلتف حولهم رجال أشداء من عشائرهم ينفذون أوامر المشايخ ولا يخرجون عليهم .

ونظرا لأن ولاية صيدا كانت فى نظر الدولة أقل أهمية من بقية ولايات الشام فلم يتواجد بها قوات عسكرية من أهل البلاد أو من

---

(٤) د. محمد انيس : الشرق العربى — ص ٦١ .
(٥) ميخائيل الصباغ : مرجع سبق ذكره ص ١١ .

الانكشارية وانما اعتمد الولاة على قوات عسكرية من الأكراد والتركمان والأرناءوط . ومن المغاربة ومن السودانيين وغيرهم ، وقد تشكلت هذه القوات فى وحدات متنوعة بتنوع مواطن ولهجات ولغـات أصحابها .

وحيث أن هذه القوات ماجورة وغرباء عن أهل البـلاد فلم يكن جنودها يتعاملون مع أهل البلاد الا بوسائل السلب والنهب لمصلحتهم الخاصة ومصلحة الوالى الذى كان دائم السكوت عن أفعالهم وعـدم ايقاف اعتداءاتهم المتكررة على الناس الذين ضجوا كثيرا بالشكوى منهم ، وبلغ ضيق الناس بأفعال هؤلاء الجند أن أصبحوا مضرب المثل الذى لا يزال دارجا الى اليوم بالقول بأن « فلان نظير عسكر الدولة ملحه على ذيله ، أى لاذمة له ولا عهد ولا يذكر الخبز ولا الملح بقيه »[٦] .

ظـــــاهر

كانت أحوال بلاد الشام بصفة عامة وولاية صيدا بصفة خاصة على النحو الذى أوضحناه تهىء لرجل طموح مثل الشيخ ظاهر أن يعلن آماله وتطلعاته ويدافع عنها .. فمن هو ظاهر ؟

هو ظاهر عمر الزيدانى عربى الأصل من قبيلة عربية تدعى بنو زيدان احدى بطون قبيلة أكبرهى بنو أسد النازلة حول معرة النعمان[٧] بين الشام وحلب وكان بنو زيدان يدعون أنهم من نسل زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ولم يكن يعرف من بنى زيدان سوى عمر والد ظاهر عندما اقامه الأمير بشير شهاب الأول شيخا على بلاد صفد لانه ــ أى عمر ــ كان قيسيا نظيره ليغريه بالشيخ السابق الذى كان يمنيا[٨] ، وقد تم ذلك عام ١٦٩٨ م وظاهر له من العمر تسع سنوات .

---

(٦) نفس المصدر ص ١٢ .

(٧) معرة النعمان هى البادية الواقعة فى وسط سوريا الحالية .

(٨) ميخائيل الصباغ : مرجع سابق ص ١٥ ، حدث هذا النزاع بين القبائل القيسية التى منها الشهابيين وعشيرة بنى زيدان ، والقبائل اليمنية ومنها عشيرة المتناولة الشيعة .

ولد ظاهر فيما تروى أقرب المصادر الى الدقة حوالى ١٦٨٩ م ، وقد تأدب بالآداب العربية والثقافة الاسلامية حتى أشتهر بالأخلاق والرحمة مع الشجاعة والمهارة والذكاء ، وقد استطاع بحسن سمعته وتدبيره أن يحصل من باشا صيدا على التزام طبرية فحكمها منذ عام ١٧٣٣ م بالعدل ووفر لأهلها الاستقرار والأمن •

وباستقرار ظاهر العمر فى طبرية أخذ يوسـع التزامه بضم البلاد التى حولها شيئا فشيئا بموافقة باشا صيدا الذى لم يكن يرفض طلبات ظاهر المدعمة بالهدايا ، ولذلك أخذ ظاهر بسهولة ودون عقبات جميع البلاد التى حول طبرية ، وقد فرح أهل تلك البلاد بحكم ظاهر لما اشتهر به من العدل والرحمة وقدرته على حمايتهم من اغارات البدو وحملاتهم للسلب والنهب •

ونتيجة لصفات ظاهر هذه فقد ذاع صيته بين عرب فلسطين وأخذت وفود البلاد المختلفة تفد اليه وتطلب ولايته عليهم بل كثيرا ما كانوا يلجئون اليه ليرد عنهم ظلم حكامهم وملتزميهم ، مما أوغر صدور هؤلاء الحكام والملتزمين ضد ظاهر وجعله هدفا لمؤامراتهم ، وتحالفوا مع الدولة العثمانية وباشوات ولايات الشام ضد ظاهر العمر عندما تأزمت الأمور بين الطرفين •

وقد اتبع ظاهر سياسة المسالمة أولا فى ضم البلاد الراغب فى ضمها الى التزامه فاذا فشلت سياسة المسالمة لجأ الى الحرب ، وكان النجاح حليفة فى معظم الأحوال ان لم يكن كلها •• فقد استطاع مثلا عام ١٧٣٩ م أن يحصل على التزام صفد[٩] من ملتزمها الذى يدعى محمد نافع بأن أخذ « يلاطفه ويحتال عليه بالوعد والوعيد الى أن استنزله عنها وتولاها وأحضر تقريرها من وزير صيدا[١٠] •

(٩) كانت صفد حينئذ قلعة حصينة وقديمة .

(١٠) ميخائيل الصباغ : نفس المرجع ص ٣٨ .

ومن ناحية أخرى اتجه ظاهر الى المتاولة وهم قوم من الشيعة وبلادهم بلاد بشارة بين جبل الدروز (الشوف) وبلاد صفد ، يريد أخذ بلادهم ، ولكنهم رفضوا التنازل عن بلادهم وأنذروه بالحرب ، فحاربهم وغلبهم بالمكر والخديعة وأخذ بلادهم عام ١٧٤٢ م وحصل على التزامها من باشا صيدا ، ثم تحالف ظاهر مع المتاولة انتظارا لصدامه مع الباشوات العثمانيين •

ظاهر والدولة العثمانية

نتيجة لاتساع التزام ظاهر وقوة شوكته ، ونتيجة لاثارة الملتزمين القدامى لباشا صيدا ضد ظاهر فقد أخذت العلاقات تسوء بين ظاهر من ناحية وممثلى الدولة العثمانية من ناحية أخرى ، تلك العلاقات التى انتهت بالقضاء على ظاهر العمر نفسه وتفكك امارته التى بناها طوال سنوات طويلة باللين تارة وبالحرب تارة أخرى •

كان الاحتك الأول بين ظاهر وباشا صيدا هو مدينة عكا التى أراد ظاهر أن يأخذ التزامها بحجة حمايتها من القراصنة المالطيين الذين كانوا يجوبون الحوض الشرقى للبحر المتوسط انذاك ، الا أن باشا صيدا رفض اعطائها لظاهر رغم العروض السخية التى عرضها عليه ظاهر بزيادة المال الميرى المقرر عليها ، فغضب ظاهر واستشار أخاه سعد الذى أشار اليه بأخذها عنوة •

وكان مما قاله سعد : لا تخف من غضب السلطان ، ما عليك بأس من السلطان اذا خذتها وقمت له بمـا لها المقرر عليها لأن العثمانى (السلطان) لا يسأل ان كان المتولى باشا من رجاله أو من أهل البلاد ، وعنده الأمر بالسواء بشرط ن مال الميرى يصل له تماما ، ثم من حيث أن صارت معك كل البلاد وأهلها يريدونك فلمـاذا تجعل بينـك وبين اسلامبول[١١] (عاصمة الدولة) واسطة وتتغرم للباشا عوائد ولاتها

---

(١١) هو الاسم الذى عرفت به بعـد فتحها على يد السلطان محمد الفاتح وهى تعنى مدينة الاسلام الحامية له من الأعداء .

وتدفع للولاة عليها عوائدهم فكأنك بهذا تدفع مضاعفا عوائد الولاة • ونحن عملنا ذلك فى ابتداء أمرنا برضانا لنتولى البلاد بتقرير من الباشا لأننا كنا لا نقدر على مخالفته وأما الآن فقد صرنا بحمــد الله أقوياء ولا يقدر الباشا ان يقاومنا فارسل خذ عكا واقتل متسلمها واقطع عوائد ولاة البلاد التى تدفعها للباشا فان رضى بذلك الباشا واقتصر على ميرى البلاد كان بذلك الخير وأن قصد الحرب والقتال معنا استعدينا له والنصر بيد لله يعطيه ان يشاء[١٢] •

وهذه النصيحة التى نصح بها سعد أخاه ظاهر تدل على نوع الحكم العثمانى وطبيعة العلاقة بين الدولة العثمانية والباشوات وبين هؤلاء الباشوات وبين الملتزمين أمثال ظاهر العمر •• فالدولة لها المال الميرى واستقرار البلاد واستمرار خضوعها للسيادة العثمانية ، والباشا له العوائد والاعتراف بسلطته والحصول على موافقته ، ولكن الدولة وكذلك الباشا يخشى من زيادة التزام أحد الملتزمين مخافة الخروج من السيادة العثمانية وسلطة الباشا • وهو ما أشار اليه سعد لأخيه ظاهر عندما حرضه على حرب باشا صيدا بعد أن قويت شوكة ظاهر بينما كان ظاهر فى البداية يسترضى الباشا ويقدم له الأموال الوفيرة ليحصل على موافقته •

وقد نفذ ظاهر نصيحة أخيه سعد فاقتحمت قواته عكا حوالى عام ١٧٤٤ م وقبضت القوات على متسلم المدينة وأرسل الى ظاهر الذى أكرمه وأرسله الى مولاه باشا صيدا ، ثم أن ظاهر انتقل الى عكا واتخذها مقرا لحكمه • ولمــا وصل المتسلم الى الباشا لم يقدر هذا أن يفعل شيئا لعدم قوته وصبر على ناره وصار يترصد الحوادث لظاهر وهو على حقد عظيم[١٣] •

وعندما استمر ظاهر العمر فى ضم بلاد أخرى مثل الناصرة وحيفا والبلاد المجاورة لها كتب باشا صيدا ــ محمــد باشا العظم ــ الى

---

(١٢) ميخائيل الصباغ : نفس المرجع ص ٤٢ •
(١٣) نفس المرجع ص ٤٣ •

صهره سليمان باشا والى باشوية الشام — دمشق — يستعين به على ظاهر الذى ضم الى التزامه اكثر بلاد الباشوية — باشوية صيدا — ومنع عن الباشا العوائد التى كانت ترد عليه من حكامها وملتزميها ولم يعد يصل اليه سوى المال الميرى المقرر عليها والواجب للسلطان .

فكتب سليمان باشا الى السلطان العثمانى يطلب الموافقة على محاربة ظاهر العمر ، فلما وردت الموافقة قام كل من سليمان باشا ومحمد باشا العظم بحصار ظاهر فى طبرية لمدة ستة شهور ، ولكن ظاهر استطاع بالخديعة تارة وبالقتال تارة أخرى انهاء الحصار المضروب عليه وهزيمة قوات سليمان باشا — الذى قتل هو نفسه فى المعركة — وصهره محمد باشا العظم ، وأتبع ذلك بأن أرسل ظاهر جيشا الى صيدا طرد منها نائب انباشا ، وأعلن توليه عليها وطلب من السلطان فرمانا بذلك ، وقد وافق السلطان بعد أن وصلته الهدايا الكثيرة والأموال الوفيرة من ظاهر على اعطاء ظاهر فرمانا بولاية صيدا والاقطاعيات التى كانت فى يده من بلاد قبل صدامه بسليمان باشا ومحمد باشا العظم .

وبذلك أستقر لظاهر الأمر فى تلك الجهات استقرارا مدعما بموافقة الدولة العثمانية ، وقدأخذ يدعم جيشه ليكون مستعدا للوقوف أمام خروج القبائل عن طاعته والوقوف أمام قوات الدولة العثمانية التى ساءها — رغم موافقتها على ولايته الحكم فى باشوية صيدا وغيرها من البلاد المجاورة — أن يقوم رجل مثل الشيخ ظاهر بالأستيلاء على أجزاء من املاكها بالقوة كما أن الشيخ ظاهر قد أعاد تحصين عكا بالأسوار والأبراج منذ انتقل اليها وجعلها مقرا لحكمه .

لم تكن موافقة السلطان العثمانى على ولاية ظاهر لباشوية صيدا الا عملا مؤقتا ريثما تستعد الدولة عن طريق رجالها للقضاء عليه ، حتى أن السلطان كلف أحد رجاله — عثمان باشا الصادق والى دمشق عام ١٧٦٠ م أن يترصد الأمور لظاهر ومتى أمكنته الفرصة يغتاله . لكن كان

ظاهر قد أقام له بعض العيون لدى باب الدولة فأخبروه عن ذلك أخذ حذره[١٤] .

لذلك لم يلبث السلطان العثمانى أن أصدر أمرا لظاهر بالتخلى عن صيدا وتسليمها للوالى الجديد المدعو درويش باشا بن عثمان باشا الصادق والى دمشق فى الوقت الذى تولى محمد باشا الابن الثانى لعثمان باشا ولاية طرابلس . ولما كان السلطان يدرك ان ظاهر لن يتخلى بسهولة عن صيدا فقد أصدر أمرا للباشوات الثلاثة . عثمان الصادق وولديه درويش باشا ومحمد باشا ومعهم باشا حلب وأمير الدروز بقتال ظاهر والقضاء عليه وعلى اسرته . كل ذلك ولما يمض وقت طويل على وصول الفرمان السلطانى للشيخ ظاهر بولاية صيدا والبلاد التى فى يده من بلاد صفد .

الا أن ظاهر استطاع هزيمة القوات المتحالفة المعادية له هزيمة كبيرة كان من نتيجتها ضعف مركز عثمان باشا وولديه ، ثم تابع ظاهر انتصاراته بطرد درويش باشا من صيد وتولية نائب عن ظاهر فيها بعد أن حصنها ظاهر ، ثم رجع ظاهر الى عكا ظافرا منتصرا ، ومن هناك أخذ يوسع امارته فضم كلا من يافا والقدس والخليل تلبية لطلبات أهلها ، وأرسل للدولة العثمانية بطلب موافقتها ، فاضطر السلطان العثمانى الى اصدار فرمان بذلك نظير خمسمائة كيس من الأموال دفعها ظاهر .

ظاهر العمر وعلى بك الكبير

بدأت صلة ظاهر العمر بعلى بك الكبير فى مصر حوالى عام ١٧٦٠ م عندما نفى على بك معلم دواوين مصر الذى يدعى ميخائيل الجمل والذى قدم الى عكا ونزل فى ضيافة ابراهيم الصباغ وزير الشيخ ظاهر . وقد سر ظاهر ما سمعه من أخبار مصر وأميرها على بك الذى جاهر بالعداء للدولة العثمانية والخروج عن طاعتها .

---

(١٤) نفس المرجع ص ٦٦ .

انتهز ظاهر طلب ميخائيل الجمل شفاعته عند على بك لكى يعيده الى وظيفته فى مصر ويرد عليه ماله الذى صادره منه ، لكى يقيم علاقة وثيقة مع على بك يستعين به على الدولة العثمانية خاصة ان عيونه فى اسلامبول كانوا يخبرونه بأن الحكومة العثمانية تحرض عثمان باشا والى الشام — دمشق — لاغتياله والقضاء عليه .

وقد كان قبول على بك شفاعة ظاهر فى ميخائيل بداية لعلاقة وثيقة بين الرجلين استمرت على قوتها حتى قضى عليها ، وكان رد على بك مشجعا للشيخ ظاهر ، حيث حثه على الوقوف ضد مؤامرات الحكومة العثمانية وأن يكون حذرا من مكر رجالها وأبدى على بك استعداده لنجدة الشيخ ظاهر ومساعدته ضد باشا الشام عثمان باشا ، وكان ذلك سببا فى قوة عزيمة ظاهر .

وعندما علم ظاهر بأن الحكومة العثمانية أرسلت الى عثمان باشا تحثه على أن يعد العدة من جديد القضاء على ظاهر العمر ، أرسل الى على بك فى مصر يشكو له من خيانة الدولة التى رغم محاولات استرضائها وكسب مودتها بدفع الأموال الكثيرة ثانيا تثير ضـــده باشوات الشام لحربه وطرده من امارته ، وختم رسالته لعلى بك برجاء أن يرسل نجـــدة تساعده على وقف زحف عثمان باشا على يافا والقدس والخليل .

سارع على بك بارسال جيش مكون من حوالى أربعة آلاف جندى ليكون فى خدمة الشيخ ظاهر(٥) . ولما علم عثمان باشا بقدوم هذا الجيش المصرى وانضمامه لجند فلسطين بقيادة الشيخ ظاهر ، ترك ميدان القتال وانسحب بجيشه وعاد مسرعا الى دمشق وأنعم ظاهر على سناجق مصر وأرجعهم وأصحبهم بكتاب شكر الى على بك يخبره بما وقع(١٦) وبذلك تخلص ظاهر مؤقتا من تهديدات عثمان باشا بفضـــل التعاون المصرى الفلسطينى .

---

(١٥) عبد الرحمن الجبرتى : المجلد الاول ص ٣٥٤ .

(١٦) ميخائيل الصباغ : نفس المرجع ص ١٠٥ .

ولكن الدولة العثمانية ورجالها فى الشام لم يتوقفوا عن المحاولات للقضاء على ظاهر العمر ، وفى نفس الوقت كان على بك فى مصر قد أغضبه كذلك موقف الدولة العثمانية منه ، ولذلك فقد أرسل جيشا بقيادة مملوكه محمد بك أبو الذهب الى الشام أجتمع مع جيش ظاهر العمر بقيادة ابنه على وذلك عام ١٧٧٢ م ، واستطاع هذا الجيش المشترك أن يلحق الهزيمة بعثمان باشا وأن يطرده من دمشق ، وبعد هذا الانتصار عاد محمد أبو الذهب الى مصر ليقود ثورة ضد سيده على بك ، فانتهز عثمان باشا الفرصة وعاد الى دمشق ، ومن هناك أخذ يستجمع قواة ويعد قوأته لخوض حرب فاصلة ضد ظاهر .

الا أن عودة ظاهر الى صيدا بعد أن استطاع بمشاركة الجيش المصرى طرد عثمان باشا من دمشق قد جعلته يفكر فى أخذ بيروت من الدروز انتقاما منهم بسبب تحالفهم مع عثمان باشا ضده ، وبالفعل استطاع ظاهر بمعاونة الأسطول الروسى العامل فى البحر المتوسط الاستيلاء على بيروت بطرد حاكمها من قبل الدولة العثمانية ويدعى أحمد باشا الجزار [١٧] .

وفى عام ١٧٧٥ م قام محمد أبو الذهب بعد أن تغلب على سيده على بك فى مصر عام ١٧٧٣ م ، وبعد أن فر على بك الى فلسطين ليستنجد بصديقه وحليفه الشيخ ظاهر العمر ضد محمد أبو الذهب وضد الدولة العثمانية ، قام محمد أبو الذهب بحملته الثانية على فلسطين وهذه المرة باسمه ولتعقب سيده على بك ولتأييد سلطة الدولة فى الشام والمساهمة مع باشا الشام فى القضاء على الشيخ ظاهر وقد تمكن أبو الذهب من الاستيلاء على الجزء الجنوبى من امارة ظاهر ، ولكن أبو الذهب توفى فجأة فانسحب جيشه عائدا الى مصر .

---

(١٧) كان الجزار سنجقا فى مصر فى عهد على بك الكبير ، ولكنه فر من مصر بعد ان غضب عليه على بك وجاء الى لبنان واقام فى حمى الأمير يوسف الشهابى الذى رأى منه كل دهاء وبأس فعينه نائبا عنه فى بيروت لكى يحصنها ويحميها من الروس الذين كانوا يعملون فى الحوض الشرقى البحر المتوسط .

نهـاية الشـيخ ظـاهر

كانت حملة محمد أبو الذهب على امارة الشيخ العمر بداية النهاية لحياة هذا الرجل بل ولامارته أيضا • فقد تلى ذلك أن أرسلت الدولة العثمانية حملة كبيرة بقيادة القبطان باشا[١٨] حاصر عكا واستولى عليها وطارد الشيخ ظاهر حتى قتل على يد قائد حرسه الخاص وهو مغربى خان سيده بالاتفاق مع رجال الدولة العثمانية ، وكان هذا القائد يدعى الدنكزلى ، وقد تم ذلك فى أغسطس عام ١٧٧٥ م •

وكان حسن باشا قد جاء بتكليف من الحكومة العثمانية باجلاء ظاهر من عكا وارغامه على قبول السيادة العثمانية أو مطاردته ، وقد أرسل حسن باشا الى ظاهر الرسالة التالية :

« من بعد السلام طلبت أعلمك عن سبب حضورى والآن أعرفك كل شىء أيضاحا وهو حضورى بأوامر من الدولة العليا صانها رب البرية لكى استلم منك ميرى البلاد سبعة سنين المكسورة عندك وبعده آخذ رأسك واستلم البلاد • هذا هو سبب حضورى • ولكن لكرنى أعرف جيدا رودحلم ورأفة الدولة العلية وشفقتها على رعاياها سيما على من يكون مطيع الى أوامرها • فلذلك ان شئت تدفع لى مال الميرى المكسور عندك وتسلمنى مدينة عكا • وأنت تخرج الى مواضعك القديمة • وأنا من رجوعى الى الآستانة العليا أعرض عن طاعتك وقبلولك للاوامر السلطانية ويخرج لك فرمان بالعفو تماما عن كل ما سلف منك وترجع الى مدينتك كما كنت وبهذه الطريقة تكون صنت مالك وعرضك ورجالك وحفظ مقامك • ماذا والا أنا حاضر للمحاربة »[١٩] •

---

(١٨) هو قبطان البحر حسن باشا •

(١٩) ميخائيل الصباغ : الوثائق نفس المرجع ص ١٦٧ •

وتروى المصادر أن حسن باشا هذا عندما أحضر له الدنكزلى رأس ظاهر وضعها أمامه وسأل الدنكزلى عن بلده فى المغرب ومدة خدمته لظاهر التى بلغت اربعين سنة كان موضع رعاية وعطف ظاهر غضب وقال : تأكل خبز انسان أربعين سنة ودخلك منه هذا المقدار وتخضب سيفك سيفك بدمه لينتقم الله منى اذا كنت لا أنتقم منك لظاهر ، ثم أمر من كان فى حضرته من ملازميه فأخذوا الدنكزلى فخنقوه ورموه فى البحر (٢٠).

وكان للشيخ ظاهر مكانته بين عرب الشام نظرا لما عرف عنه من البر والعناية بأهله وذرية وحاشيته وتحرى العدالة واقامة الحد حتى على أهله وخاصته ، ونظرا لما اشتهر به من شجاعة وشرف النفس وفطنة وفراسة ، فهو عربى تجلت فيه صفات العربى الأصيل . كما كان للشيخ ظاهر مكانته حتى بين أعدائه فنجد مثلا عثمان الصادق يخاطبه فى رسالة بالعفو عنه بقوله عام ١٧٧٤ م : قدوة المشايخ الكرام. وعين أعيان العقلاء الفخام ، صاحب المقام المعتبر أخونا الشيخ ظاهر العمر . وجاء فى مقدمة الفرمان السلطانى بالعفو عن الشيخ ظاهر الى : قدوة الأماجد والأعيان الشيخ ظاهر العمر زيد قدره »(٢١) .

ظاهر العمر والدول

انطلاقا من كون حركة الشيخ ظاهر حركة استقلالية جاهرت بالعداء للدولة العثمانية وكان على صاحبها ــ ظاهر ــ أن يكون مستعدا دائما لملاقاة الدولة ورجالها باشوات الشام فكانت عليه أن يتحالف مع الدول الأخرى وبصفة خاصة تلك التى تعادى الدولة العثمانية .

ومن هذا المنطلق كانت صلة الشيخ ظاهر بعلى بك الكبير فى مصر . وقد قوى هذه الصلة العداء المشترك للرجلين ضد الدولة العثمانية ، ذلك العداء الذى انتهى كما رأينا بالقضاء على الرجلين لصالح الدولة ،

---

(٢٠) نفس المصدر ص ١٥٨ .

(٢١) نفس المصدر ص ١٦٥ .

ومن هذا المنطلق كذلك تحالف ظاهر مع الأميريوسف الشهابى أمير الدروز، ومع روسيا وفرنسا واستعان بالأوروبيين تجارا وغيرهم لتدعيم امارته لتقف ندا للسلطنة العثمانية ..

لم يكن ظاهر العمر هو صاحب الفضل فى الاتصال مع الروس ، وانما كان على بك الكبير فى مصر هو أول من تحالف مع الروس مقابل مساندته ضد الدولة العثمانية ، وقد استفاد ظاهر من الوجود الروسى فى البحر المتوسط ووجد فيه الروس حليفا يمكن الاعتماد عليه . خاصة وأن العداء المستحكم والتقليدى بين روسيا والدولة العثمانية كان يدعو روسيا الى تأييد الحركات الاستقلالية ضد الدولة العثمانية وتحريض الشعوب المحكومة من قبل العثمانيين ــ كاليونانيين ــ للثورة ضد الحكم العثمانى .

وقد استعان ظاهر وحليفه على بك بالأسطول الروسى الذى كان يقوده الكابتن « ريزو » أثناء الحملة على الشام فى رفع الحصار العثمانى عن صيدا وقد استولى الروس على بيروت وبقوا بها حوالى خمسة أشهر عام ١٧٧٢م ثم غادروا السواحل الشامية بعد عقد الهدنة بين الروس والعثمانيين . ولكنهم أى الروس عادوا مرة أخرى لمساعدة الشيخ ظاهر ضد العثمانيين بعد انتهاء أجل الهدنة فى يونيو ١٧٧٢م وحاصر الأسطول الروسى بيروت لمدة ثلاث شهور .

وكانت عودة الروس هذه المرة بناء على دعوة من الشيخ ظــاهر لتنفيــذ وعودهم التى قطعوها على أنفسهم بمساندته ضـــد خصومه العثمانيين ، الا أن الروس وجدوا هذه الدعوة « فرصة سانحة للنهب وجمع المال تحت ستار تأييد ظاهر ، فأخذوا من الشيخ ظاهر مبلغا من المال لقاء ضرب خصومه من الساحل ، وأتت سفن روسية وضربت بيروت بالمدافع . ثم أخذوا ٦٠٠ كيس لقاء امتناعهم عن نهب المدينة وبقوا خمسة أشهر (أكتوبر ١٧٧٣ ــ فبراير ١٧٧٤م) حتى تسلموا ذلك القدر من المال ورفعوا علمهم فوق أبراج المدينة وعلقوا صورة امبراطورتهم ــ

أيا كاترينا — فوق بابها الرئيسى • ثم نقلوا وفدا من الدروز ليقـدم للامبراطورة هدية من جياد الخيل »[٢٢] •

ولكنا لأسطول الروسى غادر السواحل الشامية فى عام ١٧٧٤ م بعد أن تم توقيع المعاهـدة الروسية التركية للصلح المعروفة باسـم « كجوك قينارجى » تاركين بذلك ظاهر حليفهم ليتلقى بمفرده ضربات الأتراك ، وذلك رغم أن ظاهـر كان يعطى تسهيلات بحرية للروس فى الموانى الشامية التى تحت سيطرته مثل عكا وصيدا وبيروت ، وكان وزيره ابراهيم الصباغ هو واسطة الاتصال بين ظاهر والكونت الكسيس أورلوف قائد عام الأسطول الروسى فى البحر المتوسط •

ولم يـكن الوجود الروسى فى الحوض الشرقى للبحـر المتوسط واغاراتهم على موانى الساحل الشامى فى تأييدهم المتخاذل لظاهر العمر ولعلى بك الكبير فى مصر من قبل الا اضافة لعامل جـديد لاضطراب التجارة الخارجية للشام ومصر مما كان له أثره الكبير فى ضعف البلاد اقتصاديا •

وقد ساعد الوزير ابراهيم الصباغ سيده ظاهر فى اقامة علاقات مع الأوروبيين ، فحدث اتصال بين ظاهر العمر وفرسان القديس يوحنا الذين يتخذون من مالطة مقرا لهم منذ أن طردهم العثمانيون من جزيرة رودس ، وقد ذكر فولنى أن بعض قراصنة مالطة هاجمت سفنا تركية ثم باعت ما نهبته فى سوق عكا ، وهاجت الدوائر العثمانية ، ولكن ظاهر ادعى جهله بالحادث وأرسل بعض سفنه لمطاردة سفن القراصنة ، ولكنها اتصلت بها فى عرض البحر بعيدا عن أعين الرقباء[٢٣] •

ويرجع اتصال ظاهر العمر بفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يستخدمون أسلوب القرصنة ضد سفن الدولة العثمانية بصفة خاصة

---

(٢٢) د. احمد عزت عبـد الكريم : دراسات فى النهضات العربية الحديثة ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

(٢٣) د. احمد عزت عبد الكريم : نفس المرجع ص ٢٤٦ .

الى ضيق ظاهر بمواقف الدولة العثمانية العدائى منه حتى بلغ به الأمر ان كتب الى رئيس هؤلاء الفرسان يعرض عليه صداقته •

ومما تجب ملاحظته أن قراصنة مالطة والقراصنة اليونانيين تسببوا فى تدهور تجارة المشرق العربى الخارجية ، وقد استمرت اعتداءاتهم على الساحل السورى من الاسكندرية حتى يافا ، وكانوا يحتمون بالعلم الروسى ويعتدون على السفن الاسلامية والمسيحية جميعا ، وظلوا سادرين فى اعتداءاتهم حتى بعد عقد صلح كجوك قينارجى عام ١٧٧٤ م[٢٤] •

وفى سبيل تأكيد استقلال ظاهر فى امارته فقد أتصل بفرنسا — كما فعل حليفه على بك فى مصر — وكان يبدى علامات المودة نحو القنصل الفرنسى والرعايا الفرنسيين ، ورغم ذلك نجد القنصل الفرنسى فى عام ١٧٧٢ م يدعو حكومته الى امداد الدولة العثمانية بعدة سفن حربية تساعدها على استعادة بلاد الشام الخاضعة لحكم ظاهر العمر حتى تستقر الأحوال فى تلك البلاد وتنتعش الحركة التجارية ويطمئن الأجانب على أنفسهم وأموالهم ، ولكن الحكومة الفرنسية رفضت هذا الرأى تاركة الدولة العثمانية حرية الحركة والعمل فى ممتلكاتها بالأسلوب الذى ترغبه •

تقييم حركة ظاهر

كانت حركة الشيخ ظاهر العمر حركة استقلالية عربية فى الوطن العربى عن الدولة العثمانية وكان يمكن أن تكون العلاقة بين الشيخ ظاهر والدولة العثمانية علاقة طيبة وقوية لمصلحة عرب الشام لولا دسائس رجال الدولة العثمانية ومؤامراتهم التى لا تنتهى •

ورغم أن الشيخ ظاهر كان يسترضى هؤلاء الرجال • للهدايا والأموال المستمرة والكثيرة الا أن المؤامرات والخطط كانت تدبر لاقصاء

---

(٢٤) نفس المصدر ص ٢١٥ .

هذا الأمير العربى الذى أحيا الروح العربية بانتفاضته العربية الخالصة التى تجلت فيها صفات العروبة والرجال العرب المتحلين بالعدل والرحمة والمروءة والشجاعة وكل القيم العربية الأصيلة ، فى وقت ضاعت هذه القيم على يد رجال الدولة العثمانية وقادة جندها .

لقد جاهد ظاهر ضد قوى كثيرة : الأتراك العثمانيون فى مركز السلطنة ، والباشوات فى باشويات الشام والقبائل العربية فى بلاد الشام المناوئة له ، بل والأكثر ايلاما خروج أبنائه عليه خاصة على وعثمان واستمان وتحالف مع الدروز تارة ومع المالطيين والروس والفرنسيين وغيرهم تارة أخرى وكانت صداقته لعلى بك الكبير صداقة مصير . وكان ظاهر وفيا لأصدقائه مخلصا لحلفائه . واذا كان الشيخ ظاهر قد اكتسب محبة أهله وعشيرته وسكان امارته بما كان يتحلى به من صفات طيبة ، فقد أجبر أعداءه على احترامه فى حياته بل وحتى عند وفاته .

مـــاذا بعـــد ظاهر

منح السلطان العثمانى أحمد الجزار ــ المملوك المصرى الهارب الى الشام زمن على بك ــ باشوية صيدا عام ١٧٧٥ م جزاء خدماته الكبيرة لاخماد حركة الشيخ ظاهر العمر وتبع ذلك أن منحه السلطان ولايتى دمشق وطرابلس فأصبح بذلك الباشا الحقيقى والفعلى على سوريا كلها ، واتخذ عكا مركزا لأملاكه .

وقد عاشت البلاد ثورات متعددة ومتعاقبة نظرا لقسوة الجزار وشدته الدموية فى التعامل مع النـــاس ، واستمر الثورات فى دمشق وبيروت وصيدا وغيرها من المدن الشامية حتى عام ١٧٩٨ م عندما عين السلطان العثمانى واليا آخر على دمشق .

ثم تعرضت البلاد لحملة نابليون على مصر منذ فبراير ١٧٩٩ م وقد سقطت البلاد ابتداء من العريش فغـــزة ويافا حيفا دون مقاومة

منظمة بسبب كراهية الأهالى للباشا التركى أحمد الجزار ، وان كان الأهالى فى تلك المدن قد تحملوا عبء الدفاع عن مدنهم ضد الزحف الفرنسى .

وبعد مغادرة الفرنسيين فلسطين اشتدت سطوة أحمد الجزار الذى عزى الى نفسه الانتصار ضد الفرنسيين ، ومن هذا المنطق تطلع الى وضع سوريا بكاملها تحت سيطرته ، فاصطدم بالشهابيين الذين سيطروا على لبنان ، ولكن وفاته عام ١٨٠٤ قد أنهت أحلامه الواسعة . الا أن سليمان باشا قائد جيش الجزار استطاع أن يحكم جنوب سوريا لمدة خمسة عشرة عاما من ١٨٠٤ — ١٨١٩ م . بينما كانت دمشق ما تكاد تستقبل واليا جديدا حتى تودعه لتستقبل آخر أكثر منه قوة .

استمر لبنان تحت حكم الشهابيين ، بينما خلف سليمان فى جنوب سوريا عبد الله باشا الذى أعاد الى الأذهان حكم الجزار ، واستمر الوضع حتى جاء محمد على الى بلاد الشام عام ١٨٣٣ م الى عام ١٨٣٩ م ، وبعدها عادت بلاد الشام الى الحكم العثمانى المباشر وتقطعت أوصالها مرة أخرى بعد أن تمتعت بالوحدة والرخاء على يد ابراهيم بن محمد على .

عاشت بلاد الشام فى ظل تنظيمات عثمانية جديدة ، ولكنها شهدت ثورات كثيرة فى شمال سوريا وفى لبنان وفى جنوب سوريا ، كما شهدت مذابح دموية بين الدروز والموارنة ، وشهدت تدخلا من الدول الأوروبية لتحقيق أطماعها فى تلك البلاد ، كما شهدت الخطط لانشاء وطن لليهود فى فلسطين ، كما شهدت غزوا فرنسيا للبنان وسوريا .

الفصل التاسع

حـــركة على بك الكبـــير

فى مصـــــــر

* ❋ أحوال مصر ·
* ❋ على بك ·
* ❋ على بك واستقرار الأمور ·
* ❋ على بك والدولة العثمانية ·
* ❋ على بك والدول الأجنبية ·
* ❋ تقييم حركة على بك ·
* ❋ مصر بعد على بك ·

احـــوال مصـــر

انطلاقا من نظام الحكم العثمانى فى مصر استمرت الخلافات بين هيئات الحكم الثلاث . ورأينا فى أوائل القرن الثامن عشر انهيار سلطة الباشا أمام سيطرة وقوة الأوجاقات العثمانية ، بينما عاشت مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر عهدا من سيطرة البكوات المماليك على مقدرات الأمور فى الوقت الذى ضعفت فيه سلطة الباشا والأوجاقات العثمانية .

وكان مما زاد من قوة البكوات المماليك أن المماليك يشترون صغارا ويعتنقون الدين الاسلامى ويخضعون لتربية عسكرية قاسية ، بالاضافة الى استمرار تدفقهم من خارج مصر ، وعـدم انصهارهم فى المجتمع المصرى ، وكل ذلك أدى الى ان طوائف المماليك ظلت محتفظة بنقائها وذاتيتها الخاصة .

وكان منصب شيخ البلد وهو حاكم القاهرة أعلى المناصب التى يتقلدها البـكوات المماليك حيث كان يتولاه زعيمهم وأكثرهم عصبية وأكبرهم قوة عسكرية يليه منصب أمير الحج ، وكثيرا ما كان الخلاف يقع بين البكوات المماليك حول هذين المنصبين ، فاذا تولاه أحدهم أخذ فى التنكيل بمنافسيه وخصومه من البكوات المماليك ، وأغدق الهبات والوظائف على أنصاره ومؤيديه ، فعندما « قتل حسين بيك القازدغلى المعروف بالصابونجى وتعين فى الرياسة بعده على بك الكبير (عام ١١٧٢هـ الموافق ٤ سبتمبر ١٧٥٨ – ٢٤ أغسطس ١٧٥٩م) أحضر خشداشينه[١] المنفيين واستقر أمرهم[٢] .

---

(١) خشداشينه جمع خشداش اى زميل فى الرق .

(٢) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار ص ٧١ .

ولقد وصف الرحالة والكتاب الأجانب الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر أحوال مصر وما أصابها من اضطراب نتيجة الخلافات المملوكية فى غيبة الباشوات الأقوياء ، وفى حال انحلال الأوجاقات العثمانية ، ورغم الخلافات بين البكوات المماليك الا أنهم كانوا يتحدون ضد باشا لا يرغبون وجوده فى القاهرة . فيروى الجبرتى فى عام ١١٧٤م الموافق ١٣ أغسطس ١٧٦٠ الى ١ أغسطس ١٧٦١م. أن الباشا كان يدعى مصطفى باشا ، ويبدو أن البكوات المماليك كانوا عنه راضين ، حتى اذا عينت الدولة آخر يدعى « أحمد باشا كامل المعروف بصبطلان ، وكان ذا شهامة وقوة مراس فدقق فى الاحكام وصار يركب وينزل ويكشف على الأنبار والغلال ، فتعصب عليه الأمراء ، وأصعدوا مصطفى باشا المعزول ، وعرضوا فى شأنه الى الدولة »(٣) .

واذا كان الشعب المصرى الذى يقع عليه عبء هذه الخلافات يثور هنا وهناك فى أنحاء مصر فقط عندما تمس حياته بصورة يهتز لها مفهوم العدل والحكم العادل عند المصريين ، فان الحكومة العثمانية كانت تلجأ الى عدة اجراءات عقابا للبكوات المماليك ، من أمثلتها اغلاق أسواق الرقيق فى المناطق المحيطة بالبحر الأسود وبصفة خاصة فى البلقان حتى تحرم البكوات المماليك من مصادر قوتهم العددية ، كما كانت الحكومة العثمانية تلجأ — وخاصة فى الأوقات التى لا تكون فيها مشغولة بحروب خارجية — الى ارسال حملات تأديب الى مصر يقابلها البكوات المماليك بالفرار الى الصعيد ، ثم يعودون الى القاهرة متى سحبت الحكومة العثمانية هذه الحملات .

ومن الطبيعى أن تتأثر أحوال المصريين بهذه الظروف فالزراعة مضطربة والتجارة كسدت ، والنواحى الثقافية تجمدت ، فى الوقت الذى زادت فيه سلطة شيخ البلد الى حد الطغيان ، وفى الوقت الذى زادت فيه الضرائب على المصريين لمواجهة المشروعات الكبيرة التى يعمل

---

(٣) عبد الرحمن الجبرتى : نفس المرجع ص ٧٢ .

شيخ البلد على تنفيذها ، ولمواجهة اغلاق أسواق الرقيق أمام البكوات المماليك باستخدام جنود مرتزقة من البدو والنوبيين واليونانيين الذين استخدموا فى الحرب بالمدافع التى اشتراها شيخ البلد .

علـى بـك

ذكر المؤرخ الأوروبى ستافرو لانسبان Stafro Lanspan وكان معاصرا لعلى بك وعاشره وعمل له ، أن على بك ابن قسيس رومى أرثوذكسى من قرية أماسيا فى الأناضول اسمه القسيس داود ، وأنه أى على بك ولد فى سنة ١٧٢٨م ثم خطف فى الثالثة عشرة من عمره وبيع فى القاهرة ، وكان اسمه يوسف ، وأنه تزوج يونانية مسيحية أظهرت الاسلام وبقيت على دينها اسمها مريم(٤) .

وكان على بك مملوكا لابراهيم كتخدا والاثنان من مماليك مصطفى كتخدا القازدغلى ولما بلغ على طور الشباب ظهرت شخصيته بكل مكوناتها من شجاعة وقوة وطموح وقسوة ، ثم تقلد الامارة والصنجقية بعد موت أستاذه وسيده ابراهيم كتخدا عام ١١٦٨ هـ (١٧٥٤—١٧٥٥م)، ثم كان أميرا للحج وكبيرا للمماليك وشيخا للبلد فى عام ١١٧٧هـ (١٧٦٣م).

وعرف على بك بأكثر من اسم ، فقد عرف بعلى بك القازدغلى ، و « جن على » و « بلوط قبن » أو « بلوقبطان » ، ثم عرف باسم على بك الكبير بعد أن اتسعت فتوحاته خارج مصر وذاع صيته . وقد مارس منازعات وحروب قاسية بينه وبين خصومه ومنافسيه من البكوات المماليك ، وكان قوى المراس ، فمما قال : أنا لا أتقلد الامارة الا بسيفى لا بمعونة أحد »(٥) .

---

(٤) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر جـ ٢ ص ٧٣ .

(٥) عبد الرحمن الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٧ .

أراد على بك أن يستخلص مصر لنفسه فقتل منافسيه من « الرؤساء والأقران وباقى الأعيان ، وفرق جمعهم فى القرى والبلدان ، وتتبعهم خنقا وقتلا ، وأبادهم فرعا واصلا ، واستاصل كبار خشداشينه وقبيلته، وأخرم القوانين الجسيمة والعوائد المرتبة ، وحارب كبار العربان »(٦).

وقد استخدم فى ذلك الاعداد الكثيرة من المماليك الذين اشتراهم والجند الذين استخدمهم من جميع الأجناس ، وكان يطالع الكتب التى تحوى التاريخ والسير ويشيد بدولة المماليك فى مصر وبزعمائها مثل الظاهر بيبرس وقلاوون وغيرهم ويفخر بانتسابه لهم . « وكان عظيم الهيبـــة ، فقد اتفق لأناس أن ماتوا فرقا من هيبتـــه ، وكان صحيح الفراسة ، شديد الحذق ، ولا يحتاج فى التفهيم الى ترجمان أو من يقرأ له الصكوك والوثائق بل يقرأها بنفسه »(٧) .

على بك واستقرار الأمور

واجه على بك مصاعب كثيرة من قوى متعددة فى مصر تعوقه عن تحقيق مشروعاته وعن التمتع بمصر دون منافس ، فلم يكد على بك يعتلى كرسى مشيخة البلد بالقاهرة عام ١٧٦٣ م حتى أضطره أعداؤه ومنافسوه الى الفرار من القاهرة الى الصعيد تارة والى الحجاز تارة أخرى والى الشام طورا ثالثا ، حتى اذا عاد الى منصبه عام ١٧٦٧ م انتقم من أعدائه وأنزل العقاب بمثيرى الفتن والاضطراب .

وكان على بك قد تخلص من عبد الرحمن كتخدا الذى كان أكبر منافس له بنفيه الى الحجاز ، وقد اشتد ساعد على بك بعد استبعاد عبد الرحمن كتخدا وأنصاره من القاهرة ، فأخذ يؤلب بعض البكوات على بعض حتى أضعف شوكة الأقوياء منهم ، وقد ارتجت مصر (القاهرة) فى ذلك اليوم « وخصوصا لخروج عبد الرحمن كتخدا ، فانه كان أعظم

---

(٦) الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٧ .

(٧) نفس المرجع ص ٩٧ .

الجميع وكبيرهم وابن سيدهم • وله الصولة والكلمة والشهرة ، وكان له عزوة كبيرة ومماليك وأتباع وعساكر مغاربة وغيرهم حتى ظن الناس وقوع فتنة عظيمة فى ذلك اليوم ، فلم يحصل شىء من ذلك سوى ما نزل بالناس من البهته والتعجب »[٨] • وكان ذلك عام ١١٧٨هـ (١ يوليو ١٧٦٤ الى ١٩ يونيو ١٧٦٥ م) •

كما تخلص على بك فى ١٨ ربيع الآخر ١١٨٢ هـ الموافق أول سبتمبر ١٧٦٨ م من صالح بيك بقتله ، وبذلك تخلص على بك من آخر سنجق كان منافسا له فى مشيخة البلد ، وقبل ذلك بشهرين كان على بك قد نفى عددا من البكوات المماليك الى الصعيد ، والى الحجاز والى الفيوم•

وقد تابع على بك سياسته هذه بالقتل والنفى والمصادرة حتى وصفه الجبرتى بأنه هو الذى ابتــدع المصادرات وسلب الأموال من مبادىء ظهوره واقتدى به من بعده[٩] • وقد استخدم على بك عددا من أتباعه أشهرهم محمد بك أبو الذهب • وأحمد الجزار الذى عرف بذلك بسبب ما أظهره من بطش وقسوة ضد بدو الدلتا الثائرين وهم الحبايبة بشرق الدلتا ، والهنادى باقليم البحيرة •

وكان سويلم بن حبيب زعيم عرب الحبايبة بالشرقية والقليوبية قد نشر نفوذه وسيطرته على بلاد اقليمى الشرقية والقليوبية ، وقطع الطريق بين القاهرة والوجه البحرى ، فلما أرسل اليه على بك التجريدات انضم الى عرب الهنادى بالبحيرة ، وانضم اليهم كذلك بعض أعداء على بك من البكوات المماليك واستولوا على الاقليم وقتلوا السنجق الموالى لعلى بك •

وقد أرسل على بك الى اقليم البحيرة حملتين للقضــاء على هذه الفتنة المضــادة له ، ونجحت حملات على بك فى القضــاء على هؤلاء المناوئين ، وحتى سويلم بن حبيب « قتلوه وقطعوا رأسه ورفعوها على

---

(٨) نفس المرجع ص ٥٧ •

(٩) الجبرتى : نفس المرجع ص ٧٦ •

رمح .. واشتهر ذلك فارتفع الحرب من بين الفريقين ، وتفرق الهنادى وعرب الجزيرة والصوالحة وغيرهم وراحت كسرة على الجميع ولم يقم لهم قائم من ذلك اليوم »[10] .

وبعد أن دانت بلاد الوجه البحرى لعلى بك تطلع الى الوجه القبلى الذى كان سيده وزعيمه شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى ، « وبقدر ما كانت هيبة سويلم بن حبيب فى الوجه البحرى تقوم على الرهبة من طغيانه وفجوره ، كانت هيبة همام بن يوسف فى الوجه القبلى تقوم على الاعجاب بشهامته وتقرير مجموعة الصفات النادرة التى كونت شخصيته الفذة »[11] . فلم يكن همام قاطع طريق أو طاغية بل كان مجيرا من يستجير به ويحمى من يطلب حماه ويمد بالمال والسلاح من يطلب منه المدد ، « ولم يكن على بك يخشى من ازدياد نفوذ همام واتساع أملاكه ، لأن همام لم يأت أمرا يخل بالأمن ، بل كان حريصا على ارسال الميرى بانتظام ، كما كان يرسل بين الحين والآخر الهدايا للباشا العثمانى وشيخ البلد بالقاهرة ، وكذلك لكشاف الاقاليم الخاضعة لسلطته ، ولكن الذى ضايق على بك هو تحول الصعيد الى وكر تنبت فيه الفتن ومورد يمد منافسيه على مشيخة البلد بالمؤن والعتاد والسلاح »[12] .

استقر رأى على بك على ضرورة التخلص من همام ، فأرسل جيشا بقيادة مملوكه محمد بك أبو الذهب ولكن همام صالح أبا الذهب على أن يكون له التزام البلاد جنوبى برديس ، ثم عاد محمد أبو الذهب الى القاهرة فأرسل على بك الى همام يذكره بأن الصلح يعتبر لاغيا اذا لم يطرد أعداء على بك من البلاد التى فى حوزته ، فطلب منهم همام الخروج الى أسيوط وتملكها ، وبالفعل ملكوا أسيوط بالقوة وتحصنوا بها وهرب

---

(١٠) نفس المرجع ص ٨٧ .

(١١) رفعت رمضان : على بك الكبير ص ٤٨ .

(١٢) د. السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ص ٢٥ .

من كان بها من أتباع على بك ، وكان ذلك فى صفر ١١٨٣هـ يونيو ١٧٦٩م. فخرجت حملة أخرى بقيادة أبو الذهب وصلت الى أسيوط والتحمت مع المتملكين أسيوط فى معركة ضارية انتهت بانتصار أبو الذهب وجيشه وتشتت أعدائه وانضمامهم الى عرب الهوارة فى الجنوب ، وفى الواقع « كانت معركة أسيوط من أحسم المواقع فى تاريخ على بك . وهى التى أكدت له النصر ، فأصبح سيد الوجهين وصاحب النفوذ المطلق فى جميع أنحاء مصر »[١٣] .

ولم يتوقف محمد بك أبو الذهب فى أسيوط ولـكنه زحف جنوبا لملاقاة همام وعرب الهوارة واستطاع استمالة ابن عم همام ويدعى أبو عبد الله ، ومن ثم سار زحف الجيش الى فرشوط دون مقـاومة عنيدة ، حتى دخلها ليجد همام قد تركها ومات كمدا قرب اسنا ، ومن ثم تملك الجيش فرشوط « ونهبوها وأخذوا جميع ما كان بدوائر همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصـعيد من ذلك التاريخ كأن لم تـكن[١٤] . وخلصت مصر بوجهيها البحرى والقبلى لعلى بك وأتباعه .

على بك والدولة العثمانية

فى الثانى من شهر جمادى الآخر (٢٦ أكتوبر ١٧٦٧م) كان على بك قد استطاع بحد السيف العودة الى القاهرة من الصعيد الذى كان به مقيما هربا من خصومه الأقوى بالقاهرة ، ثم طلع ومعه أتباعه الى الديوان بالقلعة ، « فخلع الباشا على على بك واستقر فى مشيخة البلد كما كان ، وخلع على صناجقه خلع الاستمرار أيضا فى اماراتهم ، كما كانوا ونزلوا الى بيوتهم ، وثبت قدم على بك فى امارة مصر ورئاستها فى هذه المرة . وظهر بعد ذلك الظهور التام وملك الديار المصرية والأقطار الحجازية ، والبلاد الشامية ، وقتل المتمردين وقطع المعاندين ، وشتت

---

(١٣) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٥٢ .

(١٤) الجبرتى : المرجع ص ٨٩ .

شمل المنافقين ، وخرق القواعد ، وخرم العوائد ، وأخرب البيوت القديمة ، وأبطل الطرائق التى كانت مستقيمة »[١٥] .

وما كان يتم ذلك دون نزاع مع الدولة العثمانية ودون صدام مع الباشا العثمانى بالقاهرة واذا كانت الدولة العثمانية يهمها ألا ينفرد شخص بالأمور فى مصر وتقف أمام ازدياد سلطة البكوات المماليك ، فقد كانت تعمل على ايقاد نار الفتنة بين البكوات حتى يقضوا على بعضهم البعض ، وأما الباشا القائم بالولاية أنذاك (١٧٦٧م) وهو محمد راقم باشا فقد كان هو الآخر « يعضد خصوم على بك ، ويساعد على ارسال حملة لمقاومته تحت رياسة حسين بك كشكش[١٦] ويجمع لهذه الحملة المال . كما نجده يقابل على بك بعد انتصاره على جيش حسين بيك كشكش ويخلع عليه ويقره شيخا للبلد »[١٧] .

وكان على بك يدرك موقف الباشا محمد راقم ، وموقف الدولة العثمانية منه بعد أن دانت له الأمور فى مصر ، ولذلك فان على بك انتهز فرصة ضيق بعض أتباعه من تحركات الباشا حتى أصدر على بك أوامره لأنصاره بالتعامل مع الباشا بما يتفق مع تحركاته المشبوهة ، فأصبحوا وملكوا الأبواب ، والرميلة ، والمحجر[١٨] وحوالى القلعة وأمره بالنزول ، فنزل من باب الميدان الى بيت أحمد بك كشك وأجلسوا عنده الحرسجية[١٩] — وكان ذلك فى ١٧ رجب ١١٨٢ هـ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٧٦٨ م — وبعد أسبوعين تقلد على بك قائمقامية عوضا عن

---

(١٥) نفس المرجع ص ٨٥ .

(١٦) من زعماء المماليك المعادين لعلى بك ، وكان قد فر الى غزة ، ومن هناك حيث مكث ثمانية شهور اعد جيشا من فرسان المماليك والدروز ومشاة المغاربة للزحف على مصر ومنازلة على بك .

(١٧) حافظ عوض : فتح مصر الحديث ص ٢٩ .

(١٨) المقصود بالابواب ابواب القلعة ، والسيطرة على الجانب الغربى القلعة (الرميلة) والجانب الشرقى (المحجر) ، وتعنى الحرسجية رجال الحرس .

(١٩) الجبرتى : نفس المرجع ص ٨٥ — ٨٦ .

الباشا »[٢٠] • وكان ذلك فى غرة شـــهر شعبان ١١٨٢ هـ الموافق ١١ ديسمبر ١٧٦٨ م •

واما موقف على بك من الدولة العثمانية فقد تمثل فى أنه عنـــدما وصل الى القاهرة فى ٢٥ نوفمبر ١٧٦٨ م « أغا من الديار الرومية ، وعلى يده مرسوم بطلب عسكر للســـفر ، فاجتمعوا بالديوان وقرأوا المرسوم » أدرك على بك مدى حاجة الدولة العثمانية لقوات اضافية تأتيها من مصر لتواجه الحرب التى شنتها روسيا ضدها وبصفة خاصة فى حوض الدانوب وشبه جزيرة البلقان ، فضرب على بك ضربته بعد وصول الرسول العثمانى بيومين بعزل الباشا وبعد أسبوعين أعلن نفسه قائمقاما على الباشا أى قائما بعمل الباشا لخلو المنصب ممن يشغله •

وأتبع على بك ذلك بوسائل كسب المواقف فى كل زمان وهى تقديم الهدايا والأموال فجهز فى أوائل يناير ١٧٦٩ م رسول الدولة العثمانية بما يلزمه من دلائل التكريم والتقدير وصفها الجبرتى بقوله « فى تجمل زائد » لينقل الى السلطان طلبات على بك الكبير فى أن يظـــل متوليا باشوية مصر فلا ترسل الدولة باشا من استانبول ، وأتبع ذلك أيضـــا فى الشهر التالى (فبراير) باعداد هدية حافلة تتضمن أموالا وخيولا مصرية للسلطان العثمانى ورجـــال دولته وأشفعها بمكاتبات منه لهم ومكاتبات من علماء مصر ومشـايخها وعلى رأسهم الشيخ حسن الجبرتى، وتمثلت طلبات على بك هذه المرة فى مكاتباته المطعمة بالهدايا والتى حملها الشيخ عبد الرحمن العريشى ومحمد أفندى البردلى ، فى أن على بك يطمع أن تكون له بلاد الشام الى جانب مصر فيزداد ملكه ، وحجته فى ذلك أن عثمان العظم والى الشام يعادى على بك ويأوى المصريين الفارين من حكم على بك ويعاونهم للعودة الى مصر وطرد على بك •

---

(٢٠) نفس المرجع ص ٨٥ ، وتعبير الديار الرومية كناية عن مقر الدولة العثمانية .

وكان على بك قد بدأ بالفعل منذ وصول رسول الدولة ، واستنادا الى طلب الدولة العثمانية أو قل هى حجة استند اليها فى تجييش جيش يكون عدة على بك فى تحقيق مشروعاته الطموحة التى عبر عنها بضم الشام الى مصر ، وكان اعداد هذا الجيش المطلوب بداية للصدام العلنى بين على بك والدولة العثمانية ، ذلك ان على بك قد أخذ فى اعداد جيش كبير بكل همة ونشاط أثارت مخاوف رجال الدولة العثمانية من احتمال أن يستخدم على بك هذا الجيش لتحقيق أهدافه بمعاونة الروسيا التى كانت جيوشها منتصرة على طول الخط ضد القوات العثمانية ، والتى — أى روسيا — كانت تشجع القوى المحلية فى الولايات التركية على الثورة ضد الحكم العثمانى .

وبناء على هذه الشكوك أرسلت الدولة العثمانية الى رجالها بمصر أمرا بقتل على بك ، ولم يكن على بك بغافل عن تحركات الدولة العثمانية ولا عن مدى التعارض مع أهدافه ومصالحها ، ولذلك فقد عرف بالأمر وكلف رجاله بقتل رسول الدولة العثمانية ، ثم جمع على بك المماليك وأعلن أمامهم أن الأوامر العثمانية تطلب « قتل جميع المماليك فانه — أى على بك — استطاع أن يقتنص هذا الأمر وحامله »[(٢١)] . وكان على بك خطيبا مؤثرا استطاع أن يستميل الزعماء المماليك الى صفه ، فلما ضمن ذلك أعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية ، وطلب منها عدم تعيين باشوات وأرسالهم الى القاهرة .

ويشهد عام ١٧٦٩ م خطوات على بك الاستقلالية بمصر والتى كانت دلائل متتالية على تصاعد العداء بين على والدولة العثمانية ، ذلك أن على بك أتبع اعلان رفضه لقبول باشا من استانبول : منع الأموال (الميرى) المقررة سنويا على مصر من الوصول الى الدولة العثمانية ، وضرب النقود فى مصر باسمه وعليها تاريخ استقلال مصر ١١٨٣ هـ : وأتبع ذلك بطرد كل من يظهر ميلا للدولة العثمانية من موظفى الدواوين.

---

(٢١) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ص٢ ، ٧٠ .

واستمر على بك فى خطواته لتحقيق مشروعاته التوسعية وقد سار فى طريق العداء للدولة العثمانية شوطا بعيداً ، فتطلع الى ضم الحجاز لتأمين الحج للمصريين والمغاربة والسودانيين والشوام بما يعود على على بك بالشهرة والتقدير من كل هؤلاء ، وفى نفس الوقت ليحقق مشروعاته التوسعية ، وليعمل بمشورة صديقه كارلو روستى Carlo Rosetti تاجر البندقية المشهور لتحويل تجارة الشرق الأقصى الى البحر الأحمر فالسويس بدلا من مرورها عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وكانت فكرة روستى دافعا لكى يركز على بك فى ضم بلاد الحجاز الى ملكه على ميناء جدة « ليجعل منها مركزا للتجارة مع الهند ولمراقبة الملاحة فى البحر الأحمر فلما فتحها عزل واليها — العثمانى — الذى نصبته تركيا ، وجعل ولايتها لمملوك من أتباعه عرف فيما بعد باسم حسن بك الجداوى »[٢٢] .

انتهز على بك فرصة الخلاف حول الشرافة فى الحجاز بين الشريف القائم بالحكم الشريف أحمد وابن عمه الشريف عبد الله الذى جاء الى مصر واستنجد بعلى بك وقد « وافق ذلك غرضه الباطنى — كما يقول الجبرتى — وهو طمعه فى الاستيلاء على الممالك»[٢٣] وبعد أن أعد على بك حملة لارسالها الى الحجاز أنزلها فى السويس فى صفر ١١٨٤ هـ يونية ١٧٧٠ م « فى تجمل زائد ، ومهيا عظيم وسارى عسكرها محمد بيك أبو الذهب ، وصحبته حسن بيك ومصطفى بك وخلافهم»[٢٤] .

وقد نجح جيش على بك فى مهمته بالاستيلاء على الحجاز واقصاء

---

(٢٢) نفس المرجع : ص ٧١ . ولقب الجداوى اضيف الى صاحبه بعد أن اصبح حاكما لجدة ، ولم يكن له هذا اللقب قبل ذلك . . وتلك امرشانع عند المماليك .

(٢٣) الجبرتى : نفس المرجع ص ٩ .

(٢٤) نفس المرجع ص ٩١ .

الشريف أحمد الموالى لتركيا واحلال الشريف عبد الله الموالى لمصر ، « ونودى بعلى بيك فى الحرمين الشريفين : سـلطان مصر ، وخاقان البحرين ، وذكر اسمه ولقبه هذا على منابر المساجد فى الحجاز كلها»[٢٥] وقد استغرقت هذه الحملة حوالى خمسة شهور من يونيو ١٧٧٠م وهو تاريخ خروج الجيش من مصر الى ٢٨ أكتوبر من نفس العام عندما عاد الجيش وعلى رأسه قائده محمد بك أبو الذهب « ودخل الى مصر فى موكب عظيم ، وأتت اليه العلماء والأعيان للسلام وقصدته الشعراء بالقصائد والتهانى »[٢٦] .

وقد شجع نجاح حملة الحجاز على بك فى أن يتطلع الى ارسال حملة الى بلاد الشام التى كانت أنذاك تعيش حركة مماثلة لحركة على بك بقيادة الشيخ ظاهر العمر . وهنا يثور سؤال هل كان على بك يتطلع الى ضم الشام الى ملكه واقامة سلطنة قلبها مصر وجناحها الشرقى الحجاز وجناحها الشمالى سوريا أم كان تقدم جيوش على بك الى الشام لنصرة صديقه الشيخ ظاهر العمر ضد الباشوات العثمانيين ؟ .

واذا كان البعض يعتقد فى الرأى الأول القائل بأن على بك كان يتطلع الى توسيع ملكه بضم بلاد الشام ، والوصول الى بلاد الأناضول والقسطنطينية عن طريق سوريا ـــ كما ذكر كل من المؤرخ شارل رو والجبرتى[٢٧] كما قيل عن نابليون بونابرت ومحمد على فيما بعد .. واذا كان البعض الآخر يعتقد فى الرأى الثانى القائل بأن تحرك جيش على بك الى الشام كان بهدف مساعدة صديقه الشيخ ظاهر العمر .. فان الرأى عندنا هو أن حملة على بك على الشام كانت لتحقيق هدفين الأول تأمين مصر من ناحية الشام بالقضاء ـــ وبالتعاون مع الشيخ ظاهر الذى كان له نفس الهدف ـــ على خطر الباشوات العثمانيين هناك ،

---

(٢٥) محمود الشرقاوى : نفس المرجع ص ٧١ .

(٢٦) الجبرتى نفس المرجع ص ٩١ .

(٢٧) د. السيد حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ص ٢٧ .

حتى تبقى مصر فى مأمن من أى خطر عثمانى يأتى عن طريق الشام والهدف الثانى هو مساعدة حليفه الشيخ ظاهر ضد التهديد العثمانى بالقضاء على القوات العثمانية التى تتجمع حول باشوات دمشق وحلب وطرابلس العثمانيين وبهذا القضاء يتسع سلطان على بك ويمتد نفوذه ليصل الى بلاد الشام .

فالوجود العثمانى المعادى فى بلاد الشام لحركة على بك الاستقلالية فى مصر وحركة الشيخ ظاهر العمر الانفصالية فى جنوب سوريا هو الدافع الحقيقى لأهداف على بك من حملته على الشام التى تتركز كما رأينا حول مساعدة الشيخ ظاهر العمر من ناحية ومد نفوذ على بك وملكه الى بلاد الشام من ناحية أخرى . وكان السبب الذى أعلنه على بك كدافع له لحملته على بلاد الشام هو ايواء عثمان العظم والى الشام (دمشق) لخصوم على بك وأعدائه وأعدادهم للاغارة على مصر ، وأن هذا الوالى يسىء الحكم فى بلاد الشام مما جعل السوريين يتذمرون من حكمه . وتبعا لذلك قام على بك بالحملة على الشام وهى أساسا « دفاعية اتخذت شكلا هجوميا لكى يقيم حول نفوذه بمصر سياج أمان دائم »[٢٨] .

ومنذ منتصف رجب عام ١١٨٤ هـ الموافق ٤ نوفمبر ١٧٧٠ م بدأت الاستعدادات فى مصر لاعداد قوات الحملة على الشام ، فيذكر الجبرتى[٢٩] أنه فى هذا اليوم « زاد اهتمام على بك بالتحرك على جهة الشام » ، فلما تكامل الجيش بعدته وعتاده وعدده « أقاموا بالعدلية[٣٠] أياما حتى قضوا لوازمهم وارتحلوا وسافروا الى جهة الشام » . وأصدر على بك أن يكون على رأس هذه الحملة المسافرة برا اسماعيل بك . وبعد أسبوع « برزت تجريدة أخرى وعليها سليمان بيك وعمر كاشف وحملة كثيرة من العساكر ، فنزلوا من طريق البحر على دمياط وفى منتصف ذى

---

(٢٨) د. السيد حراز : نفس المرجع ص ٢٧ .

(٢٩) الجبرتى : نفس المرجع السابق ص ٩٢ .

(٣٠) العادلية بمركز بلبيس باقليم (محافظة) الشرقية .

العقدة ١١٨٤ هـ الموافق ٢ مارس ١٧٧١ م « خرجت تجريدة أخرى وسافرت على طريق البر على النسق » وفى عام ١١٨٥ هـ « أخرج على بك تجريدة عظيمة وسر عسكرها وأميرها محمد بيك أبو الذهب وأيوب بيك ورضوان بيك وغيرهم •

استطاع محمد بك أبو الذهب قائد عام الحملة على الشام أن يحرز انتصارات عديدة ، وقد لقى أبا الذهب معاونة صادقة من الشيخ ظاهر العمر ، ومن ثم سقطت فى يده أو قل فى يد الجيش المشترك كلا من غزة ويافا ونابلس ، واللد والرملة وصيدا ، وسقطت دمشق ذاتها فى شهر أبريل ١٧٧١ م ، وقد « حاربهم النواب والولاة وهزموهم وقتلوهم وفروا من وجوههم واستولوا على الممالك الشامية الى حد حلب » •

عندما طلب على بك من محمد أبى الذهب الاستمرار فى الزحف بعد دمشق بدأ النزاع بين الرجلين ، وهو النزاع الذى أرجعه البعض الى رغبة محمد أبو الذهب فى السيطرة على الملك فى مصر ، وأرجعه البعض الآخر الى اسماعيل بيك لميله الى الدولة العثمانية وحسده لأبى الذهب فحرضه على عدم اطاعته لأوامر على بيك »[٣١] • وأرجعه البعض الثالث الى استمالة الدولة العثمانية لمحمد أبى الذهب واغرائه بملك مصر اذا خرج على سيده وقضى عليه •

أيا كان سبب النزاع بين الطرفين ، فان محمدا أبا الذهب وهو فى دمشق « جمع أمراءه وخشداشينه الكبار فى خلوة وعرض عليهم الأوامر ـ التى أصدرها على بك باستمرار الزحف ـ فضاقت نفوسهم ، وسئموا الحرب والقتال والغربة ، وذلك ما فى نفس محمد بك أيضا • وأصبحوا راحلين وطالبين الى مصر »[٣٢] •

عاد محمد أبو الذهب منسحبا بجيشه من بلاد الشام فأساء هذا التصرف الشيخ ظاهر العمر الذى كان عليه نتيجة لهذا الانسحاب أن

---

(٣١) رفعت رمضان : على بك الكبير ص ١٧٤ .
(٣٢) الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٣ .

يتلقى ضربات الباشوات العثمانيين العائدين الى المدن التى انسحب منها الجيش المصرى • كما أساء الانسحاب وبدرجة أكبر على بك الكبير ، وما لبث أن اشتد النزاع بين على بك ومملوكه محمد أبو الذهب •

كان من السهل على أبى الذهب أن يتغلب على سيده الذى غادر مصر بعد أن « حمل حموله وأمواله وذهب الى جهة الشام ، وصحبته على بيك الطنطاوى وباقى صناجقه ومماليكه واتباعه وطوائفه »(٣٣) • وقد لجأ على بك الى صديقه الشيخ ظاهر العمر فى عكا • ومن هنـــاك أخذ يفـــكر فى العودة الى مصر ، وقد أبدى صديقه ظاهر استعداده لأمداده بقوة من جيشه ترافقه الى مصر • كما وعده الكونت الكسيس آرلوف Alexis Arlow قائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط بامداده ببعض الأسلحة لاستخدامها فى الزحف الى مصر •

أسرع على بك الى الزحف صوب مصر حتى اذا وصل الى الصالحية بالشرقية فى ١٥ صفر ١١٨٧ هـ الموافق ٢٦ أبريل ١٧٧٣ م التقى مع جيش يقوده محمد أبو الذهب فى معركة كان النصر فيها حليف الأخير ، وكان « لخيانة المرتزقة من مشاة المغاربة أثر أساسى فى هزيمة الصالحية ، التى تعتبـــر أهم المواقع الثلاث الحاسمة فى تاريخ على بيك »(٣٤) • وجرح على بك وتلقاه مملوكه أبو الذهب وحمله الى القاهرة وأخذ يقدم له الرعاية الطبية الا أنه ما لبث أن مات فى ٢٥ صفر ١١٨٧ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣ م •

وبموت على بك خلصت مصر لمحمـــد بك أبو الذهب الذى رغم وصول الوزير خليل باشا واليا على مصر فى ٨ يونيو ١٧٧٣ م الا أن هذا

---

(٣٣) نفس المرجع ص ٩٦ . وكان ذلك فى ٢٥ المحرم ١١٨٦ هـ الموافق ٢٨ ابريل ١٧٧٢ م .

(٣٤) رفعت رمضان : المرجع السابق ص ١٩٦ ، والمعركتين الاخريين هما المعركة ضد حسين بك كشكش فى ١ يونيو ١٧٦٨ م ، ومعركة اسيوط فى يونيو ١٧٦٩ م ضد انصار همام الهوارى .

الوالى لم يكن له فى الولاية « الا الاسم والعلامة على الأوراق والتصرف الكلى للأمير الكبير محمد بيك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه وأشراقاته »[٣٥] .

على بيك والدول الأجنبية

تمثلت صلات على بك الكبير بالدول الأجنبية فى علاقاته بكل من الروسيا والبندقية وانجلترا . فروسيا عدوة تقليدية للدولة العثمانية التى خلع على بك طاعتها ، والبندقية بلد صديقه كارلوو روستى ولها مصالح اقتصادية عبر مصر ، وانجلترا مهتمه بتأمين طريقها الى الهند عبر مصر والبحر الأحمر . اذن دفعت المصالح المتبادلة بين على بك وهذه الدول الى توثيق العلاقات بينه وبينها ضد الدولة العثمانية .

انتهز على بك فرصة انشغال الدولة العثمانية فى معارك الحرب الروسية العثمانية منذ عام ١٧٦٨ م ليوطد علاقته بالروس ، وكان على بك تربطه بروسيا روابط العداء المشترك للدولة العثمانية وقد نشبت الحرب بين الأتراك والروس بسبب ما عرف بالمسألة البولندية عام ١٧٦٨ م فى عهد الامبراطورة كاترين ، ومنذ بداية الحرب ظهرت علامات انتصار الروس على الأتراك فى البحر والبر خاصة فى البحر الأبيض دويا كبيرا فاتصل بالعناصر السلافية والأرثوذكسية الثائرة على الدولة العثمانية بل والعربية الثائرة فى الولايات العربية مثل على بك الكبير فى مصر والشيخ ظاهر العمر فى فلسطين »[٣٦] .

وكانت مرابطة الأسطول الروسى فى بحر الأرخبيل بقيادة الكونت الكسيس أورلوف Alexis Arlow مشجعا لعلى بك لكى يتصل بقائده ويطلب مساعدته بتأمين وصول أسلحة ومعدات روسية لقوات على بك

---

(٣٥) الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٩ .

(٣٦) د. محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٦٧ .

فى مصر ، خاصة بعد أن تم تدمير الأسطول التركى بمعرفة الأسطول الروسى فى موقعة جشمة الشهيرة فى ٢٥/٢٦ يونيو ١٧٧٠ م وبعد أن أظهرت مساعدة الأسطول الروسى للثوار اليونانيين فعاليتها ، وبعد أن اتخذ الكونت أورلوف من جزيرة باروس مقرا لقيادة الأسطول .

وقد عرض على بك أن يعقد مع الروس اتفاقية تتضمن أن يقوم الروس بتزويد جيشه بالأسلحة والعسكريين المدربين وأن يكون الأسطول الروسى حاميا للشواطىء المصرية ضد أية محاولات هجومية عثمانية ضد مصر عن طريق البحر المتوسط .

وأبدى على بك مقابل ذلك أن يتعهد بخلع طاعة الدولة العثمانية وأن يرسل قواته لمهاجمة بلاد الشام والاستيلاء عليهـا ، وأن يعطى تسهيلات للسفن الروسية فى الموانى المصرية حتى تتمكن هذه السفن من الحصول على المؤن ، ومحطات للاصلاح .

« وأكبر الظن أن على بك كان مستعدا ليعقد مثل هذه الاتفاقية مع أية دولة أوروبية أخرى ، تمكنها سياستها ازاء الدولة العثمانية وظروفها فى البحر الأبيض المتوسط من ذلك تدعيما للخطة العامة التى سار عليها فى بعث الدولة المصرية واقتباس الوسائل الفنية الكفيلة بهذا البعث وخاصة فى الناحية العسكرية »[٣٧] .

وقد رد الكونت أورلوف على عرض على بك بأنه على استعداد لاجابة طلبات على بك وحثه على الاستمرار فى موقفه من الدولة العثمانية، وأما بخصوص عقد الاتفاقية فقد ذكر له أنه سوف يرجع الى حكومته والى الامبراطورة كاترين بشأنها ، وأنهى رده بتقديم الشكر لعلى بك على عرضه بالتسهيلات فى الموانى المصرية ، وأنه سوف يطلبها متى وجد نفسه فى حاجة اليها .

---

(٣٧) د. احمد عزت عبد الكريم : دراسات فى النهضات العربية الحديثة ص ٢٣٥ .

الا أن عهد على بك لم يطل بسبب خروج مملوكه محمد أبو الذهب عليه ، فى الوقت الذى لم تصله فيه المساعدات الروسية التى وعد بها ؛ ولكن عندما فر على بك الى صديقه الشيخ ظاهر العمر أرسل اليه الكونت أورلوف وفدا برئاسة الملازم بليشييف يحمل كمية من الأسلحة والذخائر استخدمها على بك فى قتال محمد أبو الذهب . وهو القتال الذى انتهى بهزيمة على بك فى الصالحية . وخسرت روسيا بسبب تباطؤها فى نصرة على بك لاستعادة مركزه فى مصر .

الا أن انتهاء الحرب الروسية التركية وتوقيع معاهدة الصلح المعروفة باسم كجوك قينارجى عام ١٧٧٤ م قد أدى الى توقف « مشروع التحالف الروسى المملوكى وان لم تتخل روسيا نهائيا عن سياسة الكيد للدولة فى ولاياتها والاتصال بالأمراء والزعماء فى مصر والشام »[٣٨] .

ومما يجب الاشارة اليه أن التحالف الروسى مع على بك وظاهر العمر وسيطرة الأسطول الروسى على الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، قد أضاف عاملا جديدا بالاضافة الى العوامل المحلية الأخرى لاضطراب التجارة الخارجية لمصر والشام وبقية أقطار المشرق العربى . رغم أن على بك والشيخ ظاهر العمر ، كانا يقدران أهمية هذه التجارة لرخاء بلادهما بما يجبى من رسوم عليها »[٣٩] .

وكان اتصال على بك بجمهورية البندقية عن طريق صديقه المسمى كارلو روستى Carlo Rosetti « وهو ايطالى من البندقية ، وقد كلفه على بك بتنظيم التجارة الخارجية والعلاقات الدولية ، وبقى روستى بعد ذلك قنصلا لألمانيا حتى قدوم الحملة الفرنسية ، وكان صديقا لمراد »[٤٠] .

---

(٣٨) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٣٩) نفس المرجع ص ٢١٤ .

(٤٠) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ص ٧١ .

وقد عول على بك على نفوذ صديقه روستى لكى تقف البندقية الى جوار مشروعاته التوسعية فى الشام والبحر المتوسط ضد الدولة العثمانية ، حتى أنه « أرسل الى البندقية يعرض محالفته ومساعداته لها لكى تمتلك الجزر المملوكة للدولة العثمانية فى البحر المتوسط ، لتكون قاعدة حربية له ، ولكن جمهورية البندقية ردت شاكرة ومعتذرة ، وقام بهذه الرسالة — من على بك للبندقية — يعقوب الأرمنى أحد معاونى على بك »(٤١) .

ورغم أن الدولة العثمانية كانت منشغلة بالحرب مع روسيا ، فان جمهورية البندقية بلغت « اذ ذاك من الضعف حدا جعلها عاجزة عن أن تبذل أى نشاط عدائى ضد السلطنة العثمانية فى البحر المتوسط فلم تستطيع لهذا أن تقدم أية مساعدة عملية لعلى بك »(٤٢) .

كما أن اتصال على بك بانجلترا انما جاء نتيجة تشابه المصالح بين الطرفين ، فعلى بك كان يطمع فى احياء التجارة الهندية عن طريق مصر والبحر الأحمر ، وهو الطريق المعروف بالطريق البرى تمييزا له عن الطريق البحرى الذى تحولت اليه التجارة الهندية الى أوروبا بالدوران حول أفريقيا مرورا برأس الرجاء الصالح .

وأما انجلترا فكانت مهتمة كثيرا بتأمين الطريق البرى لتجارتها باعتباره أقصر من الطريق البحرى وأوفر فى النفقات مما يزيد الربح فى التجارة ، ومن هنا كانت استجابة السلطات البريطانية فى الهند لما أبداه على بك من استعداد « لاستقبال سفنها فى موانيه ، كما تعهد ببسطه حمايته على المسافرين والتجار الأجانب الذين ينزلون فى بلاده »(٤٣) .

---

(٤١) رفعت رمضان : على بيك الكبير ص ١٦٠ .

(٤٢) د. أحمد عزت عبد الكريم : نفس المرجع ص ٢٤٤ .

(٤٣) نفس المرجع ونفس الصفحة .

ذلك أنه كان هناك عاملان يحكمان العلاقات الانجليزية المصرية فى القرن الثامن عشر خاصة هما « التجارة البريطانية الهندية مع مصر ، والآخر استخدام الطريق البرى عبر مصر للمواصلات الى الهند ، وهو ما يعرف بالعامل الهندى Indian Factor (٤٤) .

وبسبب هذا العامل الهندى أهتمت انجلترا بمصر ، كما أنها اهتمت بسبب موقعها الجغرافى ، « ويجب أن يكون معلوما فى المقام الأول أن الانجليز وليس الفرنسيين هم الذين تولوا زمام المبادأة فى هذا الاتجاه وفى المقام الثانى فان الانجليز من ناحية ثانية هم الذين أخذوا على أنفسهم مهمة المبادرة فى تقريب مصر من الاستقلال غير مبالين بالسيادة العثمانية »(٤٥) .

ومن ثم رأينا انجلترا تشجع على بك ومن جاء بعده من البكوات المماليك على الوصول الى درجة أكثر من الاستقلال عن الدولة العثمانية، وذلك لكى يعترف هؤلاء الحكام بما أسدته لهم انجلترا من جميل فى سعيهم للحصول على مكاسب استقلالية من الباب العالى .

تقييم حــركة على بك

لتقييم حركة على بك الكبير فى مصر لابد أن نتناول شخصية على بك وما أثير حولها من جدل ، كما نتناول طبيعة حركته فى مصر تلك الحركة التى اختلف حول طبيعتها المؤرخون .

ان تعدد تسميات على بك دليل على شخصيته ، فاذا كان المصريون قد لقبوه « بالجن على بك » فهذا يعنى عندهم الشخص النشيط الذى لا يهدأ ويتغلب على خصومه ، واذا كان الرحالة الأوروبيون قد لقبوه بعلى بك الكبير فمرجع ذلك الى ما اتسمت به شخصيته من قوة وعزيمة

---

(٤٤) Anis, M. : The development of British interest in Egypt in the 18th Century.

(٤٥) Anis, M. : England and the Suez Route in the 18th Century, p. 17.

حققت الكثير حتى ذاع صيته فى مصر وبقية أقطار المشرق العربى وفى كل من فرنسا وانجلترا والبندقية والروسيا .

وان تعدد ألقاب على التى اشتملت الى جانب ما ذكرنا الاسم الرسمى « ميراللوا على بك » وتسمية العثمانيين له « على بك بلوت قبان » ليس سوى « مظهر من مظاهر نشاطه الجم وكفاياته المتعددة ، فقد كان على بك كبير النفس كبير القلب كبير المطمع ، ظهر فى عصر اضطراب وفوضى . وفى وقت كانت مصر فى أمس الحاجة الى رجل مثله ، وقد أتقن على بك دوره وأخذ فى تنفيذه مضحيا بكل ما يملك من صحة ومال ... ما دام يجد منفذا الى غرضه المزدوج أن يجمع فى يده بصفته قائمقام ما تشتت من سلطة الباشا العثمانى وأن يخلق من الفوضى نظاما يمكنه من استغلال تلك السلطة لمصلحته ومصلحة مماليكه »(٤٦) .

وكان على بك لا يميل الى الهزل والمزاح ، ويجالس العلماء أهل الاحترام مثل الشيخ حسن الجبرتى والشيخ أحمد الدمنهورى وغيرهم . « وكان يطالع كتب التاريخ والأخبار ، وسير ملوك مصر من المماليك ، ويقول لخاصته : أن هؤلاء الملوك كانوا من جنسنا مثل السلطان بيبرس، والسلطان قلاوون ، وأولادهم ، وكذلك ملوك الجراكسة ، ولم يستول العثمانيون على مصر ويقهروا هؤلاء المماليك الا بالقوة ونفاق أهل البلد »(٤٧) .

ومع صفات على بك الطيبة وتحريه العدل فقد اشتهر بالقسوة التى لا تعرف الرحمة مع خصومه ومعارضيه « فلا زالت عشرات الأرواح التى أمر بازهاقها ليعبد بها سبيل مجده تنعى وسائله التى تقوم على القسوة والغدر ، وهذه بلا شك نقطة سوداء تشوب نقاء صحيفته البيضاء » (٤٨) .

---

(٤٦) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٢٠٢ .
(٤٧) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ٣ ص ٧٤ .
(٤٨) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٢٠٥ .

واذا كان الجبرتى رغم ما أورده من شواهد على قوة على بك قد أشاد فى أكثر من موضع بأمراء المماليك وسماهم « الأمراء المصرية » اشادة عامة ، الا أنه أثنى كثيرا على حكومة على بك الذى جعل من مصر مدنها وريفها بلدا آمنا رخى العيش ؛ حتى كان المسافر يسير بمفرده ليلا راكبا أو ماشيا ، ومه حمل الدراهم والدنانير الى أى جهة • ويبيت فى الغيط أو البرية(٤٩) •

وقد أشاد الجبرتى باصلاحات على بك وانشاءاته سواء بالنسبة لدواوين الحكومة ليضمن انتظام الأمور وتحقيق العدالة ، أو انشاء المساجد والأسبلة والعمائر ، وقلاع الاسكندرية ودمياط وتجديد مساجد الامام الشافعى والسيد البدوى بطنطا ، وغير ذلك من شئون التعمير التى ما زالت شاهدا على اتجاهات على بك للبناء •

وقد شارك بعض الرحالة الأوروبيون الجبرتى فى الاشادة بحكومة على بك ، فالمؤرخ الفرنسى « سافارى » Savary « أشاد بعدل على بك وكرمه ، واعتــرف كل من فولنى Volney وأوليفييه Olivier أنه سمع ثناء مستطابا عليه من التجـــار الفرنسيين الذين تفيئوا ظلال عدله وحكمه الرشيد »(٥٠) •

ورغم أن الرحـــالة الانجليـــزى جيمس بروس James Bruce قد حمل بشدة على البكوات المماليك واتهمهم بأنه « ربما لا يوجد فى العالم رجال أجلاف جائرون طغاة ظالمون جشعون بمثل الدرجة التى عليها أولئـــك الأشرار الذين يقبضون على حـــكومة القــاهرة ، فانه أنصف حكم على بك بقوله : « ولحسن الحظ عندما كنت بالقاهرة لم أصادف ذلك النوع المشوش من الحكومات بل كان على بك الشهير يحكم بنفســه أو بوساطة عماله »(٥١) •

---

(٤٩) الجبرتى : نفس المرجع .
(٥٠) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٢٠٨ .
(٥١) نفس المرجع ونفس الصفحة .

ورغم ذلك فقد كان لعلى بك سلبيات أفضت فى النهاية الى فشله فى تحقيق مشروعاته ، من بينها قلة حظه من الثقــافة واعتماده على التنجيم والفلك حتى صار أسير ما تشير اليه النجوم وحتى خضـع للمنجمين وقربهم منه ، ومنها أن حاشيته لم يكن فيها الناصح الأمين الذى يستند الى خبرة سياسية وعلمية .

من سلبيات على بك الكبير أنه لم يشرك الشعب المصرى فى تحقيق مشروعاته وتطلعاته . ولذلك رأينا المصريين يأخذون من حركته منذ بدئها حتى نهايتها موقفا سلبيا ولم يدافعوا عنها عندما أنهارت بمقتل على بك نفسه على يد مملوكه محمد أبو الذهب ، واكتفى على بك بتحميل المصريين نفقات حروبه الخارجية ومشروعاته الداخلية .

ويأتى الشق الثانى من تقييم حركة على بك الكبير ، وهو طبيعة هذه الحركة ذلك أن بعض المؤرخين ذهبوا الى أن على بك كان يهدف من حركته الاستقلال التام عن الدولة العثمانية واقامة سلطنة مصرية مستقلة تخضع لسيطرته وتعــود لمصر شخصيتها المستقلة التى كانت لها قبل الاحتلال العثمانى .

بينما ذهب البعض الآخر من المؤرخين الى أن على بك انما كان يهدف فقط الى الانفراد بالحكم فى مصر تحت السيادة العثمانية دون أن يفكر فى خلع طاعتها ، على اعتبار أنه أدرك أن مثل هذا الخلع لطاعة الدولة العثمانية قد لا يكون مقبولا من الشعب المصرى بل ومن المؤكد أن الدولة العثمانية ستقف بحزم ضد هذا الاتجاه فى الوقت الذى توجد اتجاهات عند بعض الزعامات المملوكية للانقضاض على على بك وتخليص مصر من حكمه .

وقد استند أصحاب الرأى الأول القائل بأن على بك كان هدفه الاستقلال بمصر استقلالا تاما عن الدولة العثمانية الى عدة أدلة منها توافق انزال على بك للباشا محمـــد راقم من القلعة عام ١٧٦٨ م مع انشغال الحرب الروسية التركية ممـــا يدفع الى الاعتقاد بأن على بك

أراد انتهاز هذه الفرصة لمصلحته الخاصة وعزز اعتقادهم هذا بأنه بعد الحجر على الباشا تولى على بك منصب قائمقامية مصر حتى آخر عهده ولم يسمح للباشوات العثمانيين بالقدوم الى مصر .

ويروى الرحالة الانجليزى جيمس بروس قصة تؤيد هذا الاعتقاد ملخصها أن على بك سأل بروس فى أول مقابلة بين الرجلين فى شهر يوليو ١٧٦٩ م عقب اشتعال الحرب الروسية التركية عن نهاية الحرب فلما أجابه بروس بانه « سيعقد صلح بعد أن تسيل دماء كثيرة ولن يكسب أحد الطرفين كثيرا من هذه الحرب . فضرب البك كفا على كف وقال بالتركية لا حول ولا قوة الا بالله . ثم التفت الى رزق[٥٢] الذى كان واقفا وقال له : لا شك فى أن ذلك سيكون من قلة حظنا ، ولكن ما قدر يكون ان الله بنا لرءوف رحيم »[٥٣] .

كما يؤيد الاعتقاد بأن حركة على بك كانت حركة استقلالية بمصر عن الدولة العثمانية ما ذكره الجبرتى من أنه بعد أن خلع على بك الباشا العثمانى وطلب من الدولة عدم ارسال ولاة أوقف ارسال الجزية السنوية ، وكانت « آخر خزنة رأيناها سافرت الى اسلامبول فى الوضع القديم[٥٤] عام ١١٨٠هـ حملها عثمان بك أبو سيف ومات هناك فى نفس السنة . كما أن « قنصل فرنسا المسيو دى جونفيل M. de Jonville استشف نيات على بك فكتب يقول ان غرضه جعل مصر دولة مستقلة قوامها قوة المماليك المطلقة »[٥٥] .

وفى مقابل هذا الاعتقاد رأينا اعتقادا آخر يدافع عنه كثير من المؤرخين مؤداه أن على بك لم يكن يسعى الى فصل مصر عن الدولة العثمانية ، وحجتهم فى ذلك أن على بك منذ توليه مشيخة البلد عام

---

(٥٢) هو المعلم رزق الذى اتخذه على بك وزيرا ومستشارا ولم يعد يصدر فى حركة من الحركات الا بعد اخذ راى المعلم رزق القبطى او اتباعا لنصيحته نظرا لخبرته فى النواحى المالية والتنجيم .

(٥٣) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٥٥ .

(٥٤) الجبرتى : نفس المرجع .

(٥٥) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٥٧ .

١٧٦٧م كان حريصا على اظهار الطاعة للسلطان العثمانى ، وقد أورد الجبرتى شواهد كثيرة على هذا الحرص منها أن على بك عام ١٧٦٨م أرسل للسلطان « هدية حافلة وخيولا مصرية ، جيادا » وأنه السلطان أرسل للسلطان « هدية حافلة وخيولا مصرية ، جيادا » وأنه أى السلطان السلطانى » .

ويضيف الجبرتى الى ذلك أن على بك كان يحرص على أن يكون تحركه بفرمان من الباشا ، وأن يعلن فى حروبه ضد منافسيه أنه يحاربهم باسم السلطان ومن أجل اعلاء سلطته ، كما أن الجبرتى أورد فى أحداث عام ١١٨١هـ (١٧٦٧ — ١٧٦٨م) أن محمد باشا راقم نزل الى بيت على بك باستدعائه فتغدى عنده ، وقدم له تقادم وهدايا وكان ذلك فى ١٢ ربيع الأول الموافق ٢٧ يوليو ١٧٦٨ م »[٥٦] .

كما أورد الجبرتى قصة فى أول رمضان ١١٨٣هـ الموافق ٢٩ ديسمبر ١٧٦٩م جاء فيها أنه « اتفق أن على بك صلى الجمعة الأولى من رمضان بجامع الداودية ، فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك ، فما انقضت الصلاة ، وقام على بيك يريد الانصراف أحضر الخطيب وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح ، فقال له : من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر ؟ أقيل لك أنى سلطان ؟ فقال نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك ، فأظهر الغيظ وأمر بضربه فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألما من الضرب ، وركب حمارا وذهب الى داره وهو يقول فى طريقه : بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ : ثم ان على بك أرسل اليه فى ثانى يوم بدراهم وكسوة واستسمحه »[٥٧] .

ومما ذكر الجبرتى ندرك مدى حرص على بك على استمرار الخطبة للسلطان العثمانى باعتباره سلطانا لكل الدولة بما فيها مصر ، ولا يعنى

---

(٥٦) الجبرتى : نفس المرجع ص ٨٣ .

(٥٧) نفس المرجع ص ٩٠ .

ما ذهب اليه البعض من أن على بك كان حريصا على اخفـاء أهدافه الانفصالية ، ذلك أن هذه الحادثة وقعت بعد مرور أكثر من عام على بدء حركة على بك بانزال الباشا من القلعة التى تمت ــ كما رأينا فى ١٧ رجب ١١٨٢هـ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٧٦٨ م ٠

وأما عبارة « سلطان مصر وخاقان البحرين » فلم تكن هناك أدلة على أن على بك تلقب بها ، وقد يكون شريف مكة عبد الله قد لقب على بك بهذه العبارة ، وقد يكون دعا له على منابر الحجاز اعترافا بفضله عليه فى تقلده شرافة مكة ٠ وأما توقف الخزنة الرسمية عن الذهاب من مصر الى اسلامبول فلا تعتبر دليلا على انفصال على بك بمصر عن الدولة العثمانية ، لأن الدعاء للسلطان العثمانى ــ وهو المظهر الثانى للسيادة العثمانية ــ على المنابر فى صلاة الجمعة بقى قائما طوال سنوات حكم على بك ٠ بالاضافة الى أن العملة ــ وهى المظهر الثالث للسيادة العثمانية ــ الفضية والذهبية التى أمر على بك بسكها منذ عام ١٧٦٧م قد نقش على أحد وجهيها اسم السلطان العثمانى مصطفى الثالث (الذى حكم من عام ١٧٥٧ الى ١٧٧٣م) وعلى الوجه الآخر نقشت عبارة « ضرب فى مصر » ، ولا يقلل من قيمة ذلك ودلالته ظهور عملة جديدة تحمل طابعا مميزا عن العملة المتداولة فى مصر قبل ذلك ٠

هذا الى جانب أن « جميع الأوامر والفرمانات وتقاسيط الالتزام التى كانت تصدر بتوقيع باشا مصر أصبحت تصدر باسم : حضرة على بك ميرلوا قائمقام محروسة مصر « كما كانت تقاسيط الالتزام تختم بخاتمه الخاص دون أى اشارة الى الباشا وذلك فى المدة الواقعة بين عامى ١١٨١ ــ ١١٨٦هـ الموافق ١٧٦٨ ــ ١٧٧٢م »(٥٨) ٠

والرأى عندى هو أن على بك فى حركته لم يكن يهدف الى الانفصال التام بمصر عن الدولة العثمانية ، وكل ما كان يطمع اليه هو أن تكون له مقاليد الأمور فى مصر ، وان على بك لم يكن أبداً يرمى الى اعلان

(٥٨) د. رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٥٩ .

العداء للدولة العثمانية أو محاربتها رغم أنه لجأ الى ضم الحجاز الى مصر وهو أمر حيوى لمصر وحكامها من الناحية الدينية والسياسية • ورغم أنه استعان بصديقه الشيخ ظاهر العمر وبالأسطول الروسى فى البحر المتوسط لأن هذه الاستعانة حدثت بعد أن رأى عين الغدر من الدولة العثمانية ضده وضد صديقه الشيخ ظاهر الذى كان يشارك على بك الشكوى من ان الدولة العثمانية رغم محاولاتهما لارضاء قادتها بالهدايا والأموال وترسل دليل رضاها الى الرجلين ، سرعان ما كانت تنقض هذا الرضاء وتحرض للقضاء عليهما •

مصر بعــد على بــك

بعد وفاة على بك تسلم زمام الأمور فى مصر محمد بك أبو الذهب مع وجود باشا عثمانى هو خليل باشا الذى ذكر الجبرتى أنه « محجوز عليه ليس له فى الولاية الا الاسم والعلامة على الأوراق • والتصرف الكلى للأمير الكبير محمد بك أبوالذهب »(٥٩) • حتى اذا توفى أبو الذهب عام ١٧٧٥م خلفه فى مشيخة البلد خشداشه اسماعيل بك • وبعده ابراهيم بك ومراد بك مملوكا أبو الذهب •

وقد شارك أبو الذهب فى القضاء على امارة الشيخ ظاهر العمر فى عكا بتحريض من السلطان العثمانى الذى أغرى أبى الذهب بالامارة على الشام مع مصر ، ولكن أبا الذهب توفى فى نفس العام الذى قضى فيه على امارة الشيخ ظاهر فى عكا وهو عام ١٧٧٥م •

ولقد ساءت الأمور فى مصر فى عهود كل من اسماعيل بك وابراهيم بك ومراد بك ، وعمت الاضطرابات والقسوة والظلم كما حدثت خلافات بين اسماعيل بك من ناحية وبين ابراهيم بك ومراد بك من ناحية أخرى دعت الدولة العثمانية الى التدخل عام ١٧٨٦م بحملة عسكرية اضطر

---

(٥٩) يروى عن ابو الذهب انه عندما تقلد امارة الحج لأول مرة عام ١١٧٨ هـ ولبس خلعتها فى القلعة نزل يفرق نقودا ذهبية ، وينثر الذهب على الفقراء حتى دخل بيته وهو يقول انا ابو الذهب .

أمامها كل من ابراهيم بك ومراد بك الى الفرار من القاهرة الى الصعيد حتى اذا توفى اسماعيل بك بالطاعون عام ١٧٨٨م عاد الرجلان وتقلدا مشيخة البلد وامارة الحج بالتناوب فيما بينهما وظلا على هذا الوضع حتى فاجأتهما الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م .

ولم تستفد مصر بتاتا من حكم هؤلاء البكوات بل تحمل شعبها عبء الارهاق وشظف العيش لدفع الأموال المطلوبة للصراع بين البكوات . وحتى التجار الأجانب عانوا من تعسف المماليك الذين أساءوا معاملتهم وأورهقوهم بالضرائب مما أدى الى اغلاق البيوت التجارية الأجنبية فى كل من القاهرة والاسكندرية .

هذا على الرغم من محاولات الدول الأوروبية وخاصة انجلترا وفرنسا والروسيا التى تنافست لعقد معاهدات مع ابراهيم ومراد من أجل احياء الطريق البرى عبر مصر والمساعدة على استقلال مصر لمصلحة الأميرين المملوكيين على نفس النسق الذى كانت عليه مصر فى عهد على بك الكبير .

وكان عقد معاهدة بين مراد وترجويه الفرنسى عام ١٧٨٥ م دافعا لعقد معاهدة بين القنصل الانجليزى بالدوين George Baldwin وكل من ابراهيم ومراد عام ١٧٩٤ م كما كانت دافعا لنشاط روسى لعقد معاهدة مع البكوات المماليك فى مصر ، وقد قيل « ان مراد عرض على روسيا أن يعطيها – وقت الحرب مع الدولة العثمانية حق اقامة حاميات بالاسكندرية ورشيد ودمياط فى مقابل اعترافها باستقلال مصر وفى العام التالى جاء رسولان من روسيا لفحص هذه الأماكن تمهيدا لانزال حاميات روسية بها ، واستقبل مراد قنصلا لروسيا بالاسكندرية »(٦٠) .

وقد أهملت الزراعة وشئون الرى « مما أدى الى طغيان رمال الصحراء على الترع والقنوات ، واتلاف قسم كبيرة من الأرض

---

(٦٠) د. أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ذكره ص ٢٤٦ .

الصالحة للزراعة ، وفضلا عن ذلك فقد أهملوا فى تحصين البلاد التى تسلموا زمامها ، واضمحلت فى عهدهم الاسكندرية ، وهكذا كانت مصر ضعيفة عسكريا لا قدرة لهـا على المقاومة ومدافعة الغزو الأجنبى ، وظهر هذا الضعف واضحا عندما حضرت الى البلاد الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨م »[٦١] .

---

(٦١) د. السيد رجب حراز : نفس المرجع السابق ص ٢١ .

الباب الثالث

حــركات الاصــلاح الســلفية

* مقـــدمة .
* الفصل العاشر : الدعوة الوهابية .
* الفصل الحادى عشر : الدعوة السنوسية .
* الفصل الثانى عشر : الدعوة المهدية .

مقـــدمة :

يعتقد بعض المؤرخين أن ما اصطلح على تسميته بالحركات السلفية فى العالم العربى الاسلامى انما ظهرت كنشوة دينية ضد ما ساد البلاد الاسلامية من تصرفات وسلوك يتناف مع جوهر الدين الاسلامى الحنيف وأن هذه الحركات الدينية انما ظهرت لكى تعيد للدين الاسلامى مكانته الأولى التى ظهر بها فى عهد الرسول الكريم ومن بعده الخلفاء الراشدين.

ويعتقد البعض الآخر أن هذه الحركات الدينية انما ظهرت لكى تقف أمام أطماع الدول الاستعمارية الأوروبية المسيحية فى أقطار الوطن العربى الاسلامى .

بينما يرى بعض المؤرخين أن هذه الحركات الدينية ظهرت بسبب سوء أحوال العــالم العربى الاســلامى نتيجة تفتت القوى الاسلامية بظهور الحركات الاستقلالية والانفصالية فى ولايات الدولة العثمانية ، فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية تعيش عصر انحلال وضعف .

والرأى عندى أن ظهور هذه الحركات الدينية المتمثلة فى الدعوة الوهابية فى نجد بالجزيرة العربية ، والدعوة السنوسية فى برقة بليبيا ، والثورة المهدية بالســودان ، الى جانب فكرة الجامعة الاسلامية التى تزعم الدعوة اليها المفكر الاسلامى جمال الدين الأفغانى واتخذ من مصر مركزا لهذه الدعوة ، بالاضافة الى الطرق الصوفية التى قامت فى الشـمال الأفريقى كالطريقة التيجانية والطريقة الشاذلية وغيرها وفى المشرق العربى كالطريقة القادرية التى ظهرت أول ما ظهرت فى العراق . ان ظهور هذه الحركات انما كان رد فعل للشوائب التى شابت العقيدة الاسلامية وتطرف بعض المسلمين وخروجهم عن جوهر العقيـدة بل وارتداد بعضهم الى عبادة الأصنام .

واعتقادى يستند الى أن هذه الحركات الدينية بدأت دعوتها بالعودة الى كتاب الله وسنة رسوله وترك البدع والتصرفات المنافية لعقيدة الاسلامية ، وان وقوف هذه الحركات أمام الأطماع الاستعمارية انما جاء بعد أن أصبح لهذه الحركات تنظيماتها ورجالها الذين ينفذون أهدافها وسياستها ، كما أن ظهور هذه الحركات جاء كرد فعل للتفتت فى القوى الاسلامية ، فلم يتحقق ذلك الا فى دعوة السيد جمال الدين الأفغانى من أجل تحقيق فكرة الجامعة الاسلامية بزعامة الدولة العثمانية، بينما اصطدمت معظم الحركات الدينية بهذه الدولة العثمانية زعيمة العالم الاسلامى منذ القرن السادس عشر .

ولم يكن ذلك وحده هو مثار الخلاف الوحيد بين المؤرخين حول الحركات السلفية فان خلافا من نوع آخر ثار بينهم حول بداية هذه الصحوة الدينية التى عبرت عنها الحركات السلفية . فبعض المؤرخين يعتقدون أن القرن التاسع عشر الميلادى يمثل بداية ظهور هذه الحركات وذروة نشاطها ، ويستندون فى ذلك الى أن الحركة الوهابية كان نشاطها الزائد خلال هذا القرن ، كما أن الدعوة السنوسية امتد نشاطها منذ العشرينات من هذا القرن وملأ القرن كله بل والنصف الأول من القرن العشرين ، وأن الثورة المهدية ظهرت فى أوائل الثمانينات من هذا القرن أيضا واستمرت حتى نهايته ، كما أن دعوة جمال الدين الأفغانى لفكرة الجامعة الاسلامية تبلورت خلال النصف الثانى من هذا القرن كذلك .

والبعض الآخر من المؤرخين يعتبرون القرن الثامن عشر هو بداية ظهور معظم هذه الحركات وان امتد نشاطها خلال القرن التاسع عشر باعتبار أن القرن الثامن عشر شهد بداية ظهور محمد بن عبد الوهاب فى نجد عام ١٧٤٤ م كما شهد ميلاد محمد على السنوسى عام ١٧٨٧ م بالجزائر كما أن أسباب هاتين الحركتين وأسباب الثورة المهدية ليست وليدة احداث القرن التاسع عشر ، بل هى وليدة أحداث القرن الذى يسبقه على الأقل .

بينما يرى فريق ثالث من المؤرخين أن بذور هذه الحركات الدينية انما ترجع الى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين بظهور العالم المصلح احمد بن تيمية الدمشقى الذى عاش فى الفترة من ١٢٦٣ الى ١٣٢٨م ، الذى عاش دمار انتشار فى الوطن العربى الاسلامى ، فاتخذ من القرآن الكريم مصدرا لاصلاح النفوس وبعث الهمم وتأكيد عقيدة التوحيد السامية ، وهاجم خصوم العقيدة الاسلامية وفقهاء العصر الجامدين ، ورجال الدين ورجال الحكم الذين استبدوا بالسلطان فأفسدوا السلطة .

والرأى عندى أن حركات الاصلاح الدينى تبدأ فعلا بالعلامة أحمد ابن تيمية منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، لكنها ازدهرت وزاد نشاطها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ولكن يجب أن يكون واضحا أن فكرة التوحيد التى نادى بها أحمد بن تيمية كانت عاملا مشتركا لكل الحركات الدينية الأخرى ، كما كانت هناك عوامل أخرى اشتركت الحركات السلفية فى التأثر بها مما يجعل الباحث يعتقد بوحدة هذه الحركات فى الهدف وفى المصير أيضا مما سوف أسوقه بالتفصيل ..

الفصل العاشر

الدعـــوة الوهابيـة

* نجـــد .
* محمد بن عبد الوهاب .
* أسس الدعوة الوهابية .
* اسلوب الدعوة الوهابية .
* الدعـوة والأتراك .
* الدعوة والقوى الخارجية .
* تقييم الدعوة الوهابية .

نجـــــد

كانت نجد بشبه الجزيرة العربية هى المنطقة التى انبعثت فيها دعوة محمد بن عبد الوهاب للتوحيد « ونجد هضبة تتوسط شبه الجزيرة العربية وان غلب عليها الطابع الصحراوى الجاف الا أنها تضم كثيرا من الوديان والواحات الخصبة أهمها وادى حنيفـــة ووادى الرمـــة وبدايته قريبة من المدينة المنورة وتبلغ مساحة هذه المناطق أكثر من عشرة آلاف ميل « وهى تتكون من سلسلة مناطق واقعة عند أطراف جبـــل طويق وتمتد سلسلة من البلدان والقرى من سدير فى الشمال وتنتهى فى الجنوب الى وادى الدواسر ، ومجموعة المناطق الخصبة تحيط بها الدهناء شرقا وجنوبا ، والنفود ، والمنحدرات من الشمال ومنحدرات من الغرب »(١) .

ويفصل اقليم نجـــد عن الاحساء الواقعـــة على الخليج العربى مرتفعات الصمان ورمال الدهناء ومع اتســاع هضبة نجد فان القسم المأهول منها « لا يتعدى سلسلة ضيقة من الواحات ممتدة على شكل هلال تحف بها الرمال من كل جانب ، وتفصل ما بينها أحيانا ، فهى محدودة من الجنوب بصحراء الربع الخالى ومن الشرق بالدهناء ومن الشمال بالنفود الكبير ومن الغرب بأنفاد السروا لبطرا وقنيفذة الخ »(٢) .

والمنطقة بصفة عامة صحراوية . وحيث توجد الآبار بقدر كاف من المـــاء ظهرت مدن وقرى تحاط بالبساتين ، وهذه على أية حال كثيرا ما تكون متباعدة بحيث تبدو مجرد نقط على خريطة بلاد العرب ، ودون أن تربط بعضها ببعض منطقة زراعية(٣) .

---

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٢ .

(٢) د . عزة النص : احوال السكان فى العالم العربى ص ٦٥ .

(٣) الليدى آن بلنت ترجمة محمد انعم غالب : رحلة الى بلاد نجـــد ص ٢٠٧ .

ومن أهم واحات نجد القصيم والسدير والحوطة والحريق ووادى الدواسر والجوف والوشم التى عاصمتها شـقراء مركز التجارة بين بلاد العرب وكل من الهند وسوريا والعراق ، وواحة المحمل ، والعارض ومركزها مدينة الرياض • وتعتبر واحة العـارض التى عرفت قديما باليمامة قلب هضبة نجد ومن بلادها الى جانب الرياض مدينة الدرعية منبت آل سعود ومركز امارتهم ، والعمارية والعيينة والجبلة ، ومن واحات نجد أيضا الخرج وجبل شمر الذى يعتبر متمما لهضبة نجـد وسمى بذلك لأن قبائل شمر تسكنه وتعمل بالزراعة نظرا لتوفر المياه وخصوبة الأرض •

واذا كانت نجد تعيش طبيعيا بهذه الصورة الصحراوية بـكل ما تشتمل عليه من صحراء ووديان وواحات ، فان تأثير السكان بهـذه الظروف الصحراوية واضح ويتضح أكثر بذكر مناخ هـذا الاقليم • فالحرارة تشتد فى النهار والبرودة تزداد ليلا ، والجوجاف ، والأمطار قليلة بصفة عامة وأكثر مناطق نجد حظا فى الأمطار مناطق جبال شمر والنفود الشمالى ، بينما الصحراء الجنوبية تكاد لا تسقط بها الأمطار•

وتبعا لذلك فان سكان نجـد ينقسمون الى قسمين رئيسيين بدو وحضر فالبدو هم القبائل الرحل الذين يتنقلون من جهة الى أخرى فى طلب المراعى لأغنامهم وهم لا يميلون الى الاستقرار ، وكثيرا ما يلجأون الى التقاتل من أجل حصولهم على أماكن غنية بالعشب لرعى ماشيتهم ، أما الحضر فهم المستقرون فى الواحات والقرى والمدن ويشتغلون بالزراعة والتجارة ويهتمون بالعلم ، وان كانت لهم صـلات تجارية واجتماعية مع البدو •

وأما بالنسبة لمركز انبعاث الدعوة الوهابية فان هذا المركز يتمثل فى رأيى فى بلدة العيينة التى ولد بها محمد بن عبد الوهاب وبلدة الدرعية مقر امارة آل سعود الذين ساندوا الدعوة الوهابية • أما بلدة العيينة فهى من بلاد اقليم أو واحة العارض التى قلبها وادى حنيفة وهى بلدة

يشتهر أهلها بالزراعة كما يهتمون بالعلم وهى بلدة صغيرة نوعا وأما بلدة الدرعية فتقع غربى مدينة الرياض وتبعد عنها بحوالى ١٢ ميلا وهى فى الجهة الشمالية من وادى حنيفة وبها كثير من أشجار النخيل والفاكهة يرويها عدد كبير من الآبار غزيرة المياه ، وأشهر ضواحيها الطريف فى الجهة المقابلة من الوادى ومريحة والغصيبة »[٤] .

ومن البديهى أن تكون هناك ظروف تعيش فيها نجد بل وشبه الجزيرة العربية تماثل ظروف العالم العربى الاسلامى تستدعى قيام حركة اصلاح كحركة محمد بن عبد الوهاب وغيرها من حركات الاصلاح أى أن توفر ظروف معينة يعتبر سببا وجيها لقيام دعاة الاصلاح لتحسين ظروف أهل البلاد الى ما هو أحسن ، وما دمنا بصدد الحديث عن الظروف التى دعت الى ظهور محمد بن عبد الوهاب بدعوته فاننا سوف نتناول الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية التى عاشتها نجد وبلاد العرب بصفة عامة التى دعت محمد بن عبد الوهاب الى اعلان دعوته الاصلاحية .

الظروف الاجتماعية :

تأثرت الظروف الاجتماعية لأهالى نجد بطبيعة الأرض التى يعيشون عليها وهى أرض صحراوية تقام فى انحاء متفرقة منها عدة مدن صغيرة حول آبار للمياه وبالقرب من الواحات . ومن ثم وجدنا السكان ينقسمون الى بدو وحضر ، فالبدو رحل يتنقلون بأغنامهم وابلهم وراء المراعى ، ومن ثم يتميزون بالخشونة فى طباعهم ، والاستعداد الدائم للقتال من أجل المراعى والمياه .

وكانت مسألة توفر المراعى والمياه للابل والأغنام لا تحدث الا بالرحلة والضرب فى المناطق النائية ، ولذلك صار كل تنظيم سياسى قائم على الاستقرار فى السكن أمرا متعذرا على البدوى ، والصلة

---

(٤) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٥٠ .

الدموية وحدها هى التى تعين الفلك الذى تضطرب فيه حياة البدو فهى تربط الأسر بالعشائر والعشائر بالقبائل[٥] .

والقسم الثانى من سكان نجد هم سكان المدن والواحات والقرى وهم أكثر استقرارا من البدو ، وان كانوا فى الأصل من البدو وتوطنوا فى مساكنهم من قديم[٦] . والحضر يشتغل معظمهم بالتجارة الا أن التجارة فى الفترة السابقة لقيام الدولة السعودية ودعوة محمد بن عبد الوهاب ــ فقدت أهميتها كمورد رزق لبعض سكان نجد نظرا لفقدان الأمن وعدم استقرار النظام وانتشار الفوضى[٧] .

وسكان نجد من البدو والحضر ينتظمون فى قبائل تحكمها العرف والتقاليد المتوارثة . فاذا كانت القبائل البدوية سمتها عدم الاستقرار والتقاتل والاغارة على من جاورهم أو الهجرة الى أرض جديدة . فان الحضر انتظموا فى مجموعة من الامارات أو المشيخات التى تتفق مع القبائل البدوية فى الطباع الصحراوية حيث عاد السكان الى مفاهيم الحياة البدوية الجاهلية التى كانوا عليها قبل الاسلام وعادت العصبيات القبلية تمزق المجتمع وتفتته . وعاد الغزو والسلب والنهب ليكون مصدر العيش فى الصحراء[٨] .

ورغم ذلك فقد بقيت عند أهل نجد عادات العرب الأصيلة مثل المروءة والشجاعة ، فمن ذلك أن الحماية تمنح للمسافر الغريب طوعا وعن طيب نفس ، وقد يضم أحد أفراد القبيلة رجلا غريبا الى عشيرته ضما لا انفصام له[٩] هذا الى جانب علاج الخلافات اليومية عن طريق المجالس اليومية ، والطاعة لشيخ القبيلة والاستماع الى من هم أكبر سنا واحترام مجلسهم ، والتضحية بالروح أثناء الحرب وبالأموال أثناء السلم . وهم على العموم كما ذكر أحمد بن سعيد البغدادى فى كتابه

---

(٥) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٧ .
(٦) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٤٦ .
(٧) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى ص ٩ .
(٨) احمد عسه : معجزة فوق الرمال ص ١٢ .
(٩) كارل بروكلمان : نفس المرجع ص ١٧ .

نديم الأديب فى حديثه عن أهل نجد فى تلك الفترة : ولئن كان بقايا من عوائد العرب القديمة وسننهم فهى عندهم[١٠] .

وأما قبائل وعشائر نجد فانهم كانوا موزعين على النحو التالى : أهل حايل ينتمى أكثرهم الى شمر ، وأهل القصيم يرجعون فى الغالب الى بنى خالد وبنى تميم ، وأهل الجنوب ينتمون فى أنسابهم الى عنزة ، وأهل الوسط الى الدواسر وبنى تميم ، وأهل الجنوب الغربى ينتمون الى الدواسر وقحطان[١١] .

والتنظيم القبلى كان يعطى لشيخ القبيلة السلطة الكاملة على كل أفراد قبيلته وهو فى العادة أكثر أفراد قبيلته ثروة وأكبرهم مركزا وسنا فى الغالب ، ولذلك يعد المسئول عن كل ما يلحق بقبيلتـــه من اغارات القبائل الأخرى الى جانب مسئوليته عن تنظيم الأمور المتعلقة بأفراد قبيلته مهما سكنوا فى مناطق متفرقة أو فى قرى وواحات متباعدة ، ومهما اختلفوا من حيث الثراء ، أو فى درجة التحضر ، فالكل أمام عرف وتقاليد القبيلة سواء .

الظروف السياسية :

كانت الأحوال السياسية لمنطقة نجد فى فترة ظهور دعوة محمد ابن عبد الوهاب تتمثل فى وجود عدة امارات صغيرة تتخذ كل امارة منها مقرا لها فى بلدة ولها أميرها الذى هو فى نفس الوقت زعيما لعشيرة أو رئيسا لقبيلة له الكلمة النافذة على أهل امارته .

ومن الثابت أن اقليم نجد لم يخضع للحكم العثمانى كما خضع أطرافه فى الحجاز والاحساء مثـــلا ، ومن ثم لم يشهد الاقليم ولاة عثمانيين يأتون اليه ولا حامية تركيـــة تجوب خلال دياره[١٢] ، ولقد

---

(١٠) عبد الكريم الخطيب : الدعوة الوهابية ص ٤٢ .

(١١) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٤٧ .

(١٢) ساطع الحصرى : الدولة العثمانية والبلاد العربية ص ٢٣٩ .

تركت الدولة العثمانية هـــذا الاقليم لاهله يحكمونه بالطريقة القبلية المألوفة طالما لا يعلن أهله العداء للدولة • كما أن الاقليم كان فقيرا فلم يكن مغريا للعثمانيين •

وأما الامارات القائمة فى اقليم نجد فقد سادتها علاقات البقاء وكثيرا ما كانت الحروب تنشب بينها • وتكاد كل امارة منها أن تكون منعزلة عن غيرها لا تربطها بها روابط سياسية معينة بحكم تجاورها ، ولم تكن الروابط التى تجمعها سوى العلاقات التجارية ، والجوار ، ووحدة الأصل وأشهر الأسر النجدية الحاكمة فى ذلك الوقت هى آل معمر فى العيينة ، ودهام بن دواس فى الرياض وآل زامل فى الخرج ، وآل سعود فى الدرعية[١٣] •

والأسرة السعودية تنتسب الى قبيلة عنزة التى تعتبر من أكثر القبائل العربية عددا وفروعا وانتشارا فى نجد والعراق وبلاد الشام ، وقبل ارتباط هذه الأسرة بزعامة أميرها محمد بن سعود بمحمد بن عبد الوهاب لم يكن لآل سعود شأن كبير فى نجد ، ولم يكن لهم تأثير يذكر فى شئون الجزيرة العربية ، بل كان شأنهم شأن غيرهم من شيوخ المقاطعات النجدية[١٤] •

الظروف الدينيـــة :

كانت بيئة أهل نجد قد سيطرت عليها البــدع والخرافات اللتين امتزجتا بالنفس وأصبحتا جزءا من عقيدة الاسلام ، والدين منها براء • ومن ثم فان الدين قد غشيته غشية سوداء • فالبست الوحدانية التى علمها صاحب الرسالة ــ محمــد بن عبد الله ــ الناس ســحبا من الخرافات ، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء الذين يخرجون من مكان الى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات • فلو عاد صاحب

---

(١٣) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ١٣ .

(١٤) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢١٠ .

الرسالة الى الأرض فى ذلك العصر ورأى ما كان يدعى الاسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين • كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان[١٥] •

وقد انغمس الناس وأسرفوا فى تلك البدع والخرافات التى تمثلت فى الحج الى القبور للتبرك وقضاء الحاجات وتفريج الكروب ، والتبرك بذكر للنخيل أو شجرة فى نجد تسمى شجرة الذيب أو غار فى أسفل الدرعية ، أو زيارة الدجالين الذين يدعون القدرة على اجابة المطالب • وهذه المطالب كثيرة كالرغبة فى انجاب البنين ، أو الانجاب للعواقر ، أو الزواج للعوانس ، ولطول العمر وغير ذلك من الأساطير والخرافات التى نسجت حول هذه الأشياء والأماكن والاشخاص •

ولم تكن نجد تنفرد بمثل هذه الخرافات والبدع ، فقد شاركتها فيها بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية وغيرها من الأقطار الاسلامية التى تعرضت لمثل ظروف شبه الجزيرة العربيـــة وأعنى الظلم والفقر والجهل ، وهى ظروف ساعدت على كثرة الدجالين وأصحاب البدع ممن يجدون لبضاعتهم سوقا رائجة فى دنيا العوام وأشباه العوام ، فهذه هى الفرصة السانحة لطلاب الصيد فى الماء العكر، فما للدجالين والمغامرين مرعى أخصب من هذا المرعى الذى يخيم عليه الجهل والفقر[١٦] •

ونتيجة لذلك فقد كان التدهور فى المجتمع الاسلامى يسير بسرعة حتى أصبحت القيم التى أكسبها الاسلام لمجتمع شبه الجزيرة العربية قد اضمحلت واندثرت أو كادت واحتلت الضلالات والبدع والخرافات والأساطير فى نفوس العامة وغير العامة محل القيم الصحيحة للاسلام ومبادئه حتى أصبحت بعض الأشجار والكهوف والمغاور والقباب والقبور والأضرحة موضع قداســـة وشفاعة أقرب الى العبادة ، وحتى أضحت

---

(١٥) لو ثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض : حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٥٩ •

(١٦) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٣١ ــ ٣٢ •

تعاليم الاسلام التى تضبط المجتمع وتحكم روابطه نسيا منسيا حتى كأن الاسلام لم يظهر فى شبه الجزيرة العربية ولم يترك أثرا حضاريا لا على رمالها ولا عقول أبنائها ونفوسهم(١٧) .

كانت تلك أحوال المسلمين فى نجـــد قبيل قيام الامام محمد بن عبد الوهاب بالدعوة لأفكاره ومبادئه ، وهى أحوال كانت فى حاجة الى مصلح بل الى مصلحين ، وبالفعل ظهر هؤلاء المصلحون منذ القرن العاشر الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، وكانوا من فقهاء مذهب أحمد بن حنبل الذى كان سائدا فى أقليم نجد وليس أدل على ذلك من أنه لم تذكر ترجمة لقاضى من قضاة امارات نجد الا ومن بين أوصافه الحنبلى ولم يذكر عالم حنبلى فى القاهرة أو دمشق دون أن يكون من بين أساتذته أو تلاميذه أحد النجديين(١٨) .

وكان من معتنقى مذهب أحمد بن حنبل القاضى عبد الوهاب بن محمد ابن سليمان بن على التميمى والد محمد بن عبد الوهاب ، حيث كان بيت هذه الأسرة ملتقى لطلاب العلم والراغبين فى دراسة مذهب أحمد بن حنبل . الذين استندوا فى دراسة هذا المذهب على مؤلفات العلامة ابن تيمية التى وجدت طريقها الى نجد بصورة كبيرة والتى كان لها تأثير كبير على الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى عكف على دراستها واعتناق آراء صاحبها منذ فترة مبكرة وقبل قيامه بالرحيل لطلب العلم خارج نجـــد(١٩) .

محمـــد بن عبـــد الوهاب

ولد محمد بن عبد الوهاب طبقا للرأى الأرجح عام ١١١٥هـ الموافق عام ١٧٠٣م ببلدة العيينة التى تقع بالقرب من مدينة الرياض ، وكانت تلك البلدة تحت امارة عبد الله بن محمد من آل معمر الذين كانوا خاضعين

---

(١٨) د. صلاح العقـــاد : دعوة حركات الاصـــلاح السلفى المجلة التاريخية جـ ٧ ص ٨٧ .

(١٩) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١٢ .

لنفوذ حاكم الاحساء ، وكان الشيخ عبد الوهاب والد محمد يعمل وقتها قاضيا لبلدة العيينة وهو فى نفس الوقت متفقه فى مذهب أحمد بن حنبل الذى كان يقوم بتدريسه مع الحديث والتفسير لطلاب العلم الذين يمضون الوقت فى جدال فقهى أو نقاش دينى ، وكان الطفل — محمد — وقد شب وأصبح صبيا ، يحلو له أن يرقب مجلس أبيه عن كثب فينصت لأحاديث القوم ومجادلاتهم(٢٠) .

وصاحب الدعوة هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على ابن محمد بن أحمد بن راشد التميمى عربى خالص العروبة فى دمه وفى لسانه وفى عواطفه وفى بيئته ، فهو ينحدر من أصول عربية تنتهى به الى مضر ، وهو بطن من بطون تميم أكبر القبائل العربية وأعزها(٢١) وقد كان بيت والده بيت علم ودين ، ولم يلحظ عليه أبوه ومعلمه فى طفولته الا تفتحا مبكرا فى عقله ونموا مبكرا فى جسمه حتى أنه استظهر القرآن وهو فى العاشرة من عمره ، وبلغ مبلغ الرجال وهو فى الثانية عشرة ، فزوجه أبوه ، وجعله يؤم المصلين ، وأخذ يسترشد بآرائه فيما يعترضه من فتاوى ومسائل فقهية(٢٢) . حتى كان والده يقول عن ابنه : لقد استفدت من ولدى محمد فوائد شتى فى الأحكام(٢٣) .

ولقد تأثرت شخصية الامام محمد بن عبد الوهاب فى مكوناتها من عدة عوامل أولها نشأته فى بيت يشتغل أهله أبا عن جد بالعلوم الدينية ومن ثم نشأ واسع الثقافة وسبق زملاءه من الصبيان بما اتصف به من سرعة الحفظ والادراك والقدرة على الفهم . كما كان من عوامل التأثير فى مكونات شخصيته تأثره بمذهب الامام أحمد بن حنبل وهو المذهب الذى وجد أسرته تعتنقه وتدرسه وتفتى فيه بل تقضى على أصوله ،

---

(٢٠) د. عبد الحميد البطريق : الوهابية دين ودولة ، بحث منشور بمجلة كلية البنات سنة ١٩٦٤ ص ٤٢ .

(٢١) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٥ .

(٢٢) احمد عسه : المرجع السابق ص ١٢ — ١٣ .

(٢٣) حسين بن غنام : تاريخ نجد ص ٧٥ .

وامتلأت خزانة كتب الأسرة بمؤلفات العلامة أحمد بن تيمية ، وابن قيم الجوزية وغيرهما من مدرسة ابن حنبل ، ومن ثم فان محمد بن عبد الوهاب انصرف عن الفقه الجدلى والفلسفى الى تناول الدين من قريب ، وفهم أصوله من كتاب الله وسنة رسوله .

ويمكن أن نحددالأساتذة الذين سبقوا محمد بن عبد الوهاب والذين يرجع اليهم الفضل فى اقامة منهج البحث الفقهى على النظر القريب دون تأثر بالفلسفة والجدل الكلامى وهم الأساتذة الذين تأثر بهم محمد بن عبد الوهاب وعلى رأسهم : الحسن البصرى الذى كان يعرف بشيخ المتبعين الذى يمثل مذهب السنة المقابل للمعتزلة الذين نحوا نحوا فلسفيا فى النظر والتفكير فى أمور الدين . ومن هؤلاء الأساتذة كذلك أحمد بن حنبل صاحب المذهب الرابع من مذاهب أهل السنة وأكثرها تشددا ، وابن تيمية ، وابن قيم الجوزية وغيرهم ممن تابعوا شيخ المذهب الامام أحمد بن حنبل[٢٤] .

ومن العوامل ذات الأثر على مكونات شخصية الامام محمد بن عبد الوهاب كذلك طبيعة البيئة التى نشأ فيها . وهى بيئة صحراوية بدائية ليس فيها مجال للتعقيد ولكنها بيئة واضحة مكشوفة ، والناس فيها على الفطرة ومن السهل أن ينقادوا الى البدع والخرافات اذا لم يوجد من يأخذ بيدهم ويبصرهم بحقيقة وبساطة الدين الاسلامى ، ويوضح لهم بأسلوب سهل غير معقد خطأ الوقوع تحت تأثير الدجالين والاستمرار فى اتباع تيار التقاليد المتوارثة والمخالفة لجوهر الدين الاسلامى .

وكانت الرحلات التى قام بها الامام محمد بن عبد الوهاب ذات تأثير على أفكاره وشخصيته ، واذا تذكرنا القول المأثور بأن السفر فيه خمس فوائد ، فان رحلات محمد بن عبد الوهاب كانت مدرسة نافعة له ، فقد وسعت من أفقه ونبهته الى الأخطاء الشائعة فى العالم الاسلامى،

---

(٢٤) د. حسن محمود : المملكة العربية السعودية ص ٥٩ .

وجعلته يصمم على القيام بدعوته الاصلاحية وفق ما استفاده بها من الدراسات العلمية والأخذ عن مشاهير العلماء في مختلف العواصم الاسلامية(٢٥) .

وكانت أولى رحلاته خارج نجد الى الحجاز حيث أدى فريضة الحج وزار قبر الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة ، واجتمع هناك الى فقهاء وعلماء من مذاهب سنية متنوعة ، ورأى ما يحدث أمام قبر الرسول عليه الصلاة والسلام من بدع ، ومن العلماء الذين التقى بهم العلامة عبد الله بن ابراهيم بن سيف ، أخذ عنه الشيخ الامام — محمد بن عبد الوهاب — ولازمه مدة ، وقد سأله تلميذه الشيخ عما يفعل حول قبر رسول الله ﷺ من النداءات الشركية وطلب الغوث وطلب الشفاعة — فأجابه بقوله : ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون(٢٦) .

كما التقى في المدينة المنورة بالعلامة أبي المواهب البعلي الدمشقي ، والعلامة محمد حياة السندي المدني ، وغيرهم من مدرسة أحمد بن حنبل وعنهم أخذ الامام محمد بن عبد الوهاب الكثير من مسائل الفقه القائم على النظر في كتاب الله وسنة الرسول بقلب سليم وعقل واع .

وكانت رحلته الثانية الى العراق حيث زار بغداد ومكث بالبصرة أربع سنوات حيث تعلم فيها علمي اللغة والحديث على يد عالم بصري ، وأثناء اقامته بالبصرة شاهد ما يفعله غلاة الشيعة عند قبور وأضرحة الأولياء وآل البيت من تقديس وأعمال تدل على الجهل والضلالة ، فأخذ ينتقد هذه الأعمال حتى ضاق به أهل البصرة واستنكروا صراحته في نقد أفعالهم المنافية لجوهر الدين الاسلامي فأخرجوه من بلدهم فحدثته

---

(٢٥) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٥٥ — ٥٦ .

(٢٦) الشيخ عبد العزيز آل الشيخ : تعقيب على كتاب الدعوة الوهابية لعبد الكريم الخطيب ص ٤٧ .

نفسه بالذهاب الى الشام ولكن ضيق ذات اليد جعله يعدل عن فكرته هذه[٢٧] ويتجه الى نجد حيث بلدة حريملا التى كان والده قد انتقل اليها.

ورغم خروج الامام محمد بن عبد الوهاب من البصرة مطرودا فقد درس الكثير من كتب اللغة والحديث وأفتى بما يراه صحيحا فيما عرض عليه من أمور فيذكر أن أناسا من مشركى البصرة يأتون الى بشبهات يلقونها على فأقول وهم قعود لدى ، لا تصلح العبادة كلها الا الله . فيبهت كل منهم فلا ينطق فاه[٢٨] .

وعاد الامام محمد بن عبد الوهاب الى نجد من رحلاته خارجها وقد اتسعت ثقافته وزادت تجاربه واكتمل نضجه اذ كان عمره آنذاك خمس وثلاثون سنة ليعتكف على المزيد من كتب الفقه والتفسير والحديث. ثم يخرج الى الناس بدعوته الى التوحيد وترك ما هم فيه من بدع وضلالة .

اسس الدعوة الوهابية

لا يمكن لنا الخوض فى تفصيل أسس الدعوة ومبادئها التى أعلنها الامام محمد بن عبد الوهاب دون الحديث عن جهود العلامة أحمد بن تيمية فى مجال التوحيد مما يؤكد امتداد مبادىء العالمين وارتباطها بل ووحدتها ، وأيضا تناول موضوع الدعوة وأصل تسميتها .. فلم يكن يعلم ابن تيمية ذلك المصلح العظيم الذى أيقظ العقول وبعث الفكر العربى الأصيل فى أوائل القرن الرابع عشر أن الله سيهيىء لتعاليمه رجلا فى قلب الصحراء العربية اسمه محمد بن عبد الوهاب يحيى هذه التعاليم ويعمل على تحقيقها[٣٩] .

---

(٢٧) د. عبد الحميد البطريق : المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢٨) حسين بن غنام : المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢٩) د. محمد بديع شريف : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ص ١٨ .

عاش أحمد تقى الدين بن تيمية الدمشقى فى القرنين السابع والثامن الهجريين (٦٦١ — ٧٢٨هـ) الموافق للقرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين (١٢٦٣ — ١٣٢٨م) • أى فى الفترة التى شهدت هجمات التتار على أقطار المشرق العربى ، وقد درس الفلسفة اليونانية والعربية والقرآن الكريم وأصول الشريعة الاسلامية والفقه على مذهب أحمد ابن حنبل •

وكانت دراسته ومعايشته لما أصاب الأمة العربية الاسلامية على يد التتار سببا لكى يدرك أن ما أصاب أمة العرب ما كان ليصيبها لو ظلت وفية على تمسكها بمبادىء الاسلام الأولى ولم يتأثر المسلمون بمبادىء الباطنية والقرامطة وغيرهم من الفرق المبدعة للضلالات والخرافات التى لحقت بالعقيدة السلامية •

فالباطنية اتخذت ما عرف بمبدأ الاشراق الالهى : الذى كان ركنا ركينا فى مبادئها ، ومعناه أن المعرفة تشرق على أئمتهم فتسمو بهم الى مرتبة لا ينالها غيرهم • أى أن الله يفيض عليهم نور المعرفة فتتكشف لهم الحقائق فيعرفون بواطن الأمور وظواهرها • وفرقة النصيرية أعانت التتار على محو الاسلام[٣٠] ، ونتيجة لذلك رأى ابن تيمية الجهلة من عامة الناس ينحتون فى الصخور أقداما وأكفاً يدعون أنها للنبى محمد عليه الصلاة والسلام فيقدسونها ويتبركون بهــا أو يصنعون أصناما يسجدون لها •

هال العلامة ابن تيمية ما آل اليه حال الأمة العربية الاسلامية فوجه هجومه الى خصوم العقيدة الاسلامية الصافية من الحكام والفقهاء وأهل الزهد والصوفيين ، ودعاهم الى [٣١] : —

١ — الرجوع الى الكتاب والسنة واتباع السلف الصالح فى فهم الآيات والأحاديث وترك طريق الفلاسفة والمتكلمين والصوفية حيث أنها لا تتفق مع الروح السلفية القديمة •

---

(٣٠) د. محمد بديع شريف : نفس المرجع ص ٩ .
(٣١) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٩٠ .

٢ ــ محاربة البدع والمنكرات ولا سيما ما كانت وسيلة للشرك بالله كالتمسح بالقبور والصلاة عندها وطلب الحاجة منها ، والاستعانة أو الاستغاثة بغير الله والتبرك بالأشجار والأحجار التى يعتقد فيها العامة الخير أو دفع الشر .

٣ ــ ترك الغلو فى تقديس الرسول ﷺ والاكتفاء بالاهتداء بهديه.

٤ ــ فتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، وعدم التقليد الممقوت . بل ان الكتاب والسنة وآثار السلف من الصحابة هى المصدر الأساسى لكل مجتهد يستطيع عن طريقها الاهتداء الى الرأى الصائب حتى ولو خالف رأى الأئمة الأربعة(٣٢) .

٥ ــ لعن من اتخذ القبور مساجد . فقد ورد نهيه صلى الله عليه وآله وسلم عن اتخاذها مساجد ، ولعن من يفعل ذلك وقد ذكره غير واحد من الصحابة والتابعين وكان العكوف على القبور والتمسح بها وتقبيلها والدعاء عندها وفيها ونحو ذلك هو أصل الشرك وعبادة الأوثان ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم لا تجعل قبرى وثنا بعدى(٣٣) .

وقد أثارت دعوة ابن تيمية عليه أرباب الطرق الصوفية والفلاسفة والمتكلمين المتعصبين ، وأكثرهم من ذوى المناصب والنفوذ فى مصر والشام حتى استدعى الى مصر وطبق عليه الخناق ولكن مريديه ظلوا على صلة به الى أن عاد الى دمشق بعد أن غاب عنها سبع سنوات ، وفيها أستأنف الشيخ دعوته الاصلاحية بنشاط وعكف على نشر دعوة التوحيد ومقاومة المبتدعة والرجوع الى الكتاب والسنة(٣٤) .

---

(٣٢) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٢٤ .

(٣٣) ابن تيمية (تقى الدين ابى العباس احمد بن تيمية) كتاب الزيارة من مجلد الجامع الفريد ص ٤٣٧ .

(٣٤) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٩٠ .

وكان من الطبيعى أن يستمر الرجعيون والمضللون فى عدائهم للامام أحمد بن تيمية ، ونتيجة لدسائسهم عند رجال الحكم سجن ابن تيمية أكثر من مرة حتى توفى بالسجن فى قلعة دمشق عام ٧٢٨ هـ الموافق ١٣٢٨ م ، وبموته خفتت دعوته بسبب ملاحقة الحكام لتلاميذه ، ولكنها أحييت على يد الامام محمد بن عبد الوهاب بعد أربعة قرون فى نجـد .

واذا كانت مبادىء دعوة العلامة أحمد بن تيمية تستند الى فقه الامام أحمد بن حنبل ، فقد تأثر الامام محمد بن عبد الوهاب بآراء وعلم الرجلين ، والواقع أن دراسته لآراء هذين الامامين انتهت به الى الايقان من أن الاسلام فى شكله السائد فى عصره — وبخاصة بين الأتراك — مشرب بالمساوىء التى لا تمت الى الدين الصحيح بنسب[٣٥].

وجاءت مبادىء وأسس دعوة محمد بن عبد الوهاب مستندا الى تعاليم ومبادىء أحمد بن حنبل وأحمد بن تيمية ، ويؤيد ذلك أن مؤلفات وكتابات محمد بن عبد الوهاب تحتوى على كثير من الأسانيد التى ذكرها الامامين فى شرح الفقه أو فى تفسير آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة .

وأما أسس ومبادىء دعوة محمد بن عبد الوهاب فيمكن أن نستعرضها فيما يلى :

أولا : مبدأ التوحيد :

ذكر الامام محمد بن عبد الوهاب فى رسالة له الى عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف قوله : انى لم آت بجهالة بل أقولها ولله الحمد أن ربى هدانى الى الصراط المستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، ولست ولله الحمد أدعو الى مذهب صوفى أو غيره بل أدعو الى الله وحده لا شريك له وأدعو الى سنة رسول الله ﷺ التى أوصى بها أول أمته وآخرهم[٣٦] .

---

(٣٥) كارل بروكلمان : نفس المرجع ص ٥٤٩ .

(٣٦) حسين بن غنام : تاريخ نجد ص ٢١٥ .

وهذا المبدأ يثير تساؤلا حول أصل وحقيقة تسمية دعوة محمد ابن عبد الوهاب اذ الواضح من البداية أن الدعوة ليست مذهبا جديدا كمذاهب السنة الأربعة ، كما أن تسميتها بالوهابية ليس سوى من قبيل اظهارها بمظهر الحركة الفردية المرتبطة بابن عبد الوهاب وليست حركة عامة ، وقد أطلق الأتراك هذه التسمية عليها فى هجومهم عليها وعلى صاحبها بل غالوا فى ذلك وأطلقوا على أتباع الدعوة الروافض والخوارج ، حتى أن الوثائق الرسمية المتبادلة بين محمد على والباب العالى تنعت الأمير السعودى الذى يعمل على نشر مبادىء الدعوة السلفية باسم الخارجى(٣٧) .

واذا كان الأتراك وخصوم الدعوة قد نعتوها باسم الوهابية وأتباعها بالخوارج والوهابيين فان أنصارها وصفوها باسم دعوة التوحيد وأطلقوا على أنفسهم ألقاب الحنابلة والاخوان والسلفيين ؛ ومهما كان تطرف الخصوم فى التسمية أو اسراف الأنصار فى التعريف بالدعوة وبأنفسهم فاننا نفضل أن نطلق على الحركة اسم دعوة التوحيد ، وذلك استنادا الى ما جاء برسالة محمد بن عبد الوهاب سالفة الذكر الى عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف من أنه يدعو الى الله وحده لا شريك له ، والى أنه ينبه الاذهان الى حكمه عبارة « لا اله الا الله » .

فما يعنى مبدأ التوحيد عند الامام محمد بن عبد الوهاب اذن ؟

يمكن أن نقف على حقيقة هذا المبدأ الذى دعا اليه الامام محمد ابن عبد الوهاب من كتبه التى ألفها ورسائله التى بعث بها الى من أنس فيهم خيرا ، فانه يذكر مثلا فى رسالة له الى عبد الرحمن بن ربيعة : أن التوحيد الذى دعت اليه الرسل من أولهم الى أخرهم هو أفراد الله بالعبادة كلها ليس فيها حق لملك مقرب ولا نبى مرسل فضلا عن غيرهم فمن ذلك لا يدعى الا اياه كما قال تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعو مع

(٣٧) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٢٥ .

الله أحدا » فمن عبد الله ليلا ونهارا ، ثم دعا نبيا أو وليا عند قبره فقد اتخذ الهين اثنين ، ولم يشهد أن لا اله الا الله هو المدعو[٣٨] .

وذكر في كتابه التوحيد أن الله ذكر في قرآنه الكريم ما يؤكد عدم الشرك به كقوله . « وأعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » وقوله . « قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » . والرسول عليه السلام يقول : اذا سألت فاسأل الله ، وفي حديث آخر قال : من قال لا اله الا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل » . وفي حديث عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي : يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال فان حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا . قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا »[٣٩] .

ومن أقوال الامام محمد بن عبد الوهاب تتضح حقيقة دعوة التوحيد بأن معنى لا اله الا الله ترك كل معبود غير الله والتوجه الى الله وحده ، وأن العبادة اذا جعلت لغير الله صار ذلك الغير الها مع الله وان لم يعتقد الفاعل ذلك[٤٠] أي أن معنى لا اله الا الله نفي صفة الألوهية عن كل المخلوقات واثباتها لله وحده واعتمد الشيخ في دعوته الى التوحيد على الكتاب والسنة وآثار السلف[٤١] .

---

(٣٨) حسين بن غنام : روضة الأفكار والافهام لمرتاد حال الامام المجلد الأول ص ٢٢٣ .

(٣٩) محمد بن عبد الوهاب : كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ص ٢ — ٣ .

(٤٠) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٩٧ .

(٤١) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى ص ٢٦ .

وسئل الامام محمد بن عبد الوهاب عن معنى لا اله الا الله فأجاب بقوله : أعلم رحمك الله تعالى أن هذه الكلمة هى الفارقة بين الكفر والاسلام وهى كلمة التقوى ، وهى العروة الوثقى ، وهى التى جعلها ابراهيم عليه السلام (كلمة باقية فى عقبة لعلهم يرجعون) • وليس المراد قولها باللسان مع الجهل بمعناها ، ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب ، ومحبتها ومحبة أهلها وبغض من خالفها ومعاداته(٤٢) •

ولم يكن التوحيد الذى دعا اليه الامام محمد بن عبد الوهاب مذهبا جديدا بل احياء لمبدأ اسلامى كبير بعد أن أصبحت الأشواك تحيط به — بما تركته الفرق الاسلامية المختلفة كالباطنية والقرامطة وغيرهم من آثار امتد بها الزمن وطال حتى تمكنت من النفوس واستقرت فى قراراتها بحيث أصبحت عقائد لا يمكن تحويل الناس عنها : ورأى الأوثان والأصنام التى حطمتها عقيدة التوحيد قد عادت ثانية فصدع بقوله تعالى : ان الله لا يغفر أن شرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء(٤٣) وأن اصلاح الأحوال لا يتم الا باتباع قول الله تعالى : ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم •

وتأكيدا للتوحيد ، فقد دعا الامام محمد بن عبد الوهاب المسلمين الى معرفة تاريخ الأنبياء لأدراك تمسكهم بوحدانية الله ، فقال : فاحرص يا عبد الله على معرفة هذا الحبل الذى بين الله وبين عباده ، ما جرى لأبيك آدم وعدوك ابليس ، وما جرى لنوح وقومه ، وهود وقومه وصالح وقومه ، وابراهيم وقومه ، ولوط وقومه ، وموسى وقومه ، ومحمد ﷺ وقومه ، واعرف ما قص العلماء عن أصحابه أحوالهم وأعمالهم لعلك أن تعرف الاسلام والكفر ، فان الاسلام اليوم غريب وأكثر الناس

---

(٤٢) محمد بن عبد الوهاب : ثلاثة عشر رسالة . فى مجلد الجامع الفريد ص ٢٦٠ .

(٤٣) د. محمد بديع شريف : المرجع السابق ص ١٩ .

لا يميز بينه وبين الكفر . وذلك هو الهلاك الذى لا يرجى معه فلاح[٤٤] .

ثانيا : محاربة الشفاعة المبتدعة :

لا تستقيم دعوة التوحيد دون محاربة نواقضه . ولذلك حارب الامام محمد بن عبد الوهاب البدع والضلالة بالاستغاثة بالأولياء والصالحين فقال : من الشرك الاستعاذة بغير الله أو الاستغاثة بغيره والاستشفاع بما سواه وأن الله عز وجل يقول : يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم . وفى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى : وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . قال – أى ابن عباس – : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ولم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك ونسى العلم عبدت . وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال . لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، وأنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله[٤٥] .

ويؤكد الامام محمد بن عبد الوهاب أن زيارة القبور والتماس البركات من أصحابها ليس كما يدعى المضللون للتقدير والاحترام ، لأنه اذا جاز هذا فى حق الأحياء فلا يجوز فى حق الاموات ، وأن الموتى قد أنقطع ما بينهم وبين الحياة والأحياء ، وليس ثمة فرق بين من يرجو البركة عند قبر ولى وبين من يعبد وثنا ، كلاهما قد جعل بينه وبين الله شفيعا يرجى . وما كان كفار قريش الذين حاربوا دعوة التوحيد الا على هذه الصورة ، كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق العظيم ولكن هناك آلهة دون الله ، يتصرفون وينفعون ويضربون ، ان هؤلاء الآلهة هى الطريق

---

(٤٤) محمد بن عبد الوهاب :مختصر سيرة الرسول ص ٦ .

(٤٥) محمد بن عبد الوهاب : كتاب التوحيد . ص ٤٩ – ٥٠ .

الى الله ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى[٤٦] .

ويضيف الامام محمد بن عبد الوهاب الى ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أمته بأنها تأخذ مأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع ، وثبت فى الصحيحين وغيرهما عنه ﷺ أنه قال : لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . فاذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التى أعظمها الاشراك بالله والتوجه الى الموتى وسؤالهم النصر على الاعداء ، وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات التى لا يقدر عليها الا رب الأرض والسموات ، وكذلك التقرب اليهم بالنذور ، وذبح القربان ، والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد وجلب الفوائد الى غير ذلك من أنواع العبادة التى لا تصلح الا لله .. وأن ما حدث من سؤال الأنبياء والأولياء من الشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها واسراجها والصلاة عندها واتخاذها أعيادا ، وجعل السدنة والنذور لها ، فكل ذلك من حوادث الأمور التى أخبر بها النبى ﷺ أمته وحذر منها ، كما فى الحديث عنه ﷺ أنه قال : لا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين وحتى تعبد فئام — طوائف — من أمتى الأوثان[٤٧] .

ولا يعنى ما ذكره الامام محمد بن عبد الوهاب من دعوة لمحاربة التقرب لقبور وأضرحة الأنبياء والأولياء أن دعوته تنكر شفاعة النبى عليه الصلاة والسلام يوم القيامة ، بل أن هذه الدعوة تعترف أيضا بشفاعة سائر الانبياء والملائكة والاولياء أيضا ، ولكن محبة الانبياء والأولياء الصالحين ليست بالتوسل بهم ، ولكن فى متابعتهم فيما

---

(٤٦) محمد بن عبد الوهاب : كتاب كشف الشبهات . ص ٢٢٠—٢٢٢ .

(٤٧) محمد كرد على : القديم والحديث ص ١٥٧ — ١٥٩ ، رسالة للامام الى شيخ الركب المغربى فى موسم الحج .

كانوا عليه من الهدى والدين[٤٨] . وأن تسأل الشفاعة من « المالك لها وهو الله ، واذنه فيها لمن يشاء من الموحدين ، فقال : اللهم شفع نبينا محمدا فينا يوم القيامة ، اللهم شفع فينا عبادك الصالحين أو نحو ذلك. وأما ما يجرى على ألسنة الناس من قولهم : يا رسول الله أو ياولى الله أسألك الشفاعة أو غيرها كأوركنى أو أغثنى أو نحو ذلك فأنه من الشرك، اذ لم يرد بذلك نص من كتاب أو سنة ولا أثر من السلف الصالح[٤٩] .

وأكد الامام محمد بن عبد الوهاب أن الشفاعة كلها لله تعالى كما جاء فى القرآن الكريم : قل لله الشفاعة جميعا ، ولا تكون الا من بعد اذن الله كما قال تعالى : من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه « ولا يشفع فى أحد الا بعد أن يأذن الله فيه كما قال تعالى : ولا يشفعون الا لمن ارتضى »[٥٠] .

ثالثا : محاربة تقديس القبور :

درج الناس على تقديس قبور الموتى بتقديم القرابين والسبيل لها ، وتجصيص[٥١] القبور والكتابة عليها ، وكل ذلك من الأمور المبتدعة، فأن النبى ﷺ : حمى جنات التوحيد أعظم حماية وسد كل طريق يؤدى الى الشرك ، فنهى أن يجصص القبر وأن يبنى عليه ، كما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر وثبت فيه أيضا أنه بعث على بن أبى طالب رضى الله عنه وأمره الا يدع قبرا مشرفا — عاليا — الا سواه ولا تمثالا الا طمسه[٥٢] . لأن ذلك مخالف لما أتى به الدين الاسلامى .

---

(٤٨) حسين بن غنام : روضة الأفكار المسمى تاريخ نجد مجلد اول ص ٢١٣ .

(٤٩) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٩٧ .

(٥٠) محمد بن عبد الوهاب : كشف الشبهات فى التوحيد فى مجلد الجامع الفريد ص ٢٣١ .

(٥١) التجصيص يعنى البناء بالجص .

(٥٢) محمد كرد على : نفس المرجع ص ١٦٠ .

واذا كانت محاربة الامام محمد بن عبد الوهاب لتقديس القبور منصبه على البناء عليها بالجص ، وما يفعله زائروها من بدع ، واقامة أضرحة وقباب ومساجد على هذه القبور ، فانه لا ينكر زيارة القبور ولكن بشرط أن تكون هذه الزيارة للدعاء للميت واتعاظ الزائر ، على أن يراعى فيها الطريقة التى سنها النبى ﷺ فى الزيارة[٥٣] ، استنادا الى قول الرسول الكريم : من يرد واعظا فالموت يكفيه •

رابعا : الجهاد ضد البدع والخرافات :

نادى الامام محمد بن عبد الوهاب بالجهاد فى سبيل نشر دعوته ، فمن اتبع دعوته أى من آمن وطبق مبدأ التوحيد ، وتجنب التشفع غير المشروع ، وتجنب تقديس القبور سلم من الحرب المشروعة ، ومن خالف هذه الدعوة ، أصبح دمه وماله حلا للمجاهدين الموحدين ، حتى يعود الى طريق التوحيد الخالص • وفى ذلك يقول : هذا ما ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واجماع السلف الصالح من الأئمة ممتثلين بقوله سبحانه وتعالى : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله • فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان ، كما قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » • فهذا الذى نعتقده وندين به ، اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وصيام رمضان والحج والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم ، له ما لنا وعليه ما علينا ، ونعتقد أيضا أن أمة محمد ﷺ ، المتبعين للسنة ، لا تجتمع على ضلالة ، وأنه لا يزال طائفة من أمته على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله[٥٤] •

---

(٥٣) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٩٧ .

(٥٤) محمد كرد على : نفس المرجع ص ١٦١ .

ولقد هاله أن يرى بعض المظاهر المبتدعة كخروج النســاء خلف الجنائز الى القبور والأسراف فى الاحتفالات السنوية بموالد الأنبياء والأولياء وما يحدث فيهــا من الدراويش من رقص وتمايل وشطحات وأذكار وغير ذلك من الأعمال المحرمة أصلا والتى تستحق المحاربة حتى ولو كانت خارج نجد ، وعلى هذا الأساس كانت غزوات الامام وانصاره فى شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا ، فكانوا عندما يدخلون بلدا بالمحاربة يعتبرونها حلال لهم ان امكنهم البقاء بها لحقوها بأملاكهم ، وان لم يمكنهم البقاء اكتفوا بما يصل الى أيديهم من الغنيمة ، وهنــا يجىء الخلاف بينهم وبين معارضيهم فان غيرهم يقول ان من قال لا اله الا الله محمد رسول الله فقد عصم ماله ودمه ، أما هم فيقولون ان القول لا عبرة به ما لم يدعمه العمل ، فمن قال لا اله الا الله محمد رسول الله وهو لا يزال يدعو الموتى ويستغيث بهم ويسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات فهو كافر مشرك ، حلال الدم والمال ولا عبرة بقوله ، ولهم على هذا أدلة كثيرة من الكتاب والسنة(٥٥) .

وتطبيقا لهذا المبدأ فقد دعا وشارك الامام فى هدم القباب وذلك بما فيها قبور الصحابة ، وقطع ذكر النخيل الذى كانوا يتبركون به . وكذلك الشجر حيث أرسل الشيخ محمد بن عبد الوهاب من أتباعه من قطع مثل هذه الأشجار وبقيت شجرة واحدة بالعيينة كانت كبيرة وتعرف بشجرة الذيب لم يجرؤ أتباع الامام الشيخ على قطعها لكثرة زوارها وقاصديها فخرج بنفسه وقطعها(٥٦) كما أقام الحد على امرأة من بلدة العيينة اعترفت بارتكابها الزنا بعد أن تحقق من سلامة عقلها وصحة فعلتها فأشرك معه حاكم البلدة عثمان بن معمر فى رجمها .

---

(٥٥) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٩٨ ـــ ٢٩٩ .

(٥٦) د. حسن محمود : نفس المرجع السابق ص ٦٢ .

خامسا : فتــح باب الاجتهاد :

يعتقد بعض المؤرخين أن مبادىء دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب مبدأين اثنين هما التوحيد والاجتهاد ، وهم فى اعتقادهم هذا يعتبرون المبادىء الأخرى التى سقناها كمحاربة الشفاعة المبتـدعة ، ومحاربة تقديس القبور والجهاد ضد البدع والخرافات كل واحد مع التوحيد أو بعبارة أخرى هى به الصق ويكتمل بها ، والارتباط بينها وبين التوحيد أقوى .. بينما الرأى عندى أن هذه كلهـا مبادىء ــ بالاضافة الى التوحيد ــ سقناها فى اطار جوهر الدعوة ألا وهو تنقية الدين الاسـلامى من الشوائب التى علقت به من الخرافات والبـدع التى تؤتى باسمه وتحت مظلته ، والدين منها براء . وأن تقسيم الدعوة الى مبادىء هو لمجرد الدراسة التفصيلية لحقيقة دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب والوقوف على جزئياتها لتقييمها التقييم الصحيح أمام الهجوم الذى شنه عليها معارضوها وأمام الدفاع القوى الذى لجأ اليه أنصارها .

ويقوم مبدأ الاجتهاد على الابداع فى التشريع واطلاق باب الاجتهاد على مصراعيه لكل مقتدر عليه مستوف لشروطه ، لأن الله وحده هو الذى يحلل ويحرم ، وعلى ذلك فكلام المتكلمين فى العقائد وكلام الفقهاء فى التحليل والتحريم ليس حجة علينا ، والحجة الوحيدة هى فى القرآن والسنة ، منهما تستنبط الأحكام وفيها فطنة العقائد[٥٧] ولـكن الامام محمد بن عبد الوهاب اعتبر الائمة الأربعة مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل هم وحدهم الذين تؤخذ أحكامهم دون المذاهب الدينية الأخرى كالمتصوفين والمعتزلة والشيعة وغيرهم .

وكان مذهب أحمد بن حنبل هو نبراس الامام محمد بن عبد الوهاب وهديه فى استنباط الأحكام واتباع ما أخذ به صاحب المذهب ، ولكن الامام محمد بن عبد الوهاب أحيانا ما كان يخالف قدوته أحمد بن حنبل

---

(٥٧) د. محمد بديع شريف : نفس المرجع السابق ص ١٩ .

فى بعض المسائل التى يجمـع عليها فقهـاء المذاهب الثلاثة الآخرين كما كان له بعض مسـائل اجتهادية مثل جعل دية المسلم ٨ ريال بدل مائة ناقة(٥٨) .

أسلوب الدعــوة الوهابية

لا شك أن موضوع الدعوة سليم غاية السلامة ولا أحد يستطيع أن ينكر ذلك أو يكابر فيه ، ولكن أسلوب الدعوة واجه معارضة شديدة من خصوم دعوة الامام محمــد بن عبد الوهاب بل واستنكارا اضطر أتباعها الى الرد تبريرا لأسلوب التطبيق العملى لمبادىء الدعوة ، فنحن اذن هنا أمام اتجاهين متعارضين . اتجاه يهاجم دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب بسبب أسلوب تطبيق مبادئها . واتجاه يناصر الدعوة ويبحث عن تبريرات لهذا الأسلوب . فما هى الحقيقة ؟

لعل التشديد فى الدعوة وتطبيق المبادىء بصورة جدية وحازمة هو السبب فى وصف دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب بالعنف ومواجهة أحوال الناس التى درجوا عليها دفعة واحدة دون تدرج واذا كان أنصار الامام قد فسروا تطبيق الدعوة بأنه عودة للاسلام الصحيح الذى بشر به الرسول ﷺ ، ويستشهدون فى ذلك بكثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة . من بينها ما روته السيدة عائشة أم المؤمنين عن الرسول ﷺ فى قوله . لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .

ولكن الدعوة فى حد ذاتها خلاصة صافية للرسالة الاسلامية وما أخذ عليها ليس فى المضمون وانما فى الأسلوب ، أى أن الموضوع مقبول تماما ولكن الشكل هو ما استهدف النقد ، ذلك أن الدعوة فى عدم اتباعها أسلوب التدرج والموعظة الحسنة قد أوجد أمام صاحبها من البداية اعتراضات

---

(٥٨) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٩٩ .

بل ومحاربة ، وأرجع المحاربون وقفتهم ضد أسلوب الدعوة الى قول الله سبحانه وتعالى : ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » • صدق الله العظيم •

ذلك أن فى الناس جذورا عميقة من موروثات وتقاليد لا يمكن أن ينفصل عنها المرء بين يوم وليلة ، وفى الناس توقير وتقديس للرسول الكريم ولكل أثر من آثاره ولو كان حفنة من تراب •• فلو أخذت الدعوة الأمر مأخذا هينا ودعت أول ما دعت الى ترك البدع الصارخة كالزار والتمائم وغير ذلك مما كان يعيش عليه كثير من المسلمين فى ذلك الحين (٥٩) ، لكان ذلك بعدا بها عن المعارضة العنيفة التى لقيتها من البداية •

فاذا أضفنا الى ذلك طبيعة أهل نجد البدوية وما اتصفوا به من شدة وغلظة ومحاربة وتقاتل الى جانب الجهل الذى كان مخيما على عقولهم لأدركنا أهمية أتباع أسلوب التدرج فى نشر دعوة الامام محمد ابن عبد الوهاب لأنه الاسلوب المناسب لاناس هذه صفاتهم ولأدركنا كذلك كيف واجهت المتاعب الامام فأخذ يتنقل من مكان الى آخر بحثا عن سند له فى الدعوة وعن عون له فى تطبيقها بأسلوب الشدة والعنف الذى اتخذته •

ولقد ظهرت شدة الامام محمد بن عبد الوهاب منذ فترة مبكرة وفى أثناء طلب العلم ، فقد أنكر ما رآه فى المدينة المنورة من الأفعال التى يأتيها الناس عند قبر الرسول عليه السلام • وفى البصرة أعلن حربه على البدع التى يرتكبها أهلها وكان قاسيا على كل من يذكر اسم أحد الأولياء الصالحين محاطا بهالة من التقديس فأخرجوه من ديارهم مطرودا (٦٠) •

---

(٥٩) عبد الكريم الخطيب : نفس المرجع السابق ص ٩٤ — ٩٥ .

(٦٠) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ٣٠ .

وعندما عاد من البصرة الى حريملا بنجد أخذ يبث دعوته بين أهلها واشتد فى استنكاره لما وجده من بدع درج الناس عليها ، اشتدت حملته على البدع بعد وفاة والده عام ١١٥٣هـ الموافق ١٧٤٠ م ، مما دفع ببعض العبيد فى حريملا الى تدبير مؤامرة لقتله فاضطر الى ترك حريملا باحثا عن النصير الذى يشد أزره ويحميه حتى ينشر دعوته الاصلاحية فى أنحاء نجد ، وهو يعلم أن كل نظرية اصلاحية لا تنتصر بقوتها وصدقها فحسب بل لابد لها أيضا من سلطان يحيمها حتى تثمر وتؤتى أكلها[٦١] .

ولقد وجد الامام محمد بن عبد الوهاب هذا السلطان والنصير فى شخص عثمان بن معمر أمير بلدة العيينة مسقط رأس الامام ، وهناك اعتمد الامام على مؤازرة الأمير فى نشر دعوته وأن يجند أتباعا وأنصارا يؤيدون الدعوة وينفذون تعاليمها بالشدة ومن ذلك هدم كثير من القباب والمساجد المقامة فوق القبور ، وقطع الأشجار التى يتبرك بها الناس ، واقامة حد الرجم على امرأة زانية من بلدة العيينة حيث تأكد للامام صحة الفعل وسلامة عقل المرأة وكل ما يوجب الرجم فأقيم عليها الحد بالرجم شارك فيه الأمير عثمان بن معمر حتى ماتت .

لقد كان أسلوب دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب المتصاعد فى الشدة سببا فى اثارة المنتفعين من الفساد والبدع السائدة ، حتى اذا حدثت حادثة اقامة حد الرجم على المرأة الزانية وذيوعها فى كل الأنحاء قام أهل الأحساء بصفة خاصة يصرخون ويحتجون لأنهم كانوا مستمتعين ببعض الاباحات الكاذبة التى خلفتها لهم دولة القرامطة[٦٢] .

ونتيجة لصرخات أهل الاحساء لأميرهم سليمان آل محمد رئيس بنى خالد والأحساء أرسل سليمان لعثمان معمر أمير العيينة والشمول

---

(٦١) د. حسن سليمان محمود : نفس المرجع السابق ص ٦١ .

(٦٢) نفس المرجع ص ٦٣ .

بحمنية سليمان يقول له : ان المطوع الذى عندك قد فعل ما فعل وقال ما قال • فاذا وصلك كتابى فاقتله فان لم تقتله قطعنا خراجك الذى عندنا[٦٣] وهدده بالمقاطعة الاقتصادية ومنع تجار العيينة من العمل فى الأحساء وما جاورها من بلاد تخضع لسليمان ، فما كان من عثمان ابن معمر الا أن طلب من الامام محمد بن عبد الوهاب الرحيل عن العيينة اذ لا قبل لعثمان بمعاداة سليمان •

وكان رحيل الامام الى الدرعية عام ١١٥٧هـ/١٧٤٣م بداية لمرحلة جديدة وحاسمة لنشر الدعوة ، ذلك أن الامام كان قد نجح فى استقطاب ثنيان ومشارى أخوى أمير الدرعية محمد بن سعود حتى أصبحا من أتباعه وتلاميذه ، وما حسب اعداء الامام أن رحيله الى الدرعية سيكون بداية لدور جديد فى تاريخ الدعوة والأسرة السعودية اذ هناك فى الدرعية وسع الامام دائرة جهوده بعد أن وجد قوة السلاح التى تؤيده لنشر مبادئه[٦٤] •

واذا كان انضمام الأمير عثمان معمر لدعوة الامام ومساهمته فى نشرها كان عاملا مهما فى ذيوعها وساعدا قويا لها ، فقد كان انتقال الامام الى الدرعية وتأييد الاسرة السعودية لها عاملا أكثر أهمية فى انتشارها ليس فقط فى نجد بل فى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية وغيرها من الأقطار العربية المجاورة ذلك أن الأمير محمد بن سعود عندما عرض عليه أخواه تأييد الامام محمد بن عبد الوهاب فى دعوته ، طلب مشورة زوجته موضى بنت أبى وطيان من آل كثير فأشارت عليه بأن يذهب للامام ويكرمه ويقدر أنه غنيمة ساقها الله اليه •

وتنتسب الأسرة السعودية الى قبيلة عنزة احدى قبائل ربيعة ، ويعد سعود بن محمد بن مقرن مؤسس الأسرة السعودية باعتباره أول

---

(٦٣) حسين بن غنام : المرجع السابق ص ٧٩ •

(٦٤) د • عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٣٣ •

من سيطر على منطقة الدرعية وبعد وفاته عام ١١٣٧هـ تعاون أبناؤه فيما بينهم على ضبط تفردهم فى هذه المنطقة حتى وفد اليهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتعاهد مع الأمير محمد بن سعود على المبادىء الدينية الاصلاحية[٦٥] • ومنذ هذا التعاهد قامت الدولة السعودية التى مرت بأدوار فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر • والتى أتخذت من دعوة التوحيد للامام محمد بن عبد الوهاب مذهبا تدين به وتعمل فى ظله وتسعى لنشره وتحارب من أجله •

كان التحالف بين محمد بن عبد الوهاب والأسرة السعودية فى الدرعية بداية لنشر الدعوة فى بقية بلاد نجد وأنحاء شبه الجزيرة العربية وبداية للصدام مع الدولة العثمانية ، واذا كانت جهود الامام محمد بن عبد الوهاب حتى ذلك الوقت تميل الى الشدة غير المسرفة فان تأييد الأسرة السعودية له بقوة السلاح قد حولت الشدة الى حرب خاصة وقد زاد خصوم الدعوة واشتد هجومهم على الدعوة وصاحبها •

تحالف محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود على دين الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله واقامة الشريعة الاسلامية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأن يظل الامام مقيما فى الدرعية لا يبارحها ولا يتحلل من هذا التحالف • وجاء تعهد الامام للأمير السعودى فى عبارته المأثورة • الدم بالدم والهدم بالهدم[٦٦] •

وأنطلق الحليفان لنشر الدعوة خارج الدرعية باعداد الجيوش التى توجه لرد المهاجمين والمناهضين للدعوة ، وارسال الرسائل الى الحكام والأمراء للدخول فى الدعوة • وما قرب القرن الثانى عشر الهجرى من الزوال حتى أصبحت الدرعية عاصمة دينية وسياسية وحربية • وفى سنوات قليلة انتشرت الدعوة مع الحكم السعودى فى بلدان نجد

---

(٦٥) د. حسن سليمان محمود : نفس المرجع ص ٧٢ .

(٦٦) كناية عن الارتباط الوثيق بينهما كل منها ولى دم الآخر يطلب به ويثار له بهدم بيت اعدائه اذا هدموا بيته : الخطيب ص ٦٦ .

كالعارض والوشم وسدير وحائل والخرج والأفلاج والحريق ووصلت طلائعها الى الأحساء وعمان وبادية الحجاز وعسير واليمن • وسمع بها أهل البلدان العربية خارج الجزيرة(٦٧) •

وقد شارك فى نشر الدعوة كل من الأمير محمد بن سعود وابنه عبد العزيز ابن محمد وحفيده سعود بن عبد العزيز حتى حدث الصدام بين التحالف السعودى الوهابى وبين محمد على وتركيا • وجاء الصدام الأول بين الدعوة ومناهضيها متمثلا فى موقف دهام ابن دواس حاكم الرياض الذى استمر يحارب الدعوة لمدة عشر سنوات حتى انتهى أمره بدخول الأمير عبد العزيز بن محمد مدينة الرياض وفرار دهام منها وكان ذلك عام ١١٨٧هـ •

استمرت فتوحات الدولة السعودية الأولى الراعية والداعية للدعوة الوهابية بفتح القصيم وبريـــدة والأحساء ومحاولة فتح الحجاز دون نجاح ، واذا كان محمد بن سعود قد توفى عام ١١٧٩هـ/١٧٦٥م فان ابنه عبد العزيز واصل نشر الدعوة وضم البلاد حتى توفى قتيلا عام ١٢١٨هـ/١٨٠٣م على يد شيعى من أهل أفغانستان انتقاما لاقتحـــام القوات السعودية مدينة كربلاء عام ١٢١٦ هـ وهدم قبـــة الحسين ، وكان الامام محمد بن عبد الوهاب قد توفى عام ١٢٠٦ هـ الموافق لعام ١٧٩١م•

بعد مقتـــل عبد العزيز بن محمـــد تولى الامارة ورئاسة الدولة السعودية الأولى ابنه سعود بن عبد العزيز الذى امتد حكمه من عام ١٢١٨ ــ ١٢٢٩ هـ الموافق ١٨٠٣ ــ ١٨١٤ م وعرف باسم سعود الكبير، وقد واصل سياسة سلفية فى تثبيت دعائم الملك السعودى خاصة أن جميع بلدان وقرى نجد كانت دائمة التردد بين الولاء للدولة السعودية والاستقلال عنها واثارة الاضطرابات ضدها •• وكانت جميع البلدان فى شبه ثورة ضد النفوذ السعودى فما تكاد الجيوش السعودية تترك

---

(٦٧) د. حسن سليمان محمود : نفس المرجع ص ٦٥ .

البلدة منها حتى تفاجأ بارتداد فى بلدة أخرى مما جعل جيوش الدرعية فى حالة حرب دائمة مع بلدان نجد(٦٨) •

وكان اتجاه آل سعود لفتح الحجاز وتطبيق الدعوة بنفس أسلوب الشدة دون التدريج سببا فى اثارة شعور الأستياء عند جمهور المسلمين والى مقاومة الحجازيين لآل سعود ، وتدخل تركيا بحجة الدفاع عن المقدسات الاسلامية ضد الخارج عليها ودفع جيوش مصر بقيادة الباشا العثمانى محمد على للتعامل مع هؤلاء الخارجين على معتقدات المسلمين فى رأى العثمانيين •

واذا كان فتح مكة قد تم عام ١٢١٨هـ ــ ١٨٠٣م فان السعوديين أبقوا الشريف(٦٩) غالب أميرا عليها بشرط اتباع تعاليم الدعوة ، ولكن تشديد السعوديين ضد الحجاج المصريين والشوام والأتراك بسبب ما يقترن بوفود حجهم من طبل وزمر ومحمل وغير ذلك من الأمور اعتبرها السعوديون بدعا لا يجيزها الشرع من وجهة نظر دعوتهم ، هذا التشديد قد أثار الحجازيين لأنه حرمهم من دخل مالى كان الحجاج يقدمونه للحجازيين • ومن ثم أخذ شريف مكة يبعث بالوفود الى السلطان العثمانى فى استانبول والى محمد على فى مصر يشكو من سياسة السعوديين ويطلب التدخل لاجلائهم عن الحجاز •

وفى عام ١٢٢٠ هـ بايع أهل المدينة المنورة الأمير سعود الكبير على الدخول فى طاعته وتطبيق الدعوة الوهابية بكل مبادئها فهدمت جميع القباب المقامة على القبور ، وفى عام ١٢٢١ هـ حج سعود الكبير فى موكب كبير أظهره كأمير وحيد لمكة بل ولمنطقة الحجاز بكاملها مما أثار حفيظة الحجازيين والشريف غالب بصفة خاصة • وبانضمام المدينة المنورة ومكة

---

(٦٨) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ٥٥ .

(٦٩) نظام الشرافة قائم منذ القرن الرابع الهجرى ، فكان الأشراف يتمتعون باعتبار دينى ويختار الشريف من قبل كبار اشراف الحجاز ويطلب الى سلطان مصر الموافقة . والأشراف من البيت النبوى الشريف .

الى الحكم السعودى أصبح الحرمان الشريفان فى قبضة السعوديين الأمر الذى عده معظم المسلمين فى كل جهة نكبة على الاسلام اذ صار البلدان الحرمان الى هؤلاء « الخارجين » على الاسلام كما صورت الدعوة للناس يؤمنذ(٧٠) . ومن ثم طالب الناس بالعمل على استخلاص الأماكن المقدسة فى الحجاز من يد هؤلاء المتهجمين على بيت الله الحرام وعلى قبر الرسول الكريم .

موقف العثمانيين من الدعوة

لم تثر الدعوة انتباه الأتراك العثمانيين والحركة فى مهدها الأول سواء فى حريملا أو العيينة بنجد ، ولكن لتحالف آل سعود من آل الشيخ ونشاط هذا التحالف خارج الدرعية الى شبه الجزيرة العربية خاصة الى الحجاز ، ثم الى العراق قد أثار مخاوف الأتراك العثمانيين من هذه الحركة العربية الاسلامية الفتية المنتصرة فاذا أضفنا الثورة غير الواعية لجمهور المسلمين من تطبيق الدعوة الوهابية لأدركنا استقلال الأتراك الفرصة للقضاء على الدعوة .

وفى واقع الأمر فان الأمير سعود يتحمل مسئولية الصدام مع الأتراك لأنه لو اقتصر فى الدعوة على جزيرة العرب وترك الحج حرا للأتراك والمصريين ولم يمس الناحية الحساسة فى الترك وهى السيادة على الحجاز ما اهتم الأتراك بأمره ، فقد مكثت جزيرة العرب مدة طويلة ونار الفتن تأكل الأخضر واليابس ، بل لقد كان الحجاج الأتراك والمصريون عرضة للنهب والقتل فى كل ناحية حلوا بها فى الحجاز ، وكانوا يحتملون هذا ويعدونه من الأعمال الطبيعية . وأى فرق فى نظر الأتراك بين آل سعود والاشراف ؟ الفريقان من العرب ، وأفضلهم من يحتفظ بسيادة الأتراك ولو اسميا مع نشر الأمن والمحافظة على سلامة الحجاج وتوفير وسائل الراحة لهم(٧١) .

---

(٧٠) عبد الكريم الخطيب: نفس المرجع السابق ص ٦٩ .

(٧١) حافظ وهبه : نفس المرجع السابق ص ٢٢١ .

ولقد أزعج الدولة العثمانية انتشار الدعوة الوهابية وتوسع الدولة السعودية • واعلان الأمير سعود انهاء السيادة العثمانية من الحجاز والأتراك فيهم الخلافة ويحرصون على المحافظة على لقب خادم الحرمين الشريفين لسلطانهم ، وأزعج الدولة العثمانية أيضا مهاجمة الدولة السعودية لولايات العراق والشام وعجز ولاة العراق والشام عن ايقاف هذا الهجوم والقضاء على الدعوة • كذلك أزعج الدولة العثمانية موقف الأمير سعود من الحجاج الأتراك والمصريين والشوام وهو الموقف المتشدد بسبب مصاحبة المحمل للطبول والزمور والرايات وغيرها من العادات للحجاج ، وتجلى موقف الأمير سعود المتشدد فى انذار هؤلاء الحجاج عام ١٢٢٠ هـ بمنعهم من الحج فى العام التالى اذا جاءوا مصاحبين لهذه العادات المنافية للدعوة الوهابية ، وبالفعل منع الحجاج من أداء الفريضة •

وليس من شك فى أن دعوة الأمير سعود صحيحة ليتم الحج فى صورته الصافية الكريمة ، ولكن موقف العثمانيين هو الذى أثار عليه المسلمين ، وفى ذلك يقول الجبرتى : أنقطع الحج الشامى والمصرى — عام ١٢٢٣ هـ — معتلين بمنع الوهابى الناس الحج وليس الأمر كذلك فانه لم يمنع أحدا أتى الى الحج على الطريقة المشروعة ، وانما منع من يأتى بالبدع التى لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر ، وقد حج طائفة من المغاربة فلم يتعرض لهم بسوء[٧٢] •

ولقد أدركت الدولة العثمانية أن الدعوة الوهابية تؤذن بقيام دولة عربية تناوىء الخلافة التركية ، ومن ثم أخذت السلطنة التركية تعمل على قبرها فى مكانها قبل أن تتسع أفاقها ، فوضعت الخطط وعبأت علماء الدين الذين شرعوا أقلامهم وألسنتهم يؤلفون الكتب ويخطبون الخطب على المنابر يرمون أتباعها بالزندقة والخروج على الاسلام وعلى سلطان

---

(٧٢) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار احداث عام ١٢٢٣ هـ •

الخليفة(٧٣) ولما كانت الدولة حريصة فى نفس الوقت على استعادة سيادتها على الحجاز لاستعادة سمعتها فى العالم الاسلامى بتأمين الحج الى الحرمين الشريفين فقد وجدت أنه لا مفر من الاستعانة بمحمد على والى مصر للقضاء على الدعوة والقائمين بها بعد أن فشل ولاة بغداد ودمشق فى هذه المهمة ٠

انتهز السلطان العثمانى فرصة الغضب الذى حل بالمسلمين عامة من اخلاص السعوديين فى تطبيق دعوة محمد بن عبد الوهاب ٠ وثورة أهل تركيا ومصر والشام والعراق بسبب ما أشيع عن منع حجاجهم من أداء الفريضة وضيق أهل الحجاز الذين كرهوا الحكم السعودى لأنه قطع عنهم الحجاج وحال بينهم وبين ما كان يردهم من الصدقات ، وقطع عنهم ما كان مرتبا لهم من الاحسانات(٧٤) بالاضافة الى أن الشريف غالب كان خضوعه للسعوديين عن غير اقتناع ولذلك أخذ يراسل السلطان العثمانى وواليه على مصر محمد على يستنجد بهما لتخليص الحرمين الشريفين من السيطرة السعودية ٠

ولقد أصدر السلطان العثمانى أمر لباشا مصر لكى يستعيد السيادة العثمانية على الحجاز والقضاء على الدولة السعودية الخارجة على العثمانيين ٠ وحاول اغراءه باضافة الحجاز الى باشوية مصر ، وكانت الدولة العثمانية تهدف من وراء ذلك الى هدفين أولهما القضاء على الدولة السعودية التى أصبحت خطرا يهدد سمعتها فى العالم الاسلامى ، وبالتالى اضعاف هذا الوالى ــ محمد على ــ باستنزاف موارده فى هذه الحروب، التى قد لا تحمد عقباها بالنسبة له حتى يظل خاضعا لها خضوعا تاما(٧٥)٠

واذا كان السلطان العثمانى قد كلف محمد على فى عام ١٢٢١ هـ ١٨٠٦ م بالتعامل مع السعوديين الا أن محمد على أخذ يماطل فى تنفيذ

---

(٧٣) د. محمد بديع شريف وآخرين : المرجع السابق ص ٢٠ .
(٧٤) حافظ وهبة : نفس المرجع السابق ص ٢١٨ .
(٧٥) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ٢٨٢ .

أمر السلطان لمدة خمس سنوات متعللا بحجج كثيرة كانشغاله بمحاربة المماليك فى الصعيد • ومناوأة سليمان باشا والى الشام لمحمد على وتأييده للمماليك ، وعدم توفر الأعتدة الحربية والسفن الكافية والجنود المعدين للقيام بهذه الحملة عبر البحر الأحمر الى الحجاز ، حتى كان عام ١١٢٦ هـ/١٨١١ م بدأ محمد على تنفيذ أمر السلطان بعد أن أعد عدته معتمدا على موارد مصر وبعد أن يئس من مساعدات تركيا له لاداء هذه المهمة ، وبعد أن بنى السفن اللازمة لنقل قوات الحملة •

عهد محمد على لابنه طوسون قيادة الحملة الى الحجاز ، ومرت الحرب بين جيوش محمد على وقوات السعوديين فى ثلاثة أدوار ، يبدأ الدور الأول فى خريف عام ١٨١١م/١٢٢٦ هـ بنزول جيوش محمد على الى ميناء المدينة المنورة حتى وصول محمد على بنفسه الى ميناء جدة فى أول رمضان ١٢٢٨ هـ/٢٨ أغسطس ١٨١٣ م • وفى هذا الدور استولى على المدينة المنورة فى نوفمبر ١٨١٢ م وتقدم فاستولى على جدة ومكة بعد أن نجح فى شراء بعض القبائل الحجازية بالاضافة الى موالاة الشريف غالب شريف مكة لمحمد على •

ويبدأ الدور الثانى من الحرب بين محمد على والسعوديين بوصول محمد على جدة عام ١٨١٣ م عندما علم بنجاح ابنه طوسون فى منطقة الحجاز ، الى عودة طوسون الى مصر فى ٥ ذى الحجة ١٢٣٠ هـ ٨ نوفمبر ١٨١٥ م واختيار ابراهيم قائدا للحملة على السعودية وفى هذا الدور شارك محمد على ابنه طوسون فى المعارك على أرض شبه الجزيرة العربية ، وكانت المعارك سجالا فى نجد وعسير والحجاز • وفى هذا الدور قبض محمد على على الشريف غالب وأرسله الى الدولة العثمانية وعين شريفا آخر لمكة ، ولكن محمد على اضطر الى العودة الى مصر فجأة فى ٢٠ مايو ١٨١٥م بسبب تأزم الموقف الأوروبى بفرار نابليون بونابرت من جزيرة ألبا وقدر — محمد على — أن هذه الحدث يمكن أن يكون له أثر دولى بالغ قد ينعكس على الحالة فى مصر نفسها فأسرع بالعودة الى

القاهرة بعد أن أسند قيادة الحملة الغازية مجددا الى ابنه طوسون[٧٦].

وينتهى الدور الثانى من الحرب بين جيوش محمد على والسعوديين بانسحاب طوسون من القصيم بنجد واجراء مفاوضات صلح مع السعوديين الذين تزعمهم آنذاك الأمير عبد الله بن سعود بعد وفاة سعود الكبير عام ١٨١٤ م ، ولكن الصلح لم يتم بسبب تشديد محمد على فى شروطه رغم ما أبداه الأمير السعودى من رغبة أكيدة فى الصلح والاعتراف بالسيادة العثمانية ، ورغم أن طوسون أخلى القصيم دون أن ينتظر ما سوف تسفر عنه مفاوضات الصلح ، وعودته الى القاهرة . وقد كان كل ما استطاع السيطرة عليه من أملاك الدولة السعودية الأولى هو اقليم الحجاز فقط الذى أصبح يتبع مصر اداريا تحت السيادة العثمانية[٧٧] .

ويبدأ الدور الثالث فى الصراع بين جيوش محمد على والسعوديين بتولية ابراهيم بن محمد على قيادة جيوش والده فى شبه الجزيرة العربية الى عام ١٨١٨ م بالاستيلاء على الدرعية والقبض على الأمير عبد الله بن سعود وارساله الى الآستانة ، وفى هذا الدور حدث الصدع بين الأمراء السعوديين بسبب ضعف وتردد الأمير عبد الله وفى هذا يختلف عن والده سعود الكبير ، كما شهد هذا الدور قيام عبد الله بن سعود بعمليات حربية ضد المناطق التى كانت قد أعلنت مؤازرتها لجيوش محمد على لتأديب القبائل الذين انضم رجالها الى طوسون .

وقد شهد هذا الدور نهاية الدولة السعودية الأولى وانهيارها على يد ابراهيم باشا الذى قاد جيشا معدا اعدادا كاملا نزل به الى المدينة المنورة ثم اتجه الى نجد حيث حاصر الدرعية طويلا حتى سقطت فى يده وقبض على أميرها وأرسله الى مصر وبقى مع من تبقى من حيشه فى نجد حتى صيف ١٨١٩ م /١٢٣٤ م فسلم البلاد خربة الى بعض قوات

---

(٧٦) احمد عسه : نفس المرجع ص ٢٨ .
(٧٧) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٣١٢ .

الجيش العثمانى الى وصلت الى شبه الجزيرة العربية ، وعاد الى القاهرة مع قواته[٧٨] ، مما أعاد الى البلاد حياة الاضطراب والفوضى — وبذلك استطاعت السلطنة العثمانية أن تخفت أول صوت عربى شديد بدأ محاولة اعادة السلطان الى العرب[٧٩] .

لم ينته الصراع بين السعوديين— حماة الدعوة الوهابية ومنفذوها— والأتراك بانهيار الدولة السعودية الأولى على يد ابراهيم ابن محمد على وانما استمر منذ أن عاد ابراهيم الى مصر أواخر عام ١٨١٨ م ، وكان آل سعود مختلفون فيما بينهم على تولى الأمارة بعد عبد الله بن سعود ، كما طمع فى الامارة زعماء آخرون من نجد ، وكان على آل سعود فى وسط هذا الانقسام والمطامع القبلية أن يواجهوا الأتراك ، ولقد ظهر من بين آل سعود فى الفترة الواقعة بين عام ١٨١٨ م وحتى عام ١٨٤٣ م وهو عام تولى فيصل بن تركى تدعيم الدولة السعودية الثانية عدة أمراء من آل سعود ومن غيرهم تنازعوا الحكم فى نجد ، من بينهم مشارى • سعود ، وتركى بن عبد الله آل سعود ، وعبد الله والدتركى ليس هو عبد الله الذى أسره ابراهيم باشا وقتله الترك ، ويعتبر تركى المذكور منشىء الدولة الثانية لآل سعود فى سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩ م لأنه منذ هذه السنة اعتبر الزعيم الساعى لاسترداد امارة آل سعود[٨٠] ، ولكنه لم يستقر له الأمر حتى توفى وخلفه ابنه فيصل .

استمر العداء قائما بين تركى بن عبد الله وبين الأتراك منذ عام ١٨١٩ وحتى عام ١٨٣٣ م وهو عام وفاته ، وقد استعمل الأتراك أساليب البطش والتنكيل ضد أتباع آل سعود فى محاربتهم للامام تركى، وليس أدل على ذلك ما قام به قائدهم حسين بك الذى أعطى الأمان

---

(٧٨) أحمد عبه : نفس المرجع ص ٣٢ .

(٧٩) د. محمد بديع شريف وآخرين : نفس المرجع السابق ص ٢١ .

(٨٠) حافظ وهبة : نفس المرجع السابق ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

لمائتين وثلاثين رجلا من أهل الدرعية ثم ما لبث أن أمر جنوده الأتراك باطلاق النار عليهم جميعا وصادر أملاكهم كلها بعد أن قضى عليهم رميا بالرصاص[٨١] وذلك عام ١٨٢٠ م • فاضطر الامام تركى الى الفرار من الرياض ولكنه ظل رافعا علم الثورة والعداء ضد الأتراك • وظل كذلك حتى اغتيل عام ١٨٣٣م/١٢٥٦ هـ فأعلن ابنه فيصل نفسه اماما وحاكما على نجــد •

وكان الأمير فيصل بن تركى ضمن من أسرهم ابراهيم باشا فى الدرعية وأرسلوا الى مصر وبقى بها حتى فر منها قبل ارتقائه الامامة بثمان سنوات عمل خلالها على مساعدة والده فى حروبه ضد الأتراك وضد بعض أمراء آل سعود وغيرهم من زعماء قبائل نجد الطامعين فى الأمارة • ولذلك فان فيصل بعد اغتيال والده قام باخضاع أكثر الامارات فى نجد وأعاد الأمن الى المنطقة ولم يخرج عن حوزة امارته سوى الحجاز التى كانت خاضعة لمصر •

وازاء روح الأميرفيصل النضالية وعمله على اعادة الدولة السعودية الى سابق عهدها من القوة والاتساع سارع الأتراك بحث محمد على فى مصر على التدخل للقضاء على دولة فيصل فى نجد ، وقد تمكن خورشيد باشا من الايقــاع بين الأمراء السعوديين أنفسهم حتى استولى على الرياض عام ١٢٥٤ هـ ١٨٣٨ م ، وبعد معارك دامية رأى فيصل أن ليس له قدرة على مقاومة قوات محمد على فاستسلم لخورشيد الذى أرسله مع أخيه جاوى وولديه عبد الله ومحمد الى مصر[٨٢] •

ولقد بقى الأمير فيصل بمصر من عام ١٨٣٨ الى عام ١٨٤٣ م حيث فر منها بمساعدة عباس باشا والى مصر • وفى هذه المدة عادت الفتن الى نجد رغم وجود حكام من آل سعود رضى عنهم الأتراك منهم خالد ابن سعود شقيق الامام عبد الله ، وعبد الله بن ثنيــان آل سعود •

---

(٨١) د. حسن سليمان محمود : نفس المرجع ص ٨٥ .

(٨٢) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٢٤ .

وعندما وصل فيصل الى نجد عام ١٨٤٣ م تمكن من استعادة دولته التى شادها قبل انتقاله الى مصر وبقى الحجاز خارجا عن حدود دولته •

ولقد ساعد على نجاح فيصل فى استعادة ملكه انسحاب الجيش المصرى نتيجة لمعاهدة لندن عام ١٨٤٠م ، واتجاه فيصل الى مسالمة الأتراك بالاعتراف لهم بالسيادة على نجد والأحساء وعمان وقطر وعسير • ولم يشأ أن يسعى الى غزو العراق والشام والحجاز حتى لا يثير حفيظه الأتراك ، واستمرت دولة فيصل حتى وفاته عام ١٢٨٢هـ /١٨٦٦ م ولكن أبناءه وخاصة عبد الله الذى اتصف بالشدة فى أمر الدعوة وسعود الذى كان أكثر تسامحا ، ورغم أن فيصل قد أخذ البيعة لأكبر أبنائه وهو عبد الله قبل وفاته ، فان الحرب ما لبثت أن قامت بين الأخوين وكانت نتيجتها انهيار الدولة السعودية الثانية وتمكن محمد بن الرشيد أمير حائل من أن يبسط سيطرته على الرياض عاصمة آل سعود وأن يستخدم أمراء آل سعود مثل عبد الله وعبد الرحمن ابنى فيصل ، ولكن عبد الرحمن لم يرض لنفسه أن يكون تحت رحمة ابن الرشيد بالرياض فثار ضده ولكن قوة ابن الرشيد أجبرته على ترك نجد هو وأسرته الى الاحساء فالقطيف فالكويت حيث استقر بها ونزل ضيفا على أميرها من آل الصباح عام ١٣٠٩ هـ ـ ١٨٩١م(٨٣) •

ظل الأمير عبد الرحمن بن فيصل يعيش فى كنف أمير الكويت من آل الصباح منذ عام ١٨٩١ م حتى خرج ابنه عبد العزيز عام ١٣١٩ هـ ١٩٠١ م من الكويت ومعه أربعون رجلا من آل سعود وأنصارهم لمنازلة آل الرشيد فى نجد وحلفائهم الأتراك ، وبالفعل استطاع بالجرأة والمفاجأة أن يستولى على الرياض وبعدها أخذ يعمل لنقض مملكة ابن الرشيد واسترداد ملك آبائه وأجداده ، وقد مكث أكثر من عشرين سنة يجالد ويغالب الخصوم من النجديين والأشراف والأتراك يضربهم حينا ويلين حينما يرى السياسة واللين أنجح من الخصام والقتال •

---

(٨٣) د. حسن سليمان محمود : نفس المرجع ص ٩٢ •

ولقد وقف الأتراك ضد عبد العزيز بن عبد الرحمن • ولكن انكسار آل الرشيد بعد منازعاتهم الداخلية دفع الأتراك — المنهكين — الى الانسحاب من نجد فى عام ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م • ثم اصطدم بالشريف حسين ملك الحجاز عام ١٩٠٩ م ولكن لجأ معه الى السياسة والمهادنة حتى يتفرغ له فيما بعد • أما الأتراك فان الأمير عبد العزيز رأى أن الدولة العثمانية آخذة فى التصدع والانهيار ، ورأى المطامع تكتنفها من كل ناحية ، فانتهز فرصة خروجها من حرب البلقان منهوكة القوى ، فانقض على اقليم الاحساء واستخلصه من النفوذ التركى ، وبذلك نفذ الى الخليج[٨٤] •

وقد استمر العداء بين آل سعود والأتراك حتى قيام الحرب العالمية الأولى وعندئذ استمر توسع السعوديين فى شبه الجزيرة العربية بالدخول فى حروب متصلة مع قبائل نجد كآل الرشيد وغيرهم ، ومع حكام عسير ثم مع الشريف حسين فى الحجاز ، حتى اتسعت الامارة السعودية لتصبح سلطنة نجد ومملكة الحجاز الى أن أصبحت المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢ م •

ومما يجب ملاحظته أن الدولة العثمانية اتخذت موقف العداء من آل سعود وهو فى كنف آل الصباح فى الكويت بسبب ارتباط آل الصباح بانجلترا وتحالف الطرفين مما سمح للانجليز بادخال نفوذهم الى الخليج ، وكان موقف الأتراك المؤيد لآل الرشيد دليلا على الموقف العثمانى ، ولكن الهزائم التى منى بها آل الرشيد والأتراك على يد عبد العزيز آل سعود جعل حكومة الآستانة تعاف متابعة الحرب وأن تفتش عن اتفاق مع عبد العزيز يضمن لها بعض مصالحها[٨٤] • وهذا الموقف دليل على الضعف الذى ألم بالدولة العثمانية من ناحية كما أنه فى نفس الوقت دليل على قوة وشجاعة عبد العزيز آل سعود وتصميمه على بناء الدولة السعودية الكبرى المتحررة من كل نفوذ أجنبى حتى ولو كان هذا النفوذ تركيا •

---

(٨٤) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٣٨ •

(٨٥) أحمد عسة : نفس المرجع ص ٥٤ •

موقف القوى الخارجيـــة من الدعـــوة

لم يكن الصراع مع الأتراك هو الوجه الوحيد لسياسة آل سعود معتنقي مذهب محمد بن عبد الوهاب الخارجية ، بل كانت هناك وجوه أخرى لهذه السياسة تمثلت فى موقف انجلترا وفرنسا وايران الى جانب مصر من الدولة السعودية الناهضة فى نجد .. واذا كانت مصر محمد على قد اصطدمت بآل سعود بايعاز من الأتراك لفرض سيادتهم على نجد . فان محمد على كان يعتزم تأكيد سيطرته على كل شبه الجزيرة العربية لتحقيق مشروعه لتكوين وحدة عربية تكون مصر قلبها .. وعلى هذا الأساس جاء تدخل محمد على فى الحجاز ونجد واليمن وساحل الخليج ، وهو التدخل الذى اصطدم بالاطماع الانجليزية خاصة فى الخليج واليمن والجنوب العربى بصفة عامة .

كان الانجليز اذن أول قوة أجنبية تتجه بأنظارها نحو شبه الجزيرة العربية وخاصة سواحلها الشرقية المطلة على الخليج وسواحلها الجنوبية المطلة على البحر العربى والمحيط الهندى . وليس أدل على ذلك من أن القوات البحرية البريطانية قد وصلت الى البحرين ــ مفتاح الخليج العربى ــ واحتلتها عام ١٢٣٦ هـ ١٨٢٠ م[1] كنتيجة لانهيار الدولة السعودية الأولى فى نجد وانحسارها عن شواطىء الخليج .

وكان تحالف القواسم وهم قبيلة عربية استقرت فى ساحل عمان منذ النصف الأول للقرن الثامن عشر وامتد نفوذهم فشمل المنطقة من قطر الى « خور فكان » على الخليج ، وتحالف القواسم مع السعوديين منذ عام ١٢١٤ هـ/١٧٩٩ م عند دخول القوات السعودية الى الأراضى العثمانية وأعلن سلطان بن صقر القاسمى ترحيبه بهذه القوة الجديدة ــ السعوديين ــ وأعلن خضوعه لآل سعود واعتناق مبادىء الدعوة

---

(١) احمد عسة : نفس المرجع ص ٣٣ .

السلفية ، وتعهد بدفع الزكاة المقررة لعمالها طالما أن هذه الحكومة لا تغير من وضعه كزعيم للقبيلة(٢) ، وقد استفاد القواسم من هذا التحالف بالاستمرار فى ممارسة أعمال الجهاد البحرى ضد السفن الأجنبية فى الخليج مستندين الى قوة الدولة السعودية .

ولقد كان نشاط القواسم المعتمد على قوة آل سعود سببا فى تبرم الانجليز الذين ساءهم تعرض سفنهم لمهاجمة القواسم مما دفع انجلترا الى ارسال حملات التأديب ضد اغارات القواسم ثم عقد معاهدات معهم دون فائدة من توقف أعمال القرصنة ضد السفن الانجليزية ، حتى كان عام ١٨٢٠م والدولة السعودية قد انهارت أمام حملة ابراهيم باشا فأرسل الانجليز حملة كبيرة ضد القواسم تمكنت بعد تدمير رأس الخيمة من فرض معاهدة تشمل جميع رؤساء المشيخات الذين أرغموا على توقيعها بعد ان فقدوا سندهم الطبيعى وهو الدولة السعودية القومية وبهذه المعاهدة وضعت انجلترا قدمها فى الخليج الذى خضع لنفوذها منذ ذلك الحين واستمر يتدعم طوال القرن التاسع عشر وأثناء النصف الأول من القرن العشرين .

وجاء اهتمام الانجليز بالدولة السعودية منذ عام ١٧٨٧ م عندما أصبح لآل سعود نفوذ على ساحل الخليج ، وقد حاول الانجليز — من مركزهم فى الهند — أن تكون علاقتهم بالسعوديين — الذين عرفوهم باسم الوهابيين — علاقات طيبة ضمانا لمصالحهم فى الخليج وفى العراق، وكان آل سعود أيضا رغم كراهيتهم لأعمال الانجليز ضد حلفائهم القواسم ، وتأييدهم لسلطان مسقط المعادى لآل سعود ، كانوا حريصين على عدم الدخول فى صراع مع الانجليز والعمل على مهادنتهم .

واستمر هذا الوضع طوال أيام الدولة السعودية الأولى ، حتى اذا انهارت هذه الدولة أعربت الحكومة الانجليزية عن سرورها بهذا

(٢) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٢٥٨ .

الانهيار ولكنها أبدت مخاوفها من اتجــاه المصريين الى ساحل الخليج ولذلك سارعت بعقد معاهدات مع حكام المشيخات العربية تقيدهم بها وتضعهم تحت حمايتها حتى توقف ابراهيم باشا عن التوغل الى منطقة الخليج .

وعندما أعاد الأمير فيصل بن تركى الدولة السعودية مرة أخرى الى الوجــود أمرت الحكومة البريطانية معتمدها فى الخليج العــربى الكولونيل بيلى EBilley أن يتصل بالامام ــ فيصل ــ وأن يزوره فى بلاده ، وأن يقدم تقريرا عن حالة الدولة السعودية الجديدة[٣] ، وأن يبلغ الامام أن الحكومة الانجليزية لا تطمع فى أى جزء من شبه الجزيرة العربية وكل ما يهمها ضمان الأمن والسلام تحت حكم صالح .

وكان الصراع بين الانجليز والفرنسيين من ناحية ، والصراع بين الانجليز والروس من ناحية أخرى حول الخليج العربى الى جانب موقف الأتراك الداعى الى فرض السيادة العثمانية دون قوة تركية تسند هذه السيادة ، كان كل ذلك هو سمة حياة شبه الجزيرة العربية طوال القرن التاسع عشر وحتى قيام الحرب العالمية الأولى وظهور الدولة السعودية القوية . وقد انتهى هذا الصراع باخراج قوات محمــد على من اليمن والخليج وطرد النفوذ الفرنسى والروسى من الخليج ، ثم فرض النفوذ الانجليزى فى الجنوب العربى والخليج .

وكانت علاقة آل ســعود بفارس غير ودية نظــرا للاختلاف بين الطرفين فى المذهب ، فالأولون سنيون متمسكون ، والآخرون شيعيون متطرفون ، وكان أهل فارس يناصرون أعداء آل ســعود فى مسقط ، وآل سعود يناصرون أعداء فارس وهم آل خليفة فى البحرين ، ولا غرابة فى أن نجد شاه فارس الشيعى يهنىء والى مصر السنى على نجاحه فى القضاء على دولة آل سعود السنية لاتفاقهما فى الهدف وان اختلفا فى المذهب[٤] .

---

(٣) احمد عبــة : نفس المرجع ص ٤٠ .

(٤) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٢٧٩ .

وعندما أخذ عبد العزيز آل سعود يعيد بناء الدولة السعودية مرة ثالثة فى أوائل القرن العشرين لم يرد ان يفتح جبهه عداء مع الانجليز وهو يواجه الأتراك من ناحية وقبائل نجد والشريف حسين فى الحجاز من ناحية أخرى • ولذلك نجد انجلترا تستجيب لتدخل امير الكويت عام ١٩٠٣ وطلب عبد العزيز آل سعود عام ١٩٠٤ بأن تستخدم الحكومة الانجليزية نفوذها لدى الأتراك كى يوقفوا مساعداتهم الحربية لابن الرشيد عدو آل سعود فى نجد •

ولما طلب الأمير عبد العزيز آل سعود عقد معاهدة مع انجلترا • نصح مكتب الحاكم العام الانجليزى فى الهند الحكومة الانجليزية باجابة مطلب الأمير لأنه • اذا ما بنى الوهابيون ملكهم على أنقاض ملك الاتراك فانهم فى الغالب سيهددون المصالح البريطانية فى الكويت وفى باقى امارات الشاطىء • وعليه فانهم — حكومة الهند — يلحون بقبول صيغة الرد على كتب الأمير عبد العزيز لضمان صداقته ومعاونته قبل أن تفوت الفرصة[٥] •

ولكن الحكومة البريطانية اتخذت موقفا سلبيا من طلب الأمير عبد العزيز ، حتى كان عام ١٩١٣ م عندما اصطدم الأمير بالأتراك أثناء زحفه على الهفوف والقطيف والعقير فى الأحساء واضطر الأتراك الى التقهقر الى البحرين والتحصن فيها بموافقة انجلترا ، وهنا توترت العلاقات بين آل سعود وانجلترا • ولكن الانجليز سرعان ما دخلوا مع الأمير عبد العزيز فى شتاء عام ١٩١٣ م فى مباحثات سياسية كانت بمثابة تمهيد فعلى للاتفاق السعودى البريطانى الذى وقع فيما بعد عام ١٩١٥ م وعرف باسم معاهدة العقير ، والذى كان بمثابة أول معاهدة دولية أكد فيها عبد العزيز مركزه الدولى[٦] •

واذا كان قد أخذ على هذا الاتفاق نفس ما أخذ على الاتفاقات بين الانجليز ومشايخ الخليج من تكبيل وتقييد لحرية التحركات السياسية

---

(٥) حافظ وهبة : نفس المرجع السابق ص ٢٣٨ •

(٦) احمد عسة : نفس المرجع السابق ص ٦٧ •

والاقتصادية دون موافقة الانجليز ، فان الأمير عبد العزيز ما لبث أن تخلص من هذه القيود فى معاهدة جدة عام ١٩٢٧ م التى نصت على اعتراف انجلترا باستقلال سلطنة نجد وتوابعها والحجاز وحق السلطنة فى الاتصال بالدول الأخرى وعقد الاتفاقيات السياسية والاقتصادية معها دون الرجوع الى انجلترا ، وذلك حسبما تمليه مصلحة السلطنة العليا ، بعد أن كانت معاهدة عام ١٩١٥ م تحرم آل سعود من كل هذه الحقوق .

تقييم الدعــوة الوهابيــة

لقيت دعوة محمد بن عبد الوهاب منذ ظهورها فى نجد مقاومة من قوى مختلفة فانبرى معارضوها الى رميها بالكفر والالحاد ، ودافع عنها أنصارها بتوضيح مبادئها واظهار حقيقة دعوتها ، واذا كان معارضو الدعوة قد كتبوا الكتب وبعثوا بالمنشورات تهاجم وتستنكر ، فان كتب الامام محمد بن عبد الوهاب وأقوال أتباعه ترد وتوضح ، فان كتبه التى بلغت أكثر من عشرة احتوت على خلاصة أفكاره ، ومن أهم هذه الكتب : كتاب التوحيد الذى سماه التوحيد الذى هو حق الله على العبيد، وكتاب كشف الشبهات ، وكتاب الكبائر والمسائل التى خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية ، وكتاب آداب المشى الى الصلاة ، وكتاب الهدى النبوى الى جانب كتب فى تفسير القرآن الكريم ، وفى السيرة النبوية ، وفى الأحاديث النبوية ، بالاضافة الى الرسائل والكتب المطولة والمختصرة التى كان يبعث بها الامام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه الى أمراء البلاد وشيوخ القبائل .

وجاء فى رسالة من عبد العزيز بن محمد بن سعود الى من يراه من أهل المخلاف السليمانى خصوصا أولاد الشريف حمود وناصر ويحيى وســائر اخوتهم وأولاد اخوانهم ، كذلك اشراف بنى النعيمى وكافة أشراف تهامة يقول : فالموجب لهذه الرسالة أن الشريف أحمد ابن حسين الفلقى قدم الينا فرأى ما نحن فيه وتحقق صحة ذلك لديه ، فبعد ذلك التمس منا أن نكتب لكم ما يزول به الاشتباه فتعرفوا دين الاسلام الى

لا يقبل من أحد سواه ، فاعلموا — رحمكم الله — أن الله سبحانه وتعالى أرسل محمدا ﷺ على فترة من الرسل فهدى به الى الدين الكامل والشرع التام ، وأعظم ذلك وأكبره وزبدته واخلاص العبادة لله لا شريك له ، والنهى عن الشرك ، وذلك هو الذى خلق الله تعالى الخلق لأجله ودل الكتاب على فضله كما قال تعالى : وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، وقال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، واخلاص الدين هو صرف جميع العبادة لله تعالى وحده لا شريك له وذلك ألا يدعى الا الله ولا يستغاث الا بالله ، ولا يذبح الا له ، ولا يخشى ولا يرجى سواه ولا يرهب ولا يرغب الا فيما لديه ، ولا يتوكل فى جميع الأمور الا عليه ، وان كان ما هناك لله تعالى لا يصلح شىء منه لملك مقرب ، ولا نبى مرسل وهذا هوبعينه توحيد الألوهية الذى أسس الاسلام عليه وانفرد به المسلم عن الكافر ، وهو معنى شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبدهورسوله.

ويضيف الأمير فى رسالته قائلا فلما من الله علينا بمعرفة ذلك وعلمنا أنه دين الرسل اتبعناه ، ودعونا الناس اليه ، والا فنحن قبل ذلك على ما عليه غالب الناس من الشرك بالله تعالى ، من عبادة أهل القبور والاستغاثة بها والاستغاثة بهم مع ما ينضم الى ذلك من فعل الفواحش والمنكرات وارتكاب الأمور والمحرمات وترك الصلاة وترك شعائر الاسلام حتى أظهر الله الحق بعد خفائه وأحيا أثره بعد عفائه على يد شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب(٧) .

وقال عبد الله بن الامام محمد بن عبد الوهاب عام ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م حين دخل مكة مع الأمير سعود بن عبد العزيز : فذهبنا فى الأصول مذهب أهل السنة والجماعة ، وطريقتنا طريقة السلف التى هى الطريق الأسلم والأعلم والاحكم خلافا لمن قال طريقة الخلف أعلم ، وهى أننا نقرأ آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها ونكل علمها الى الله مع اعتقاد حقائقها ، فان مالكا — الامام مالك — وهو من أجل

---

(٧) محمد كرد على : القديم والحديث ص ١٦٥ .

علماء السلف لما سئل عن الاستواء فى قوله تعالى : الرحمن على العرش استوى ، قال الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة[٨] .

وأما أعداء الدعوة فقد رموها بالكفر والضلال وأخذوا ينشرون عنها ما يسيء اليها لتنفير الناس منها ، وقد استغل هؤلاء خلاف سليمان ابن عبد الوهاب شقيق صاحب الدعوة معه وانتقاده للامام فى آرائه وفى تفسيراته ، وزاد المعارضون فأسرفوا فى معاداتهم للدعوة بأن ادعوا بأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأنصاره يضمرون الكراهية للنبى ﷺ وبقية الأنبياء والأولياء والصالحين ، ومنشأ هذا الادعاء أن الوهابيين استنادا الى حديث نبوى شريف يقول : لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى يرون أن السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يعمها أحد من الصحابة أو التابعين ولم يأمر بها النبى ﷺ ، وقد سبق ابن تيمية وابن عبد الوهاب طوائف كثيرة من العلماء المتقدمين بهذا الرأى[٩] .

وفى واقع الأمر فان دعوة محمد بن عبد الوهاب ليست بدعة جديدة لأنها رجوع بالاسلام الى أصوله على عهد الرسول الكريم والصحابة ، ولكن الجديد فيها هو ظهورها فى زمن بدأ فيه كل شيء مخالف لما درج عليه الناس منذ سنوات وأصبح من عاداتهم يعتبر بدعة مدعاة للاستنكار ، واذا كانت الدعوة قد لقيت معارضة فان ذلك سنة كل جديد على القوم فى كل زمان بل وفى كل مكان .

ونحن نعتقد أن دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب دعوة صحيحة تماما ولنا فى أقوال علماء المسلمين والمستشرقين ما يؤكد ما ذهبنا اليه هنا ، فان المؤرخ المصرى المعاصر لظهور الدعوة عبر عن رأيه فى دعوة محمد بن عبد الوهاب بقوله فى أحداث يوم ٢٩ صفر ١٢١٨ هـ الموافق

---

(٨) السيد رشيد رضا : الوهابيون والحجاز ص ١١ .

(٩) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٣٠١ .

٣٠ يونية ١٨٠٣ م : وحضر صحبة الحجاج ــ المصريين العائدين ــ كثير من أهل مكة هروبا من الوهابى ، ولغط الناس فى خبر الوهابى واختلفوا فيه ، فمنهم من يجعله خارجيا وكافرا ــ وهم المكيون ومن تابعهم وصدق أقوالهم ــ ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه • وأرسل الى شيخ الركب المغربى كتابا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وأورد الجبرتى صورة لهذا الكتاب جاء فيه : من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ••• وقال : قال الله تعالى قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين ، وقال تعالى : قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، وقال تعالى : وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، وقال تعالى : اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليــلا ما تذكرون ، وقال تعالى : وان هــذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله •

وقال أيضا فى رسالته : اذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التى أعظمها : الأشراك بالله والتوجه الى الموتى ، وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات التى لا يقدر عليها الا رب الأرض والسموات وكذلك التقرب اليهم بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد وجلب الفوائد الى غير ذلك من أنواع العبادة التى لا تصــلح الا لله وصرف شىء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه وتعالى أغنى الأغنياء عن الشرك ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصا •

وأضاف فى رسالته : فهذا هو الذى أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر الى أن كفرونا وقاتلونا ، واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم ، وهو الذى ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه بعدها نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسول

الله ﷺ واجماع السلف الصالح من الأمة[١٠] •

ويبـــدو من تسجيل الجبرتى لأحداث الدعوة الوهابية أنها تلقى منه القبول وقد دلل على ذلك أيضا فى أحداث يوم ٢ صفر ١٢٢٢ هـ/ ١١ أبريل ١٨٠٧ م حين سجل ما يلى : وصل حجاج المغاربة الى مصر من طريق البر وأخبروا أنهم حجوا وقضـــوا مناسكهم • وأن مسعود الوهابى — يقصد الأمير سعود بن عبد العزيز — وصل الى مـكة بجيش كثيف ، وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار ، وأحضر مصطفى جاويش أمير الركب المصرى وقال له : ما هذه العويدات والطبول التى معكم ؟ (يعنى بالعويدات المحمل) ، فقال : هو اشارة وعلامة على اجتماع الناس بسبب عاداتهم ، فقال : لا تأت بذلك بعد هذا العـــام ، وان أتيت به أحرقته ، وأنه هدم القباب ، وقبة أدم ، وقباب ينبع والمدينة وأبطل شرب التنباك والنارجيلة من الأسواق ، وبين الصفا والمروة وكذلك البـــدع[١١] •

بل ان الجبرتى يسجل رأيه بصورة أكثر دقة وصراحة فى تسجيله لأحداث يوم ٢٢ ذى الحجة ١٢٢٣ هـ الموافق ٨ فبراير ١٨٠٩ م حين يقول • انقطع الحج الشامى والمصرى معتلين بمنع الوهابى الناس عن الحج ، والحال ليس كذلك فانه لم يمنع أحدا يأتى الى الحج على الطريقة المشروعة ، وانما يمنع من يأتى بخلاف ذلك من البدع التى لا يجيزها الشرع ، مثل المحمل والطبل الزمر وحمل الأسلحة وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة ، وحجوا ورجعوا فى هذا العام وما قبله ، ولم يتعرض لهم أحد بشىء •

ويضيف الجبرتى أن أهل المدينة ومكة قد شوهوا دعوة محمد بن عبد الوهاب بأن : الوهابى استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها وأخذها فيرون أن أخـــذه لذلك من الكبائر العظام ، وهذه الأشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنيـــاء

---

(١٠) عبد الرحمن الجبرتى : نفس المرجع .
(١١) نفس المرجع .

والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ، اما حرصا على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم أو لنوائب الزمان ، فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج اليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الاعداء • فلما تقادمت عليها الأزمنة ، وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة — وهى فى الزيادة — ارتصدت معنى لا حقيقة ، وارتسم فى الأذهان حرمة تناولها ، وأنها صارت مالا للنبى ﷺ فلا يجوز لأحد أخذها ولا انفاقها ، والنبى عليه الصلاة والسلام منزه عن ذلك ولم يدخر شيئا من عرض الدنيا فى حياته •

وناقش الجبرتى الادعاءات بتكفير الوهابيين لأخذهم هذه الذخائر والجواهر واتهامهم بكراهية النبى وعدم محبته ، وقال : ومحبة الرسول بتصديقه واتباع شريعته وسنته لا بمخالفة أوامره وكنز المال بحجرته وحرمان مستحقيه من الفقــراء والمساكين وباقى الأصناف الثمانية(١٢) وكنز المال بحجرة الرسول لا ينتفع به أحد الا مايختلسه العبيد الخصيين الذين يقال لهم أغاوات الحرم ، والفقراء من أولاد الرسول وأهل العلم والمحتاجون وأبناء السبيل يموتو جوعا • وهذه الذخائر محجور عليها وممنوعون منها الى أن حضر الوهابى واستولى على المدينة وأخذ تلك الذخائر(١٣) •

ولنا فى قول لوثروب ستودارد عن دعوة محمد بن عبد الوهاب سندا آخر على صحة مادعا اليه الامام ، حيث ذكر أن الدعوة الوهابية انما هى دعوة اصلاحية خالصة غرضها اصلاح الخرق ، ونسخ الشبهات وابطال الأوهام ونقض التفاسير المختلفة والتعاليق المتضاربة التى وضعها أربابها فى عصور الاسلام الوسطى ، ودحض البدع وعبادة الأولياء(١٤) •

---

(١٢) يقصد بها الأصناف الثمانية من الناس المستحقين للصدقة والزكاة •

(١٣) الجبرتى : نفس المرجع •

(١٤) لو ثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٦٤ •

ولقد صور العالم المصرى الدكتور أحمـد أمين دعوة محمد بن عبد الوهاب أبلغ تصوير حين ذكر أن هذه الدعوة حـرب على كل ما ابتدع بعد الاسلام الأول من عادات وتقاليد ، فلا اجتماع لقراءة مولد ولا احتفاء بزيارة قبور ولا خروج النساء وراء الجنازة ولا اقامة أذكار يغنى فيها ويرقص ولا محمل يتبرك به ويتمسح ويحتفل به هذا الاحتفال الضخم وهو ليس الا أعواد خشبية لا تضر ولا تنفع . كل هذا مخالف للاسلام الصحيح يجب أن يزال ويجب أن نعود الى الاسلام فى بساطته الأولى وطهارته ونقائه ووحدانيته واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك فلا اله الا الله معناها كل ذلك . ان محمد بن عبد الوهاب لم ينظر الى المدينة الحديثة وموقف المسلمين منها ولم يتجه فى اصلاحه الى الحياة المادية ، وانما اتجه الى العقيدة وحدها ، فعنده أن العقيـدة والروح هما الأساس وهما القلب أن صلحا صلح كل شىء وان فسدا فسد كل شىء[١٥] .

ويصور الدكتور طه حسين بأسلوب بليغ دعوة محمـد بن عبد الوهاب التى أثارت الانتباه العالمى خلال القرن الثامن عشر الميلادى فى قوله : أن مبدأ الحركة جديد وقديم معا ، أنه جديد بالنسبة الى المعاصريين . ولكنه قديم فى حقيقة الأمر لأنه ليس الا الدعوة القوية الى الاسلام الخالص النقى المطهـر من كل شوائب الشرك والوثنية ، هو الدعوة الى الاسلام كما جاء به النبى خالصا لله وحده ملغيا كل واسطة بين الله وبين الناس ، هو احياء للاسلام العربى وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب[١٦] .

ولرب قائل أن أتباع محمد بن عبد الوهاب قد اتخـذوا موقفا متطرفا فى الدعوة وصل الى تكفير المسلمين الذين لا يعتنقون مذهبهم والى أن تحل دماؤهم ، بل انهم تشددوا فى لبس العمامة على أنها سنة

---

(١٥) د . احمد امين : زعماء الاصلاح ص ١٨ .

(١٦) د . طه حسين : الحياة الأدبية فى جزيرة العرب ، مجلة الهلال مارس ١٩٣٣ .

عن رسول الله ﷺ ، وكان كثير منهم يريدون أن ما عـدا قطرهم من الأقطار الاسلامية التى تنتشر فيها البدع ليست ممالك اسلامية ، وأن دارهم دار حرب وجهاد • وأنهم اعتبروا التزين بالحلى وشرب الدخان ولبس الحرير بدعا يجب التشديد فى محاربتها وتعقب متخذيها •

ولئن صح هذا القول على بعض أتباع الدعوة فانه لا يصح على مبادىء الدعوة ودعاتها العالمين العاملين بمبادئها الصحيحة ، ويجب أن ندرك أن كثيرا من أتباع الدعوة كانوا من البدو الذين أساءوا فهم مبادئها فغالوا فى تطبيقها[١٧] واشتدوا فى ذلك مما نفر منهم الكثير من المسلمين وأثار على الدعوة وأصحابها ثائرة العالم الاسلامى ، ونحن مع القائلين بأن ما ينسب الى الدعوة من تكفير من عدا أتباعها هو بلا شك تزوير من خصومهم — وما أكثرهم كما رأينا — وأن وقعت بعض أشياء من بعض جفاة الأعراب والجهل ، فليس من الانصاف أن ينسب كل ذلك الى أتباع الدعوة كلهم وهم أهل نجد[١٨] •

ولا يمكن انكار وجود مغالين فى تنفيذ مبادىء الدعوة حتى خرجوا عن جوهر المبادىء التى دعا اليها الامام محمد بن عبد الوهاب ، حتى ان هذا الغلو استمر الى مطلع القرن العشرين وتمثل فى رفض مظاهر الحيـاة الحضارية الجديدة بآلاتها ومعداتها وابتكاراتها ، وقد بذلت حكومة الملك عبد العزيز آل سعود جهودا كبيرة لاقناع أولئك المغالين حتى أمكن استخدام الآلات والمخترعات الحديثة فى المملكة •

ومما لا شك فيه أنه رغم هذه السلبيات التى لحقت بالدعوة فأن ظهور الامام محمد بن عبد الوهاب ودعوته الاصلاحية قد أحدثت نشوة دينية فى العالم العربى والاسلامى بعد ركود طويل خيم على العقول • ولا شك أيضا فى أنها كانت دعوة رائدة فى ميدانها رغم صعوبة الظروف

---

(١٧) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ٢٩ •

(١٨) حافظ وهبه : نفس المرجع ص ٣٠٢ •

التى تمت فيها حتى ذاعت مبادئها وانتشرت وأصبحت نموذجا لما جاء بعدها من حركات الاصلاح(١٩) .

كذلك لا يمكن اغفال تأثير هذه الحركة الاصلاحية على الفكرة العربية التى كانت مغمورة تحت السيطرة التركية على الأقطار العربية ، واذا كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب قد اهتدت بها حركة محمد بن على السنوسى الاصلاحية فى ليبيا ، وثورة محمد أحمد المهدى فى السودان ، وفكرة الجامعة الاسلامية فى مصر طوال القرن التاسع عشر ، فان الدعوة الوهابية قد نبهت اذهان العرب بضرورة ايقاظ وعى العرب واعادة امجادهم ونقض السيطرة التركية ، ولعل الاتجاه كان دافعا لكى تلتفت القلوب حول آل سعود العرب الخلص ، كما كان له تأثير على فكرة الشريف حسين فى الحجاز لاقامة دولة عربية تشمل شبه الجزيرة العربية والعراق وكل بلاد الشام بعيدا عن السيطرة التركية ..

---

(١٩) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٤٠ .

الفصل الحادي عشر

الدعـــوة السـنوسية

* برقـة .
* محمد بن على السنوسى .
* اسس الدعوة السنوسية .
* اسلوب الدعـوة .
* علاقة السنوسية بالدولة العثمانية .
* السنوسية والقوى الخارجيـة .
* تقييم الدعـوة السنوسية .

برقــــة

ولد محمد بن على السنوسى فى الجزائر ، ثم أكمل تعليمــه فى المغرب ، وسافر الى مصر مارا بليبيا فالحجاز ، ثم عاد ثانية الى مصر فليبيا قبل أن يستقر به المقام فى برقة ، ومعنى هذا أنه لم يكن برقاويا ؛ كما أن دعوته لم تبدأ ببرقة ، ولكنه منذ اتخــذ هذا الاقليم مقــرا له ومستقرا انتسب اليه وباشر دعوته تحت اشرافه المباشر بين أهل الاقليم، ومن هنا تجىء دراستنا لبرقة كمجال كبير وواسع للدعوة السنوسية .

وبرقة أحد أقاليم ليبيا الثلاثة (برقة ، طرابلس ، فزان) بل أكبر هذه الأقاليم من حيث المساحة (٧٠٠ ألف كم٢) وان لم يكن أكثرها سكانا ، ويمتد هذا الاقليم من هضبة السلوم شرقا وحدود طرابلس غربا ، وكان يعرف عند الرومان باقليم « سيرينة » التى سماها العرب « قيرين » أو « قرناه » ثم أصبح يعرف منــذ الفتح العربى باقليم برقــة »(١) .

وسطح الأقليم متنوع بين سهل ساحلى يضيق فى الجزء الأوسط بحيث يتكون من جيوب ساحلية تنحشر بين رءوس صخرية تصل الى الساحل ، ولكن فى جناحى برقة : فى البطنان (مرمريقة) شرقا ، وفى برقة البيضاء والحمراء غربا ، يتسع هذا السهل الساحلى بحيث يمتد عشرات الأميال الى أن يلتقى بالصحراء(٢) ، والى جانب هذا السهل الساحلى يوجد الجبل الأخضر الذى يرتفع عن مستوى سطح البحر بحوالى ألف متر وتكسوه الخضرة الدائمة ، ويرتفع من الساحل ارتفاعا مباشرا ولكنه ينحدر تدريجيا نحو الصحراء فى الجنوب ، وبه من الأراضى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٨٢ .

(٢) د. نقولا زيادة : ليبيا ص ١ .

الصالحة للزراعة المساحات الكبيرة التى ترويها مياه الأمطار الغزيرة .

والى الجنوب من الجبل الأخضر توجد الصحراء الواسعة التى تكون معظم مساحة الاقليم وهذه الصحراء مستوية وان وجد بها بعض الكثبان والهضبات فهى مستوية أيضا ، وفى صحراء برقة توجد أودية عميقة بعضها يمتلوء بالماء فترة ما وبعضها يكون جافا طول السنة[٣] . كما توجد بعض الآبار والينابيع المتناثرة وسط الصحراء تحيط بها واحات فقيرة مثل الجغبوب والكفرة ، وجالو ، وأوجلة[٤] .

وسكان برقة يعيشون فى تنظيم قبلى اتضحت صورته منذ الفتح العربى الاسلامى ثم عندما زحفت قبائل بنى هلال وبنى سليم من مصر الى المغرب منذ القرن الخامس الهجرى — الحادى عشر الميلادى — فوجدنا هذه القبائل تنقسم الى قسمين رئيسيين : القبائل السعدية ، وقبائل المرابطين ، ويذكر البعض أن السعديين هم قبائل بنى سليم ، وأن المرابطين هم بقية القبائل العربية اليمنية التى جاءت مع الفتح العربى الاسلامى والتى اختلطت بالبربر وعربتهم ، وأن ثمة قبائل من المرابطين لها شرف فى النسب[٥] الى بيت الرسول ﷺ . ومن أهم القبائل السعدية العبيدات وعائلة فايد والحسا والبراعصة والدرسة والعبيد وعرفة والعواقير والمغاربة ، وأهم قبائل المرابطين : المنفعة والقطعان والحوطة والفواخر والزوية .

وقبائل برقة تعيش نفس التنظيم القبلى العربى من حيث انقسامها الى عشائر وبطون وأفخاذ ، وللقبيلة أرض تملكها وتنتقل فى أرجائها . وأفراد كل قبيلة متضامنون فى أداء ما عليهم من واجبات وفى الحصول على ما لهم من حقوق ، ولكل قبيلة رئيس أو شيخ له الرياسة العامة

---

(٣) د. فيليب رفلة : الجغرافيا السياسية لافريقيا ص ٣٢٨ .

(٤) د. عزة النص : احوال السكان فى العالم العربى ص ٧٦ .

(٥) د. نقولا زيادة : نفس المرجع ص ١٢ .

على أفرادها • ومنذ أيام الفتح العربى الاسلامى حتى العصر الحديث كان الحكم فى برقة يأخذ القبيلة بعين الاعتبار فى تقسيم البلاد الى وحدات ادارية ، بحيث تكون القبيلة أساسا لتطبيق النظام ومساعدة الحكام(٦) •

ولسنا بحاجة الى الحديث بتفصيل عن معيشة القبائل العربية فى برقة ، حيث أن القبائل البدوية فى الصحراء العربية سواء فى المشرق — حيث رأينا فى نجد — وفى المغرب — حيث نجد فى برقة — يعيشون حياة غير مستقرة • فيما عدا الواحات ، وكثيرا ما تتقاتل القبائل من أجل المراعى أو مياه الآبار •

وقد توفرت فى برقة ظروف اجتماعية وسياسية ودينية هيأت للسيد محمد بن على السنوسى أن يدعو لأفكاره بين أهل الاقليم الذى تميز بانقسام سكانه الى قبائل متنافرة تأثر أفرادها بالبيئة الصحراوية فاتصفوا بالقوة والخشونة والمحافظة على العادات والتقاليد العربية ، هذا الى جانب أن الاقليم كان عدد سكانه قليل بالنسبة لمساحته الشاسعة ، كما كان هذا المجتمع البرقاوى أكثر تجانسا فى تكوينه الجنسى وخلوا من الأقليات التى تفت دائما فى عضد الحركات الأصلاحية(٧) •

ومنذ أن أصبحت ليبيا (طرابلس الغرب) ولاية عثمانية عام ١٥٥١ م سيطر الحكم العثمانى على السواحل دون الدواخل ، وعلى هذا أهملت برقة فلم تلق من عناية الدولة العثمانية أو اشرافها المباشر ما يستحق من اهتمام ، حتى اذا حكمت الولاية الأسرة القرمانلية حاول أمراؤها السيطرة على كل الولاية بما فيها برقة ، ثم عاد الحكم العثمانى المباشر ليجعل من برقة ولاية قائمة بذاتها عام ١٨٣٨ م •

---

(٦) مصطفى بعيو : دراسات فى التاريخ اللوبى ص ٣٢ •

(٧) د • محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٢٦ •

وقد حاول الحكام العثمانيون جمع السلطة فى أيديهم ولكن أهل برقة لم يخضعوا للحكم الجديد ومن ثم حدثت ثورات فصدامات بين أهل البلاد والأتراك ، حتى بات الأتراك يتوقون الى ازالة هذا الشر المستطير ووضع حد للصدام وذلك باستمالة زعماء العرب وأصحاب النفوذ فى البلاد ، فكانت هذه الرغبة من جانبهم السبب الأكبر والمباشر الذى دعا العثمانيين الى الاعتراف بالسنوسية ليس فقط كدعوة وطريقة بل كامارة وسياسة[٨] .

وكانت أحوال أهل برقة الدينية تستدعى وجود داعية لاصلاح ما شاب عقيدتهم الدينية من شوائب ، ذلك أنه بحكم مرور السنين واهمال المصلحين الدينيين لوظيفتهم قد جعل البرقاويين يحيدون عن أصول الاسلام الصحيح ، وغير متفهمين للعقيدة وانما مقلدين ، ومن ثم أصبحوا سادرين فى غيابات الضلال معرضين لخطر الأضمحلال السريع من الوجهتين الدينية والخلقية ، اذ أسس بعض أصحاب النفوذ من شيوخ البدو فى الجبل الأخضر ضربا من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام ، وقد أراد مؤسسو هذه الكعبة الزائفة أن يدخلوا فى أذهان البدو أن زيارتها تقوم مقام حج بيت الله الحرام[٩] الى غير ذلك من أعمال تنافى الدين كوأد البنات وعدم صوم رمضان بابتداع بدعة تقوم على الذهاب قبل حلول شهر رمضان بايام الى وادى « زازا » المعروف بقوة رجع الصدى وسؤاله أيصومون رمضان أم لا ؟؟ فيجب الصدى بالكلمة الأخيرة « لا » فيصبحون فى حل من الصوم ويفطرون .

محمــد بن على السنوسى

هو محمد بن على بن السنوسى بن العربى بن حمو بن عبد القادر ابن محمد بن يوسف بن عبد الله بن خطاب ، الذى ينتهى نسبه الى ادريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط

---

(٨) نفس المرجع ص ٢٦ .

(٩) احمد حسين : فى صحراء ليبيا ص ٤٨ .

ابن على بن أبى طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ[١٠] وهـذا النسب يختصره السنوسيون ليصبح : محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الادريسى[١١] . وقد ولد فى ناحية الواسطة من بلدة مستغانم بالجزائر فى ١٢ ربيع الأول عام ١٢٠٢ هـ الموافق ٢٢ ديسمبر ١٧٨٧ م كما تؤكد أكثر المصادر التاريخية دقة .

وكان البيت الذى نشأ فيه صاحب الدعوة بيت علم ودين ، فوالده وجده وأعمامه وأبناء أعمامه وكثير من نسـاء هذا البيت الكريم مثل جدة السيد ــ صاحب الدعوة لأبيه السيدة الزهراء وعمته السيدة فاطمة، كانوا جميعا علماء[١٢] ومن ثم لا عجب أن نجد صاحب الدعوة منـذ طفولته يترعرع فى جو علمى فى مسقط رأسه ، ثم يستزيد من العلم بالانتقال الى جامع القرويين فى فاس الذى كان مركزا من مراكز العلم والعلماء فى ذلك الوقت ، فأقام به سـبع سنوات (١٨٢٢ ــ ١٨٢٩) طالبا للعلم ثم مدرسا ، وقد اهتم بالصوفية اهتماما أساسه اعتقاده بأن سبيل الاصلاح الأول هو ايجاد التفاهم بين جميع المهتمين بالاسلام أفرادا وجماعات على تباعد الأقطار والديار ، فدرس القادرية والشاذلية والناصرية والحبيبة[١٣] .

ومن فاس انتقل صاحب الدعـوة الى الجـزائر حيث خالط أهل القوافل من السودان الغربى وعاش بينهم جنوبى الجزائر معلما وموجها، ثم واصل تنقلاته الى تونس فطرابلس فبنى غازى فالقاهرة التى لم تطل اقامته بها أكثر من عدة أسابيع بارحها مغاضبا بسبب عدم الترحيب بأفكاره من قبل مشايخ وعلماء الأزهر الذين يسيطر عليهم وقتذاك والى مصر محمد على بعد أن مهدوا لولايته على مصر ، ولم يكن والى مصر

---

(١٠) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٢٠ .

(١١) محمد بن على السنوسى : الدرر السنية فى اخبار السلالة الادريسية .

(١٢) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ١١ .

(١٣) د. نقولا زيادة : المرجع السابق ص ٦٤ .

ليرحب « بالسنوسى » ، ولعل موقف علماء الأزهر منه موقف موعز به(١٤) .

ونتيجة لذلك سافر صاحب الدعوة الى الحجاز حيث بقى هناك حوالى ثمانى سنوات يدرس الفقه الاسلامى على يد علماء مكة والمدينة المنورة ، ويدرس احوال المسلمين الذين يفدون كل سنة للحج من مختلف الشعوب والأقطار ، ويقوم بنشر العلوم والمناظرة فيها ودراسة المذاهب الاسلامية ، كل ذلك فى الوقت الذى كان هناك عداء بين أشراف مكة والعثمانيين من ناحية وبين الوهابيين فى نجد من ناحية أخرى ، مما جعل موقفه حرجا فى دعوته الاصلاحية فترك الحجاز عام ١٨٤٠ م عائدا الى الجزائر عن طريق مصر (واحة سيوة) فبرقة وطرابلس ، ولكنه خشى الفرنسيين الذين احتلوا الجزائر منذ عام ١٨٣٠ م فعاد الى برقة حيث نزل بالجبل الأخضر ليتخذ منه مقرا لدعوته .

ومما تجدر ملاحظته أنه توفرت عوامل شكلت شخصية السيد محمد بن على السنوسى ، أولى هذه العوامل نشأته الدينية فى وسط أسرة زاخرة بالعلماء فى الدين ، وثانى هذه العوامل رحلاته المتعددة التى تنقل فيها بين مغرب الوطن العربى الى مشرقة التقى خلالها بأهل البلاد ودرس أحوالهم الاجتماعية والدينية ووقف على أسباب ضعف الاسلام فى نفوس العرب المسلمين ، وضعف البلاد العربية نتيجة لشدة حرص الأتراك على حكم العالم العربى واضطهاد العرب ومحو شخصيتهم ، والاستخفاف بالحقوق الاسلامية والاحتقار للجنسية العربية وقد جعلته رحلاته يدرك أن الدولة العثمانية العظيمة فى طريق الانحطاط والاضمحلال(١٥) .

وكان من هذا العوامل كذلك أولئك العلماء الذين احتك بهم فى رحلاته وتأثر بعلمهم أو نفر منهم ونفروا منه ، فعندما كان بفاس بالمغرب

---

(١٤) مصطفى بعيو : نفس المرجع ص ٢٤ .

(١٥) د. محمد فؤاد شكرى : نفس المرجع ص ١٧ .

التقى بعدة علماء على رأسهم الشيخ العربى بن أحمد الدرقاوى أحد مشايخ الطريقة الشاذلية ، ورغم ما لقيه من العلماء ومن طلاب العلم من تكريم فان سلطنة مراكش شددت فى مراقبته حتى لا تنقلب أفكاره الدينية الى أفكار سياسية تعصف بالسلطنة .

وعندما وصل صاحب الدعوة الى مصر اجتمع مع علماء من الأزهر كان من بينهم الشيخ حسن العطار والشيخ الأمير والشيخ الدماوى وغيرهم الذين رأوا فى أراء صاحب الدعوة خروجا عن المألوف وجرأة لم يعهدوها ، فانتهزوا فرصة تصديه لالقاء الدروس بالجامع الأزهر وانتقاده لحكومة الباشا فى القاهرة — محمد على وللحكومة العثمانية وطلبوا من طلاب العلم والمستمعين لآرائه الأبتعاد عن حلقاته لأنه يبتدع فى الدين ، ويتطرف فى آرائه .

وعندما زار مكة التقى بعدد من العلماء المسلمين على رأسهم الامام أبى العباس أحمد بن ادريس الفاسى مؤسس الطريقة الادريسية الذى ظل صاحب الطريقة ملازما له بمكة حتى توفى ابن ادريس الفاسى فى عام ١٨٣٥ م ودرس على يديه أصول الطريقة الشاذلية . ودرس التيجانية على ايدى أبى العباس التيجانى والطريقة القادرية[١٦] على يد الامام العرائشى ، ولكنه وجد تعنتا من أشراف مكة ومن العثمانيين فى الحجاز ، كما وجد أستاذه ابن ادريس الفاسى من قبل . وقد كان من زملاء صاحب الدعوة فى التتلمذ على يدى بن ادريس الفاسى بمكة السيد صالح الميرغنى السودانى الأصل ، فلما توفى الأستاذ تحمل

---

(١٦) تعتبر الطريقة القادرية من أوسع الطرائق الاسلامية انتشارا ، اسسها الولى الشهير عبد القادر الجيلانى فى القرن الثانى عشر — السادس الهجرى — وقبره فى بغداد . وقد دخلت الطريقة القادرية الى بلاد المغرب فى القرن الخامس عشر على ايدى مهاجرى واحة توات فى جنوب الجزائر ، والمعروف أن الزعيم العراقى رشيد عالى الكيلانى صاحب الثورة المعروفة فى العراق من احفاد مؤسس هذه الطريقة . مصطفى بعيو ص ٢٦ .

التلميذين أمانة الاستمرار فى الرسالة فوجــدت الطريقتان المعروفتان الطريقة الميرغنية بالسودان ، والطريقة السنوسية فى برقة •

وكان من العوامل المؤثرة فى تكوين شخصية صاحب الدعوة كذلك ظهور الأطماع الفرنسية فى بلاده الجزائر ، تلك الأطماع التى تحققت نتيجة ضعف الدولة العثمانية وعدم اتخاذها وسائل حماية الأقطــار العربية والاسلامية من خطر المد الاستعمارى ، ومن ثم رأى عــدم الاصطدام بالسلطات الفرنسية فى الجزائر حتى لا يعطيها الفرصــة للقضاء على حركته الاصلاحية فى مهدها ، ولكن أسس دعوته أظهرت تأثره بالعدوان الفرنسى على الجزائر ••

أسس الدعــوة السنوسية

يمكن أن نحدد أسس الدعوة السنوسية فى ثلاث : أساس دينى ، وأساس اجتماعى ، وأساس سياسى • وهذه الأسس اتضحت فى كتابات صاحب الدعوة سواء كانت كتبا مؤلفة أو رسائل الى القبائل والمريدين والاخوان •• ولقد تعددت كتب صاحب الدعــوة حتى بلغت أكثر من أربعين مؤلفا بقى بعضها وفقد البعض الآخر أثناء الاحتلال الايطالى لليبيا ، ومن أشهر هــذه المؤلفات : الدرر السنية فى أخبــار السلالة الادريسيــة ، وهو كتاب تاريخى يتناول فيه ملوك الأدارســة ودولهم بالمغرب : وكتاب • ريحانة الخبوب فى عمل السطوح والجيوب ، وهو كتاب فى الرياضيات وكتاب فى العلوم بعنوان المنهل الروى الرائق فى أسانيد العلوم وأصول الطرائق وكتاب بعنوان : السلسبيل المعين فى الطرائف الأربعين ، وهو كتاب تصوف يسرد حقائق عن أربعين طريقة صوفية ، ويؤكد أن الطرق الى الله كثيرة ولــكنها فى الحقيقة واحدة اذ مطلوب الكل واحد[١٧] •

كما ألف صاحب الدعوة كتب ومؤلفات أخرى دينية فى موضوعها مثل : المسائل العشر وبغية المقاصد فى خلاصة الراصد وكتاب : ايقاظ

---

(١٧) احمد الدجانى : احاديث عن تاريخ ليبيــا فى القرنين ١٨ ، ١٩ ص ٧٥ .

الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن ، ومقدمة لموطأ الامام مالك ، وغيرها من المؤلفات التى حوت افكاره وأسس دعوته الاصلاحيه ذات الثلاثة دعائم دينية واجتماعية وسياسية .

أولا : الأساس الدينى :

تمثل هذا الأساس فى الدعوة الى الرجوع بالدين الاسلامى الى ما كان عليه فى عهد الرسول ﷺ وخلفائه من بعده ، ولذلك كان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفه هما الأصلين اللذين يصح الاعتماد عليهما فى فهم الاسلام دون الاجماع والقياس المتأخرين[١٨] . وقد وضعت دعوته هذه فى كتبه ورسائله فمن ذلك ما جاء فى رسالة بعث بها الى أهل « واجنقة » قوله : اسألكم باسم الاسلام أن تطيعوا الله ورسوله ، فقد قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا رسوله ، ويقول كذلك ، من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » نسألكم أن تطيعوا أوامر الله ورسوله فتؤدون الصلوات الخمس كل يوم وتصومون شهر رمضان وتؤتون الزكاة وتؤدون فريضة الحج الى بيت الله الحرام ، وتجتنبون ما نهى الله عنه من قول الكذب والغيبة وابتزاز أموال الناس بغير حق ، وشرب الخمر ، وتأدية شهادة الزور وغير ذلك مما أمر الله باجتنابه ، فاذا فعلتم ما أمر الله به ورجعتم عما نهى عنه أسبل عليكم نعمة الاسلام ومنحكم الخير والرزق الدائمين[١٩] .

ولم تكن هذه الدعوة الاصلاحية بالرجوع بالاسلام الى ما كان عليه فى أيامه الأولى فقط ، بل قرن صاحب الدعوة بضرورة العمل بالقرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة قرن ذلك بعدم الاكتفاء بالأذكار والأوراد ــ كما تسير الطرق الصوفية ــ أو الاعتماد على مجرد التلاوة

---

(١٨) نقولا زيادة : نفس المرجع ص ٧٠ .

(١٩) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٥ ــ ٤٦ .

والذكر دون العمل الجدى ، ومراعاة أحكام الشريعة الاسلامية فى الأعمال الخاصة والعامة كما كان العهد فى أيام الرسول والخلفاء الراشدين من بعده[٢٠] .

ويؤكد ذلك أيضا ما حمله شيوخ السنوسية الى القبائل من وصايا صاحب الدعوة بتلاوة الذكر سرا وعلانية وأن تجعلوا اعتمادكم كله على الله تعالى وعلى كتابه الحكيم وسنة نبيه الكريم ، اذ يجب أن نتوجه دائما الى المولى عز وجل ونطلب منه تعالى العون والمؤازرة واخشوا الله دائما ولا تفعلوا الا ما أمر به وابتعدوا عما نهى عن فعله ، وعلموا كلمة الحق سبحانه وتعالى . ان رحمة الله واسعة ، وعند الله نعيم مقيم لا أول له ولا آخر[٢١] .

وواضح من هذه العبارات التى تستند اليها الدعوة السنوسية كأس دينى تطهير الاسلام من البدع والخرافات التى علقت به ، وذلك يتم بالعودة الى أصول الاسلام الاول والبعد عن الحركات المسموح بها فى الطرق الصوفية الأخرى كالغناء والرقص واظهار الكرامات والمعجزات أو الشطح والتمايل ، وأيضا الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كأصلين للدين الاسلامى ، الى جانب عدم الشرك بالله لأنه جلت قدرته الواحد الأحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ويتم ذلك بعدم التضرع الى الأولياء أو الشخوص الحجرية التى لا تنفع ولا تضر ولأن ذلك ينهى الله عنه .

وتضمن الأساس الدينى للطريقة السنوسية كذلك اعتبار باب الاجتهاد ما زال مفتوحا ومن ثم يجوز الاجتهاد فى مسائل الدين الاسلامى التى تواجه المسلمين بشرط أن يراعى المجتهد أصلى الدين الاسلامى الوحيدين وهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والأحكام التى نصا عليها واذا كان صاحب الطريقة قد اتفق مع ابن تيمية ومحمد بن

---

(٢٠) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٣٦ .

(٢١) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٦ .

عبد الوهاب فى فتح باب الاجتهاد . فقد كانت دعوة لها ما يبررها خاصة وقد تحجرت الأفكار عند علماء المسلمين بسبب اتجاههم نحو التقليد لا التجديد . وفى هذا المقام فقد دافع صاحب الطريقة عن المتصوفين الخالصين ومذهب التصوف الحق فذكر أنه : قد يسرى فى وهم من ليس له رسوخ قدم فى علم القوم أن أحوال الصوفية بعضها مباين لما عليه علماء الشريعة ، كما فاه فيه بعض الجهلة تغالبا أو تنقيصا ، فاعلم أن سبيل القوم رضى الله عنهم اتباع النبى ﷺ فى الجليل والحقير ، وكلما أزداد أحدهم أتباعا كلما ازداد كمالا لكون الكمال الكلى عندهم فى كمال الاتباع والا فليس منهم أو ناقص عندهم فان أعمالهم موزونة بميزان الشريعة فما رجح فيه قبلوه وما لا يرجح نبذوه[٢٢] .

ومن هذا المنطلق منع صاحب الدعوة كل أشكال المبالغة فى الحماسة الخاصة بالذكر كما هى العادة فى معظم الطرق الأخرى وقصر الذكر فى طريقته على اسم الجلالة ، وجعل لها ما يعرف « بالورد »، ومنع الاستعانة بالدفوف والمواكب والحركات العنيفة التى ترمى الى ازدياد حماسة الأشخاص فى الذكر بهز الأجسام بشكل خاص[٢٣] وبهذا وضع أساسا صحيحا للتصوف يبعده عن الابتذال ويقربه من العبادة . وكان ذلك نجاحا للدعوة السنوسية ليس فقط فى برقة ولكن أيضا فى الحجاز حيث توجد الطريقة الوهابية فى شبه الجزيرة العربية ، تلك الطريقة المعروفة بشدة موقفها من أصحاب الطرق الصوفية المختلفة .

ثانيا : الأساس الاجتماعى :

لم يكن الأساس الاجتماعى للدعوة السنوسية يبعد عن الأساس الدينى لها ذلك أن الأساس الاجتماعى يتمثل فى نشر فضائل الاسلام عن طريق الزوايا التى مارست دورا كبيرا بل الدور كله تقريبا فى نشر

---

(٢٢) احمد الدجانى : نفس المرجع ٨٧ — ٧٩ .

(٢٣) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٤١ .

الدعوة السنوسية ليس فقط فى برقة وغيرها من الأقطار العربية بل وأيضا نشر الدين الاسلامى بين شعوب غرب ووسط أفريقيا الوثنيين .

ويتضح الأساس الاجتماعى للدعوة السنوسية من كلمات صاحبها الى أهل واجنقة التى فيها : يا أهل واجنقة انا نريد أن ننشر السلام بينكم وبين الأعراب الذين يغيرون على بلادكم ويستعبدون أولادكم ويبتزون أموالكم ، وأننا بعملنا هذا نقوم بما أمر الله به فى كتابه العزيز حيث قال سبحانه وتعالى : وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما « ويقول سبحانه وتعالى : أعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم »[٢٤] .

كما أن الاساس الاجتماعى للدعوة تمثل فى عدم الاقتصار على العبادة والتصوف بل دفع المسلمين الى أن يكونوا عبادا عاملين منتجين فى الزوايا التى تضم الى جانب المسجد والمدرسة والمزرعة والمتجر : يقوم فيها المسلمون بالعمل فى شتى المجالات التى تحويها الزوايا ولعل خير ما يمثل هذه الروح التى أرادها صاحب الدعوة أن تكون روح الجميع هو أن بناء الزاوية نفسه كان يقوم به أهلها ، فالزاوية اذن منذ وضع حجرها الأساسى كانت رمزا للنشاط والانتاج[٢٥] .

وقد أمكن للدعوة السنوسية بفضل دعاتها وزواياها المنتشرة بين القبائل فى برقة أو غيرها من الأقطار العربية والأفريقية أن تؤاخى بين القبائل المتدابرة وأن تؤلف بينها وتعلمها كيف يكون الاخاء وكيف يكون الايثار ، حتى أصبحت كلمة « الأخوان » تعنى الوفاء والاخلاص وتذكرنا بالأخوة الاسلامية فى عهدها الأول[٢٦] . الى جانب تحويل المناطق المقفرة ومعاقل قطاع الطرق الى أماكن أمن يأوى اليها الناس

---

(٢٤) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢٥) د. نقولا زيادة : المرجع السابق ص ٧٠ .

(٢٦) جامعة السيد محمد بن على السنوسى الاسلامية ص ١٦ .

للاهتداء الى ســواء السبيل وحفظ القرآن الكريم ومدارسة العــلوم الدينية واللغوية .

وعلى هذا فان تأثير الدعــوة السنوسية على أهل برقة اتصــالا بالأساس الاجتماعى أن انقطعت الخلافات بين القبائل الضاربة فى أنحاء الاقليم وارتبطت فيما بينها برباط الدعوة السنوسية والاخوة الاسلامية، وانقطعت الاغارات على المضارب وأمن المسافرين فى الصــحراء من غزوات قطاع الطرق ونهبهم للأمتعة فانصرف الناس الى الانتاج الزراعى فى الزوايا والى الرعى فى المراعى المجاورة للزوايا ، وســارت قوافل التجارة فى أمان لخير الناس دون أن تتعرض لمــا كانت تتعرض له من قبل من مصاعب فى الوقت الذى تعددت فيه الزوايا بتعدد القبائل .

ثالثا : الأساس السياسى :

يقوم هذا الأساس على مبدأ أن الدين الاسلامى لم يفرق منذ ظهوره بين الدين والدولة فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو الزعيم الدينى والزعيم السياسى فى نفس الوقت ، وخلفه من بعــده الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية وبنى العباس ، وحتى سلاطين آل عثمان فى تركيــا جمعوا السلطتين الدينيــة والزمنية فأصبح السلطان العثمانى خليفة للمسلمين فى نفس الوقت ، وعلى هذا كانت الدعــوة السنوسية تستند الى مبدأ سياسى مع استنادها الى المبادىء الدينية والاجتماعية ، انطلاقا من أنه طالما كان الاسلام دينا وسياسة فانه منوط بصاحب الدعوة الذى يجمع بين الصفتين الدينيــة والسياسية تدبير شئون الدنيا للمسلمين الى جانب شئون الدين .

وعلى هذا كانت الدعوة السنوسية وسيلة لانشــاء الأمارة لأنها أوجدت بفضل النظام الدقيق الذى وضعته لاتباع الطريقة نوعا من السيادة الدينية ودنيوية معا على خير ما يقيمه الاسلام من أسس لذلك، حتى أصبحت السنوسية تسيطر على أفئدة المسلمين الذين بلغتهم هذه

---

(٢٧) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٥ .

الدعــوة[٢٧] ، عن طريق الشيوخ والأخــوان الذين يختارهم صاحب الطريقة ويعدهم اعدادا دينيا وسياسيا يؤهلهم لقيادة أهل القبيلة أو القبائل التى توجد الزاوية فى أرضها ، بالاضافة الى وضع تعليمات يسير عليهــا كل هؤلاء الشــيوخ فى الأشراف على الزوايا ، وربط الزوايا ؛ ببعضها البعض وبالزاوية الأم فى البيضاء أو الجنوب فيما بعد برباط محكم من المراسلات حتى يستمر اشراف صاحب الطريقــة ومتابعته لأعمال شيوخ الزوايا والاخوان فى أداء رسالتهم المتعددة دينية كانت أو سياسية أو تعليمية .

ومما يؤكد الاساس السياسى للدعوة السنوسية الى جانب التنظيم المحكم للزوايا دعوة صاحب الطريقة اتباعه بالاستعداد الحربى بتعليم الرماية واستخدام السلاح وركوب الخيل وعــدم الاكتفاء بتعليم أو ممارسة العبادات والشعائر الدينية لأن المؤمن القوى أفضل عند الله من المؤمن الضعيف ، ثم أن فرد من الأخوان ما دام قادرا وغير عاجز أو مشغول أن يكون مستعد للطوارىء متهيئا للحرب منتظرا للأمر منفذا له بكمال طاعته . ومن كان فقيرا فسلاحه وراحلته من الزوايا التابع لها أو من أغنياء الاخوان أنفسهم[٢٨] .

وكان تسليح الأخوان فى ليبيا دليلا على وضع الأساس المـادى للامارة السنوسية بوجود قــوة عسكرية جاهزة ومستعدة للدفاع عن الطريقة وللامارة ضد أعدائها سواء كانوا من القوى المحلية أوالخارجية ، ولقد أثبت هؤلاء الأخوان وجودهم فى مواجهة الغزو الايطالى الليبيــا أوائل القرن العشرين . كما أثبتوا وجودهم أيضا فى صد التقدم الفرنسى من وسط القارة الأفريقية نحو الحدود الجنوبية الليبيــا .

كما استندت دعوة الأفارقة للاستعداد الحربى كذلك الى اقتنــاع صاحب الدعــوة بأن الاستعماريين الأوربيين لن يوقف أطماعهم سوى قوة أهل الأقطار الافريقية واستعدادهم للدفاع عن بلادهم ضد هذه الأطماع الاستعمارية ، وان كان لم يلجأ الى اثارة الاضطرابات ضد

---

(٢٨) نفس المرجع ص ٥٢ .

القوى المسيحية فانه ما كان يضمن نجاح الثورات ولما لم يتهيأ الناس ويستعدوا للقيام بها ، ومن ثم سارت دعوته للاستعداد الحربى سواء فى ليبيا أو الأقطار الأفريقية المجاورة بهدوء ودون أن تثير الشكوك من قبل الدول الأوروبية الاستعمارية ومن قبل تركيا ذاتها .

ولعل اعتراف الدولة العثمانية صاحبة السيادة على ليبيا بزعامة صاحب الدعوة السنوسية وامارته ثم الاعتراف بزعامة وامارة خلفائه دليلا على قوة الأساس السياسى للدعوة السنوسية . ولم يكن هذا الاعتراف العثمانى غريبا لأن صاحب الدعوة حرص على اقامة العلاقات الطيبة مع الدولة العثمانية وعدم اثارة شكوكها فى تحركاته وتعليماته لشيوخ زواياه والأخوان من أتباعه بما أكد قوة صاحب الدعوة ونفوذه على القبائل التى فشل الحكم العثمانى فى اخضاعها ، وما دام صاحب الدعوة يعترف بالسيادة العثمانية فلم يكن اعتراف الدولة العثمانية بالامارة السنوسية أمرا غريبا أو منافيا لمصلحة الدولة(٢٩) .

وأخيرا فان وصية صاحب الدعوة باسناد رئاسة الطريقة والأمارة الى الأكبر الارشد من الاسرة السنوسية ، بالاضافة الى اتباع نظام البيعة الاسلامى .. كل ذلك دليل حى وعملى على تأكيد الجانب السياسى للدعوة السنوسية . ذلك أن صاحب الدعوة عمل فى حياته على تقديم ابنه الأكبر « السيد محمد المهدى » للصلاة وألبسه السيف وخلع عليه عباءة « جردا » وصافحه دليلا على المبايعة ومن ثم تقدم كل الحاضرين من أفراد الأسرة السنوسية ومن الاخوان الى مصافحة « مبايعة » السيد محمد المهدى .. فكانت تلك المبايعة قبولا منهم فى حياة صاحب الدعوة نفسه . وبذلك جمعت السنوسية فى نظام الحكم بين مبدأ الوراثة الصلبية والعمل بمبدأ الشورى ، وحققت فى هذا بعض شروط الامامة(٣٠) .

---

(٢٩) د. محمد فؤاد شكرى : نفس المرجع ص ٥١ .

(٣٠) نفس المرجع ص ٥٥ .

أسـلوب الدعـوة

تميزت الدعوة السنوسية بأسـلوب انفردت به فى نشر مبادئها الدينية والاجتماعية والسياسية ، ومن ثم كانت فرص النجاح أمامها أكثر من غيرها من حركات الاصلاح السلفية الأخرى تمثل ذلك الأسلوب فى التدرج والمسالمة واللين من ناحية وابتداع اداة لتحقيق تلك المبادىء تحقيقا عمليا وأعنى بها نظام الزوايا من ناحية أخرى •

أولا : أسـلوب التـدرج :

أما أسلوب التدرج والمسالمة واللين فيتضح من كتب صاحب الدعوة ورسائله ، فمن ذلك ما جاء فى رسالة الى العلامة ابن الشفيع خليفته بزاوية المدينة المنورة حيث قال •• وحسنوا أخلاقكم ولينوا جانبكم للكبير والصغير ، قال تعالى « وقولوا للناس حسنا » وقال جل وعلا « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » وقال ﷺ : ارفقوا فان الرفق ما كان فى شىء الا زانه وأن الحمق ما كان فى شىء الا شأنه ، وارفعوا همتكم عن الخلق • وقال ﷺ : ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس • عليكم بالمناصحة والمذاكرة وارشاد عباد الله اليه والمدارسة والاجتماع والتحابب والتوادد فيما بينكم ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا وعلى البر أعوانا(٣١) •

وهذه الدعوة السلمية التى نأت بالسنوسية عن الدخول فى صراع مع القبائل من ناحية ، ومع الدولة العثمانية صاحبة السيادة على القطر الليبى من ناحية ثانية جعلها تختلف عن دعوة كل من العلامة ابن تيمية والامام محمد بن عبد الوهاب ، فبينما اشتد ابن تيمية فى طلب تحقيق

---

(٣١) جامعة السيد محمد بن على السنوسى الاسلامية . من رسالة ١٢ ربيع الأول ١٢٦٤ هـ .

أفكاره — دون أن تكون له قوة تسانده حتى حورب من القوى المختلفة ، قسا الامام محمد بن عبد الوهاب — مستندا الى قوة آل سعود وتأييدهم له — فى تطبيق أفكاره الاصلاحية بل اصطدم بالقبائل والحكام العثمانيين . هذا فى الوقت الذى على الرغم من اشتراك السنوسية مع أفكار كل من ابن تيمية وابن عبد الوهاب فى عوامل واحدة فقد آثرت السنوسية ضمانا لنجاح دعوتها المهادنة واستخدام أسلوب الاقناع .

ثانيا : الزاوية : (أ) فكرة الزاوية :

وأما الأداة التى استخدمها صاحب الدعوة كأسلوب سلمى وعملى فى نفس الوقت لنشر دعوته بين الناس فكان ما عرف باسم « الزاوية » ولم يكن اسم الزاوية من ابتداع صاحب الطريقة السنوسية ، فلقد سبقته الطرق الصوفية الأخرى الى استخدام هذا الاسم رمزا لمكان يختلى فيه أتباع الطريقة والقائمون عليها بأنفسهم ويتقربون الى الله بالعبادة ليلا ونهارا منقطعين عن الناس وعن الحياة مكتفين بكفالة مسبب الأسباب (الله) لهم أى بما يرسله الله لهم من رزق على يد رجال القوافل الذين يضربون فى الطرق الصحراوية وينزلون بهذه الزوايا التى غالبا ما كانت مواقعها فى أماكن خلوية بعيدا عن العمران ، أو ما يوقف على الزاوية من أوقاف يحبسها مشايخ القبائل المجاورة للزاوية تقربا الى علمائها المشرفين على طريقتها الصوفية .

ولكن الزوايا السنوسية أختلفت عن غيرها من الزوايا الصوفية الأخرى من حيث الشكل والمضمون أى من حيث مواقعها وبنائها ، ومن حيث تنظيمها ورسالتها الى جانب انتشارها خارج برقة وبدء هذا الانتشار . فكانت زاوية أبى قبيس بمكة المكرمة أولى الزوايا السنوسية على الاطلاق قد تم تأسيسها عام ١٢٥٢ هـ الموافق ١٨٣٧ م ، وكانت الزاوية البيضاء — فى برقة — أول مركز رئيسى للدعوة السنوسية فى ليبيا وأنشئت عام ١٢٥٨ هـ[٣٢] الموافق ١٨٤٣ م ثم سرعان ما انتشرت

---

(٣٢) محمد الطيب الأشهب : السنوسى الكبير ص ٣٣ .

الزوايا فى أنحاء العالم الاسلامى فنجد أن مؤسس الدعوة محمد بن على السنوسى قد انتقل الى جوار ربه تاركا ٦ زوايا بالحجاز بمكة والمدينة المنورة وجدة والطائف ومنى وبدر • و ٩ زوايا بمصر فى واحات صحراء مصر الغربية ، و١٤ زاوية فى برقة مركزها الزاوية البيضاء بالجبل الأخضر أولا ثم زاوية الجغبوب بعد ذلك و ٧ زوايا باقليم طرابلس • و ٥ زوايا بأقليم فزان ، وزاوية واحدة بتونس • وأضاف الى هذا العدد السيد محمد المهدى ابن صاحب الدعوة خليفته زوايا أخرى منها ٧ زوايا بالحجاز ، ١١ زاوية بمصر ، ٣٣ زاوية بأقليم برقة ، و ٥ زوايا بأقليم طرابلس وزاوية واحدة بفزان ، وزاوية واحدة بالجزائر ، و ٥ زوايا فى تشاد ، وزاوية واحدة بالسودان ، وزاوية واحدة فى نيجيريا •

وواضح من هذا الانتشار أن الدعوة اقتصرت فى بدء عهدها على الأقطار العربية فى المشرق أو المغرب ، ولكنها ما لبثت أن امتدت الى الأقطار الأفريقية المجاورة ، كما أن ازدياد عددها بصورة واضحة فى عهد السيد محمد المهدى دليل على تقبل الناس للدعوة واسهامهم فى بناء الزوايا فى كل مكان تصل اليه الدعوة • كما أن رئاسة هذه الزوايا وجدت حيث يوجد صاحب الدعوة فقد انتقلت الرئاسة من مكة بانتقاله الى الزاوية البيضاء فى برقة ثم الى زاوية الجغبوب وكان هذا الانتقال فى عهد السيد محمد بن على السنوسى ، ثم انتقلت الرئاسة الى زاوية الكفرة فى عهد خليفته ومن جاء بعده عندما اصطدمت الدعوة بقوى الاستعمار الغربى جنوبا — مع فرنسا — وشمالا مع ايطاليا •

(ب) مواقع الزوايا :

وأما مواقع هذه الزوايا فقد تميزت بصفات سياسية وتجارية واستراتيجية • فمن الناحية السياسة نجد الزوايا تنتشر فى الدواخل أكثر من انتشارها فى السواحل ، وذلك راجع الى السيادة العثمانية التى كانت اكثر ما تكون نفوذا فى المدن الساحلية بعكس ما كانت عليه

الحال بين القبائل البدوية وسكان الواحات حيث كانوا لا يعرفون للسلطة العثمانية أى وجود[٣٣] • وعلى هـذا اختار صاحب الدعـوة المناطق الصحراوية الداخلية ليقيم فيها الزوايا تحاشيا لأى صـدام يقع بين السنوسيين والعثمانيين ، وبعدا عن تتبع العثمانيين لنشاطه •

وفى هذا المقام حرص صاحب الدعوة على توضيح الغرض الدينى من بناء الزوايا لسلطات الحـكم العثمانى فى ليبيـا ، فوجدناه يذكر لمصطفى باشا حاكم فزان عند بناء زاوية هناك : أن الزاوية فى الحقيقة انما هى بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده ، والزاوية اذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمـة ، وتعمر بها البلاد ويحصل بهـا النفع لأهل الحاضرة والبادية لأنها ما أسست الا لقراءة القرآن ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان[٣٤] • وأوضح نفس الغرض الدينى للزاوية للمشير محمد أمين باشا والى طرابلس الغرب العثمانى فقال : وأما نحن فقد ألفنا من اعتدناه ورضيت به نفوسنا فنريد بذلك أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة ، ليحصل المقصود منها ويدوم من تعلم العلم وتعليمه واقراء القرآن وتفهيمه ، واقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها[٣٥] •

والى جانب الأهمية السياسية لمواقع الزوايا فقد كانت لهذه المواقع أهمية تجارية واقتصادية بصفة عامة ، فقد أقيمت معظم الزوايا فى طريق تجارة القوافل ، وكان هناك ثلاثة طرق رئيسـية فى الأراضى الليبية الطريق الأول للقوافل يتجه جنوبا من الساحل الليبى عبر واحة فزان الى بحيرة تشاد ، والطريق الثـانى ينعطف جنوبا غربا عبر غدامس وغات الى تمبكتو الأسطورية ، والطريق الثالث يسير جنوبا شرقا عبر واحة الجغـرة ثم سواكن وزيلا الى واداى ودارفور الغنى بخصبه وثرواته[٣٦] •

---

(٣٣) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣٤) محمد الطيب الأشهب : المرجع السابق ص ٢٤ .

(٣٥) نفس المرجع ص ٢٥ .

(٣٦) ريتشارد توللى : عشر سنوات فى بلاط طرابلس ص ٨ .

والمتتبع لمواقع هذه الزوايا فى الأراضى الليبية مثلا يلاحظ ارتباطها بطرق قوافل التجارة مما جعل صاحب الدعوة يستخدم زواياه والقبائل التى توجد الزوايا فى أراضيها لاستغلال التجارة وتنشيطها مما كان له أثر كبير غير مباشر فى ازدياد ثروة البلاد الاقتصادية بما لعبته الزوايا من دور كبير فى تشجيع تجارة القوافل التى كانت تعتبر حتى بداية القرن العشرين موردا هاما فى حياة البلاد الاقتصادية[٣٧] زد على ذلك الاهتمام بالزراعة الذى حث اليه صاحب الدعوة أهل القبيلة أو القبائل الواقعة فى أراضها الزاوية أو الزوايا .

ولا تقل الأهمية الاستراتيجية لمواقع الزوايا عن الأهميتين السياسية والاقتصادية فقد وجدنا معظم الزوايا تقام على مناطق مرتفعة حصينة حتى يمكن للأخوان السنوسيين الدفاع عنها ضد المغيرين من الداخل أو الأعداء من الخارج ومن ثم رأينا الكثير من الزوايا يقام على أنقاض الأطلال الأغريقية والرومانية أو على مقربة منها حتى يمكن الاستفادة من أحجارها فى عملية البناء . وبعبارة أخرى أقيمت الزوايا حيث وجد الأغريق والرومان فيما مضى والأتراك فيما بعد من الضرورى بنـاء محطات وقرى لتثبيت سيادتهم بصد الهجمات التى تقوم بها القبائل المتوغلة فى الصحراء ، وبالمثل استعان الايطاليون فيما بعد بهذه المراكز لتثبيت حكمهم فى البلاد باتخاذها مراكز لحركتهم الاستعمارية التوطنية[٣٨] ولعل كل ذلك دليل على الأهمية الاستراتيجية التى أولاها صاحب الطريقة عنايته فى اختيار مواقع الزوايا .

هذا الى جانب أن صاحب الدعوة أتبع فى انشاء الزوايا نظاما خاصا يدل على الأهمية الاستراتيجية للمواقع التى اختارها للزوايا ، فبدأ من مواقع على شاطىء البحر المتوسط وبنى بهذه المواقع الحصينة زوايا تبعد كل زاوية عن التى تجاورها مسافة ست ساعات ، ثم أنشأ

---

(٣٧) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٦٠ .

(٣٨) نفس المرجع ص ٥٨ .

خلفها جميعا زوايا مقابلة لها تبعد كل منها عن الأخرى المسافة نفسها ، حتى اذا هوجمت الزوايا الأمامية التى بالشاطىء استطاع الأخوان وأهل الزاوية أن ينتقلوا بسهولة الى الزوايا الخلفية[٣٩] وبمعنى آخر أنه أقام من الزوايا خطوط دفاع متتالية يساند الخط الثانى الخط الأول ، ويساند الخط الثالث الخط الثانى ، وهكذا •• وكل هذا تم دون أن يثير صاحب الدعوة ثائرة أو شكوك سلطات الحكم العثمانى •

(ج) بنـــاء الزوايا :

وأما بناء الزاوية فقد كان يتم فى الغالب بناء على طلب احدى القبائل التى ترى قيام زاوية فى أرض قبيلة مجاورة ، فترسل القبيلة الراغبة فى اقامة زاوية فى أراضيها الى صاحب الدعوة برسول يحمل رغبة أهل القبيلة ويرحب صاحب الدعوة بهذه الرغبة وأمثالها ويرسل الى القبيلة شيخا يختاره من بين رجاله المتعلمين المحيطين به ومعه بعض الرفقاء لمساعدته فى الأشراف على عملية البناء التى يقوم بها رجال القبيلة أنفسهم فى الموقـــع الذى يحقق أهداف الدعــوة سياسيا واقتصاديا واستراتيجيا •

ومن الطبيعى أن يستغرق البناء وقتا يطول أكثر من العام ومن ثم يهتم الشيخ ورجال القبيلة ببناء المسجد أولا ثم دارا لأقامة الشيخ وأسرته ، ويتبع ذلك استكمال بقية البناء لتشمل الزاوية فى النهاية بيوتا لوكيل الزاوية ومعلم الأطفال ومساكن للضيوف والخدم ومخزنا لحفظ المؤن واصطبل وبستان ومتجر على الأقل وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا عائل ولا مأوى لهم ، وفرن لسد حاجة السكان بالخبز[٤٠] بالاضافة الى المبانى الأخرى التى تلزم تطور الزاوية فى أداء رسالتها والمبانى التى يقيمها المقتدرون من أهل القبيلة والمهاجرون الى الزواية •

ومما تجب ملاحظته أن بناء الزوايا ـــ وبصفة خاصة فى برقة ـــ قد ازداد التنافس حوله بين القبائل البرقاوية • بل بين بطون وأفخاذ

---

(٣٩) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٢٢ .

(٤٠) محمد الطيب الأشهب : المرجع السابق ص ٢٨ .

القبيلة الواحدة ، ومن ثم سارع الجميع الى المساهمة فى البناء بالتبرع بالأرض التى يتم اختيارها موقعا لبناء الزاوية . والقيام بعملية البناء نفسها ، بل وحبس الأوقاف على الزوايا للصرف على شئونها هذا الى جانب الخضوع الكامل لتعاليمها وتنظيماتها .

وأما تنظيم الزاوية فقد وضعه صاحب الطريقة بأسلوب عملى لكى تؤدى الزاوية رسالتها على الوجه الصحيح ولتحديد المسئوليات ، فعلى رأس كل زاوية مقدم (الشيخ) وفوق المقدم — أى بعده — وكيل ووظيفته كوظيفة الحاكم المدنى وكلا المقدم والوكيل ذو سلطة كبيرة على أهل الزاوية جميعا والقبيلة كافة فالأمر الذى يصدره أحدهما مقرونا باسم السيد السنوسى انما هو أمر واجب الطاعة على الجميع[٤١] .

وشيخ الزاوية أو مقدمها يعينه صاحب الدعوة بنفسه فى ضوء رغبة أهل القبيلة باعتباره صاحب الحل والعقد فى الزاوية فهو الذى يشرف على التعليم وهو الذى يحل الخصومات وهو الذى يحفظ النظام وهو الذى يعنى بالقوافل ، وقد يطلب منه تنظيم الدفاع عن الزاوية فى حالة الأعتداء لذلك كان مركزه هاما وكان يجب أن يتمتع باحترام الجميع ليتمكن من القيام بهذه المهمات ، ويضطلع بأعباء المسئوليات الجسام[٤٢] بينما يشرف الوكيل على دخل الزاوية وأوجه الصرف عليها وغير ذلك من الأمور المدنية .

وقد حددت التعليمات الصادرة من صاحب الدعوة نظام الزوايا من بدء بنائها الى أداء رسالة كل مسئول فيها ، فتذكر هذه التعليمات أن أرض الزاوية تعتبر وقفا والمساحة المتفق عليها من جهاتها الأربعة ، وأن تتحمل القبائل تكاليف أبنية الزوايا ، وأن يحترم أهل القبائل الحرم المتفق على تخطيطه حول الزاوية بحيث لا يجوز العبث فيه أو المساس

---

(٤١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٩٨ .

(٤٢) د. نقولا زيادة : برقة الدولة العربية الثامنة ص ٧١ .

بمن يستجير به ، وأن تتحمل القبيلة نفقات كسوة شيخ الزاوية وثمن سلاحه وفرسه ونفقات زواجه ، وأن ينوب شيخ الزاوية عن صاحب الدعوة فى تعيين من يحتاجه العمل فى الزاوية ، وأن يحتفظ من واردات الزاوية بما يكفى للصرف على مشروعات ونشاط الزاوية ويرسل الباقى الى الزاوية الأم حيث يوجد صاحب الدعوة ، وأن تحدد الحدود بين أرض كل زاوية والزاوية المجاورة ، وأن يجتمع شيوخ الزوايا سنويا (كلهم أو بعضهم) اذا ما رأوا وجوب ذلك ، وعليهم أن يتشاوروا فى تحديد موعد الاجتماع ومكانه ان لم يكن أحد شيوخ الزوايا هو الداعى لعقد الاجتماع[٤٣] أو اذا لم يكن صاحب الدعوة نفسه هو الذى قرر مكان وزمان هذا الاجتماع .

(د) وظائف الزوايا :

وأما رسالة الزاوية فهى متعددة النواحى .. ذلك أن الزاوية مارست وظيفة دينية وتعليمية واجتماعية واقتصادية وعسكرية فى المجتمع الذى وجدت فيه ، فى عهد مؤسس الدعوة وخلفائه من بعده ، فأما الرسالة الدينية فاستحوذت على اهتمام الزاوية الأول وتمثلت فى التنفيذ العملى لأحكام الاسلام ومبادئه بالحكم الشرعى بين المواطنين والتربية الدينية والخلقية للمريدين والأخوان واعداد الدعاة والمواطنين[٤٤] ، هذا الى جانب الدعوة الى التزام الفضائل وتجنب الرذائل والقدوة الحسنة التى وجدها الناس فى صاحب الدعوة وأتباعها المشرفين على الزوايا بالاضافة الى نشر الرسالة المحمدية السامية ، وحمل هذه الرسالة على وجه الخصوص الى الشعوب الوثنية (الزنوج) فى قلب أفريقية الغربية والسودان والصحراء الكبرى حتى اهتدت هذه القبائل المتوحشة البدوية الى الاسلام طائعة مختارة[٤٥] .

ومما كان له أثره فى ذيوع رسالة الزاوية الدينية أن صاحب الدعوة

---

(٤٣) محمد الطيب الاشهب : المرجع السابق ص ٢١ .

(٤٤) التعليم الدينى فى ليبيا ص ١٢ .

(٤٥) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٥٠ .

لم تكن له تعليمات خاصة أو آراء شخصية فى الفقه أو فى تفسير القواعد الاسلامية ، بل كان أكبر همه تنفيذ المسلمين للقواعد التى نص عليها الدين الاسلامى لا الأكثار من هذه القواعد ، والشىء الوحيد الذى أضافه الى العبادات الدينية دعاء وضعه ورردده السنوسيون بعد ذلك وهو « حزب » على نحو الأحزاب المعروفة بين طوائف الطرق الصوفية ، وليس فيه ما يناقض تعاليم أئمة الفقه السابقين أو يزيد عما نزل به القرآن(٤٦) . وبذلك نجد أن الزوايا خدمت الدين الاسلامى خدمة جليلة بتنقيته مما علق به على يد غلاة المتصوفين من بدع وتعاليم تبعده عن أصوله المحكمة وبساطته الأولى ، كما خدمت الاسلام بنشره بين الوثنيين فى أفريقيا وهدايتهم الى أحكام الاسلام فى صورته الحقيقية الأصلية .

ولقد أدت الزاوية دورا تعليميا كبيرا ، فقد كانت ــ كما يذكر بريتشارد(٤٧) أشبه بالمراكز الثقافية التى تنتشر فى العصر الحاضر فى أنحاء الدول . وكانت الزاوية تشمل مدرسة قرآنية لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ومبادىء الدين الاسلامى واللغة العربية ، ومن يمتاز من الأطفال يلتحق بالزاوية الأم سواء كانت البيضاء أو الجغبوب التى صارت مناخ العلوم ومنبع القرآن العظيم ، والتى حوت مكتبتها على ثمانية آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية(٤٨) .

وكانت مواد الدراسة بالزاوية تشمل جميع العلوم الاسلامية من تفسير وحديث وفقه وأصول الفقه والفرائض والتصوف والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة والأدب وغيرها ، كما كان طلاب العلم يتدربون على اتقان بعض الحرف والصناعات مثل صناعة البارود

---

(٤٦) احمد حسنين : فى صحراء ليبيا ص ٥٢ .

(٤٧) E.E. Evans Pritchard, The Sanusi of Cyrenaica, p. 79.

(٤٨) رحلة الحشائشى الى ليبيا ص ١٥١ .

والأسلحة[٤٩] وكانت زاوية الجغبوب بمثابة المعهد الأعلى الذى يقوم بالتدريس فيه صاحب الدعوة بنفسه وغيره من كبار العلماء ، وكان صاحب الدعوة يطمع فى أن يصل بهذا المعهد الى مستوى الجامع الأزهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس بالمغرب الأقصى .

ولقد حافظت الزوايا على التراث الثقافى العربى الاسلامى فى ليبيا أثناء الاحتلال الايطالى ، بل قبل هذا الاحتلال عندما لم تكن هناك مدارس حكومية فى البلاد ، اذ كانت الثقافة الشعبية كلها مستمدة من هذه المدارس القرآنية الملحقة بمبنى الزاوية ، وتتضح قيمة رسالتها الثقافية أيضا اذا عرفنا أنها كانت بمثابة المدارس التى تقوم الآن بفتحها الحكومات الحالية دون أن تكلف من يلتحق بها شيئا من النفقات بل كثيرا ما كان يستعين بعضهم بما تقدمه له الزاوية من معونة لمقابلة تكاليف الحياة[٥٠] .

وانطلاقا من كون الزوايا خلايا حية نشطة منتجة فقد أدت دورا اجتماعيا كبيرا بما ضمنته للقبائل من أمن وطمأنينة بعد التوفيق والمصالحة بين القبائل ، وبما أشاعته بين القبائل من استقرار ، اذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها ، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة الى ذلك ، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعا من حياة الاستقرار والاقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلا[٥١] هذا الى جانب تساوى الجميع فى الواجبات مع تساويهم فى الحقوق فكل طالب علم فى الزاوية عليه أن يؤدى ما أنيط به من عمل مساء يومى الخميس والاثنين — ويوم الجمعة راحة — ويستوى فى ذلك الصغير والكبير ، والغنى والفقير ، اذ ليس هناك نظام الطبقات

---

(٤٩) التعليم الدينى فى ليبيا ص ١٢ .

(٥٠) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٦٠ .

(٥١) نفس المرجع ص ٦٢ .

المفرق عادة بين صفوف الأمة[٥٢] فالكل يخضع لتقسيم أيام الأسبوع بين طلب العلم والعمل والراحة .

وأما الرسالة الاقتصادية للزاوية فقد تمثلت فى تشجيع التجارة والزراعة بين القبائل فاستقرار الأمن فى البلاد ساعد على نشاط حركة التجارة ، وعمرت الطرق بالقوافل المحملة بالمواد والسلع التجارية ، هذا الى ما كانت تقدمه الزوايا من مساعدات وتسهيلات لاراحة المسافرين مع التجارة مما شجع على التبادل التجارى بين منتجات الزاوية وبين ما تحمله القوافل من سلع لا تتوفر فى أرض الزاوية .

كما شجع صاحب الدعوة على الزراعة فى أرض الزوايا ، ومن المأثور عن السيد المهدى أنه فى اهتمامه بالتعمير والغرس أنه كان يقول للاخوان والمريدين الذين كانوا يطلبون اليه أن يعلمهم الكيمياء : ان هذه — أى الكيمياء — تحت سكة المحراث ، وأنها هى كد اليمين وعرق الجبين ، بل كان مع العاملين فى الزراعة والحرف ويقول يظن أهل الاوريقات والسبيحات (أى العابدين والقانتين) أنهم يسبقوننا عند الله ، لا والله ما يسبقوننا[٥٣] .

وكانت رسالة الزاوية العسكرية واضحة منذ أن استقر نظام الزوايا فى ليبيا ، حيث رأينا الزوايا تبنى فى أماكن مرتفعة ، والناس فيها يتعلمون صناعة السلاح والفروسية والرماية ، وذلك استعدادا للوقوف ضد المعتدين ، ولقد نجحت الزوايا بالفعل فى مواجهة الغزو الفرنسى المتقدم وسط أفريقيا وفى الكفاح ضد الاحتلال الايطالى لليبيا ، ولولا استعداد الزوايا العسكرى لما صمدت برقة فى الكفاح ضد الايطاليين أكثر من عشرين سنة .

وجدير بالذكر أنه ما كان للزوايا أن تؤدى رسالتها المتعددة

(٥٢) محمد الطيب الاشهب : المرجع السابق ص ٥٠ .

(٥٣) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٥٩ .

الجوانب بنجاح لولا الرجال الذين تعهدوا بأداء هذه الرسالة ونشرها ، وهؤلاء الرجال ينقسمون الى قسمين : المنتسبين الذين يمثلون الأكثرية الساحقة من السنوسيين ، والأخوان أو المريدين وهم يعيشون فى الزوايا نفسها ، ويأتى بعد ذلك شيوخ الزوايا وهم الذين تلقوا العلم وتبحروا فيه فعهـد اليهم بعـد تخرجهم من مدرسة الجغبوب الأشراف على الزوايا[٥٤] ، وكان هناك مجلس خاص حول صاحب الدعوة عرف باسم « مجلس الاخوان » اعتمد عليـه السيد السنوسى الكبير فى حـركته الاصلاحية يأخذ رأيه والتشاور مع أفراده بعد أن أحسن اختيارهم فكانوا خير مخلصين له ولدعوته[٥٥] .

أى أن هؤلاء الاخوان كانوا ينقسمون الى أربعة أقسام من حيث مكانتهم العلمية والاجتماعية ، ومع ذلك فكلهم متحدون قلبـا وقالبا على حسـب شيخهم يرونه هو عمدتهم فى الطريق الموصـل الى الله ورسوله[٥٦] . هذه الأقسام هى : طبقة العلماء التى يتكون منها مجلس الاخوان وطبقة العلماء التى تقوم بالقاء الدروس فى المعهد الجغبوبى ، وطبقة مشايخ الزوايا ، والطبقة الاحتياطية وهى التى تتكون عادة من صغار خريجى المعهد السنوسى ومن حفظة القرآن ومن مهاجرى البلاد الاسلامية ، وممن يتجردون عن أعمالهم الخاصة للالتحاق بخدمة صاحب الدعوة[٥٧] . وجميع أفراد هذه الطبقات يطلق عليهم لفظة الأخوان وهى تعنى كل انسان أخذ الطريقة السنوسية وتمسك بوردها وتسمى هاته الطريقة بالطريقة المحمدية كما عرفها بذلك الشيخ نفسـه فى تأليفه المسمى « السلسبيل المعين فى ذكر الطرائق الأربعين » فيقال فيما بينهم فلان من الأخوان يعنى سنوسى الطريقة ، هكذا فى عرفهم[٥٨] .

---

(٥٤) د. نقولا زيادة : ليبيا ص ٧٥ .

(٥٥) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٦٤ .

(٥٦) رحلة الحشائشى : ص ١٧٥ .

(٥٧) محمد الطيب الاشهب : عمر المختار ص ٣٥ .

(٥٨) رحلة الحشائشى : ص ١٧٤ .

علاقة السنوسية بالدولة العثمانية

لعل أول صلة لصاحب الدعوة بالدولة العثمانية نشأت عندما تفتح عقله للتفكير فى أحوال العالم الاسلامى الخاضع للعثمانيين ، سواء وهو فى الجزائر أو عندما مر بمصر ثم فى الحجاز وحتى وصل الى برقة .. وقد أدرك أن الدولة العثمانية فى طريقها الى الانحلال والتدهور خاصة بعد أن عجزت عن مقاومة الغزو الفرنسى لبلاده الجزائر عام ١٨٣٠ م وبهذا أخذ عليها تقصيرها فى دفع الأذى عن أحد الأقطار الاسلامية ، واخفاقها فى الاضطلاع بالمسئولية الملقاة على عاتقها كدولة الخلافة والامامة العظمى ، وبسبب ما جرته على نفسها من ضعف وعجز فهى مسئولة أيضا عن تمكين العناصر التركية من الغلبة على شعوبها العربية واقامة الحكومة الاستبدادية فى بلاد هذه الشعوب(٥٩) .

ورغم انتقاد صاحب الدعوة للدولة العثمانية بسبب سياستها نحو الأقطار العربية ، ورغم أنه صرح أنه يجب أن تكون الخلافة الاسلامية فى يد شريف قرشى – عربى من قريش ينتسب الى بيت الرسول مثله – الا أنه أدرك أنه من الخطأ مناصبتها العداء أو الخروج عليها ، حتى لا يدخل فى صراع معها تؤثر على دعوته كما حدث للحركة الوهابية فى نجد ، ومن ثم رأيناه يتوغل فى الصحراء الليبية ليكون بعيدا عن المناطق الساحلية التى يحكم العثمانيون السيطرة عليها . ولم يبد من السيد السنوسى الكبير – صاحب الدعوة – من الأعمال والشعور ما يجعله عرضة للمؤاخذة ، بل عمل على المحافظة على اظهار الولاء للخلافة العثمانية وسلطانها فى كل المناسبات والظروف(٦٠) .

---

(٥٩) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ١٧ .

(٦٠) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٦٩ .

وانطلاقا من هذا ضمن صاحب الدعوة للدولة العثمانية استقرار الأمور بين القبائل التى تنتشر بينها زواياه ، بل وضمن الحكم العثمانى المتمركز فى السواحل والمدن الليبية تحصيل الضرائب والقضاء بين الناس فى الصحارى الليبية ومن ثم كانت علاقة القبائل بالسنوسية لا بالدولة العثمانية وكان ذلك فى مصلحة البلاد ، فتأمين الضرائب كان يحول دون الحكومة العثمانية ومحاولة فرض سلطانها الأمر الذى كان من الممكن أن يؤدى الى ثورات كثيرة مسلحة واصطدام بين الحاكم والمحكوم ، كانت البلاد فى غنى عنه(٦١) ، وقد ساعد على حسن العلاقة بين السنوسية والدولة العثمانية استمرار المراسلات بين صاحب الدعـوة والسلطان العثمانى ، فجاءت رسل السلطان الى محمـد ابن على السنوسى فى الجغبوب ، والى السيد المهدى فى الكفرة ، ووصلت الى استانبول رسل السنوسية .

ونتيجة للعلاقات الطيبة بين الطرفين منح السلطان عبد المجيـد الأول السنوسية فى سنة ١٨٥٦ م فرمانا يعفى جميع أملاكها من دفع الضرائب ويسمح لرئيسها بجمع الأعشار الدينيـة من أتباعها(٦٢) . وفى أيام السلطان عبد العزيز أخى السلطان عبد المجيـد أرسل فرمان ثان الى حاكم طرابلس الغرب ـ الذى كانت برقة فى ايالته ـ ثبتت فيه امتيازات السنوسية ، وأضيف اليها أن أعتبرت الزوايا السنوسية « حمى » يمكن أن يلجأ الناس اليه(٦٣) .

وفى عهد السيد المهدى حرصت السنوسية على حسن العلاقة مع الدولة العثمانية دون الانغماس فى مشكلات الدولة العثمانية الخارجية ، فبينما اشتعلت الحرب بين تركيا وروسيا عام ١٨٧٧ م وطلب السلطان العثمانى من السيد المهدى امداده بقوات لمساعدة الدولة فى حربها ،

---

(٦١) د . نقولا زيادة : ليبيا . ص ٧٧ .
(٦٢) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٧١ .
(٦٣) د . نقولا زيادة : ليبيا ص ٧٦ .

لم يرفض السيد المهدى طلب السلطان ولكنه لم يشأ التدخل فى هذا النزاع المسلح ومن ثم انتهت الحرب بين الطرفين الروسى والعثمانى دون أن تصل نجدات عسكرية سنوسية .

وفى نفس الوقت كان حرص السلطان عبد الحميد الذى اعتلى العرش ١٨٧٦ م على بقاء علاقات المودة مع السنوسية انطلاقا من رغبة السلطان فى احتواء الأمارة السنوسية وغيرها من الامارات فى الوطن العربى تحت شعار الجامعة الاسلامية التى كانت هدفا لسياسته نحو الأقطار العربية والشرقية فى مواجهة المد الاستعمارى المحيط بالدولة العثمانية التى نظــر اليها الأوروبيون كرجــل مريض يحتضر سرعان ما يفارق الحياة .

استمرت العــلاقات طيبــة بين السنوسية والعثمانيين حتى عام ١٨٨٨ م . وكان من آثار دعم هذه الروابط بين السلطان والسيد المهدى أن وجدت الدعوة السنوسية أتبــاعا أقوياء لها فى الآستانة وفى بلاط السلطان بصفة خاصة ، وكذلك وجدت السنوسية أتباعا لها بين كبــار رجال الدولة الآخرين ، كما لم يلبث أن عظم شأن شيوخها ومقدمى زوايا فى الأقطــار الليبية ، بل بعض الولاة العثمانيين من الأخــوان السنوسيين . وكان من أثر ازدياد سطوة السنوسية فى برقة وطرابلس أن الأخــوان فى الزوايا الساحلية صاروا معفين رســميا من الأموال الاميرية والاعشار الشرعية ، بينما كانوا لا يقدمون الى الحكومة فى الزوايا الأخرى الكبيرة فى طرابلس والخمس وبنغازى الا ما يرونه ملائما لصالحهم(٦٤) . هذا بالاضافة الى أن السلطة الفعلية فى برقة بصفة خاصة دينية وزمنية صارت بيد شيوخ الزوايا السنوسية .

ولكن منذ عام ١٨٨٨ م بدأت الشكوك تساور السلطان عبد الحميد فى نوايا وأغراض السيد المهدى وكان السلطان فى ذلك واقعا تحت تأثير دعايات الدول الأوربية التى رأت فى امتداد السنوسية الى وسط وغرب

---

(٦٤) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٧٩ .

أفريقيا ونشر الدين الاسلامى بين الأفارقة على يد السنوسيين ما يعارض ويعطل نشاط المبشرين المسيحيين وهم فى الواقع فرق استطلاع للدول الاستعمارية الأوروبية .

ونتيجة لوشايات الأوروبيين عند السلطان عبد الحميد أرسل الوفود الى مركز السيد المهدى فى الجغبوب للوقوف على مدى استعداده العسكرى ونشاطه الحربى ورغم أن هذه الوفود عادت الى السلطان تطمئنه الا أن السيد المهدى رأى من الصواب ترك الجغبوب والانتقال الى الكفرة فى يونيو عام ١٨٩٥ م خصوصا بعد أن اتجهت اليه أنظار الدول الاستعمارية ، وكثرت شكاياتها من السنوسية ونشطت فى الآستانة مساعيها ضده ، كما أن السيد المهدى ساءته معاملة بعض مأمورى الترك والتنقيب عن السلاح وكبس زوايا السنوسية فى الجبل الأخضر ، وشاع أن الدولة أخذت تشتبه فى أمره وتتوجس خيفة ادعائه الخلافة[٦٥] .

ولم يكن الصفاء كاملا بين العثمانيين والسنوسيين . اذ رأينا الدولة العثمانية تصدر أوامرها الى موظفيها فى ليبيا لجمع ضرائب على ما تنتجه أرض الزوايا خلال عام ١٩٠٤ م ، وعام ١٩٠٨ م ولكن السنوسيين رفضوا بقوة مما جعل الدولة تعدل عن ذلك . وعندما حدثت الثورة التركية التى انتهت بخلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ م والتى قادها « جماعة الاتحاد والترقى » لم تكن السنوسية ترضى بما كانت ترمى اليه جمعية « تركيا الفتاة » من محاولة تتريك العرب أو امكان الغاء الخلافة[٦٦] .

وعندما حدث الغزو الايطالى لليبيا وقبول تركيا لمعاهدة أوشى (لوزان) مع ايطاليا عام ١٩١٢ م التى سحبت تركيا بموجبها جنودها من ليبيا ، أذاع السلطان العثمانى منشورا يمنح فيه الليبيين استقلالهم

---

(٦٥) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٨٥ .

(٦٦) د. نقولا زيادة : المرجع السابق ص ٧٨ .

وهو استقلال لا يملكه السلطان العثمانى بعد أن اعترف بالوجود الايطالى فى ليبيا ، رفض السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية آنذاك هذا الصلح وأعلن عدم قبول صلح يكون تسليم البلاد الى العدو ثمنا له ، معنى هذا اظهار الغضب من تصرف الدولة العثمانية .. وحاول العثمانيون تخفيف صدمة موقفهم المتخاذل هذا أمام الايطاليين بايفاد أنور باشا القائد العثمانى الى السيد أحمد الشريف فى الجغبوب ليبلغه اسناد أمر الأمة الليبية الى سيادته وأخباره بأن الخليفة قد منح الأمة الطرابلسية استقلالها تاركا لها الحق فى أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها[٦٧] .

ولكن عندما صدرت الأوامر العثمانية الى القائد عزيز المصرى للانسحاب من برقة بجنوده الى السلوم حيث تنتظرهم باخرة تنقلهم الى تركيا ، عارض السنوسيون هذا الانسحاب واشتبكوا مع عزيز المصرى ، وكاد يحدث التحام كبير لولا أن عزيز المصرى استطاع الوصول الى السلوم وفى ١٦ يولية ١٩١٣ م بلغ الاسكندرية ومنها الى الآستانة[٦٨] .

وما تجب الاشارة اليه أن محمد أحمد المهدى صاحب الثورة المعروفة فى السودان منذ عام ١٨٨١ م حاول أن يجذب اليه السيد محمد المهدى زعيم السنوسية واعدا اياه بوضعه فى مقام الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) فى نظير أن يشترك زعيم السنوسية فى محاربة الانجليز فى مصر والسودان . الا أن السيد المهدى رفض التعاون مع محمد أحمد المهدى ولا مع خليفته لأنه الزعيم السنوسى — يعنى بالدعوة الى اصلاح الدين الحنيف سلما لا حربا بينما تنفر الملة التى يراد احياؤها نفورا عظيما بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التى يهدرها والجرائم التى يرتكبها فى السودان مثل هذه المتمهدى ، ولذلك فانه لا يريد ولا يفكر فى أن يتدخل فى شىء مما يحدث[٦٩] .

(٦٧) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ١٤٦ .
(٦٨) نفس المرجع ص ١٥٦ .
(٦٩) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

السنوسية والقـــوى الأجنبيـــة

كانت للسنوسية مواقف من القوى الأجنبية لا تتفق مع أطماع هذه القوى فى الأقطار العربية والاسلامية ، من ذلك موقفها من الفرنسيين فى الجزائر وغرب أفريقيا ، وموقفها من الايطاليين فى ليبيا ، ومن الانجليز فى مصر ثم ليبيا .. أما موقف السنوسية من فرنسا فبدأ منذ احتلت القوات الفرنسة الجزائر أرض وبلد صاحب الدعوة نفسه — محمد بن على السنوسى — الذى شعر بالغضب عندما عاد من الحجاز ليجد الاحتلال الفرنسى قد أكتمل بالجزائر فآثر الانسحاب وعدم الاصطدام مع الاحتلال الفرنسى لأن عدم الحيطة والتعجل باجراء حركة قبل حلولها تنسف صروح أعماله العظيمة التى بناها وانفق عليها جهوده الجبارة وعلق عليها آماله نسقا لا تقوم لها بعده قائمة . ولذلك أجل ذلك — مقاومة الفرنسيين — الى أن يصل العالم الاسلامى الى درجة الانتباه التام(٧٠) .

ولقد أبدى من مشاعر السخط على الدولة العثمانية الشىء الكثير بسبب ضعفها وتخاذلها فى مقاومة الغزو الفرنسى لبلاد الجزائر ، ومن ثم رأينا فى زواياه يعد أتباعه اعدادا حربيا الى جانب الأعداد الدينى حتى يكون المسلمون على استعداد لمقاومة امتداد الأطماع الفرنسية خارج الجزائر ولمقاومة أية أطماع لآية دولة أوروبية أخرى . وعندما احتلت القوات الفرنسية تونس عام ١٨٨١ م وصارت تتوغل من غرب أفريقيا الى وسطها حتى وصل نفوذها الى « واداى » التى كان للسنوسية فيها نفوذ كبير بفضل انتشار الزوايا السنوسية والأتباع الكثيرون هناك ، بات الصدام وشيكا بين السنوسيين من جهة وبين الفرنسيين من جهة أخرى .

---

(٧٠) د. محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٥٤ .

ذلك أنه بعد أن انتصر الفرنسيون على رابح السودانى — عام ١٩٠٠ م — الذى أقام له ملكا مستقلا منذ عام ١٨٩٥ م حول بحيرة تشاد ، أدرك السنوسيون الخطر الفرنسى على نشاطهم فى واداى وغيرها من البلاد المجاورة وبسبب اقتراب الفرنسيين من الأراضى الليبية . ومن ثم دارت الحرب بين السنوسيين والفرنسيين ، وقاد السنوسيين سيدى محمد البرانى والسيد عمر المختار الا أنه ظهر منذ اللحظة الأولى أن الكفاح لم يكن متكافئا ، ولذا سرعان ما سقطت المراكز السنوسية فى أيدى الفرنسيين نحو الشمال تاركين الجنوب غنيمة للفرنسيين[٧١] .

وقد استمر الصراع بين السنوسيين والفرنسيين طويلا ومريرا بعد وفاة السيد المهدى وتسلم السيد أحمد الشريف امارة السنوسية فى عام ١٩٠٢ م ، وحتى ١٩١١ م عندما انشغلت السنوسية بالغزو الايطالى لليبيا ، وتوقف الغزو الفرنسى عند حدود برقة الجنوبية بسبب الاتفاقات بين فرنسا وانجلترا منذ عام ١٨٩٨ م والتى تحدد الممتلكات الفرنسية والانجليزية فى غرب ووسط القارة الأفريقية .

أما بالنسبة للايطاليين فقد اشتبكت السنوسية مع قواتهم عندما نزلت الى الأرض الليبية عام ١٩١١م وكانت مقاومة السنوسية للايطاليين مقاومة منظمة بحكم تنظيم الزوايا السنوسية ، فقد كان لبوادر اليقظة الشعبية التى بذر السنوسى بزواياه وتعاليمها وجهود شيوخها بذرتها الأولى ، فقد هب الشعب الليبى ومنذ الوهلة الأولى للدفاع عن أرض الوطن[٧٢] ، تحت زعامة السنوسية فى برقة بصفة خاصة .

وكانت ايطاليا تدرك أن انتشار الزوايا السنوسية فى عدة أنحاء من ليبيا وغيرها من الأقطار العربية والأفريقية مما سيزيد من مقاومة السنوسيين للغزو الايطالى ، وقد أوضحت تقارير عملاء وجواسيس

---

(٧١) د. زاهر رياض : استعمار افريقيا ص ١٥٩ .

(٧٢) محمد مصطفى بازامة : العدوان او الحرب بين ايطاليا وتركيا فى ليبيا ص ١٦١ .

السنيور جوليتى Glontti رئيس الوزارة الايطالية ـ فى ليبيا أن السنوسية عقيدة دينية قوية تتغلغل فى أعماق نفوس الليبيين فتظهرها لتجعل منها نفوسا سامية شامخة الهمة قوية العزيمة لا تعرف الخوف ولا التردد وتضحى بكل شىء فى سبيل الله والوطن ، وهى تتميز بالنظام والدقة فى تنظيماتها القوية المتينة التى تشبه التنظيمات العسكرية الحديثة(٧٣) .

واذا كانت تركيا قد عقدت مع ايطاليا معاهدة صلح فى لوزان بسويسرا عام ١٩١٢م تركت بمقتضاها الليبيين لمواجهة الغز الايطالى الغاشم ، فان اخواننا الطرابلسيين ـ يقصد الليبيين ـ وعلى الخصوص السنوسيين منهم قد تحالفوا على مقاومة العدو ومقاتلته الى آخر رمق ، وقد تواترت الأخبار بأنهم حشدوا زهاء العشرين ألف مقاتل مع ما يلزمهم من الزاد والذخيرة(٧٤) . ومن ثم أراد السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية آنذاك الحرب ضد الايطاليين ، وحتى عندما أصبح زعيم السنوسية السيد محمد ادريس عام ١٩١٨ واصل السنوسيون الجهاد المنظم ضد قوات الاحتلال الايطالى فى برقة .

وقد بلغ من قوة وتنظيم السنوسية فى مقاومتها للاحتلال الايطالى أن هذه المقاومة استمرت بقيادتهم فى برقة حتى عام ١٩٣١ م بعد أن عهد زعيم السنوسية بأمر قيادة الجهاد للقائد عمر المختار وانتقل هو الى مصر عام ١٩٢٢م ، فى الوقت الذى توقف فيه الجهاد أوكاد فى طرابلس بعد سنوات قليلة من بدايته ، اذ أن المقاومة فى طرابلس كانت تتولاها القبائل الطرابلسية الكثيرة الخلافات والمنازعات فيما بينها . وخلال مقاومة السنوسية للايطاليين استطاعت السنوسية أن تحصل من ايطاليا على اعتراف بقيام الامارة السنوسية فى برقة خلال المفاوضات التى أدت الى اتفاق الرجمة فى أكتوبر ١٩٢٠م .

---

(٧٣) خليفة المنتصر : ليبيا قبل المحنة وبعدها ص ٧٩ .

(٧٤) صفحات خالدة للمجاهد الليبى سليمان البارونى ص ٢١٣ .

ورغم نقض الايطاليين للاتفاق فانه كان دليلا على اعتراف سلطات الاحتلال بمكانة السنوسية كقوة عسكرية وسياسية ، وقد ظلت القوات السنوسية تحارب القوات الايطالية فى برقة حتى استشهد قائد السنوسيين عمر المختار عام ١٩٣١ م وظل عداء السنوسية للايطاليين حتى اشتعلت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ م وأصبحت ليبيا مسرحا للمعارك التى شارك فيها الليبيون مع قوات الحلفاء ضد القوات الايطالية الألمانية المشتركة ، حتى جلت هذه القوات المشتركة عن الأرض الليبية عام ١٩٤٣م .

أما بالنسبة لانجلترا وموقف السنوسية منها فقد كانت تقف من السنوسية وانتشارها فى أفريقيا موقفا عدائيا وان لم يكن عداءها صريحا أو مباشرا كالعداء الفرنسى ، ومن ذلك أن انجلترا سهلت لفرنسا أثناء صدامها مع رابح السودانى والسنوسيين فى وادى الانتقال فى مستعمراتها الأفريقية وقفل طريق السودان فى وجه أعداء فرنسا ، هذا على الرغم من أن السيد المهدى رفض التحالف مع محمد أحمد المهدى ضد انجلترا . وعندما أثارت تركيا السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية أثناء الحرب العالمية الأولى لتدبير حملة سنوسية ضد الانجليز فى مصر وفشلت هذه الحملة ، أترك السيد محمد ادريس منذ عام ١٩١٦ م ضرورة عقد صلح بين السنوسية وبين انجلترا حتى تتفرغ السنوسية لمواجهة الخطر الايطالى وحده .

ومن ثم اتصل السيد محمد ادريس بانجلترا التى طلبت أن يكون هناك فى نفس الوقت تفاوض بين السنوسيين وكل من ايطاليا وانجلترا ، وبالفعل تم عقد اتفاقية الرجمة مع ايطاليا ، وعقد اتفاق بين السيد محمد ادريس وتالبوت الكولونيل الانجليزى ، ونص الاتفاق على أن يسلم السنوسيون جميع الرعايا البريطانيين والمصريين والتابعين لدول الحلفاء لبريطانيا ، وأن يقصى جميع الأشخاص الذين من شأنهم أن يعكروا صفو الاتفاق عن أفريقيا ، وأن يخرج جميع السنوسيين المسلحين

من مصر وأن تفتح طريق السلوم ــ الاسكندرية[٧٥] .

وكان أبرز مواقف السنوسية من انجلترا عندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية وشاركت فيها انجلترا ضد ألمانيا وايطاليا ، وفى ميدان شمال أفريقيا ساهم السنوسيون مساهمة كبيرة الى جانب قوات الحلفاء الذين تتزعمهم انجلترا فى محاربة قوات المحور ــ ألمانيا وايطاليا ــ لدرجة أشاد بها الانجليز أنفسهم واعترفوا بأنه لولا مساعدة السنوسيين فى برقة للحلفاء لما استطاع هؤلاء الحلفاء أن يتغلبوا على قوات المحور بالصورة التى تمت بها .

هذا الى جانب اشراف ضباط انجلترا على تكوين الجيش السنوسى فى مصر منذ عام ١٩٤٠ م ، الذى شارك مع القوات البريطانية فى مطاردة العدو ــ قوات ايطاليا وألمانيا ــ واحتلال المواقع فى برقة الشمالية ، حتى اعترف المستر ايدن وزير الخارجية البريطانية فى ٨ يناير ١٩٤٢ م بأن الجيش السنوسى قام بمساعدات قيمة أثناء القيام بتلك العلميات الحربية الموفقة فى الصحراء الغربية فى شتاء عام ١٩٤٠ وعام ١٩٤١ م ، وهو الآن يقوم أيضا بنصيب قيم فى الحملة العسكرية الحالية فأنتهز هذه الفرصة لأعبر عن التقدير التام الذى تحمله حكومة صاحب الجلالة البريطانية للنصيب الذى قام به وما زال يقوم به السيد ادريس السنوسى وأتباعه فى المجهود البريطانى الحربى ، وأننا نرحب بتعاونهم مع قوات صاحب الجلالة البريطانية فى مهمة سحق العدو المشترك ، وقد وطدت حكومة صاحب الجلالة البريطانية عزمها على أنه متى انتهت الحرب لن تسمح بوقوع السنوسيين فى برقة تحت النير الايطالى مرة أخرى بأى حال من الأحوال[٧٦] .

وبعد خروج الايطاليين من ليبيا عام ١٩٤٣ م بقيت القوات الانجليزية فى كل من برقة وطرابلس والقوات الفرنسية فى فزان حتى

---

(٧٥) د. نقولا زيادة : ليبيا ص ٩١ .

(٧٦) د. محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٣٨٧ ــ ٣٨٨ .

حصلت ليبيا على استقلالها فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ م ، وبهذا استمرت صلة السنوسية بانجلترا ، وهى الصلة التى ساعدت الأمير محمد اريس على اعلان استقلال برقة فى يونيو عام ١٩٤٩ م عندما تعثرت المفاوضات بين الطرابلسيين والسنوسيين حول وحدة ليبيا واستقلالها تحت زعامة الأمير محمد ادريس .. وعندما اتفقت كلمة معظم الليبيين على وحدة ليبيا وامارة محمد ادريس استمرت علاقة الدولة الجديدة التى يتزعمها الملك محمد ادريس السنوسى مع انجلترا علاقة طيبة ومتينة .

تقييم الدعـــوة السنوسية

بدأت الدعوة السنوسية كما عرفنا على يد مؤسسها السيد محمد ابن على السنوسى الذى وضع التنظيم الذى سارت عليه فى أيامه وفى عهود خلفائه ، وقد ظل مؤسس الدعوة يشرف عليها حتى انتهت حياته فى اليوم السابع من شهر سبتمبر عام ١٨٥٩ م ودفن بزاوية الجغبوب، وخلفه ابنه السيد محمد المهدى فى زعامة السنوسية يعاونه شقيقه السيد محمد الشريف ، وعندما توفى السيد المهدى عام ١٩٠٢ م خلفه السيد أحمد الشريف بن السيد محمـــد الشريف وصيا على الزعيم الشرعى السيد محمد ادريس بن السيد المهدى لصغر سنه ، وحصلت ليبيا على استقلالها وحكمت بيد السيد محمد ادريس الذى أطاحت به ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ م .

وفى تقييمنا للدعوة السنوسية يمكن أن نقول أنها كانت من أنجح الحركات الدينية الاصلاحية فى الأقطار العربية والاسلامية لأنها دعت الى الرجوع الى الدين الاسلامى بأصوله دون تطرف أو شطط ، كما أنها لم تصطدم بالقوة الاسلامية المسيطرة فى العـــالم العربى آنذاك وأعنى الدولة العثمانية ، بالاضافة الى أنها كانت طريقة عمل بمعنى أنها وضعت مبادئها موضع التطبيق ســـواء فى التعليم أو نشر الدين الاســـلامى صحيحا بين القبائل العربية والأفريقية ، واحلال الصلح

والسلام محل البغضاء والحروب ومواجهة أعداء الاسلام سواء كانوا فرنسيين أو ايطاليين .

لقد استفاد محمد بن على السنوسى من رحلاته واحتكاكه بمختلف الفئات فى الأقطار التى زارها ، فنأى بنفسه وبدعوته عن الخوض فى خلافات جانبية تعوقه عن تحقيق أهداف دعوته ، فلم يستطيع المهديون فى السودان جر السنوسية الى المشاركة فى ثورتهم الدموية والعدائية ضد مصر وتركيا ، وحافظت السنوسية على قوتها انتظارا للوقوف أمام العدو الطبيعى للأمة العربية والشعوب الاسلامية وهو الاستعمار الأوروبى الذى نزل بالجزائر عام ١٨٣٠ كمقدمة لزحفه الى أجزاء أخرى من الأقطار العربية والاسلامية كما تنبأ بذلك صاحب الدعوة السنوسية نفسه .

ومبعث نجاح الدعوة السنوسية أنها نشرت دعوتها عن طريق أداتها ــ الزوايا ــ فى الحجاز ــ بالقرب من الدعوة الوهابية ــ وفى مصر وفى السودان الغربى ــ بالقرب من الخلوات المهدوية ــ دون أن تصطدم بأى طرف ، اللهم سوى الاستعماريين الأوروبيين .

الفصل الثاني عشر

الدعـــوة المهـــدية

* السـودان ٠
* محمـد احمـد ٠
* اسس المهـدية ٠
* اسلوب الدعـوة ٠
* الدعوة المهدية والقوة الخارجية ٠
* تقييم الدعـوة ٠

الســـــودان

ولد محمد أحمد صاحب الحركة المهدية فى جزيرة لبب الى الجنوب من مدينة دنقلة بنحو ١٥ كيلو متر ، فى ١٢ أغسطس ١٨٤٤ م ، ودنقلة مدينة تقع فى السودان الشمالى على نهر النيل ، وهى تقــع فى اقليم صحراوى نادر المطر ، وتســـكنه الجماعات الحامية كالنوبيين الذين اختلطوا بالعرب وتأثروا بهم ، والى الجنوب من دنقلة نجد السودان الأوسط حيث المناخ الصحراوى يسود أيضا مع سقوط أمطار شهرى يوليـــو وأغسطس ويسكنه العـــرب الذين يحتلون دارفور وكردفان والخرطوم والنيل الأزرق والأجزاء الجنوبية من كسلا[1] ويشتغل هؤلاء العرب بالزراعة حول النيل ورعى الابل والبقر فى كردفان ودارفور ومن أشهر القبائل الرعوية البقارة فى وسط وجنوب كردفان .

تلك ظروف السودان الذى ظهر فيه محمد أحمد وعلى أرضه أعلن ثورته ، وتنقل بين أجزائه من دنقلة الى جزيرة أبا فى النيل الأبيض الى جبل قـــدير بجنوب كردفان ، فوســـط كردفان فدارفور ثم الخرطوم ومعظمها أرض صحراوية تسكنها قبـــائل عربيـــة بصفاتها الاجتماعية والانتاجية ، وهذه القبائل العربية جاءت الى السودان من طريقين : الطريق الأول هو الباب الشمالى الذى يفضى الى مجرى النيل متابعا النهر من جنوب أسوان الى كرسكو ثم مخترقا صحراء العطمور مباشرة الى أبى حمد ، ثم متابعا النهر مرة أخرى منتهيا الى الجنوب[2] والطريق الثانى هو الباب الشرقى المنحدر من ساحل البحر الأحمر عبرته الهجرات من جزيرة العرب فى طريقها صوب الغرب الى السودان الأوسط[3] .

---

(١) د. فيليب رفلة : الجغرافية السياسية لافريقية ص ٢٩٢ .

(٢) د. حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ص ٢٠٤ .

(٣) د. محمد عوض : السودان الشمالى ص ١٥٩ .

وقد انقسمت هذه القبائل العربية الوافدة الى ثلاثة مجموعات : المجموعة الأولى هى مجموعة الجعليين وهى أكثر المجموعات العربية نفوذا وعددا • فقد انتشرت فى المنطقة الممتدة من وادى حلفا حتى جنوب أم درمان • والمجموعة الثانية هى مجموعة جهينة ، وهم عرب وفدوا الى مصر أولا حتى اذا كان القرن الرابع عشر الميلادى اتجهوا جنوبا نحو السودان حيث استقروا فى شرق السودان وعلى حدود الحبشة وفى الجهات الشرقية والوسطى من كردفان ، ومن أشهر قبائل هذه المجموعة الشكرية ، البقارة ، الكبابيش ، والمجموعة الثالثة تعرف بالكواهلة ومنازلهم فى العطبرة والنيل الأزرق وحول النيل الأبيض وكردفان فى الغرب •

وقد شاركت هذه المجموعات القبلية فى أحداث السودان الاجتماعية والسياسية ، فكونت بعض الامارات العربية الخاضعة لنفوذ غيرها أكثر قوة أو المستقلة بأمرها ، وكان أشهر هذه الامارات والسلطنات الاسلامية العربية سلطنتان احداهما على النيل الأزرق أسسها الفونج فى سنار ومؤسس هذه السلطنة وعاصمتها زعيم الفونج « عمارة دو نقس » أول القرن العاشر سنة عشر بعد التسعمائة (٩١٠ هـ[٤]) الموافق لعام ١٥٠٥م• والسلطنة الأخرى عرفت بسلطنة دارفور فى السودان الغربى • وقد ظل الفونج يعتمدون على مصر فى غذائهم الروحى ، فدرس نخبة من أبناء هذه الدولة فى الجامع الأزهر وعادوا الى بلادهم ينشرون بها ما تلقوه من علوم ومعارف دينية اسلامية[٥] •

ومما يلفت النظر أن القبائل العربية التى دخلت السودان لم تكن وسيلتها فى نشر الاسلام بين أهل البلاد التبشير أو الدعوة الى الدين • انما توسلت بالوسيلة الاجتماعية والتسرب السلمى ، بالأصهار الى

---

(٤) د. مكى شبيكة : مملكة الفونج الاسلامية ص ٢٢ .

(٥) د. السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ص٢٤٨ .

الشعوب المحلية ، ثم افناء هذه الشعوب فى الدماء العربية الوافدة ، ثم اندماج هذه القبائل فى الحياة القبلية الجديدة[٦] . وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاندماج الاجتماعى اعتناق جيل المولدين دين الأمهات ودين القبيلة صاحبة النفوذ ، ثم ازدياد التيار الاسلامى عمقا بمضى الزمن[٧] . وقد ساعد على ذلك أن العرب لم يكونوا طبقة حاكمة متعالية ومنعزلة عن السكان الأصليين ، ولم يطالبوا بحكم ذاتى أو مملكة خاصة ولكن كانت لهم أحياؤهم الخاصة فى المدن الكبيرة ولهم قراهم الخاصة . والدلائل واضحة على أنهم فى بعض المناطق خضعوا لحكام البلاد[٨] .

ظل السودان مجزءا حتى الفتح المصرى على يد محمد على أوائل العشرينات من القرن التاسع عشر ، ورغم محاولات سلطنة الفونج الاسلامية لتوحيد السودان تحت سيطرتها الا أنها فشلت أمام قوة سلطنة دارفور فى الغرب ، التى لم تستطيع هى الأخرى ابتلاع مملكة الفونج وتوحيد السودان تحت سيطرتها هذا بالاضافة الى ظهور زعامات دينية صوفية متنافسة دون الاهتمام بأصول الدين وقواعده الاساسية ، ومن ثم سادت حياة السودانيين الاسلامية الخاطفة والخرافات ، ونسب السودانيون الى رجال الدين المعجزات بل وقد سوهم أكثر من تقديس الأنبياء فى الوقت الذى ضعف فيه مستواهم العلمى فلم يكن باستطاعتهم التمييز بين الخرافات والعقيدة الصحيحة[٩] .

لم يكن مجىء قوات محمد على الى السودان عام ١٨٢٠م بداية الاهتمام المصرى بالسودان ، بل ان العثمانيين فى مصر احتلوا بلاد

---

(٦) عبد العزيز عبد المجيد : التربية فى السودان والاسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها جـ ١ ص ٢٥ .

(٧) د. حسن محمود : المرجع السابق ص ٣٢٩ .

(٨) د. مكى شبيكة : مملكة الفونج . ص ١٩ .

(٩) Hilleson : Anglo - Egyptian Sudan, p. 101 .

النوبة بعد احتلالهم لمصر واستقرارهم فيها ، بالاضافة الى احتلالهم لما أطلقوا عليه « ايالة الحبش » فى نفس الفترة تقريبا أى فى النصف الأول من القرن السادس عشر وألحقوها بباشوية جدة كما أن المماليك فروا من مصر بعد مذبحة القلعة عام ١٨١١م الى السودان ، وحاولوا السيطرة على دنقلة والانتقال منها تدريجيا نحو الجنوب حتى تتم لهم الزعامة الكاملة(١٠) .

تم فتح أهم أجزاء السودان تقريبا عام ١٨٢٥م ، ومنذ ذلك التاريخ استمرت عمليات الفتح فى عهد محمد على وخلفائه حتى استكمل فى عهد الخديوى اسماعيل وفى ظل الحكم المصرى أنشئت عاصمة للسودان هى مدينة الخرطوم عام ١٨٣٠ م وغيرها من المدن ، كما استقر الأمن فى ربوع السودان مما جعل الناس ينصرفون الى أعمالهم فى الزراعة والتجارة والرعى ، كما أن الحكم المصرى شجع العلماء والمستكشفين للقيام بالرحلات العلمية لكشف منابع النيل وهى أمنية كانت تجول بخاطر محمد على وابنه ابراهيم وحققت أمل علماء الجغرافيا فى أوروبا ، ولكن استعانة الحكم المصرى وخاصة فى عهد الخديوى اسماعيل بالأجانب فى عمليات الكشف وفى حكم أقاليم السودان كان له تأثير سىء على السودانيين وعلى الحكم المصرى وبما أدى فى النهاية الى حدوث تلك الثورة التى قادها الفقيه محمد أحمد .

ورغم الجهود التى بذلها الحكم المصرى فى السودان من أجل النهوض بالسودانيين فى مجالات التعليم والزراعة والصناعة واستخدام وسائل منظمة للنقل كخطوط السكك الحديدية ، وتوفير اصلاح ادارى ومالى يخدم السودانيين ، كل ذلك على نفس النسق الذى طبق فى مصر ، الا أن هذه الجهود كانت تسير بخطى وئيدة تدريجية فى عهد محمد على ، ثم نجدها تكاد تتوقف فى عهد عباس وتعود لتنتعش فى أواخر عهد سعيد ثم تزدهر فى عهد اسماعيل الذى أسس ما عرف بالامبراطورية

---

(١٠) د. حسن محمود : المرجع السابق ص ٢٨٣ .

المصرية فى أفريقيا بعد ان استكمل فتح بقيــة أقاليم السودان وضـم اندوموال وسواحل البحــر الأحمر العثمانية الى الحــكم المصرى فى السودان •

ولكن ممــا قلل من الدور والمجهـود المصرى فى السودان تدفق الأوروبيين الى هذا الاقليم لأحكام السيطرة الاستعمارية عليه وليحققوا أهداف دولهم هناك ، فرأينا السير « صموئيل بيكر » الانجليزى يعينه اسماعيل مديرا لمديرية خط الأستواء لـمدة خمس سنوات من ١٨٦٩ — ١٨٧٤ م يستثمرها لمصلحته مع ضم الأراضى المجاورة للمديرية ، وحل محله الجنرال غوردون Gordon الانجليزى أيضا الذى استولى باسم اسماعيل على منطقة حوض منابع النيل الأبيض بأسرها ، وصحب معه زمرة كبيرة من المغامرين الأوروبيين كالايطالى « روملوجيسى » والألمانى دكتور « شنيتزر » الذى أسلم وسمى نفسه أمين ، والفرنسى لينــان والأمريكى « شاييه لونج » ، والسريسرى « منزنجر » الذى قاد التوسع المصرى فى أثيوبيا ، واستولى على مناطق هرروزيلع وبربرة ، والدانماركى « أندروب » الذى اصطدم بقواته المصرية مع الأحباش واستولى على بعض الأقاليم الساحلية من أثيوبيا » •

وعندما عهـد الخديدى اسماعيل بمنصب حـاكم عام السودان لجنرال « غوردون » عام ١٨٧٧ م ، عين غوردون مكانه فى مديرية خط الاستواء أمين باشـا « دكتور شنيتزر » حاكما عليهـا ، وعين زملاءه الأوروبيين حكاما على مديريات السودان الأخرى ، فأصبح الايطـالى « روملوجيسى » حاكما على مديرية كردفان ، والنمساوى « سلاطين » Slatin حاكما على مديرية دافور ، والانجليزى « لبتون » حاكما لمديرية بحر الغزال ، وأصبح الألمانى « جيجلر » أقرب مساعد لغوردون•

وهكذا أصبح السودان قبيل اشتعال الثورة المهدية ، والذى كان رسميا تحت سلطة الحكومة المصرية ملكا لفئــة من المغامرين الدوليين

الطامعين فى الكسب ، ففرضوا على أهل السودان ضرائب باهظة لا تحتمل ، واتبعوا سياسة عنيفة فى محاربة تجارة الرقيق بصورة ساعدت على انتشار السخط على الحكم المصرى الذى أتى بالأجانب « الكفار » الى بلاد المسلمين فى السودان والتحكم فى رقاب أهل البلاد خاصة والسودانيين مسلمين متمسكين أشد التمسك بدينهم وكانوا بطبيعة الحال لا يعترفون لغير المسلم بأى حق فى ولاية أمورهم[11] ومن الطبيعى أن ينتج عن ذلك تجارب السودانيين مع دعوة محمد أحمد الذى أعلن أنه جاء بصفته المهدى المنتظر ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما .

محمـــد أحمـــد

هو محمد أحمد[12] بن عبد الله ، والده عبد الله كان نجارا يشتغل بصناعة السفن فى جزيرة « لبب » التى تبعد بنحو ١٥ كيلو مترا جنوب مدينة دنقلة[13] ، حيث ولد هناك محمد أحمد فى ١٢ أغسطس عام ١٨٤٤ م ، ونقل مع والده من دنقلة الى شندى حتى حط بهم الرحال « بكررى » شمالى أم درمان بقليل حيث توفى الوالد واستمر أبناؤه فى مزاولة صناعة بناء السفن فيما عدا محمد أحمد الذى مال نحو التعليم الدينى فدخل خلوة[14] القرية حيث تعلم القرآن الكريم ، ثم تنقل من « كررى » الى الخرطوم للاستزادة من العلم ، حتى سمع عن حلقات الشيخ محمد الخير الدينية فى بربر فالتحق بها وأظهر تفوقا على أقرانه فى هذه الحلقات .

وكانت حياة محمد أحمد لا تقتصر على تلقى الدروس وانتظار ما يقدمه أهل الاحسان لطلاب العلم ، بل الى على نفسه منذ البدء أن

---

(١١) د. جلال يحيى : الثورة المهدية : ص ٩ .

(١٢) الاسم مكون من كلمتين محمد واحمد والاب اسمه عبد الله .

(١٣) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٢٩٠ .

(١٤) الخلوة تعنى المدرسة القرآنية او الزاوية التى يحفظ بها طلاب العلم القرآن الكريم وبعض العلوم النقلية واللغوية .

بنفى النفس والبدن معا من الادران وما يشتبه فيه فشيخه يتناول مرتبا حكوميا من الذرة والمال ، ومثل هذا الرزق لا يضمن خلوه من الظلم والمحرمات فهو لا يبنى خلايا جسمه بالمشتبه فيه وما عليه الا أن يذهب فى بهيم الليل للصيد الحلال على شاطىء النهر لاصطياد السمك ، ويلقى فى سبيل ذلك من النصب ما يلاقى قبل أن يقع السمك فى سنارته[١٥] كما أنه اشتغل بجمع الخشب وبيعه وذلك الى جانب دراسته الدينية[١٦] . كل ذلك الى جانب قضاء فترة من الليل فى التأمل والصلاة وتلاوة الأوراد ثم انضم الى السيد محمد الشريف نور الدايم شيخ الطريقة السمانية[١٧] الذى سمح له بتكوين مريدين له رغم صغر سنه ، وكان ذلك مما ساعده على التمرين فى الوعظ والأرشاد[١٨] .

وانطلاقا من اتجاه محمد أحمد الانعزالى فقد آثر الابتعاد عن جو الخرطوم للاختلاء بعيدا للتأمل والتعبد فاتجه فى النيل الأبيض حتى جزيرة « أبا » عام ١٨٧١ م ذات الغابات المتشابكة وكان يسكنها عدد قليل من العرب الرحل وأنفار قلائل من « الشلك » وهم سكانها الأصليون[١٩] ، وكان هذا الجو ملائما لمحمد أحمد لكى يتعمق فى أمور الدين والدنيا ويفكر فى الكيفية التى تصلح بها أحوال المسلمين فى الاتجاهين الدينى والدنيوى ، واختيار جزيرة آبا اختيار مناسب لكى تنطلق منه دعوة محمد أحمد التى عرفت باسم « المهدية » فهى جزيرة بعيدة عن سلطة حكمدارية الخرطوم وأهلها يعيشون حياة قبلية وتنتشر بينهم الخرافات والبدع الى جانب تفشى الجهل والفقر بينهم مما يساعد صاحب الدعوة على نشر دعوته ويهيىء لها مناخ النجاح ، خاصة اذا ارتبطت هذه الظروف بمكونات شخصية محمد أحمد الذى اذا صلى

---

(١٥) د. مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٢٥١ .

(١٦) د. ابراهيم العدوى : يقظة السودان ص ٤٩ .

(١٧) احدى الطرق الصوفية التى ظهرت فى المدينة المنورة ونقلها الى السودان جد الشيخ محمد الشريف .

(١٨) د. جلال يحيى : الثورة المهدية ص ٢١ .

(١٩) د. مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٢٥٣ .

بـــكى واستبكى وأطال الوقوف والركوع والسجود واذا وعظ أثر فى النفس ، وعيشه عيش من زهدوا زخرف الدنيا واتجهوا بأنفسهم الى الأخرى[٢٠] .

ذاع صيت محمد أحمد فى جزيرة « آبا » حتى أصبح ذكره على ألسنة كل من يتخذ من نهر النيل مجالا لعمله أو يسمع ممن زاروا « آبا » وكانت السفن النيلية المارة فى النيل الأبيض تتوقف عند الجزيرة حيث ركابها الى « الشيخ » لنوال بركاته ولتقديم الهدايا ليصرف منها على خلواته التى كثر عددها وعلى مريديه الذين ازداد عددهم ، مما ساعد على انتشار صيت هذا العابد المتصوف وسرت الاشاعات عن أنه يرى الرؤيا ويسمع الأصوات ، وكان هذا كافيا فى نظر العامة من الأهالى الذين وجدوا فيه « المختار » من العناية الالهية لخلاصهم[٢١] .

استفاد محمد أحمد فى تعليمه الدينى من المشايخ الذين أتصل بهم وأخذ عليهم الدرس والطريقة ، وكما يذكر المثل « كل شيخ له طريقة » فقد تعلم على يد الشيخ محمد الخير ما استطاع أن ينهله من علوم النحو والتوحيد والفقه والتصوف ، وأخذ عن الشيخ محمد شريف ولد نور الدايم مزيدا من الدروس فى العلوم الشرعية والتصوف على الطريقة السمانية واستمر محمد أحمد متصلا بشيخه محمد شريف بعد انتقال الأول الى آبا حتى حدثت جفوة بين الرجلين بسبب ازدياد شهرة التلميذ عن أستاذه ، فدخل محمد أحمد فى طريقة الشيخ القرشى ود الزين بأرض الجزيرة — بين النيلين الأبيض والأزرق — وكان الشيخ القرشى من أتباع الطريقة السمانية ولكنه كان فى نظر محمد أحمد قائم بشروط الطريقة دون شبهة .

---

(٢٠) نفس المرجع والصفحة .

(٢١) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٢ .

ورغم أن شهرة محمد أحمد آنذاك لم تكن فى حاجة الى شيخ غير أنه رأى من مستلزمات الطريق وهو لا يزال شابا دون الأربعين أن يعتمد على شيخ له قدم راسخ فى الحياة الصوفية ، وأبدى بالرغم من ذيوع صيته من الخضوع والانكسار لشيخه الجديد مثلما كان يبديه لأستاذه الأول[٢٢] . ولم تطل اقامة محمد أحمد كثيرا مع أستاذه الشيخ القرشى بسبب وفاة الاستاذ فعاد محمد أحمد الى جزيرة آبا لكى يستكمل بناء أسس دعوته . ولا شك أن هذا الترحال ودخوله فى احدى الطرق الصوفية ثم خروجه منها كان أحسن وسيلة للدعاية له ولفكرته وللعمل على تكوين جماعة جديدة تأتمر بأمره وتنفذ ارشاداته[٢٣] .

وكانت ارشادات محمد أحمد وأوامره هى ما يمكن أن تسميه أسس دعوته أو ثورته ضد الحكمدارية ــ أى ضد الحكم المصرى الخاضع لنفوذ الأجانب فى السودان ــ وتلك الأسس لم تكن بدعة ابتدعها محمد أحمد وانما سبقه اليها أصحاب الحركات السلفية الأخرى : الوهابية والسنوسية ، وأعنى . دعوة دينية ودنيوية فى نفس الوقت أى تنقية الدين الاسلامى مما شابه من خرافات وبدع وفى نفس الوقت اشاعة نوع من الحكم العادل فى ظل امام عادل تفرزه الدعوة أو الطريقة ، أو بعبارة أخرى تصبح الدعوة دين ودولة .

أسس المهدية

ظل محمد أحمد يلقب بالفقيه حتى ذاع صيته بجزيرة آبا حيث أعلن أختيار لقب « المهدى المنتظر » وصار يعرف به منذ ذلك الحين ، وهذا اللقب استند فى رأى المهدى الى الآية الكريمة « يهدى الله لنوره من يشاء » فهو المهدى من عند الله أى شاء الله له الهدى ، ولا جدال فى أن لقب المهدى ينطبق تمام الانطباق على الامام محمد أحمد فى

---

(٢٢) د . مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(٢٣) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٣٢ .

جهاده للعودة الى بساطة الاسلام وللقيام باصلاحات سياسية بين أهالى السودان فى تلك الفترة . ولكن اعتباره على أنه هو المهدى المنتظر كان شيئا آخر مختلفا تمام الاختلاف[٢٤] . ذلك أنه بهذا الادعاء الذى يصور نفسه بأنه الشخصية المتواتر فى الأخبار نزولها فى آخر الزمان بعد أن تمتلىء الأرض فسقا وظلما وشرا ليملأ الأرض من جديد بالعدل والخير والرحمة والامان ، قد صور دعوته بصورة تبعدها عن جوهرها الأصلى وتثير ثائرة المسلمين خارج السودان وتتهمه بالكفر والخروج عن الاسلام الذى يدعى أنه انما جاء لحمايته واصلاح أحوال المسلمين .

وقد تمثلت أسس الدعوة المهدية فى الاصلاح الدينى .والاصلاح السياسى والاصلاح الاجتماعى للمسلمين فى السودان وخارج السودان، نسوقها فيما يلى :

اولا : الأصلاح الدينى :

تتمثل المهدية فى العودة بالتشريع الى عهوده الزاهرة ، الى عصر الاجتهاد الأول قبل افتراق الكلمة وظهور المذاهب الأربعة . وقال فى ذلك ان الاجتهاد هو الوسيلة الوحيدة لتقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه من الانطباعات الزمنية[٢٥] أى أنه هاجم توزع المسلمين بين أربعة مذاهب شافعية ومالكية وحنفية وحنابلة ثم تفرقهم بعد ذلك بين طرق صوفية مختلفة لم يؤد الا الى اضعاف الاسلام ، ووجد أن الطريق الى الله واضح جلى فى كل من القــرآن والسنة وأن معرفتهما كافية للمؤمن الحق[٢٦] . ومن ثم دعا الى الاجتهاد فى الاسلام قائلا : وما العبد الا الاعمال الموافقة للسنة والكتاب ، من لم يجتهد على ذلك يشق الأنفس خسر الدارين[٢٧] .

---

(٢٤) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٥ .

(٢٥) نعوم شقير : تاريخ السودان . جـ ٣ ص ١٣٧ .

(٢٦) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٣ .

(٢٧) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٤٥ .

وأضاف المهدى الى فتح باب الاجتهاد فى الاسلام اقامة الحدود الشرعية مثل قطع يد السارق ، ورجم الزانى ، بل ينتهج طريقة المرابطين حين يعاقب على ترك الصلاة[٢٨] . وهاجم الفقهاء من رجال الدين وأحرق كل كتب الفقه والتفسير ، وحرم على أنصاره استخدام فاحش القول وشرب الخمر وتدخين الطباق والحشيش وكذلك الرقص والاستماع الى الموسيقى وأوصى بتبسيط حفلات الزواج[٢٩] وبمعنى أوسع كانت المهدية تدعو الى تطبيق الشريعة الاسلامية فى السودان ، وأن الكفر بالمهدية كفر حيث قال : من شك فى مهديتنا وأنكر وخالف فهو كافر ودمه هدر وماله غنيمة[٣٠]

وقد اتفقت المهدية مع الوهابية فى ضرورة فرض الاصلاحات الدينية ولا تترك اختيارا للناس وقد تجلى ذلك فى نص البيعة التى يبايعه بها مريدوه حيث تقول كلماتها : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله ، أما بعد فقد بايعنا الله رسوله وبايعناك على توحيد الله ، وألا نشرك به أحدا ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نأتى ببهتان ولا نعطيل فى معروف ، بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة ، وعلى أن تفرض الجهاد[٣١] .

معنى هذا أن المهدى تشبه بمحمد بن عبد الوهاب فى التشدد فى مبادىء التوحيد ، وجعل التعبد لله وحده ، وتحريم التطلع للأولياء وزيارة قبورهم ، والأمتناع عن شرب الدخان ، وتوجيه الناس الى الكتاب والسنة ومحاربة البدع ، وغير ذلك كفرض الزكاة والعشور وتوزيع الغنيمة والفيىء توزيعا شرعيا ، وتعيين القضاء للفصل فى الأمور الشرعية، وهذه كلها محاولات مخلصة للاصلاح لكنها كانت تتطلب الاستعانة

---

(٢٨) عبد المجيد عابدين : الثقافة العربية فى السودان ص ١٢٤ .

(٢٩) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٤ .

(٣٠) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ١٣٧ .

(٣١) نعوم شقير : نفس المرجع ج ٣ ص ١٣٩ .

بالعلم الأصيل والدراسة الفقهية العميقة ، والتعمق فى فهم النصوص التى وردت فى القرآن والسنة ، ومحاولة الاستنباط استنباط يفوق جمهرة التابعين[٣٢] .

ثانيا : الاصلاح السياسى :

أمن المهدى بارتباط الدين بالسياسة أى بين الظواهر الدينية والأمور السياسية اذ أنه قد اعتبر هذين الميدانين متصلين ومرتبطين احدهما بالآخر تمام الارتباط كما كان عليه الحال فى العصور الاسلامية الأولى فكان رأس الدولة هو أمير المؤمنين وامامهم ، وكان على هذا الشعب أن يطيعه ما لم يوصه بمعصية الخالق . وكان يهدف الى هدم الحكومة القائمة أولا ثم اقامة حكومة أخرى دينية فى مكانها تعمل على تطبيق الشريعة ، ويصبح هو رئيسها الدينى والزمنى[٣٣] .

ولم يتوجه محمد أحمد الى الحكومة القائمة بمبادئه الاصلاحية لأنه أخذ على رجال الحكم ابتعادهم عن تعاليم الاسلام ، وصار مقتنعا بأن النقمة تسود البلاد من أقصاها الى أقصاها ، فقد كان ثمة أستياء من انغماس السلطات الحاكمة فى السودان فى الرشوة ، ومن توزيع الضرائب الثقيلة الى أبعد الحدود توزيعا غير عادل وجبايتها بالقوة وبالعنف — على يد الموظفين الأوروبيين والأتراك — أضف الى ذلك أن الحكومة المصرية كانت قد أعلنت الغاء الرقيق تحت ضغط الحكومة البريطانية الوصية عليها ، وبذلك أصيبت الحياة الاقتصادية كلها بالاضطراب[٣٤] . وهكذا استغل المهدى هذه الظروف لتحقيق أهدافه ، فانه مهما تكن ادعاءات المهدى الدينية — كما ذكر لورد دوفرين السفير الانجليزى فى القسطنطينية الى اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية

---

(٣٢) د. حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ص٤٠٨ .

(٣٣) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٤ — ٢٥ .

(٣٤) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٦٤١ — ٦٤٢ .

فى ١٤ ديسمبر ١٨٨٣ م — فان قوته الرئيسية انمـا جاءت من بؤس ويأس السكان الوطنيين[٣٥] •

كان على المهدى اذن أن يستغل الحماسة الدينية للأهالى المتعصبين بشجاعة للمهدية ، وكراهيتهم العنيدة للحكم القائم التى نشأت بسبب سوء الادارة لفترة طويلة[٣٦] وبسبب استخدام البريطانيين فى عمليات التوسع والحكم المصرى فى السودان[٣٧] ، فى الاطاحة بهـذا الحكم واقامة الأمانة السياسية والدينية بزعامته وتحت لوائه ، ولقد أوضح تأثير النفوذ الأوروبى على الحكم بما أساء الى المسلمين فى السودان كتبه التى وجهها الى زعماء الأقطار العربية والاسلامية • فقـد ذكر للخديوى توفيق ما نصه : وامانة ما حدث من البدع والضلال والانابة اليه تعالى فى كل الأحوال وقد تأكد فى هذا الزمان الذى عم فيه الفساد سائر البلدان ، فان دسائس أهل الكفر التى أدخلوها على أهل الاسلام وضلالاتهم التى مكنوها من قلوب الأنام ، فقـد أفضت الى اندراس الدين ، وعطلت أحكام الكتاب والسنة بيقين ، فصارت شعائر الاسلام غريبة بين الأنام ، وتراكمت الظلمات ، وانتشرت البدع ، وأبيحت محارم الاسلام[٣٨] •

ومعنى هذا أن المهدى يلقى باللائمة على الأوروبيين فيما حـدث للدين الاسلامى وللمسلمين من أحـداث بدلت أحوالهم الى الأسوأ ، وخاصة الانجليز الذين سيطروا على الأمور حتى فى مصر ذاتها وهاجم توفيق باشا لأنه أحل للانجليز الذين جاءوا بكبرهم وخيلائهم ، الدماء والأموال والاعراض ، وهذا ليس من صفات الحاكم العـادل المسلم الحق •• وأن الاسلام يدعو الى طرد هذا العدو ، وأن يكون المسلمون يدا واحدة على اقامة الدين واخراج أعداء الله من بلاد المسلمين لأن

(٣٥) Hamilton : The Anglo - Egyptian Sudan, p. 67.

(٣٦) Cromer : Modern Egypt, Chap. XIX, p. 276.

(٣٧) Sudan Notes & Resods : Vol. XL, 1959, p. 79.

(٣٨) Holt : Mahdiya, p. 184.

هؤلاء الأعداء قد ظلموا أمة محمد ، وأن رد الظلم لا يتم الا بالقضاء عليه[39] .

ولم يكتف المهدى بالدعوة لطرد الأوروبيين بل طالب بطرد المصريين من السودان باعتبار ذلك الوسيلة التى يمكن عن طريقها تقرير العدالة ورفع الظلم وليملأ السودانيون المناصب التى كان الأوروبيون والمصريون يشغلونها ، ومن ثم أعلن وجوب الامتناع عن دفع أية ضريبة غير العشور أو الزكاة فقط التى نص عليها الكتاب الكريم . ثم دعا الى شيوع الملكية فلا يستأثر مؤمن بمال أو عقار دون أخيه المؤمن ، بل يجرى توزيع الثروة على الجميع بالتساوى[40] .

ولا شك أن هـذه الاصلاحات والمطـالب تستهوى كثيرين من السودانيين وخاصة الفقراء الذين رأوا فى الدعوة المهدية تحقيقا لآمالهم واصلاحا لشأنهم ، وان كان الأغنياء من السودانيين قد ساءتهم دعوته لشيوع الملكية ، الا أن الخلاص من الحكم المصرى كان معناه الخلاص من سيطرة الأجانب والأتراك فى محاربة تجارة الرقيق واحتكار الاتجار فى السلع المهمة بالسودان ، وخلو المناصب والوظائف ليشغلها أبنـاء السودانيين ، وغير ذلك من المكاسب المعنوية التى ستعود على السودانيين من انهاء الحكم المصرى واقامة حكم يتزعمه محمد أحمد المهدى .

وكان من الزعماء القبليين الذين استجابوا لدعوة المهدى وأقبلوا عليه بجزيرة آبا عبد الله التعايشى أخطر زعماء قبائل البقارة شـأنا وأشدهم بأسا ، وهذه القبائل تسكن فى كردفان ، وهى قبائل عربية ساخطة على الحكم القائم بسبب ملاحقة الحكومة لهم بالمطاردة والمصادرة لتجارتهم فى الرقيق وهم أكبر من يملكون الرقيق ويتاجرون فيه ، ومن ثم كانوا مستعدين للثورة أكثر من غيرهم ، وعندما قدم المهدى الى

---

(٣٩) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٧٤ .

(٤٠) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٢٩١ .

كردفان والتقى بزعماء القبائل هناك وعلى رأسهم زعماء قبائل البقارة عاد مقتنعا بتأييد هذه القبائل لدعوته ، ولقى تأييد قويا من عبد الله التعايشى الذى حاول أن يجعل محمد أحمد يعلن أنه « المهدى المنتظر » على شريطة أن يستوزره[٤١] .

ورغم وجود ساخطين على الحكم القائم الا أن المهدى لم يستطع أن يدفع بكل السودانيين للثورة ضد هذا الحكم « لأن من السودانيين من كان يعزو ما أصابهم من أذى وضرر الى عمال الحكومة الأجانب والأوروبيين « الكفار » وأذنابهم والضالعين معهم من مواطنيهم أنفسهم ، مما عدوا حكومة المصريين براء منه ، ولا يسوغ شرعا الثورة عليها ، وتمسك كثيرون من كبار السودانيين بالولاء لها ، وكان لهؤلاء نفوذ ملحوظ على أتباعهم وكانت كلمتهم مسموعة »[٤٢] .

ولكن المهدى استطاع أن يتغلب على معارضه هؤلاء لثورته بالقاء تبعات تلك المظالم والمصائب على عاتق الحكومة المصرية لأنها استخدمت أولئك الأجانب والدخلاء وولتهم أمور العباد فحكموا سيوفهم فى رقابهم وأتوا ما أتوه من الظلم وقتل النفوس وهتك الأعراض ، وهب أنها لا تسىء الظن فيهم ولا تعتقد أنهم يتطوحون مثل ذلك التطوح ويأتون كل تلك المنكرات والموبقات ، فهل لم يكن من الواجب أن تتجسس أعمالهم وتتنسم أخبارهم ، حاسبة السودان عضوا من أعضائها يؤامها ما يؤلمه ، لا ريب فى ذلك ولا مراء ، ولكنها أهملت هذا الواجب ، كان اهمالها دليلا على تركها حبلها على غاربها ، وترك مقادير السودان تجرى فى أعنتها ، اذن ليس بدعا انتقاض أهل السودان عليها ، بل البدع والغرابة أن لا ينتقضوا ويثوروا لخلع ذلك النير القاسى ، وقلب تلك الهيئة الحاكمة التى أبلغت أرواحهم حناجرهم وأحرجتهم فأخرجتهم ، ولم تعمل عملا يصلح دنياهم ويستجلب رضاهم بل وكلت أمورهم الى أناس يعتبر

---

(٤١) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٢٩٢ .

(٤٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

السود أرقاء ولا يفرقونهم عن العجماوات ، ومن العبث أن يرضى المرء بالهوان والشقاء اذا كان قادرا على اصلاح حالة واسعاد ماله[٤٣] .

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن دعوة المهدية كانت حركة عالمية تريد أن تمد يد الاصلاح الى الأقطار الاسلامية كلها ، ويظهر ذلك من كتب المهدى ثم كتب خليفته عبد الله التعايشى الى الملوك والزعماء فى الأقطار العربية والاسلامية ، وقد اهتز لحركته المسلمون جميعا ورأوا فيها رغبة مخلصة لاصلاح أحوال المسلمين ، وقد جاءته الوفود من مصر والحجاز والهند وبلاد المغرب[٤٤] . كما تظهر تلك الدعوة العالمية من فكـرته بتأسيس دولة اسـلامية مترامية الأطراف تكون عاصمتها مكة المكرمة .

ثالثا : الأصلاح الاجتماعى :

ينتسب محمد أحمد الى القبـائل العربية الذين اختلطوا بالدماء النوبية ، ويذهب البعض الى أن أصله مصرى ، وأن موطن أسلافه فى مديرية أسوان[٤٥] ، وعلى أية حال فان انتمـاءه الى قبائل الكنـوز النوبيين ، وانحداره من الكنوز كان له أهمية خاصة فى حياته ، فالكنوز ينتمون الى آل البيت ، ومن هنا كان انتساب المهدى الى البيت النبوى ، وكان لنسبه هذا أثر كبير فى نجاح دعوته وتأليف القلوب حوله[٤٦] . والمهم فى ذلك أنه لم ينتسب لاحـدى المجموعتين القبليتين العربيتين الكبيرتين فى السودان وهما الجهينية والجعلية فتجنب بذلك عداء من مجموعة لم ينتسب اليها ، واتجه بدعوته الى التنظيمات القبلية التى سارعت الى تأييده كما رأينا بالنسبة لموقف قبائل البقارة فى كردفان .

---

(٤٣) محمود القبانى : السودان المصرى والانجليز ص ٣٦ .

(٤٤) د. حسن محمود : المرجع السابق ص ٤٠٩ .

(٤٥) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى اوائل عهد الاحتلال ص ١١٥ .

(٤٦) د. حسن محمود : المرجع السابق ص ٤٠٣ .

وانطلاقا من اختلاطه بالناس على جميع المستويات أثناء ترحاله فى طلب العلم أدرك مدى ما يقاسونه من مظالم وفقر وبؤس ، ومدى ما هم فيه ضلالة وخرافات ، فشارك الدعوة السنوسية فى تبسيطها لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية مثل خفض المهر — عند الزواج — ومنع النساء من لبس الذهب والفضة ، والنهى عن شعر العارية أى خروج النسوة مكشوفات الرأس ، وعدم الاحتفال بالأعراس ومنع البكاء وراء الميت وابطال السحر والتعذيم[٤٧] ، وكل تلك مبادىء اجتماعية رأى أنها تنقى المجتمع من الخرافات وتقوى من عوده لكى يواجه الحكام الظالمين .

اعتمد محمد أحمد منذ البداية على التنظيمات القبلية لانجاح دعوته ، ومن بعده سار خليفته عبد الله التعايشى على نفس السياسة . ومن ثم وجدنا المهدى لكى يزيد من أنصاره يحاول استرضاء القبائل كاباحة تجارة الرقيق بعد أن كانت الحكومة تحرم هذه التجارة ، لأن تجار الرقيق كانوا يمثلون فى البلاد طبقة قوية من الاعيان والتجار الذين كانوا سادة السودانيين الحقيقيين، والذين رأو فى الدعوة المهدية ما يحقق مصالحهم ، هذا بالاضافة الى جهل الأهالى وسرعة تصديقهم للخرافات، والأوهام واعتقادهم من قبل بقرب ظهور المهدى المنتظر ، فأقبلوا على دعاوى محمد أحمد يصدقونها ويؤمنون بها دون تفكير ولا تحقيق[٤٨] .

كان هذا هو الأساس الاجتماعى للمهدية ، وهو أساس يستند الى جهل الناس وتصديقهم لما يلقى اليهم من الفقهاء أمثال محمد أحمد ، والى التنظيمات القبلية التى ساءها محاربة الحكومة لأرزاقها فى تجارة الرقيق واحتكار تجارة السلع الأخرى المهمة كالعاج مما زاد من سخط زعماء هذه القبائل على الحكومة ، ومن ثم يمكن انضمامها الى دعوة محمد أحمد للثورة على الحكومة .

---

(٤٧) نفس المرجع ص ٤٠٨ .

(٤٨) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١١١ .

اســلوب الدعـــوة

عول محمد أحمد من البداية استخدام أسلوب الثـــورة لتحقيق مبادئه وأهدافه الدينية والسياسية والشخصية ، فاعتبر الجهاد ضــد الحكومة وموظفيها جهاد فى سبيل الدين ، وهو فى هذا يتفق مع الدعوة الوهابية . وكان محمد أحمد قد بدأ فى يوليو ١٨٨٠ م دعوته بطريقة سرية بالكتابة الى رجال الدين من مشايخ الطرق الصوفية بأسلوب غير صريح ، وانما لمح لهم فى كتبه الى أسس دعوته ، فبعضهم آمن واستعد الى حين صدور الأمر ، وبعضهم كفر بالدعوى ولم يعرها اهتماما .

ولكنه فى العالم التالى ــ يونيو ١٨٨١ م ــ وجه كتبا صريحة الى رجال الدين يدعوهم لنصرة الدين والقيام لتأييد المهدية الكبرى التى خصه الله تعالى بهـــا وعلى نصرة الكتاب والسنة ، وأخبرهم أنه أمر باعلانها وسيمشى النصر بين يديه[٤٩] وكتب الى المشـــايخ من مريديه وأصدقائه أنه رأى النبى الكريم عليه الصلاة والسلام فى المنام ، وأنه عهد اليه احياء الاسلام ودعاهم الى الحضور اليه فى جزيرة « آبا »[٥٠].

وعندما بدأت دعوة المهدية الى المشايخ والعلماء وشى به أستاذه السابق الشيخ محمد شريف شيخ الطريقـــة السمانية الى رءوف باشا حكمدار السودان الذى لم يعر الموضوع اهتماما جديا لأنه لم يتعود ولا من كانوا قبله من الحكام أن يقوم درويش فقير ضعيف القوة والعون بمناصبه الحــكومة العداء بنفوذها وسيطرتها أو لعل هذا الشـــيخ ان صح ما نسب اليه كتب وادعى ما أدعى فى حالة جذب قــد تعترى مثله

---

(٤٩) مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٢٥٥ .

(٥٠) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١١٦ .

من الدراويش أحيانا[٥١] ومع ذلك أرسل رءوف باشا رسولا يستطلع حقيقة الأمور ويستدعى هذا الفقيه لمقابلة الحكمدار ، ولكن المهدى رفض الحضور الى الخرطوم .

أدرك محمد أحمد أن دعوته فى خطر بعد موقفه هذا من الحكومة ، وتيقن أنها لكى تنجح عليه أن يعلن الثورة ضد الحكومة ويستعد لمقاومة رجال الحكم المصريين ، ومن هنا انتقلت الدعوة المهدية من المكاتبات الى الزعماء والمشايخ الى الثورة ضد الحكومة وتشكيل فرق الانصار للمقاومة التى تبدأ بما عرف بموقعة آبا فى ١٢ أغسطس ١٨٨١ م والتى وقعت بين مائتين من جند الحكومة وبين حوالى أربعة آلاف من أنصار المهدى الذين عرفوا بالدراويش وكانت النتيجة هلاك معظم جند الحكومة ..

كانت معركة آبا أول صدام بين الطرفين ، وحينما جاءت نتيجته لصالح المهدية وضد الحكومة فقد استغله المهدى فى انجاح دعوته وزيادة أنصاره ، كما ساعد هذا الانتصار على قوات الحكومة بدون شك على أن يزداد ولاء أنصار المهدى له واعتقادهم بأنه مبعوث العناية الألهية ، وأنه مؤيد منها فى انتصاره على الحكومة[٥٢] ، وأن عليه مواصلة السير لتخليص السودان من الحكومة القائمة لتحل محلها حكومة المهدية بمبادئها المؤيدة من الله .

كانت موقعة آبا[٥٣] أول أحداث الثورية المهدية ضد الحكم

---

(٥١) مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٢٥٥ .

(٥٢) د. جلال يحيى : الثورة المهدية ص ٢٧ .

(٥٣) كان جند المهدى فى المعركة يحملون خمس رايات كتب على كل منها عبارة « لا اله الا الله محمد رسول الله » وعلى احداها اضيف « الجيلانى ولى الله » والثانية « الرفاعى ولى الله » والثالثة « ابراهيم الدسوقى ولى الله » والرابعة « احمد البدوى ولى الله » والخامسة كتب عليها وعلى الرايات الاربع : محمد المهدى خليفة رسول الله ، فكانت تلك اللحظة الفارق بين الطريقة والمهدية وما بين المسالمة والجهاد ، وقد اصبح اسمه بعدها محمد المهدى بدلا من الشيخ محمد احمد (مكى شبيكة . ص ٢٥٨) .

المصرى هناك ، وقد نبهت هذه الموقعة الحكومة المصرية فى القاهرة الى حدوث ثورة — لم يعرفوا حقيقة قوتها[٥٤] — فى السودان وأنه يجب على حكمدار السودان القضاء عليها بسرعة لأن القاهرة مشغولة بالحركة العرابية ، كما نبهت هذه الموقعة محمد أحمـــد بأن الحكومة لن تتركه يستقر فى جزيرة آبا ، ومن ثم عول على الهجرة الى جبال النوبة فى جنوب كردفان حيث يكون هناك بعيدا عن متنـــاول يد الحكومة ، واذا ما قصدته أية قوة تلاقى نصبا فى الوصول اليه ، والهجرة الى مكان يكون غيه قوام الدين ورد فى كل خطاباته سواء منها الأولى بالتلميح أو الصريحة باعلان مهديته[٥٥] .

وقد أدى هذا الانسحاب الى جبـــال النوبة — وخاصة الى جبل قدير أوعر المناطق فى تلك الجبال — الى زيادة نفوذ المهدى لأنه وقع بعد انتصاره على الحكومة واعتبره المهديون هجرة تشبه هجرة الرسول من مكة الى المدينة ، وأعطى المهدى لقب « الأنصار » الى أعوانه الذين استقبلوه عند وصوله تشبها بالرسول فى هجرته وسمى[٥٦] من صحبه فى هجرته باسم المهاجرين . وفى مكمنة الجديد انتصر على قوة حكومية أخرى بقيادة راشد بك مدير فاشودة فى ٩ ديسمبر ١٨٨١ م وقد انتشر خبر هذا الانتصار أيضا ليقضى على تردد بعض السودانيين فى الانضمام الى المهدية المؤيدة من الله والمحققة لمعجزات انتصار هؤلاء الدراويش على جند الحكومة النظاميين ، بينمـــا أدت هذه المعـــركة الى انزعاج حكمدارية السودان المترددة .

---

(٥٤) روى رءوف باشا قصة الواقعة مختصرة فى تلغراف للحكومة المصرية جاء غيه « قصدت القوة محل اقامته — المهدى — لضبطه فوجدوا بعض اشخاص بهيئة دراويش ينفون عن المائتين نفر مجتمعين وشاهرين بوارقهم ، فعنـــد ذلك امرهم الريس بضربهم بالرصـاص فلم يمتثلوا لامره وقالوا له هؤلاء دراويش فقراء لا يصح ضربهم ولـــا قربوا منهم فهدوا عليهم الدراويش وتمكنوا منهم وقتلوا مائة وعشرين عسكرى وستة ضباط .

(٥٥) د. مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٢٦٠ .

(٥٦) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٧ .

لم تكن حكومة القاهرة على استعداد للتضحية بقوات ترسلها الى السودان مددا فى الوقت الذى تتهدد فيه مصر نفسها أخطار غزو أجنبى، فاكتفت الحكومة المصرية بعزل رءوف باشا من الحكمدارية وتعيين عبد القادر باشا حلمى مكانه الذى وصل الى الخرطوم فى ١١ مايو ١٨٨٢ م ليجد جيجلر Gieglen النمساوى يصرف أمور حكمدارية السودان بعد مغادرة رءوف باشا الخرطوم فى أوائل مارس ، ووصل عبد القادر ليجد حملة عسكرية أخرى يقودها يوسف باشا الشلالى مدير سنار تتجه لمقاتلة المهدى فى جبل قدير ، وقد لقيت هذه الحملة هزيمة كبرى فى ٢٩ مايو ١٨٨٢ م وقتل يوسف باشا نفسه ، وغنم المهدى أسلحة الجيش وذخائره ، فازداد بها قوة ، وذاعت سطوته فى مختلف الأرجاء ، وخاصة فى كردفان ، وتضعضعت هيبة الحكومة ، وصدق الأهلون دعوة محمد أحمد ، بعد هذه الانتصارات المتوالية(٥٧) التى أحرزها المهدى بجيوشه غير النظامية ضد جيوش الحكومة النظاميين المسلحين .

كانت انتصارات المهدى المتتالية على قوات الحكومة مثار دهشة المراقبين ، فان الجيش المصرى هو الذى فتح النيل الأبيض وكردفان ودارفور ، وبحر الغزال وخط الاستواء . ودان له السودان من أدناه الى أقصاه مدة ستين سنة متوالية ، فكيف به ينهزم أمام شراذم مجردة من السلاح والنظام ؟ ان هذا حقا يدعو الى العجب ، ولكن سوء ادارة الحكام وتعاقب المديرين وعدم كفايتهم وقلة اخلاصهم ، وافتقار الجيش الى قواد أكفاء كل ذلك كان له أثره فى اختلال نظام الجند وانهزامهم أمام جموع المهدى . ثم ان شخصية المهدى كان لها بلامراء أثر كبير فى انتصار جموعه ، فقد كان ذا شخصية قوية جذابة ، ولولا ذلك لما استطاع أن يجمع حوله الانصار والاعوان ، ويبعث فيهم روح الطاعة لأوامره ، والاستخفاف بالموت فى سبيل تأييد دعوته ، ولقد كان لمزاياه الشخصية وما عرف عنه من الزهد والصلاة ، وايمانه

---

(٥٧) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١١٩ .

بدعوته وذكائه وحزمه ، كل أولئك كان له أثره فى نجاحه وانتصاره على قوات الحكومة(٥٨) .

تم تعيين عبد القادر باشا حلمى ناظرا للسودان وملحقاته وحاكم عام السودان وملحقاته فى نفس الوقت ، بمعنى توحيد الادارة والحكم فى الاقاليم السودانية بانشاء وحدة ادارية تخضع لها كل هذه المناطق بما فى ذلك مديريات شرق السودان ومحافظات البحر الأحمر وحكمدارية هرر وزيلع وبربرة وتاجورا(٥٩) . وكان عليه مواجهة الثورة المهدية فى الوقت الذى كانت أحداث الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى لمصر تشغل الحكومة المصرية عن الأمور فى السودان ، وفى الوقت الذى أصدر فيه الخديوى بعد الاحتلال أمرا عملا بنصيحة انجلترا بحل الجيش المصرى جيش العرابيين — وبيع أسلحته أو تدميرها .

وكان عبد القادر باشا له من مقدرته وكفاءته ما يجعل منه رجل الساعة فى السودان — وما كانت الوزارة لتجد رجلا أجدر بمثل تلك المهمة ، وما كان كغيره من الحكمداريين السابقين .. اذ كانت ثقته فى نجاح مهمته بالقضاء على الثورة المهدية كبيرة ، فبعث الى القاهرة يقول : ومأمول ان شاء الله الحصول على الغرض المقصود ، وبعد زمن قريب منظور حضور البوستة بالأخبار المبشرة بالظفر والنجاح(٦٠) . وبالفعل استطاع اخماد الثورة فى سنار والجزيرة كلها (الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض) ونكل بالثورة ، وملأ قلوبهم رعبا فانكمشوا أمام هيبته وسطوته ، وضيق على المهدى المسالك ، وشعرى المهدى بخطره ، فكان يدعو الله هو وأصحابه عقب كل صلاة بقوله : اللهم يا قوى يا قادر اكفنا عبد القادر(٦١) .

ولكن عبد القادر حلمى لم يلبث أن صدر أمر خديوى باستدعائه والغاء نظارة السودان فغادر الخرطوم فى أواخر أبريل عام ١٨٨٣ م

---

(٥٨) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٢٠ .
(٥٩) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٩ .
(٦٠) مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٢٦٦ .
(٦١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٢٤ .

وسط استياء السودانيين فى الخرطوم والجزيرة والمصريين وقناصل الدول الأوروبية ورعاياها لأن الكل موقنون بأن الطريقة التى اتبعها عبد القادر باشا ـ بترك المهدى وأتباعه فى صحارى كردفان وحصارهم هناك حتى يتفرق شملهم ـ كانت هى السبب الوحيد فى نجاة الخرطوم وسنار والجزيرة كلها ، وكان من وراء أعماله ما قنط المهدى من التغلب على الخرطوم وأصدر منشورات لكل دعاته فى الجزيرة يأمرهم بكتمان الدعوة مادام عبد القادر باشا حاكما على السودان[٦٢] .

استمر الصراع بين المهديين وبين قوات الحكومة بعد استدعاء عبد القادر بدسيسة انجليزية عند الخديوى توفيق ، وأدرك المهدى أن استمرار الثورة وتقدمها من كردفان أصبح ممكنا بعد رحيل عبد القادر ورغم انتصار قوات الحكومة على الدراويش فى المرابيع بتاريخ ٢٩ أبريل ١٨٨٣ م ، فان الدراويش ما لبثوا أن سيطروا على كروفان وهزموا قوات الحكومة بقيادة جنزال هيكس Hicks الانجليزى هزيمة منكرة فى شيكان فى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ م . وأصبح المهدى بعد هذا الانتصار مسيطرا على كل السودان الغربى دون أى منازع ، وانقطعت مواصلات حامية الخرطوم الصغيرة مع حامية بحر الغزال التى كانت تحت قيادة « لبتون بك » الانجليزى وحامية دارفور التى كانت تحت قيادة « سلاتين بك »[٦٣] النمساوى . كما سيطرت المهدية على السودان الشرقى بقيادة زعيم المهديين هناك عثمان دقنة .

وهكذا استمر أسلوب الثورة المهدية للسيطرة على السودان حتى تم لها ذلك بسقوط الخرطوم فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ م ومقتل جنرال غوردون الانجليزى الذى كانت الحكومة البريطانية قد اختارته لتنفيذ اجلاء المصريين من السودان .. واستمرت الثورة المهدية فى حركتها العسكرية حتى بعد موت المهدى فى يونيو ١٨٨٥ م وتولى عبد الله التعايشى زعامة

---

(٦٢) ابراهيم فوزى باشا : السودان بين يدى غوردون وكتشنر جـ١ ص ١٣١ .

(٦٣) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص٩٨ .

المهدية بعده الذى قاد الجيوش لغزو مصر بدعوى تخليصها من الاحتلال الانجليزى المسيطر على مقدرات الأمور فيها ، حتى تم استرجاع السودان بقوات مصرية انجليزية مشتركة من عام ١٨٩٦ الى عام ١٨٩٨م حيث قضى على دولة المهدية ليقام حكم ثنائى فى السودان يصبح بمقتضاه السودان المصرى الانجليزى •

الدعوة المهدية والقوى الخارجية

وكان على المهدى وأنصاره التعامل مع قوى أخرى غير الشعب السودانى ، تمثلت هذه القوى فى المصريين والانجليز وغيرهم من الأوربيين أما بالنسبة للمصريين فقد انتقد المهدى بشدة موقف الحكم المصرى فى السودان بسبب استعانته بالأتراك والأوروبيين فى حكم البلاد وهؤلاء أساءوا الى أهل البلاد ولم يراعوا أية مبادىء فى تعاملهم مع السودانيين • لأنهم كانوا خليطا من الترك والشراكة والأوروبيين الى جانب المصريين • واذا كان منهم من كان يرعى العدل وينصف المظلومين • فلقد زاد فى ارتكاب المظالم أن السودان كان يعتبر منفى للحكام ، ولم تكن الحكومة ترسل اليه فى الغالب الا الموظفين المغضوب عليهم ، أضف الى هذا أن حكام مصر فى ذلك العصر لم تكن أصولهم مصرية كما لم يكونوا فى الغالب مثال العدل والصلاح ورعاية مصالح المحكومين ، بل ان مظالمهم كانت كذلك من أسباب الثورة العرابية(٦٤) • وعلى هذا هاجم المهدى الحكم المصرى فى السودان وانتقل هجومه الى أنصاره الذين ساهموا فى اقامة حمامات دم للمصريين المقيمين بالسودان بغير ذنب جنوه ، ونسى المهدى فى غرة معاداته وأنصاره للمصريين الأهداف الدينية لدعوته وانجر الى عمليات عسكرية ودموية ضد الحكم المصرى والمصريين المقيمين فى السودان •

ورغم ما أصاب المصريين الموجودين بالسودان على يد المهديين ، فقد كان المهدى يتطلع نحو مصر لتخليصها كما قال من حكم الترك

---

(٦٤) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٠٩ .

والأوروبيين اليهود والنصارى ، فأرسل حسين باشا خليفة مدير « بربر » السابق وصاحب النفوذ الواسع في قبيلته العبابدة في صعيد مصر وصحرائها بمنشور الى أهله وبقية أبناء الشعب المصرى يقول فيه : ولما كان موضوع أمرنا القيام بأمر الدين وجهاد أعداء الله الكافرين ، وقد انتهى أمرهم بالسودان ، وعزمنا بارادة الله على التفرغ لغيرها من البلدان فقد اخترنا الله تعالى ووجهناك أمامنا عاملا عموميا على كافة قبائل جماعتك العبابدة الذين بالجهات البحرية (مصر) وعلى كافة من يرغب الانضمام عليك من القبائل الأخرى(٦٥) .

كما وجه المهدى رسالة الى الخديوى توفيق ينعى عليه تسلط الأجانب على أحوال المصريين وتسلط البدع والخرافات وتعطيل أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأنه بعث بالمهدية الكبرى لأحياء السنة ، وأن الواجب عدم موالاة اليهود والنصارى وأعداء الدين ، وطالبه بالهداية والايمان بالمهدية والا فأنا قادم على جهتك بجنود الله وعن قريب ان شاء الله تعالى فان أمر السودان قد انتهى ، فان بادرتنى بالتسليم لأمر المهدية والانابة الى الله رب البرية فقد حزت السعادة الابدية وأمنت على نفسك ومالك وعرضك أنت وكافة من يجيب دعوتنا معك وان أبيت بعد هذا الا الاعراض عن طريق الفلاح والرشاد فانما عليك اثمك واثم من معك ولابد من وقوعك فى قبضتنا ولو كنت فى بروج مشيدة . وهذا انذار منى اليك وفيه الكفاية لمن أدركته العناية والسلام على من اتبع الهدى(٦٦) .

واذا كان المهدى لم يوجه حملة عسكرية فى حياته لغزو مصر فقد كان ذلك فى نيته ، ومن ثم حرص خليفته عبد الله التعايشى على تحقيق نية المهدى ، فنجده فى مارس عام ١٨٨٧ م يرسل ثلاثة رسائل الى كل من السلطان عبد الحميد والملكة فيكتوريا والخديوى توفيق ، يدعوهم فيها الخليفة الى اعتناق المهدية قبل أن تطأ جوشه بلادهم ، وتنتقم

---

(٦٥) مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(٦٦) نفس المرجع ص ٣٦٥ — ٣٦٦ .

منهم ، وكان غرضه خصوصا من الكتاب الى هؤلاء الثلاثة الحصول على اعترافهم بحكومته[٦٧] حتى يامن على بقاء السلطة فى يده وانتقالها الى ذريته من بعده ، ويحقق فى نفس الوقت آمل المهدية فى السيطرة على كل وادى النيل شماله وجنوبه .

وتنفيذا لتوجيهات الخليفة بغزو مصر قاد حملة الغزو عبد الرحمن النجومى من دنقلة فى ٣ مايو ١٨٨٩ م واتجه بقواته شمالا حتى بلدة بلانة شمالى وادى حلفا وهناك تبودلت الرسائل بين النجومى وقائد القوات المصرية المكلفة بالدفاع عن الحدود الجنوبية وهو سير جرنفيل Grenfell فبينما طالب الاخير من النجومى الاستسلام ، طالب النجومى منه التسليم واعتناق الدين الاسلامى والا فمصيره سوف يكون مصير هيكس وغوردون لأن المهدية تعتزم الاستيلاء على مصر بأكملها . ومن ثم تهيأت الأمور لوقوع معركة عند « طوشكى » فى ٣ أغسطس ١٨٨٩ م التى انهزم فيها الدراويش هزيمة ساحقة وقتل فى المعركة عبد الرحمن النجومى نفسه . وبهذه الهزيمة توقفت مشروعات المهدية لغزو مصر حتى يتم استرجاع السودان بقوات مصرية انجليزية مشتركة عام ١٨٩٦ م .

وفى مجال العلاقات بين المهدية ومصر لابد أن نذكر توضيحا لموضوع الصلة بين المهدى وعرابى ذلك أن حدوث الثورتين فى وقت واحد ولهدف يكاد يكون واحدا قد أوحى الى بعض أن الثورتين من تدبير الانجليز لأنه نتج عن الثورتين تحقيق للمطامع الانجليزية ، ولكن انطلاقا من الحقيقة القائلة بأن الشعبين المصرى والسودانى كانا يعيشان حالة سيئة وكانوا فى البلوى سواء ، تطلع أهل الشمال الى زعيم ينقذهم مما كانوا فيه فوجدوه فى صورة زعيم عسكرى هو عرابى باشا ، وتطلع أهل المنبع الى زعيم ينقذهم مما حل بهم فوجدوه فى صورة زعيم دينى هو محمد أحمد المهدى[٦٨] فانه كان هناك تعاطف بين الرجلين وان لم يتلاقيا .

---

(٦٧) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان . ص ٤٢٥ .

(٦٨) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص ٤٠ .

كان العرابيون يفكرون فى التحالف مع المهدى ، ولم يخف عرابى وهو فى منفاه تأييده وميله الى المهدى ، وأعلن أنه كان ينوى تعيينه حاكما عاما على السودان[٦٩] • وكان المهدى يعطف على عرابى ولعل قيام عرابى ضد الحكومة المصرية قد صادف هوى فى نفسه مما شجعه على تقليده ، وجعله موضع عطفه وتقديره[٧٠] • ويذكر البعض أن المهدى أثناء حصار الخرطوم فى يناير ١٨٨٥ م أمر رجاله بالمحافظة على حياة جنرال غوردون ، قائلا : أني أريد أن أفتدى به أحمد عرابى باشا[٧١] •

ولم تكن علاقة المهدية بالدولة العثمانية بطبيعة الحال علاقة طيبة لأن السلطان العثمانى وخليفة المسلمين ساءه ظهور هذه الدعوة وثورتها على السيادة التركية ، ومن ثم نجد السلطان يصف المهدى بأنه نبى مزيف وأنه متمهدى وأنه شقى دنقلة •• كل هذه الصفات لأن دعوة المهدى فيها خروج على فكرة الخلافة العثمانية وأن ثورة السودان كانت تهدف — بمحاولتها تغيير الوضع القائم — الى رفع كل سيادة لتركيا على السودان • ومن ثم شعر السلطان العثمانى بأنه قد أهين فى شخصه كخليفة للمسلمين ، ومن الطبيعى أن يهاجم الخديوى فى مصر المهدية ويصفها بالتمرد على سلطة خليفة المسلمين وصاحب السيادة الشرعية على كل من مصر والسودان •

وأما علاقة المهدية بانجلترا فقد بدأت منـــذ كان بعض الموظفين الخديويين الانجليز يتولون وظائف الادارة والحكم فى السودان منذ عهد الخديوى اسماعيل وقد كره السودانيون شـــطط هؤلاء الموظفين الانجليز فى محاربة تجار الرقيق بشكل فيه قسوة وظلم صارخ ، الى جانب الروح الاستعمارية التى عمل بها هؤلاء الموظفين فى مديرياتهم :

---

(٦٩) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١١٤ .

(٧٠) ابراهيم فوزى : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٩٨ .

(٧١) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص ٤١ .

غوردون فى خط الاستواء ثم حكمدارا للسودان بأكمله ، لبتون فى بحر الغزال ، ومن قبلهم صموئيل بيكر . وغيرهم الذين أساءوا الى وجه الحكم المصرى عند السودانيين فكرههم هؤلاء وكرهوا معهم الحكم المصرى وشملت الثورة دعوة لانهاء الحكم المصرى فى السودان الذى أتى بأجانب ليسيئوا معاملة السودانيين .

وعندما احتلت انجلترا مصر عام ١٨٨٢ م كانت ثورة المهدى مشتعلة فى السودان ، فاتخذت الحكومة الانجليزية قرارين — أصدرهما الخديوى بناء على نصيحة انجلترا — يقضيان بحل الجيش المصرى (جيش العرابيين الثائر على الخديوى) وبيع أسلحته أو تدميرها . وكان لهذين القرارين أثرهما الخطير على الموقف فى مصر والسودان فى الوقت الذى تحتاج فيه حكمدارية الخرطوم الى قوات مسلحة لتقضى بها على الثورة المهدية . ولكن انجلترا التى سيطرت على مقدرات الأمور فى مصر والسودان كان لها رأى آخر .

اكتفت سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر بمعرفة حقيقة ما يدور فى السودان فأرسلت بعثة برئاسة الكولونيل « ستيورات » منذ ديسمبر ١٨٨٢م ، فى الوقت الذى كان فيه عبد القادر باشا حلمى بالخرطوم ، فأرسل الى الخديوى تقريرا فى ٣٠ ديسمبر عن تصرفات ستيوارت جاء فيه : من اختبار أحوال المومى اليه — ستيوارت — تبين لنا أنه يريد اظهار سطوتهم بهذه الجهاد ، وبناء عليه قد نصحناه بالمحسوس بتعريفه أن الحركات الحاصلة هى تحركات دينية ، وأن ذلك يفتح بابا للشقى — المهدى — لتأييد ما يوهم به على العربان ويوجههم للثبات على تصديقه واتباعه(٧٢) . فكلف الخديوى ياوره أحمد حمدى بالتوجه الى الخرطوم ومعه تعليمات للحكمدار «بالاتحاد مع الكولونيل استاورت — ستيورات — فى الآراء النافعة وأن يجاريه فى طلباته ولا يحصل له منه ما يتظاهر منه النفور أو التقصير »(٧٣) .

---

(٧٢) وثائق السودان /١ تلغرفات حكمدارية السودان .

(٧٣) وثائق السودان /١ مأمورية احمد حمدى بك الى السودان /١ بخصوص بعثة ستيورات .

وفى الوقت الذى أظهر فيه سلطات الاحتلال الانجليزية رغبتها فى عدم التدخل فى السودان سمحت لضباط انجليز بالعمل فى السودان ، وكان جنرال هيكس أحد هؤلاء الضباط الذين استفاد المهديون من وجودهم على رأس القوات المصرية فى اثارة الروح الوطنية والدينية عند السودانيين ، وفى الوقت الذى انغمس فيه هيكس فى خلافات مع القادة المصريين فى السودان من أجل أن ينفرد بالقيادة والسيطرة ، فكان مصيره كما رأينا فى موقعة شيكان فى نوفمبر ١٨٨٣ م فكان هذا الموقف الانجليزى مبعث الكارثة التى وقعت لجنرال هيكس ، كما كان كذلك مبعث الكارثة الادهى الأخرى التى وقعت بمقتل جنرال غوردون فى يناير ١٨٨٥ م(٧٤) .

وكانت كارثة هكس سببا فى أن الحكومة البريطانية تقرر سياسة اخلاء السودان وارسال غوردون الى السودان لتنفيذ هذه السياسة ، واجبار الحكومة المصرية على قبولها فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة المصرية قد وصلت الى قرار بالمحافظة على الخرطوم واعادة فتح الطريق بين سواكن وبربر(٧٥) ، ولكن اختيار غوردون لم يكن اختيارا موفقا ذلك أن « جراهام » الذى كان يلازم غوردون أثناء وجوده بالقاهرة أوضح أن غوردون أعتقد أن المهدى مجرد رمز وأنه ليس فى استطاعته الهجوم طالما أن أتباعه لن يتقدموا بعد حدودهم القبلية وربما كان هذا أكبر عدم ادراك وتقدير للموقف الذى قاسى منه غوردون(٧٦) .

وعندما كان غوردون فى الخرطوم ويتعرض لحصار من المهديين أرسل مدير دنقلة برقية الى المعية السنية — بلاط الخديوى — بأن المسموع عن الخرطوم أن العدو — المهديين — محاصرها وممنوع وصول المئونة اليها ، وأن المهدى مؤكد على جيوشه المحاصرين بضبط غوردون

---

(٧٤) Shibeika : British Policy in the Sudan, p. 79.

(٧٥) Cromer, Modern Egypt, p. 291.

(٧٦) Shibeika, Ibid, p. 168.

باشا حيا لاجعاله أسير مقابلة أسر الانكليز الى عرابى ، وأبلغه أن غردون باشا قال بأنه ان لم تحضر اليه امدادية من دولة الانجليز يسلم ويتسلم للمتمهدى ، والمأمول أنه اذا حضرت قوة كافية فيكون متكفل بانقاذهم بشرط أن يكون هو قايدهم »(٧٧) .

وبعد سقوط الخرطوم فى يد المهدى وظهرت نوايا الدول الأوروبية وأطماعها فى اقتطاع أجـزاء من السودان وملحقاته اتخذت انجلتـرا سياسة متناقضة ، فبينما كان الانجليز يحاولون رد عدوان بعض الدول الأوروبية التى تطمع فى اقتطاع أجزاء من جنوبى السودانى زاعمة أن تلك الأصقاع لم تكن ملكا لاحد Res Nullius فى أرضا فضاء يستطيع أن يستحوذ عليها من يشاء (وكانت خاضعة للسيادة المصرية) كانوا فى الوقت نفسه يحاولون أن يتخـذوا حقوق مصر فى السـيادة على السودان رغم اخلائه تكئة يستندون اليها فى عقد اتفاقيات مع بعض الدول الأخرى لتقسيم الممتلكات المصرية ذاتها فى السودان الشرقى وعلى طول الساحل الصومالى(٧٨) .

وعندما تم استرجاع السودان بقوات مصرية انجليزية مشتركة وبقيادة جنرال كتشنر الانجليزى أمر القائد بتدمير قبـة المهـدى فى أم درمان وتعقب المهديين ومصادرة أموالهم ، وهو يقصد بذلك أن يثير نفوس السودانيين من المصريين ، رغم أن الضباط المصريين اسـتاءوا جدا لرفع العلم الانجليزى ــ على سراى الحكومة بالخرطوم الى جانب العلم المصرى ــ واحتجوا على ذلك(٧٩) ثم لم تلبث الحكومة البريطانية

---

(٧٧) وثائق السـودان ــ تلغرافات ومكاتبات تتعلق بثورة المهـدى ٤/٢/٢ .

(٧٨) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسيادة على السودان ص ٦١ .

(٧٩) احمد شفيق بك : مذكراتى فى نصف قرن حـ ٢ ص ٢٨٨ .

أن أبلغت الحكومة المصرية أن لانجلترا حق الاشتراك فى حكم السودان بما ضحت فيه من المال والرجال •

كان على المهدية — بعد وفاة المهدى بصفة خاصة — مواجهة الاطماع الاستعمارية فدارت المعارك بين الدراويش والايطاليين وهى معارك غير حاسمة فى الوقت الذى ظهرت فيه اطماع ليوبولد ملك بلجيكا وصاحب دولة الكنغو فى بحر الغزال ، وفرنسا فى أعالى النيل • وقد عبر الرئيس الفرنسى « كارنو » لوزير المستعمرات الفرنسية وذكر له : اننى سأكون مسرور لاثارة المسألة المصرية ، فالسودان المصرى انما هو أرض خلاء ، وأن فرنسا فى حاجة الى منفذ على النيل لاملاكها فى « أوبانجى » وأطلعهم على تقرير حول التقدم نحو فاشودة التى تقرب من رافد السوباط والنيل ، وبواسطة هذا الموقع فان فى استطاعة فرنسا أن تعوق البلجيكين ، وفى نفس الوقت تخيف البريطانيين خارج مصر بالتهديد بقطع مياه النيل عن مصر(٨٠) •

وفى فاشودة يحدث الصدام بين القوات الفرنسية التى سبقت واحتلت البلدة فى ١٠ يوليو ١٨٩٨ م ورفعت العلم الفرنسى عليها ، والقوات المصرية بقيادة كتشنر الانجليزى التى وصلت الى البلدة فى ٢١ سبتمبر بعد استرجاع الخرطوم ، لولا تراجع فرنسا فتأمر بسحب قواتها — خلافات بين الاستعمار لصلحة استعمارية لا مصلحة المصريين أو السودانيين — ووجه الأهمية فى حادث فاشودة أنه كان أحد مظاهر المنافسة الشديدة وقتئذ بين انجلترا وفرنسا على الاستعمار فى أفريقيا عموما وحوض النيل خصوصا على حساب حكومة المهديين ، وهى كذلك مظهر للنزاع الفرنسى والانجليزى حول المسألة المصرية مسألة الاحتلال الانجليزى • وحادث فاشودة كذلك أثار مسألة حقوق السيادة للفصل فيما اذا كان الخليفة عبد الله قد أقام دولة لها كل حقوق السيادة على الأراضى الداخلية فى نطاقها ، وفيما اذا كانت نظرية الملك المباح هذه

---

(٨٠) Langer, Diplomacy of Imperialism, p. 129.

انما تنطبق على كل السودان بما فى ذلك الأقاليم موضوع النزاع فى حوض النيل الأعلى وبحر الغزال ، أو فيما اذا كان لا يمكن مطلقـا اعتبارا السودان ملكا مباحا لأن المهدية حركة ثورية اغتصبت السلطة من الحكومة الشرعية فى البلاد ، وأن كل الأثر الذى ترتب على اخلاء المصريين للسودان أن حقوقهم فى السيادة عليه صارت معطلة فقط ، وفيما اذا كانت مصر قد عادت فقـط تمارس حقوقا فى السـيادة على السودان بسبب استرجاعها لهذه البلاد نتيجة للعمليات العسكرية التى انتهت بالفتح الجديد •

ومنذ أنهت موقعة أم درمان حكومة الخليفـة عبد الله التعايشى استأثر السودان باهتمام الانجليز كمجال لاستعمارهم ، وذلك بتنظيم حكم هذا الاقليم بصورة تتيح لهم السيطرة الكاملة على ادارته ، وابعاد تركيا عن ممارسة حقوق السيادة القديمة التى كانت لهـا ، والسماح لمصر بالمشاركة فى الحكم على أساس أن مصر صاحبة سيادة قديمة منذ الفتح وجديدة باشتراك قواتها فى حملات الاسترجاع • ولقد توصل المسئولون الانجليز الى تدبير هذا النظام الذى يكفل كل الأغراض التى ذكرناها والذى عرفت باسم النظام الثنائى للحكم فى السودان عـام ١٨٩٩ م ، وكان اللورد كرومر — المعتمد البريطانى فى مصر — هو المسئول الأول عن ابتكار هذا النظام(٨١) •

ويدافع كرومر عن نظامه بقوله : ان مصر جنت فوائد ليس فى الاستطاعة تقديرها بالأرقام فقد زال خطر الغزو لمصر من الجنوب نهائيا وبذا تخلصت مصر من نفقات عسكرية باهظة • وكذلك ضمنت موارد مياهها ، وكان من المحتمل أن تقام مشروعات رى كبرى فى السودان تجعل حياة مصر الزراعية فى خطر ، كذلك انتعشت التجارة بين القطرين، وبعد ذلك كله يحق لمصر أن تفخر كما لبريطانيا أيضا بأن اعادت السودان الى حظيرة المدنية والحضـارة(٨٢) • وهو دفاع لا يستند على أسس

---

(٨١) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٥٤٤ .

(٨٢) مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٤٧٥ .

منطقية فضلا عن أنه يكشف النوايا الاستعمارية التى رأت أن الادارة الجديدة فى السودان يجب أن تسيطر عليها أيادى بريطانية حتى لا تعود المظالم التى ارتكبت فى العهد الماضى والتى يرى أنها رمت بالبلاد فى أتون الثورة المهدية[٨٣] .

تقييم الدعـوة المهـدية

انطلقت دعوة محمد أحمد من البداية منطلقا دينيا شأنها شـأن غيرها من الحركات السلفية ، ولكنها سارت شوطا أبعد من غيرها فى عدائها للقوى المختلفة صاحبة السلطة الشرعية ، فاذا كانت الدعـوة المهدية قد فاقت الدعوة الوهابية فى أسلوب انتشارها باتباعها الأسلوب الثورى وبالحروب ، فانها اختلفت مع الدعوة السنوسية فى الأسلوب كما اختلفت مع الدعوتين الوهابية والسنوسية فى الظهور بفكرة المهدى المنتظر وتكفير كل من لم يؤمن بها ، بل واشاعة اتصال المهدى بالنبى فى المنام وتحويل الخليفة قبة المهدى الى مكان يحج اليه السودانيون ويستعيضون عن الحج الى مكة المكرمة .

لقد انشغل المهدى بالعمليات العسكرية عن التفرغ للناحية الدينيه. فلم يتفرغ لوضعها وشرحها ولم يتواجد من أتباعه من يستطيع حمل هذه الأمانة كما أرادها المهدى ، فالعلماء ظاهرت غالبيتهم المهدية خوفا على أرواحهم وأرزاقهم ، والمؤمنون بها لم يكونوا بأهل علم ومعرفة ، هذا على عكس الدعوة الوهابية التى أسسها رجل علم ودين وقدر لابن عبد الوهاب أن يتوالى علماء من المذهب يتوافرون على شرحه وتفسيره وتأليف الكتب عنه[٨٤] . وحتى خليفته لم يفعل ما يزيد المهدية وضوحا بل اكتفى بما تركه المهدى من تراث فى منشوراته ، ورسائله وتعاليمه .

ومما يؤخذ على المهدية ما يلى :

---

(٨٣) نفس المرجع ص ٤٦٣ .

(٨٤) مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٣٧٠ — ٣٧١ .

أولا : الادعاء بفكرة المهدى المنتظر ، وهو ادعاء يجد له صدى فى نفوس المسلمين الذين يتناقلون عن الأجيال السابقة قصة ظهور المهدى المنتظر فى هذه الفترة من الزمان ، ورغم أن المهدى استطاع أن يلهب نفوس مواطنيه السذج بدعواه أنه انما جاء مبعوثا من أجل تخليص البلاد من الشرور والآثام واقامة صرح حكومة جديدة على أسس من الدين القويم ، فقد كان من المستبعد أن يكون محمد أحمد هو ذلك المهدى، وكان السنوسيون أعظم الناس ريبة فى ذلك[٨٥] .

وقد استنكر السنوسيون دعوى محمد أحمد هذه ورفض السيد محمد المهدى السنوسى زعيم السنوسية الاستجابة لنداءات محمد أحمد وخليفته من بعده بالانضمام الى الثورة السودانية لغزو مصر ، ولكن المهدى السنوسى الذى سمع عن عنف المهدية فى السودان بقتل الأنفس وسلب الأموال وهتك الاعراض عند الانتصار فى المعارك طلب الى الشعوب الاسلامية خصوصا فى واداى وبرنو والبلاد المجاورة أن تمتنع عن تأييد مدعى المهدية محمد أحمد الذى لم يكن الا مخادعا كاذبا[٨٦] .

ثانيا : التشبيه بمحمد عليه الصلاة والسلام :

خالف المهدى كلا من محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن على السنوسى فى هذه الناحية أيضا ، ذلك أنه ادعى أن النبى محمد ﷺ يأتيه فى المنام ، وعندما انتقل من « آبا » الى جبال النوبا جنوب كردفان أطلق على هذا الانتقال هجرة ومن صحبه مهاجرين ، كما أطلق على أهل كردفان الذين استقبلوه فى أراضهم وسمحوا له بالبقاء فيها اسم الانصار ، ثم أنه أخذ يرسل الكتب الى زعماء القبائل والدول الأخرى يطلب منهم اعتناق المهدية والدخول فى طاعتها حتى يفوزوا

---

(٨٥) د. محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٧٠ ـ ٧١ .

(٨٦) نفس المرجع ص ٧٢ .

بالدارين النيا والاخرى . بل أكثر من هذا اتخذ له أربعة خلفاء أولهم عبد الله التعايشى — تشبها بالخلفاء الراشدين وقد اختارهم من بين صحابته وعرض على السيد محمد المهدى السنوسى أن يضعه فى مقام الخليفة الثالث — عثمان بن عفان — فى نظير أن يقوم السيد المهدى السنوسى من جهته بشن الحرب على الانجليز فى مصر ، ولكن السيد السنوسى رد على مهدى السودان بان مقام عثمان لا يناله لا أنا ولا أنت(٨٧) .

ثالثا : عجز المهدى عن تحقيق الدعوة الدينية :

يذكر مكى شبيكة(٨٨) أن الانتصارات الحربية للمهدى طغت على الناحية الدينية من رسالته ، وهو نفسه لم يتفرغ لوضعها وشرحها ، وكان ينوى ذلك بعد سقوط الخرطوم لولا أن عاجلته المنية قبل أن يقطع شوطا فى ذلك ، واذا كان خلفاؤه وأنصاره قاموا بأعباء الرسالة من وجهتها الحربية فان الناحية الدينية لم تجد من يخصص جهوده ووقته لها .

فنحن وان كنا نؤمن بأن وفاة المهدى أول نذير باخفاق الثورة المهدية ، اذ كان هو بلا مراء روحها وقوامها ، وكانت الانتصارات التى نالها قد رفعت شأنه وزادت مهابته فى النفوس ، فكانت شخصيته هى دعامة الدولة المهدية المترامية الأطراف التى أسسها فى السودان(٨٩) ، فاننا رأينا كثيرا من ادعاءات المهدية لم يتحقق فى حياة محمد أحمد ، فلا هو غزا مصر ، ولا هو فتح مكة ، بل ان نفوذ المهدى كان قد بدأ يضعف فى الشهور الاخيرة من حياته لاسباب متعددة ، ومنها أنه ترك حياة الزهد والتقشف الأولى لينغمس فى حياة الترف والبذخ ، ومنها أنه ترك الأمور تفلت من يده فاستأثر بالسلطة الفعلية خليفته عبد الله

---

(٨٧) د. محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٧٢ .

(٨٨) مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٢٧٠ .

(٨٩) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى اوائل عهد الاحتلال ص ١٥٩ — ١٦٠ .

التعايشى ، ومنها أنه لم يفعل شيئا بعد سقوط الخرطوم والاطمئنان الى زوال كل آثار الحكومة القديمة فى السودان لبينى الدولة الجديدة التى كان من واجب المهدية المبادرة بوضع أسسها من الآن ، وعجز المهدى عن استبدال سياسة التعمير والانشاء بأساليب العنف واثارة شعور التعصب الدينى[٩٠] .

وحقيقى أن الثورة المهدية فى عهد محمد أحمد لم تكن الا فورات دينية متتابعة وتعتمد فى انتشارها على سمعة المهدى وشهرته الشخصية كزعيم دينى قبل أى اعتبار آخر وأن زعامة المهدى كفت عندئذ لتوجيه الثورة ، فعاشت هذه من غير تنظيم لأن زعامة المهدى أغنت عن التنظيم فى هذه المرحلة ، ولأن النزاع كان لا يزال قائمــا بين المهــديين وبين السلطان الحكومة الشرعية[٩١] . فقد كان على الخليفة عبد الله التعايشى أن ينشىء نظاما حكوميا لمواجهة مشكلات الحكم والادارة والحرب ، الا أن الخليفة لم يكن له المقام الذى كان للمهدى ولا نفوذه المعنوى وكان ينقصه كثير من المزايا والصفات التى اجتذب بها المهدى قلوب أنصاره ، فلا غرو أن كانت ولايته ايذانا بتداعى الدولة المهدية ، ولم يكن يطمع الا فى استبقاء نفوذه فى البلاد التى دانت للمهدى[٩٢] .

هذا بالاضافة الى عجز المهدية عن صد تيار الاطماع الاستعمارية الأوروبية الزاحف لاقتطاع أجزاء من السودان وملحقاته ، ففى عهد الخليفة ــ حكومة الخليفة عبد الله التعايشى ــ انتزعت أملاك مصر فى الصومال وساحل البحر الأحمر وفى السودان التهمها القوى الأوروبية المتسابقة والمتنافسة . فقد احتــل الاحباش كلا من اقليمى بوغوص وهرر ، واقتسم الانجليز والفرنسيون والطليان بلاد الصومان فيمــا بينهم ، وأخلى الدراويش بحر الغزال ودارفور ، وتوغل الانجليز فى

---

(٩٠) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤١٥ .

(٩١) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٩٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٦٠ .

أوغنده ، والفرنسيون والبلجيكيون فى اقليم بحر الغزال حتى وصلوا الى حوض النيل الأعلى فى السنوات التالية ، أى أن الدراويش عجزوا كل العجز عن الاحتفاظ بتلك الامبراطورية التى أسسها المصريون خلال ستين عاما فى شرق ووسط أفريقيا[٩٣] .

كل ذلك كان من الطبيعي أن يحقق انهيار المهـدية تماما دون أن يكون هناك أمل فى قيامها مرة أخرى ، وعلى ذلك فانه بمجرد استرجاع السودان وفرض اتفاقية الحكم الثنائى لم يدافع عن المهدية الكثيرين من السودانيين الذين عاشوا فى كنفها وتحت سلطتها ، ولعل سبب ذلك أن المهدية لم تجد من رجالها فلاسـفة يؤصلون أفـكارها ويشرحون تعاليمها ويكونون صـفوفا من أنصـارها يحملون رسالتها ويتناقلونها جيلا بعد جيل ، كما أن المهدية بعـد موت صاحبها عاشت فتـرة من الخلافات والانقسامات بين القبـائل وبين حكومة الخليفـة حتى صار السودانيون يأسفون على زوال عهد الحكم المصرى .

وكان يمكن للثورة المهدية أن تصبح حـركة وطنية ناجحـة لولا ما شابها من عنف وبطش ليس فقط بالأوروبيين والأتراك والمصريين بل وبالسودانيين أيضا ، ولولا ادعاء أمور لا تجد قبولا حتى من السودانيين أنفسهم الذين كان معظمهم يدخلون فى طاعة المهدية رغبة فى مغنم أو خوفا من بطش رجالها . وقد كان وقوع مصر تحت الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ م من الكوارث التى حلت بمصر والسودان ، حيث عمـل الانجليز على التفرقة بين أبناء وادى النيل شماله عن جنوبه .

---

(٩٣) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤١٤ .

الباب الرابع

بعض مظاهر اليقظة العربيـــة الاسلامية

* مقـــــدمة ٠

* الفصل الثالث عشر : خروج المسلمين من الأندلس والجهاد البحرى الاسلامى فى البحر المتوسط ٠

* الفصل الرابع عشر : الجهاد البحرى الاسلامى فى الخليج العربى ٠

* الفصل الخامس عشر : الجامعة الاســـلامية ٠

مقـــــدمة

يتناول الباب الرابع من هذا الكتاب موضوعات ذات صلة بحركة اليقظة العربية الاسلامية ، تلك الحركة التى تمثلت فيما سقناه فى الباب الثالث من مظاهر هذه الدعوات السلفية المعروفة بالوهابية ، والسنوسية ، والمهدية .

وفى هذا الباب الرابع نعالج من خلال ثلاثة فصول تعالج ارتباط خروج المسلمين من الأندلس الذى اكتمل بسقوط آخر معاقل المسلمين هناك فى غرناطة عام ١٤٩٢ م ، ارتباط هذا الخروج برد فعـل عربى اسلامى تمثل فى حركة الجهاد البحرى الاسلامى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط قامت على أكتاف رجال البحر من أقطار شمال أفريقيا العربية ضد البرتغاليين والأسبان وفرسان القديس يوحنا وامتدت تلك الحركة من القرن الخامس عشر الى القرن التاسع عشر الميلادى حينما سيطر الاستعمار الأوروبى على الأقطـار العربية الاسلامية بشـــمال أفريقيـا ..

كما شهد الخليج العربى كذلك نشاطا لرجال البحر من القبائل العربية الخليجية البرمائية خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر وسنوات من القرن التاسع عشر فى اطار حـركة الجهاد البحرى الاسلامى ضد سفن أعداء الاسلام والعروبة بدءاً بالبرتغاليين وامتدادا الى البريطانيين ..

وكان موضوع الجامعة الاسلامية مظهر هام من مظاهر اليقظـة العربية الاسلامية ، ومن ثم استعرضنا الفكرة هنا وسقنا الظروف التى سادت العالم الاسلامى وأسس هذه الفـكرة والرجال الذين ارتبطت أسماؤهم بفكرة الجامعة الاسلامية ، ثم دراسة للفكرة ولماذا لم تتحقق..

الفصل الثالث عشر

خـــروج المســـلمين من الأنـدلـــس
والجهاد البحرى الاسلامى فى البحر المتوسط

* خروج المسلمين من الأندلس ٠
* الجهــاد البحرى الاسلامى ٠
* جهــاد المراكشــــيين ٠
* جهــاد الجـــزائريين ٠
* جهــاد التونســـيين ٠
* جهــاد الطرابلســـيين ٠

خروج المسلمين من الأندلس :

جاء سقوط الأندلس فى يد الأسبان الكاثوليك أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ايذانا ببدء حركة الجهاد البحرى الاسلامى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط والتى امتدت حتى القرن التاسع عشر عندما اصدمت تلك الحركة مع الغزو الاستعمارى الأوروبى لأقطار شمال أفريقيا العربية المسلمة ..

واذا كان سقوط الأندلس فى يد الأسبان الكاثوليك بعد أن بقى فى أيدى المسلمين حوالى ثمانمائة سنة قد مر بعدة مراحل وتوفرت لذلك عدة عوامل فان سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس فى أيدى الأسبان الكاثوليك عام ١٤٩٢ م يمثل خاتمة مراحل الصراع على ارض شبه جزيرة أيبيريا بين المسلمين وبين الكاثوليك ، وبداية مرحلة الجهاد البحرى الاسلامى بين الطرفين فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ..

ولقد كانت عوامل الصراع على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية تتمثل ليس فقط فى مقاومة أهل شبه الجزيرة للفاتحين المسلمين ، بل لقد شغل الفاتحون أنفسهم بما وقع بينهم من مخاصمات وحروب ، فقد ثارت العداوات بين قبيلة وقبيلة ، وبين البربر والعرب ، وبين القيسية واليمنية، وبين الشامية والمدنية[١] ..

كما كان لزواج ولاة الأندلس العرب وأمرائهم بالأسبانيات من أسباب ضعف المسلمين فى الاندلس ، حيث كان لذلك تأثيره على العرب المسلمين وعلى الدولة الاسلامية فى الأندلس لم تظهر نتائجه الخبيثة الا عند ضعف الدولة ، وقد أدى هذا التزاوج من الأسبانيات للتأثير فى طبيعة العرب ، ولا سيما البربر فرقق من أخلاقهم وأضعف من وحدتهم[٢] ..

---

(١) آخل جنثالث بالنثيا ترجمة د. حسين مؤنس : تاريخ الفكر الأندلسى القاهرة ١٩٥٥ ص ١ .

(٢) محمد لبيب التنونى : رحلة الأندلس الطبعة الثانية — القاهرة ص ٣٢ .

وكان أول من تزوج من العرب بالأسبانيات عبد العزيز بن موسى ابن نصير ، فقد تزوج بالسيدة « ايلونا » أرملة لذريق ملك القوط بعد أن مات اثر خروجه فى واقعة « شريش » التى تغلب عليه فيها طارق بن زياد ، وتزوج الأمير محمـــد بن عبد الله بن محمـــد بن عبد الرحمن الأوسط بأسبانية اسمها مارية ورزق منها بولده عبد الرحمن الناصر ، وتزوج الحكم بن الناصر بالسيدة « صبح » « البشكنسية » وأعقبت له هشاما المؤيد[٣] ..

كما تزوج المنصور بن أبى عامر بنت « سانكو » ملك « نافاريا » وولدت له ابنه عبد الرحمن ، وتزوج المأمون بن الناصر سلطان الموحدين أسبانية اسمها « حباب » وخلف منها ابنه « الرشيد » ، وتزوج السلطان محمد بن أبى الحسن بن الأحمر بالسيدة « ثريا » الأسبانية وولدت له ابنه عبد الله ، كما كانت أم عبد الحق بن أبى سعيد سلطان بنى مرين أسبانية[٤] ..

ورغم محاولة عبد الرحمن بن معاوية (من ١٣٨ ـــ ١٧٢ هـ الموافق ٧٥٥ ـــ ٧٨٨ م) انقاذ الاسلام فى الأندلس بعد أن شهدت البلاد حروبا بين العرب بعضهم مع بعض ونزاعا بين الرؤساء على الولاية حتى حازها منهم أربعة وعشرون واليا فى خمس وأربعين سنة[٥] ، فان ثورة قرطبة ضد أولاد المنصور والفتنة الكبرى التى أعقبتها قاضيتين على الخلافة ، وقد تطاحنت على دفة الأمور خلال هذه الفتنة طوائف شتى كان كل منها يحسب أنه قادر على قطع دابر الفتنة واعادة الدولة وتسيير الأمور فقامت عقب سقوط الخلافة حكومة فى قرطبة أشبه بحكومات البلديات عام ٤٣١ هـ الموافق لعام ١٠٣١ م ..

وقد انتهى الصراع بين الطوائف الى تحزبها خلال أدوار الفتنة الأهلية فى طوائف ثلاث متعادية فيما بينها وهى :

---

(٣) نفس المرجع : ٣١ .
(٤) نفس المرجع ونفس الصفحة .
(٥) آنخل جنثالث بالنثيا : المرجع السابق ص ٢ .

١ ـ البربر : وقد استولوا على الجزء الجنوبى من الأندلس •

٢ ـ الصقالبة : وقد انحازوا الى شرق الأندلس واستبدوا به •

٣ ـ الأندلسيون : وقد أقاموا دولتهم فيما بقى للمسلمين من الجزيرة(٦) •

وفى ذكر صقر قريش (عبد الرحمن الداخل) قال الشاعر أحمد شوقى يصف ملكه وما آل اليه بعده قصيدة منها :

قصرك (المنية) من قرطبة	فيه وارؤك ولله المصير
صدف خط على جوهرة	بيد أن الدهر نباش بصير
لم يدع ظلا لقصر (المنية)	وكذا عمر الأمانى قصير
كنت صقرا قرشيا علما	ما على الصقر اذا لم يرمس
ان تسل أين قبور العظما	فعلى الأفواه أو فى الأنفس(٧) •

وكان أنقسام الأندلس الى دويلات صارت لها حكومات ضعيفة ترأس كل منها ملك أحد عوامل ضعف المسلمين هناك أمام هجمات الأسبان الكاثوليك ، حيث أخذ ملوك الطوائف يبنون لأنفسهم فى شباب دولهم مجدا أثيلا وذكرا جميلا بما كان لهم من علم وفضل وكرم ، وكان فى مقدمة بلادهم « اشبيلية » لما كان فيها من واسع العمران وناصع الحضارة وجليل الأمارة فى زمن بنى عباد الذين راجت سوق العلم والأدب فى دولتهم ولا سيما أيام المعتمد آخر ملوكهم(٨) ••

ونتيجة لخلافات ملوك الطوائف التى لم تتوقف أبدا عمل الملك الأسبانى « ألفونسو السادس » بعد استيلائه على « طليطلة » عام ٤٧٨ هـ الموافق لعام ١٠٨٥ م على زيادة شقة الخلاف بين أمراء المسلمين بالأندلس بأن يساعد بعض ملوك الطوائف على بعض ، ويتدخل فى شئون مملكة بلنسية ، وعظمت قوته واشتد خطره على المسلمين حتى خافه

(٦) نفس المرجع ص ١٣ .

(٧) احمد شوقى بك : دول العرب وعظماء الاسلام ، مطبعة مصر ـ القاهرة ١٩٣٣ ص ٧٨ ـ ٨٦ .

(٨) محمد لبيب البتنونى : المرجع السابق ص ٨٤ .

المعتمد ودخل فى ولائه وزوجه احدى بناته[٩] ..

واذا كان المعتمد بن عباد قد وصل الى هذه الدرجة من الهوان ، وهو الذى تولى الملك بعد أبيه المعتضد عام ٤٦١ هـ الموافق ١٠٦٨م والذى وصف بأنه أكبر ملوك الأندلس فى وقته ملكا وأنفذهم رأيا وأعظمهم سلطانا حتى توفى بأسر رئيس دولة « المرابطين » يوسف بن تاشفين « ببلدة « أغمات » وهى بلدة وراء مراكش بعد أن استجار بالأخير لمدافعة الأسبان الكاثوليك[١٠] . فان ذلك يعد علامة على تقلص نفوذ المسلمين بالأندلس لصالح الأسبان ..

ومنذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى انكمشت دولة الاسلام بالأندلس واقتصرت على مملكة غرناطة وملوكها بنو الأحمر ، ونتيجة لهذا الانكماش بالاندلس هاجر علماؤها الى مراكش والى بلاد المشرق الاسلامى حيث استقروا وأخذوا ينشرون علومهم[١١] . وكان ذلك من دلائل أفول نجم المسلمين بالأندلس ..

وفى الوقت الذى ينتقلص فيه الوجود الاسلامى بالأندلس يتسع فيه نفوذ وملك الأسبان حتى أصبحت غرناطة محاطة بممالك مسيحية معادية تتربص بها . وحيث بدأ ملك بنو الأحمر بغرناطة عام ٦٣٥ هـ الموافق لعام ١٢٣٧ م على يد محمد بن الأحمر ، فان الصراعات الدموية أضرت بملك بنى الأحمر ، وان كان محمد بن يوسف الملقب بالغنى بالله عام ٧٦٠ هـ الموافق ١٣٥٨ م قد قويت شوكته فعمل بحسن سياسته على استرداد كثير من البلاد التى استولى عليها الأسبان مدة أسلافه وهو الذى استوزر لسان الدين بن الخطيب ، ووفد عليه عبد الرحمن بن خلدون عام ٧٦٣ هـ الموافق لعام ١٣٦١ م وأقام فى خدمته ثلاث سنوات[١٢] .

---

(٩) آنخل جنثالث بالنثيا : المرجع السابق ص ١٨ .
(١٠) محمد لبيب البتنونى : المرجع السابق ص ٩١ .
(١١) آنخل جنثالث بالنثيا : المرجع السابق ص ٢٤ .
(١٢) محمد لبيب البتنونى : المرجع السابق ص ١٠٨ .

وكان فى ذلك الوقت أن بـدأ البرتغاليون فى مهاجمـة الشواطىء المراكشية فيما عرف باسم حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية ، حيث استولوا على « سبتة » عام ٨١٨ هـ الموافق لعام ١٤١٥ م وعلى « قصر المجاز » عام ٨٦٢ هـ الموافق لعام ١٤٥٧ م ، وعلى « طنجه » عام ٨٦٩هـ الموافق لعام ١٤٦٤م وعلى « أصيلة » عام ٨٧٦هـ الموافق لعام ١٤٧١م. كما أن الأسبان استولوا على « جبل طارق » فى ٨٦٩هـ الموافق لعـام ١٤٦٤م ، وعلى مدينة « بونة » عام ٨٦٧ هـ الموافق لعام ١٤٦٢م وقد نجح الأسبان والبرتغاليون فى ذلك بسبب الشقاق فى أقطار المغرب بين المسلمين سواء بين بنى مرين وبنى حفص فى الأقطار المغربية أو بينهم وبين بنى الأحمر فى غرناطة ..

وكانت نتيجة كل ذلك عزلة مسلمى الأندلس عن المساعدة التى قد تأتيهم من اخوانهم فى الأقطار المغربية ، وقـد أصبحت دولة غرناطة محصورة بأساطيل الأسبان الكاثوليك من جهة الجنوب والشرق وجيوشهم البرية من جهة الشـمال والغرب ، وما زالوا يضيقون الحصـار على غرناطة حتى استولوا عليها عام ٨٩٧ هـ الموافق لعام ١٤٩٢ م وسلمها لهم السلطان أبو عبد الله بن الأحمر وتوجـه الى مراكش حيث نزل بمدينة « فاس » فى ضيافة السلطان « محمد الوطاس » سلطان المغرب الأقصى ..

وهكذا سقطت الأندلس الأسلامية فى أيدى الاسـبان الكاثوليك الذين أخذوا فى ازالة كل أثر اسلامى وتحويله الى مؤسسات مسيحية ، بل ان المسلمين الذين بقوا هناك أرغموا على اعتناق النصرانية ، ومن ثم عرفوا بأسم الموريسكيين ، ومن آثر التمسك بالاسلام فر بدينه الى الأقطار المغربية الاسلامية ، وقد سجل التاريخ أن الأسبان كانوا يتعقبون المسلمين الفارين ويغرقونهم بأمتعتهم فى البحر ، ومن هنا كانت أصوات استغاثة هؤلاء المسلمين تصل الى مسلمى الأقطار المغربية الذين كانوا يسارعون الى نجدة اخوانهم فيدخلون فى صراع حربى مع الأسبان كان ميدانه البحر المتوسط وخاصة الحوض الغربى منه المواجه لتلك الأقطار من ناحية والأسبان والبرتغاليين وغيرهم من ناحية أخرى ..

وبعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس فى أيدى الأسبان الكاثوليك يتجلى لنا شقاء الموريسكيين الاجتماعى فيما خلفوه لنا من أدب قليل فقير لا يحمل من العربية الا أحرف هجائها ، اذ أنهم جهلوا العربية ولم يعودوا يعرفون غير اللغة الأسبانية[١٣] ..

ولله در أحمد شوقى أمير الشـــعراء حين انفعل لســقوط مدينة « أدرنة » التركية المسلمة بمقدونيا بأيدى البلغار عام ١٩١٢ م فكتب قصيدة بعنوان « الأندلس الجديدة » جاء فيها :

يا أخت أندلس عليــك ســـلام ... هوت الخلافة عنك والاســـلام
نزل الهـــلال عن الســـماء فليتها ... طويــت وعم العـــالمين ظـــلام
جرحـــان تمضى الأمتـــان عليهما ... هـــذا يســـيل وذاك لا يلتـــام
بكمـــا أصيب المسلمون وفيكمـــا ... دفن اليـــراع وغيب الصمصام
لم يطـــو ماتمهـــا وهذا مأتـــم ... لبسوا الســواد عليك فيــه وقاموا
ما بين مصرعها ومصرعك انقضت ... فيما نحب وتـــكره الأيام[١٤] .

وعندما خلصت الأندلس الكاثوليك اتجهـــوا الى الوحدة الوطنية داخل شبه جزيرة أيبريا ، تلك الوحـــدة التى تحققت بانضمام مملكتى « أرجون » و « قشتالة » بزواج « فرديناند » و « ايزابلا » فصارت مملكة « أسبانيا » ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن عام ١٤٩٢م شهد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس فى أيدى الأسبان ، كما شهد خروج الملاح « كريستوف كولمبس » من أسبانيا مبحرا فى المحيط الأطلسى باتجاه الغـــرب للوصول الى الهند حيث منابع التجـــارة التى يحتكرها التجار المسلمون وتمر بأرض المسلمين فى طريقها الى أوروبا ..

وكانت رحلات كريستوف كولمبس قد كشفت أرضا جديدة عرفت فيما بعد بأسم أمريكا ، وكان لذلك أثره فى اهتمام أسبانيا بقوتها البحرية

---

(١٣) آنخل جنثالث بالنثيا : المرجع السابق ص ٢٥ .

(١٤) أحمد شوقى : الشوقيات الجزء الأول . دار الكتب القاهرة ١٩٤٦ ص ٢٣٦ .

حيث إعتنت الحكومة الأسبانية ببناء الأساطيل وتعزيزها بالرجال الذين لهم دراية بالحرب ، ومن ثم أخذت البحرية الاسبانية تخرج من ثغور أسبانيا الشرقية والجنوبية وتقطع الطريق على مراكب المسلمين التجارية.. وفى عام ٩٢٠ هـ الموافق لعام ١٥٠٨م استولى الأسبان على مدن «بجاية» و « وهران » و « الجزائر » ، كما أنشأوا على سواحل الأقطار المغربية حصونا ومعاقل كثيرة[١٥] ..

وكان استيلاء الأسبان على مدن فى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب تحقيقا لوصية ملكتهم « ايزابلا » التى حثتهم ليس بالإكتفاء فقط بالعمل على اخراج المسلمين من الأندلس بل محاربتهم فى بلادهم بشمال أفريقيا ، ومن ثم دارت المعارك البحرية بين رجال البحر المسلمين المنطلقين من موانى أقطار شمال أفريقيا من جهة وبين الأسبان والبرتغاليين وغيرهم من الأقطار الاوروبية من جهة أخرى ، تلك المعارك التى أطلق عليها الأوروبيون فى كتاباتهم اسم القرصنة الاسلامية ، وهى فى حقيقتها عمليات جهاد بحرى اسلامى ..

الجهـاد البحرى الاسلامى

أطلق المؤرخون الأوروبيون لفظة قرصنة على العمليات البحرية الحربية العربية الموجهة بالدرجة الاولى ضد سفن الدول الأوروبية وغير الأوروبية التى تخالف العرب فى عقيدتهم الدينيـة ، وقد تابع بعض المؤرخين العرب زملائهم الأوروبيين فى هذه التسمية حتى اختلط الأمر على المواطن العربى وأخذ يتساءل :

هل كل عمل بحرى حربى تقوم به سفن عربيـة ضد أخرى غير اسلامية وفى البحار العربية من أعمال القرصنة ؟

وما الفرق بين القرصنة والجهـاد الاسلامى فى مجـال الحروب البحرية التى شارك فيها المسلمون ضد اعداء الاسلام ؟

---

(١٥) محمد لبيب البتنونى : المرجع السابق ص ١١٦ .

وهل للقرصنة الأوربية التى اتخذت من مياه المحيطين الأطلنطى والهندى بصفة خاصة مجالا لنشاطها ، مثيلا بين سفن العرب المسلمين ؟

وماذا يمكن ان نسمى الصدام بين سفن العرب المسلمين بعضهم البعض ، هل هى قرصنة أم حرب ؟

وبالتالى ما هى مواصفات القرصنة ، والحرب ، والجهاد البحرى الاسلامى ، والمغامرات البحرية ؟

وأخيرا ما دور الاستعمار فى تشويه صورة النشاط البحرى العربى الاسلامى ومحاربة هذا النشاط .

ونحن من جانبنا سوف نحاول الاجابة على هذه التساؤلات حتى نستجلى حقائق تصحيح وجه التاريخ العربى الاسلامى وتعطيه صورته الحقيقية ، موضحين الفرق بين نشاط العرب المسلمين الحربى فى البحار، وقرصنة الأوروبيين سواء ضد بعضهم البعض أو ضد غيرهم ممن أوقعهم سوء حظهم فى طريق القراصنة الأوربيين .

لتحديد معنى لفظة القرصنة بالطريقة العلمية الاجرائية يمكن القول بأن كلمة القرصنة تطلق على كل عمل يقوم به فرد أوجماعة محدودة العدد بهجوم مسلح فى البحر مستخدمين السفن المسلحة لسلب ما تحمله سفن الغير دون ان تكون هناك عداوة سابقة أو حروب معلنة بين الطرفين .

وبمعنى آخر يمكن القول أن قيام سفينة مسلحة أو أكثر باعتراض سفن تابعة لدولة أخرى أو بلد آخر أو جماعة ما فى البحر وسلب ما تحمله تلك السفن بدون وجه حق ، ودون أن يكون هناك ادعاء سابق بأن هذا الهجوم رد لعدوان أو ثأر لعمل سابق ، كل ذلك يعطى مفهوم القرصنة بالطريقة الاجرائية ، وأعنى بالطريقة الاجرائية ارتباط الصفة بالموصوف أى توصيف العمل بطريقة محددة لا زيادة فيها ولا نقصان ، فاذا حدث

فعل تنطبق عليه تلك المواصفات أطلقت عليه نفس التسمية ... هذا هو المقصود بالطريقة الاجرائية علميا .

وبنفس التوصيف العلمي يمكن القول بأن كل عمل حربى تقوم به سفينة أو مجموعة سفن تابعة لدولة ما بهدف الاضرار بسفن تابعة لدولة أخرى أو بلد آخر معادية عند مرورها فى المياه الاقليمية أو هجوما على سواحل البلد المعادى ، صار ذلك العمل حربا بين دولتين أو بلدين بحكم وجود عداء وحالة حرب قائمة ، ولا يمكن اطلاق تعبير قرصنة على مثل هذا العمل .

كذلك يمكن القول — استنادا الى نفس التوصيف العلمي — بأنه اذا حدث صدام بين سفينة أو عدة سفن تابعة لحاكم أو لقبيلة وأخرى تابعة لحاكم آخر أو قبيلة أخرى ترتبط مع القبيلة المهاجمة بروابط معينة كالجنس واللغة والدين مثلا ، فان هذا العمل الحربى لا يمكن اعتباره قرصنة ، ولا يمكن اعتباره حربا بالمعنى الصحيح ، وانما يمكن تسميته باسم المغامرات البحرية بحكم التنافس بين الأطراف ذات الارتباط الاجتماعية الواحدة ، كما كان يحدث بين بعض القبائل العربية فى الخليج العربى .

كما يمكن القول أيضا — استنادا الى نفس التوصيف العلمي — بأن هجوم السفن الاسلامية ضد السفن المسيحية جهادا بحريا اسلاميا بامتداد الجهاد الاسلامى من الأرض الى البحر . لأن المسلمين استندوا الى مبدأ الجهاد الاسلامى فى محاربة أعداء الاسلام سواء على الأرض أو فى البحر ، ورد اعتداءاتهم .

وبهذا فاننا نطلق على العلميات البحرية التى قام بها المسلمون فى مياه البحر المتوسط ضد سفن أسبانيا والبرتغال وفرسان القديس يوحنا طوال القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر جهادا بحريا اسلاميا جاءت بدايته ردا على اعتداءات تلك القوى المسيحية الصليبية على المسلمين فى أسبانيا وملاحقتهم فى أثناء فرارهم من الاضطهاد الى اقطار شمال أفريقيا العربية الاسلامية .

ويجب من البداية أن نلاحظ ملاحظة هامة ان تلك العمليات بين البحرية العربية الاسلامية والبحرية الأوروبية انما حدثت من منطلق دفاع العرب المسلمين ضد أطماع الأوروبين الصليبية وروحهم العدائيه لكل ما هو اسلامى ، تلك الأطماع التى صورها أصحابها بأنها ثأر من العرب المسلمين الذين تجرأوا يوما ما فغزوا الأرض الأوروبية ، ومن ثم لا نعجب أن نسمع الملكة ايزابلا ملكة أسبانيا تقول لشعبها أواخر القرن الخامس عشر : ان تحرير أسبانيا (تعنى اخراج المسلمين منها) لا يتم الا بفتح أفريقيا (أى الاستيلاء على اقطار المغرب العربية الاسلامية) وجهاد أبنائها الكافرين (أى المسلمين) فى سبيل العقيدة المسيحية .

ومن هذا المنطلق يمكن لنا استعراض بداية الصدام بين العرب المسلمين فى شمال أفريقيا والقوى الأوروبية المعادية فى البحر المتوسط ، ذلك الصدام الذى أطلق على الدور العربى الاسلامى فيه من جانب المؤرخين الأوروبيين لفظة قرصنة ع بينما أطلق عليه العرب المسلمون المعاصرون لتلك الأحداث تعبير الجهاد الاسلامى ضد أعداء الاسلام من الأوروبيين .

كانت أقطار المغرب العربى (المعروفة الآن وهى ليبيا ، تونس ، الجزائر والمغرب) تعيش عصر وحدة وقوة تحت قيادة دولة الموحدين حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، وانضم اليها فى هذه الفترة اقليم الأندلس الذى كان يعتبر من أكبر الدول الموجودة فى العالم العربى والاسلامى فى ذلك الوقت .

وعندما انهارت دولة الموحدين ظهرت ثلاث امارات فى أقطار الشمال الأفريقى تنافست فيما بينها مما أدى الى ضعفها ، هذه الامارات هى سلطنة بنى مرين فى اقليم المغرب الأقصى التى تحملت أكثر من غيرها عبء الدفاع عن العروبة والاسلام ضد هجمات الأسبانيين والبرتغاليين، وامارة بنى حفص فى اقليم تونس ، وامارة بنى عبد الواد فى الجزائر (المغرب الأوسط) واتخذت من تلمسان عاصمة لها .

وفى الوقت الذى ضعف فيه المسلمون بشمال أفريقيا نتيجة تفكك

وحدتهم منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، فقد بدأت شبه الجزيرة الأيبيريه مرحلة تكوينها السياسى ، فأسبانيا توصلت فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الى وحدتها الوطنيــة فى عهــد « فرديناند » و « ايزابلا » ملكا أسبانيا على أسس دينية كاثوليكية معادية المسلمين فى الأندلس والمغرب ، كما حققت البرتغال وحدتها الوطنية وقيام حكومة مركزية قوية فى لشبونة معادية هى الأخرى للمسلمين ، وعملت الدولتان ــ أسبانيا والبرتغال ــ على بناء السفن والاهتمام بشئون الملاحة ومن ثم قامت حركة الكشوف الجغرافية منذ أوائل القرن الخامس عشر على اكتاف البرتغاليين ثم أعقبهم الأسبان ، تلك الكشوف التى كان من دوافع القيام بها محاربة الاسلام والمسلمين فى أفريقيا وفى البحار الهندية .

ظهر الصراع واضحا بين الأسبان والبرتغاليين من ناحية وأقطار شمال أفريقيا العربية الاسلامية من ناحية أخرى ، باحتلال « هنـرى الملاح » ابن ملك البرتغال مدينة « سبتة » المغربية عام ١٤١٥ م ، ثم احتل الأسبانيون « المرسى الكبير » عام ١٥٠٥م تقع هذه المدينة بالجزائر الحالية وفى عام ١٥٠٨م استولوا على مدن « حجرباديس » ، و «وهران» و « بجاية » ، وفى عام ١٥١٠م احتلوا مدينة « طرابلس الغرب » ثم تنازلوا عنها عام ١٥٣٥م لفرسان القديس يوحنــا المغامرين القراصنة الذين اتخذوا من جزيرة « مالطة » مركزا لهم بعد ان طردهم الأتراك العثمانيون من جزيرة « رودس » وهم فى الأصل من بقــايا الصليبيين الذين طردهم المماليك من فلسطين .

لم يكن استيلاء البرتغاليين والأسبان على المدن العربية بشـــمال أفريقيا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بالأمر السهل والدائم ، ذلك أنه رغم تفكك وحدة المسلمين فى هذه الأقطار المغربية الا أنهم تذرعوا بمبدأ الجهاد الاسلامى فى مقاومة القــوى المسيحية الغازية ، بل وفى مهاجمة سفن الدول الأوروبية فى البحر المتوسط ، واستمر هذا الهجوم حتى ظهرت قــوة الدولة العثمانية باستيلائها على القسطنطينية عــام ١٤٥٣م ، ثم استيلائها على العراق والشام ومصر عامى ١٥١٤ ، ١٥١٧م، فاستعان المغاربة (عرب شمال أفريقيا) بالدولة العثمانية « الاسلامية القوية » للوقوف أمام القوى المعادية للمسلمين .

كان دخول الدولة العثمانية الى ميدان الصراع الدينى بين العرب المسلمين بشمال أفريقيا من ناحية وتحالف البرتغاليين والأسبان وفرسان القديس يوحنا من ناحية أخرى منذ عام ١٥١٨م ، حلقة أخرى فى سلسلة الجهاد الاسلامى ضد أعداء الاسلام ، كان ميدانه الأكبر الحوض الغربى للبحر المتوسط عدته وعتاده السفن المسلحة للقوى العربية الاسلاميه بأقطار شمال أفريقيا وسفن الأسطول العثمانى من جهة فى مواجهة سفن القوى الأوروبية المتحالفة من جهة أخرى .

والغريب فى الأمر أنه مع تسجيل الحقائق التاريخية بأن أرض العرب المسلمين فى اقطار الشمال الأفريقى أرض محتلة من جانب القوى الأوروبية المسيحية المتحالفة الا أن المؤرخين الاوروبيين أطلقوا على دفاع العرب المسلمين عن أرضهم وحياتهم ضد اعدائهم بأنها عمليات قرصنة ، وامتلأت كتبهم بتعبيرات هجمات القراصنة العرب المسلمين من أقطار الشمال الأفريقى بينما هى فى الواقع دفاع مشروع عن الأرض والعرض. وحرب وجهاد اسلامى كما أطلق عليها مؤرخو ذلك الزمان من العرب المسلمين .

وكان ذلك الصدام البحرى بين سفن المسلمين المغاربة وسفن القوى الأوروبية المتحالفة صداما طويلا استغرق طوال القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، ولم ينته الا بوقوع اقطار الشمال الأفريقى تحت الاحتلال الفرنسى (فى الجزائر وتونس والمغرب) والاحتلال الايطالى (فى ليبيا) .

ورغم وقوع كل من الجزائر وطرابلس الغرب ثم تونس تحت الحكم العثمانى خلال القرن السادس عشر ، فان الصراع البحرى بين المغاربة المسلمين من ناحية والقوى الأوروبية « المتحالفة » المعادية من ناحية أخرى استمر وبقوة ، هذا على الرغم من اعتبار كل قطر من اقطار المغرب العربى ولاية عثمانية تخضع للامبراطورية العثمانية ويتم تعيين الوالى من عاصمة الامبراطورية استامبول (أو اسلام بول) .

وانطلاقا من هذه الحقيقة فسوف نستعرض مراحل الكفاح البحرى

للمسلمين المغاربة ضد المسيحيين الأوروبيين فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، من خلال نشاط كل ولاية فى هذا المجال طوال القرون الخمسة من القرن الخامس عشر الى القرن التاسع عشر ، أى من وقت نزول البرتغاليين والأسبان على الشواطىء المغربية حتى وقوع الاحتلال الفرنسى ثم الايطالى للأقطار المغربية بكاملها •

ومما تجب ملاحظته فى هذا المجال أن حكام الأسبان والبرتغاليين أصروا فى معاداتهم للمسلمين فى الأندلس وشمال أفريقيا على التذرع باللون المسيحى حتى يضمنوا الحماس الشعبى ، وأن هذا اللون الدينى كان يخفى وراءه صراعا على السلطة وبالتالى صراعا للسيطرة على الموارد الاقتصادية ، ومن ثم وجه هؤلاء الحكام انظار شعوبهم نحو الخارج ، والى اخضاع بقايا المسلمين واليهود فى شبه جزيرة أيبيريا لمحاكم التفتيش مما اضطر اعدادا كبيرة منهم الى الهجرة الى المغرب الكبير فرارا بأرواحهم وأعراضهم وأموالهم •

وحينما تعقبت سفن الأسبانيين الفارين من المسلمين كان من الطبيعى ان يخرج رجال البحر المغاربة لتأمين المسلمين النازحين من الأندلس والدفاع عنهم ضد سفن المتعقبين لهم من الأسبان الذين اتخذوا أسلوبا وحشيا فى التعامل مع المسلمين الذين يقعون فى أيديهم مما أدى الى صدام بحرى بين سفن المغاربة المسلمين والسفن الأسبانية ، وقد أدى ذلك الصدام الى ظهور قيادات بحرية اسلامية قوية عندها القدرة على منازلة الأعداء والقيام بعمليات الجهاد الاسلامى البحرى •

وكان رجال الجهاد الاسلامى البحرى يخرجون على سفنهم المسلحة لاستقبال سفن المسلمين الفارين من شبه جزيرة أيبيريا والدفاع عنها ، وكانت سفن المسلمين مجهزة بالتسليح الذى يمكنها منازلة الأعداء فى البحر ، ولكنها كانت خاضعة لسلطة القيادات التى تحكم أجزاء من ساحل المغرب الكبير ، أو خاضعة لسلطة الامارات القائمة فى الأقاليم المغربية •

لذلك فلا يمكن أن نساير المؤرخين الأوروبيين المغرضين فى اطلاق لفظ قرصنة على عمليات الجهاد البحرى الاسلامى هذه ، فان سفن

القراصنة كانت تخضع لبعض رؤساء البحر الذين يشبهون فى عملياتهم الى حد بعيد عمليات قطاع الطرق ولا يتراجعون عن مهاجمه أى سفينه ، حتى وان كانت خاضعة لجيرانهم أو لحكومتهم ، حتى يتمكنوا من أسرها أو الاستيلاء عليها وعلى حمولتها على الأقل •

ومن ثم فاننا لا يمكن الا ان نطلق على العمليات البحرية للسفن المغربية بأنها عمليات جهاد اسلامى بحرى من أجل الاسلام وضد قوى معادية متربصة بأرض المسلمين ودفاعا عن حرية موانى المغرب العربى وأبنائه وارزاقهم ، وقد عملت هذه الحركة — حركة الجهاد البحرى الاسلامى — على ظهور قيادات جديدة أثرت فى تاريخ المغرب الكبير •

رجال البحر المراكشيون

بعد ان سقنا فى كلامنا السابق عمليات الجهاد البحرى الاسلامى فى البحر المتوسط فى مواجهة النشاط المسيحى الصليبى فى هذا البحر ضد السفن والأراضى الاسلامية فى شمال أفريقيا نناقش فى هذا المقال دور رجال البحر فى القطر العربى المراكشى •

ان مراكش القطر العربى الاسلامى الذى يحرس الجناح العربى فى الغرب من الوطن العربى ، تسلمت زمام الحكم فيه أسرة شريفة هى الأسرة السعدية منذ أوائل القرن السادس عشر واستمرت تحكم المغرب حتى منتصف القرن السابع عشر ، ودخلت أثناء هذه الفترة فى صراع مع الأسبان والبرتغاليين من أجل طرد هذه القوى المعادية من المدن والأراضى المغربية •

ورغم حدوث بعض الخلافات بين أفراد الأسرة السعدية وبين أمراء الأسرة وحكام الجزائر ، وكذلك بين أمراء الاسرة والدولة العثمانية ، فان السعديين حرصوا على مواصلة الجهاد البحرى ضد القوى الأوروبية المتحالفة المعادية ، وكان استرداد المدن المغربية من تلك القوى المعادية هى بداية حركة الجهاد ، حتى لم يعد للبرتغاليين فى المغرب فى منتصف القرن السادس عشر سوى مدن « طنجة » و « سبتة » و « مزاغان »

مما دفعهم الى الدخول فى معركة فاصلة ضد جيش السعديين بقيادة المتوكل عرفت بمعركة وادى المخازن فى أغسطس ١٥٧٨ م انتهت بهزيمة البرتغاليين هزيمة منكرة ، وانتهت محاولات البرتغال للتدخل فى شئون المغرب بعد ذلك .

واتبع أحمد المنصور ، الذى حكم المغرب فى الفترة من عام ١٥٧٨م الى عام ١٦٠٣م سياسة الجهاد الاسلامى بمواجهة تقدم البرتغاليين على الشواطىء الأفريقية بنشر الاسلام بين الأفارقة ومد نفوذ دولته فى حوض نهر السنغال حتى نهر النيجر ، وقد نشأت فى تلك الجهات حكومة تحتفظ بالولاء الأسمى لسلطان المغرب استمرت مدة قرنين من الزمان ، كما ان استمرار الجنود المغاربة فى هذه الجهات — السودان الغربى — وتزاوجهم مع الأهالى انشأ مجموعة من المولدين ظلت مرتبطة بالمغرب ، وكانت تلك أولى الحقوق التاريخية التى استندت اليها الحكومة المغربية الحالية للتحدث عن سيادتها على موريتانيا والصحراء المغربية وحتى السنغال والنيجر .

وقد حاول أحمد المنصور فى حركة الجهاد البحرى ضد القوى الأوروبية المعادية ان يهادن ويتحالف مع قوى أوروبية أخرى وخاصة انجلترا وهولندا وهما الدولتان المعاديتان لأسبانيا آنذاك ، وان كانت انجلترا قد حرصت على عدم التحالف مع أحمد المنصور السلطان المسلم ضد أسبانيا المسيحية ، فقد دخلت هولندا فى معاهدات مع السلطان لتنظيم الملاحة والتجارة . وان بقيت للبرتغاليين والأسبان قواعد فى الأرض المغربية تدعمت نتيجة خلافات المغاربة فيما بينهم بين رجال الجهاد البحرى ، وبين أنصار الحق الشرعى أو التاريخى وبين من يجعلون السلطة والحكم هدفا لهم ، مما سيؤدى الى انتهاء حكم الأسرة السعدية الشريفة لتحل محلها أسرة شريفة أخرى هى الأسرة العلوية التى لا تزال تحكم المغرب حتى الآن .

وفى عهد أسرة الاشراف العلويين بالمغرب الذى بدأ عام ١٦٦٦م على يد المولى الرشيد استمر الجهاد الاسلامى ضد قواعد الدول الأوروبية المعادية — أسبانيا والبرتغال — فى الأراضى المغربية ، فتم استرداد

من « المهدية » و « العرائش » و « اصيلة » أواخر القرن السابع عشر، واسترداد ميناء « طنجة » ومدينة « مزاغان » من يد البرتغاليين ، وحاول المولى اسماعيل سلطان المغرب اقامة علاقات متحالفة مع الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا من أجل الوقوف ضد الأسبان اعداء الطرفين .

ومما تجب ملاحظته أنه حتى مع لجوء سلاطين المغرب الى مهادنة القوى الأوروبية سواء المعادية أو غير المعادية وعقد معاهدات تجارية مع هذه القوى ، فان بعض المجاهدين المغاربة من أنصار الجهاد البحرى الاسلامى ما كانوا يلتزمون بهذه المعاهدات ومن ثم كانوا يقومون بعمليات بحرية ضد سفن القوى الأوروبية دون أوامر من السلاطين وفى شكل يتضارب مع المصالح العامة للسلطنة المغربية .

وحرص المولى محمد بن عبد الله الذى استمر حكمه للمغرب من عام ١٧٥٧م الى عام ١٧٩٣م على عقد معاهدات تجارية وصداقة مع القوى الأجنبية التى لا تجاهر بعدائها للمسلمين ، ومن ثم رأيناه يتعاهد مع دول شمال أوروبا ومع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٨٦م — بعد اعلان استقلالها بعشر سنوات — بل أنه توسط لدى حكام تونس وطرابلس الغرب حتى تمتنع سفنها عن مهاجمة سفن الولايات المتحدة الأمريكية ، وتبادل الرسائل مع الرئيس الأمريكى جورج واشنطن مما اعتبر كأول اعتراف دولى بحكومة الولايات المتحدة الامريكية التى لم تنس للمغرب هذه المبادرة وستكون قنصليتها فى طنجة التى انشئت عام ١٨٢٠م أول قنصلية أجنبية فى المغرب(١) .

ويبدو أن حدوث الثورة الفرنسية وانشغال أوروبا باحداثها وتأثيراتها قد دفع بالمغرب — على غير المتوقع — الى سياسة العزلة ، فلم تهاجم سفن الأسبان أوالبرتغالين بل لم تهاجم سفن الدول الأوروبية الاخرى ، وكان الاحتلال الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠م نذيرا بالتفوق الفرنسى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط وعدم اتاحة الفرصة امام

---

(١) د. جلال يحيى : المغرب الكبير (العصور الحديثة) ص ٧٤ .

أنصار الجهاد البحرى الاسلامى المغاربة ليمارسوا نشاطهم ضد سفن القوى الأوروبية المعادية والتى صارت فرنسا احداها .

ورغم ان السلطان سليمان قام عام ١٨١٦م بتحرير بقية الأسرى المسيحيين الموجودين فى المغرب نتيجة لعمليات الجهاد البحرى الاسلامى، والغى رسميا فى العام التالى (١٨١٧م) عمليات الجهاد البحرى الاسلامى حتى لا يثير عداء الدول الأوروبية ، الا أن الأزمة المالية التى مرت بالمغرب جعلت السلطان عبد الرحمن منذ عام ١٨٢٥م يعيد التفكير فى أحياء عمليات الجهاد البحرى الاسلامى ، مما جعل بلاده هدفا لاعتداءات من جانب الانجليز والنمساويين والأسبان ثم الفرنسيين ، وهى الدول التى مست سفنها عمليات الجهاد البحرى الاسلامى المغربية .

كان احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠م دافعا لعزلة المغرب ، وان استمرت محاولات السلطنة المغربية لاقامة علاقات تجارية ودبلوماسية مع الدول الأوروبية غير المعادية واهتمت حكومة المغرب بالأمور الداخلية، بينما كان البحارة الاوروبيون مازالوا يخشون سواحل المغرب ومياهه الاقليمية ، كما كانوا يخشون النزول فى الموانى نظرا لأن أنصار حركة الجهاد البحرى الاسلامى ما زالت لهم قواعدهم فى المغرب وعملياتهم التى تزداد حينا وتتناقص أحيانا أخرى ، خاصة ان المغاربة شعروا بعد احتلال فرنسا للجزائر ، بارتفاع الشعور بالتضامن الاسلامى لديهم الى مستوى واضح .

ونتيجة لاهتمام انجلترا بصفة خاصة ودول غرب أوروبا عامة بالملاحة فى البحر المتوسط كطريق يوصل عبر الاسكندرية والسويس الى الهند فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر فقد حرصت تلك الدول على تأمين الملاحة فى هذا البحر ومن ثم جاء فى نصوص معاهدة عام ١٨٥٦م بين انجلترا والمغرب ما يدعو الى حرية الملاحة والتجارة والقضاء على عمليات الجهاد البحرى المغربى التى كانت تركز نشاطها عند سواحل الريف .

الا ان العداء القديم بين أسبانيا والمغرب ما لبث أن احيته روح

التعصب المسيحية فى عهد الملكة ايزابلا الثانية التى انتشرت فى كل أسبانيا ضد المسلمين فى الوقت الذى كان فيه المغاربة يتطلعون الى تحرير مدنهم من يد الأسبان وانتهى الأمر بصدام بين الطرفين استمر من أواخر عام ١٨٥٩ الى أواخر عام ١٨٦١م ، كانت نتيجته فى غير صالح المغاربة حيث فرضت معاهدة على المغرب ظهرت من نصوصها روح التعصب المسيحية ضد المغرب الاسلامية • كدفع غرامة حربية كبيرة قبل ان تجلو القوات الأسبانية عن مدينة « تطوان » التى كانت مركزا للاشعاع الاسلامى • الى جانب اجبار المغرب على السماح لرجال بعثات التبشير الأسبانيين بالعمل فى الأراضى المغربية •

وزاد الأمر سوءا ان البحرية الأسبانية المؤيدة بسفن انجليزية وفرنسية نجحت فى القضاء على سفن حكومة المغرب وسفن رجال الجهاد البحرى الاسلامى فى وقت واحد وقامت قوات الاحتلال الأسبانى فى مدينة « تطوان » بتحويل أحد مساجدها الى كنيسة وبطريقة تعطى للاحتلال الأسبانى المؤقت شكلا دائما • فانتهت بذلك الفكرة الموجودة فى أوروبا عن حصانة المغرب وهيبة رجال البحر المغاربة ، وبعد هزائم المغاربة أمام الفرنسيين عام ١٨٤٤م جاءت انتصارات الأسبان الذين تحدثوا عنها فى كل مكان وشرحوا كيف انهم حملوا الاعلام الأوروبية المسيحية الى قلب المغرب وأفريقيا •

ومنذ ذلك الوقت أى منذ أوائل الستينات من القرن التاسع عشر حتى حدوث الاحتلال الفرنسى للمغرب عام ١٩١٢م زادت المصالح الأوروبية فى المغرب وقدمت اعداد متزايدة من الأجانب يقيمون فيه يمثلون جاليات أجنبية لها قناصلها وقساوستها وأطباؤها وكل مقومات حياتها الاجتماعية ، وهذه القوى أخذت فى الضغط على المغرب الذى عجزت حكومته عن وقف هذا التيار كما عجزت عن العودة الى حياة البلاد السابقة ، واعتمد الأوروبيون على العملاء من اليهود وعلى المتمتعين بالحماية ، من أجل زيادة مصالحهم ونفوذهم فى المغرب •

وفى وسط هذه الصورة الجديدة اختفت صورة الجهاد البحرى

الاسلامى فى المغرب أمام القوة القاهرة للدول الأوروبية الطامعة فى استغلال امكانيات المغرب ، تلك القوة التى تسلحت بما أنتجته المصانع المتزايدة من أسلحة ومن ترسانات بحرية تفرض بها سطوتها وتهدد بها القوى الوطنية المدافعة عن حقها فى أراضيها وفى مياهها الاقليمية .

رجال البحر الجزائريون

لمعت أسماء لرجال الجهاد البحرى الاسلامى وارتبطت بالجزائر فى القرن السادس عشر مثل « بابا عروج » وأخيه خير الدين الذى عرف باسم « باربا روسا » (أى صاحب اللحية الحمراء) وغيرهم ممن دافعوا عن الاسلام فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ضد اعداء الاسلام من الأسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا .

ومنذ عام ١٥١٠م ذاع اسم « بابا عروج » كمدافع عن المسلمين بالمغرب الكبير (تونس — الجزائر — المغرب) حتى قتل عام ١٥١٨م ، عاش خلال الثمانى سنوات هذه محاربا ضد الأسبان فى البر والبحر مستخدما سفنه السريعة فى تعقب ومهاجمة سفن اعدائه المسيحيين بمساعدة رجاله النظاميين والمتطوعين الجزائريين الراغبين فى الجهاد ضد اعداء الاسلام وقد نجح « بابا عروج » فى ضم صفوف الشعب الجزائرى وقرب بينه وبين غيره من الشعوب العربية والاسلامية فى وحدتها أمام العدو المشترك .

جاء بعد « بابا عروج » اخوه (خير الدين) الذى واصل قيادة عملية الجهاد البحرى ضد الأسبان وحلفائهم ، وطلب من الدولة العثمانية — القوة الفتية الاسلامية التى ضمت الشام والعراق ومصر الى ممتلكاتها — مساعدته فى محاربة اعداء الاسلام واستجاب السلطان سليم لطلب خير الدين عام ١٥١٨م فمده بألفى جندى من الانكشارية وساعده على تجميع المتطوعين من البلاد الاسلامية للدفاع عن اسلام أقطار شمال أفريقيا ، منذ ذلك الوقت صارت الجزائر تابعة اسمية للامبراطورية العثمانية(٢) .

---

(٢) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٤ — ٢٥ .

صرف خير الدين معظم جهوده فى مباشرة عمليات الجهاد البحرى ضد الأسبان الذين كانوا تحت قيادة ملكهم شارل الخامس يعادون بصفة مستمرة الدولة العثمانية لذلك اعتبر العثمانيون خير الدين الحارس الأمامى لامبراطوريتهم فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، ومن ثم منحه السلطان العثمانى لقب « بيكلر بك أريقية » أى بك بكوات المغرب ومنحه لقب قبودان باشا أى قبطان البحر — واعطاه القيادة العامة للأساطيل العثمانية ، فصار منذ ذلك الوقت — فى العشرينيات من القرن السادس عشر — أكثر من مجرد أمير للبحر بل أصبح رئيسا لدولة وان كانت غير تامة السيادة .

وقد اثبت خير الدين بالفعل أنه المجاهد البحرى الأول فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ضد القوى المتربصة بالاسلام والمسلمين ، ومن ثم دخل فى صراع بحرى وأرضى مع هذه القوى استطاع خلاله من استعادة الأراضى المغربية من أيدى الأسبان وأنشأ مدينة الجزائر عام ١٥٢٩م ، واتخذها عاصمة لامارته المجاهدة ، ثم رد على غزو الاسبان لتونس عام ١٥٣٥م بغارة مفاجئة على جزر البليار الأسبانية استولى خلالها على ستة آلاف أسير عاد بهم الى الجزائر ، كما تعاهد مع الفرنسيين ضد اعدائه وساعد على التقريب بين العثمانيين والفرنسيين مستغلا العداء بين الأسبان والفرنسيين . بل أنه ساعد الفرنسيين عام ١٥٤٣م على استخلاص مدينة نيس من أيدى الأسبان .

وقد استمر كفاح رجال البحر بعد خير الدين وظلوا يسمون بلقب بكلر بك ويتولون قيادة الأسطول العثمانى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، واشتهر فيهم حسن باشا ابن خير الدين و « صالح ريس » و « الحاج على » وقد نجح الأخير فى تصفية القواعد الأسبانية فى تونس عام ١٥٦٩م مما أقلق العالم المسيحى ودفع البابا الى اصدار نداء لتكوين حلف مسيحى ضد محاولات المسلمين اجلاء القواعد الأوروبية المسيحية فى أراضى المغرب ، ومن ثم دارت معركة بحرية قرب سواحل جزيرة مالطة عام ١٥٧١م بين المسلمين بقيادة « الحاج على » وبين التحالف الأوروبى المسيحى كانت نتائجها انتصار التحالف المسيحى وعجز المسلمين

عن الاستيلاء على جزيرة مالطة وعن تحرير القواعد التى احتلتها أسبانيا والبرتغال على سواحل المغرب الأقصى وحتى وهران بالجزائر التى بقيت فى أيدى الأسبان حتى قرب نهاية القرن الثامن عشر .

ومما تجب ملاحظته أن رجال البحر الجزائريين وجدوا معاونة أثناء صدامهم مع القـوى الأوروبية المسيحية المعادية ، من جانب عدد من الرؤساء وقادة البحر الموجودين فى موانى المغرب الأقصى ، أمثـال « يحيى ريس » الذى اتخذ من أحد خلجان شواطىء المغرب الشمالية قاعدة له ، وكون أسطولا سمح له بأن يفرض سيطرته على الملاحة حتى عرف باسم « سيد المضيق » .

وعندما ضعف رجال البحر بالجزائر أخذت الحكومة العثمانية ترسل باشوات لحكم الجزائر منـذ عام ١٥٨٧م كما هو الحال فى باشويات القاهرة ودمشق وغيرها ، حتى اذا كان عام ١٦٥٩م صار أولئك الولاة يختارهم الجند وعرفوا بالأغاوات واستمروا يحكمون حتى عام ١٦٧١م ومن ثم عاد رؤساء الجناح الاسلامى القوى بشمال أفريقيا وأسبانيا التى تمثل الجناح المسيحى المتعصب الصليبى فى أوروبا ، وعرف رؤساء البحر الذين امتد حكمهم من عام ١٦٧١م حتى عام ١٨٣٠م — عـام الاحتلال الفرنسى للجزائر — باسم الدايات .

ومنذ انشاء مدينة الجزائر صارت مركزا لعمليات الجهاد البحرى ضد سفن الدول الأوروبية المعادية ، وكثر فيها بالتـالى عدد الأسرى المسيحيين ، وزادت فيها كمية الغنائم كما كانت عملية الجهاد البحرى والتعرض للسفن أو للموانى الأوروبية فى جنوب أوروبا وفى الحوض الغربى للبحر المتوسط تموِن المجتمع الجزائرى بعدد من الأسرى من النساء ينتهى بأغلبهن المطاف فى حريم الرؤساء (رؤساء البحر) والقادة .

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وحتى الاحتلال الفرنسى للجزائر تعرضت عملية الجهاد البحرى الاسـلامى لضغوط انتهت دورها فى النهاية فقد ضغطت فرنسا أثناء الثورة وفى عهد نابليون بونابرت من أجل ايقاف تلك العمليات ضـد السفن الأوروبية

وشعر الجزائريون بارتياح عندما استولى نابليون على جزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا عام ١٧٩٨م وهو فى طريقه الى مصر ، ثم استيلائه على أسبانيا ذاتها عام ١٨٠٧ وحتى عام ١٨١٣ .

الا أن مؤتمر التسوية الأوروبية فى فينا عام ١٨١٥م قد أظهر روحا صليبية عدائية ضد عمليات الجهاد البحرى الاسلامية ، والادعاء بأن المسلمين يأسرون مسيحيين ويستخدمونهم فى التجديف فى السفن وفى الأعمال الدنيا ، ومن ثم خرجت دعوات لتحطيم سفن رجال البحر المسلمين فى شمال أفريقيا وضرورة حراسة دولية لمياه البحر المتوسط ضد « القرصنة الاسلامية » . وغير ذلك من الدعوات ، ونظرا لتضارب مصالح الدول الأوروبية خرج المؤتمر بدعوة لتحريم القرصنة والرق ، وان كانت قد تشكلت فى انجلترا جمعيات تحت أسماء براقة تخفى عداء لعملية البحرى الاسلامى ، فوجدنا ما عرف باسم « جمعية محاربة القراصنة » و « جمعية الفرسان محررى الرقيق الأبيض فى أفريقيا » .

الا أن بعض الدول الأجنبية لجأت الى العدوان على الجزائر بدعوى وقف عمليات « القرصنة » ، ففى عام ١٨١٥م أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية الى الجزائر عدة سفن حربية لكى تجبر الداى على وقف المطالبة بالجزية السنوية المفروضة على سفنها فى البحر المتوسط ووقف عملية زيادة وتفتيش السفن ، وقد نجحت الولايات المتحدة فى عقد معاهدة مع الجزائر حققت فيها الشروط الأمريكية بعد ان قامت السفن الحربية الأمريكية بالاعتداء على سفن الجزائر بل وعاصمة الولاية نفسها .

وفى عام ١٨١٦م حاولت بريطانيا اخضاع الداى لشروطها وهى فك الأسرى الأوروبيين واحترام قوانين الملاحة والغاء « القرصنة » ، وانضم الاسطول الهولندى الى الاسطول البريطانى فى تهديد الجزائر لتوافق على تلك الشروط . ونتيجة لرفض الداى هذه الشروط دارت معركة انتهت لغير صالح الجزائر حيث تم اغراق معظم قطع الاسطول الجزائرى وتدمير جزء من تحصينات مدينة الجزائر ، فاضطر الداى تحت

الضغط الحربى الى اطلاق سراح الأسرى المسيحيين وكانوا من الأسبان والنطليان وعددهم حوالى ١٢٠٠ أسير .

وبدأت المؤتمرات الأوروبية تناقش اتخاذ اجراء موحدا ضد عمليات الجهاد البحرى الاسلامى المنطلقة من الجزائر بصفة خاصة وأساسية، وأطلق عليها الأوروبيون اسم القرصنة فتمت مناقشة الموضوع فى مؤتمر لندن عام ١٨١٦م ومؤتمر « اكس لاشابل » عام ١٨١٨م ، ولكن الدول الأوروبية التى لم تتفق على عمل موحد اكتفت بانذار الجزائر للكف عن « القرصنة » واسترقاق الأوروبيين الأسرى مع التهديد باستخدام القوة .

ويمكن التاريخ لنهاية القوة البحرية للجزائرباشتراك سفن الأسطول الجزائرى فى موقعه نوارين البحرية ــ باليونان ــ مع الأسطولين المصرى والعثمانى ، ولقيت سفن الجزائر نفس مصير الأسطولين المصرى والعثمانى وكان هذا اضعافا بحريا واضحا للجزائر ، وتقليلا من وسائل الدفاع عنها أمام المعتدين ، كما كان سببا فى أن تواصل الدول الأوروبية اتهامها للجزائر بالتعصب ضد المسيحيين وفى ان تعمل على القضاء نهائيا على خطر بحريتها فى البحر المتوسط ، متذرعة فى ذلك بضرورة القضاء على القرصنة وضرورة تأمين المواصلات والتجارة فى ذلك البحر ، وانتهى أمر الجهاد البحرى باحتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠م .

رجال البحر التونسيون

وأما نشاط تونس فى عملية الجهاد البحرى الاسلامى فقد قام على اكتاف قادة الدولة العثمانية أمثال « درغوت باشا » والى ولاية طرابلس الغرب منذ عام ١٥٥٣م والذى شارك فى الدفاع عن تونس ضد الأسبان وضد فرنسا القديس يوحنا واستخلص منهم مدينة قفصة عام ١٥٥٦ م وبعدها بعامين استخلص مدينة القيروان ، ودخل فى صراع بحرى ضد الأسبان وفرسان القديس يوحنا انتهى باستشهاده أثناء حصاره لجزيرة مالطة .

ولكن عملية الجهاد البحرى الاسلامى الفعلية تحملها رجال البحر الجزائريين • فقد تحمل هؤلاء مسئولية طرد الأسبان من الأراضى التونسية ومهاجمة السفن المعادية المقتربة من السواحل العربية بشمال أفريقيا ، حتى اذا انضمت تونس الى الممتلكات العثمانية عام ١٥٧٤م اعتبرت بكوية تابعة لبك البكوات المقيم فى الجزائر حتى اختار التونسيون أحد رجالهم العسكريين حاكما لولايتهم باسم « الداى » منذ عام ١٥٩٠م بموافقة الحكومة العثمانية ، ومالبث اللقب أن تغير ليصبح « الباى » تمييزا عن لقب حاكم الجزائر •

وقد حكمت تونس بايات من الأسرة المرادية منذ أواسط القرن السابع عشر تلتها الأسرة الحسينية منذ عام ١٧٠٤م والتى ظلت حتى اعلان الجمهورية التونسية المعاصرة عام ١٩٥٧م ، ومما يلاحظ على هؤلاء الحكام اهمالهم لسياسة الجهاد البحرى الاسلامى ، خاصة وأنهم كانوا من رجال البر لا من رجال البحر ، هذا على الرغم من قيام حكام الجزائر وطرابلس الغرب بعمليات جهاد بحرى ضد سفن الدول المسيحية المعادية، بينما اتخذت الدول المسيحية موقفا عدائيا ضد عمليات الجهاد البحرى الاسلامى وخاصة فى وقت نما فيه القانون الدولى العام مستندا الى مجتمع الدول الأوروبية المسيحية •

ورغم أن موقع تونس الجغرافى وطبيعة سواحلها على البحر المتوسط تتيح لها مباشرة عمليات الجهاد البحرى ، الا أن نشاط التونسيين فى هذا المجال كان ضئيلا ومن ثم فقدت تونس أسطولها الذى أنشىء فى أول عهد الأسرة الحسينية ، حيث بقيت سفن الأسطول راسية فى الموانى التونسية دون حركة حتى تلفت ، وما ذلك الا نتيجة لاستجابة حكام تونس لضغط الدول الأوربية المستمر على تونس بدعوى أن الأسطول يعمل فى « القرصنة » •

وكما قامت الدول الأوروبية عام ١٨١٥م بالضغط على الجزائر لايقاف عمليات الجهاد البحرى ضغطت نفس الدول على تونس التى كانت أكثر استجابة من الجزائر لهذا الضغط كما أن الأسطول البريطانى الذى قام بحملة تأديبية على الجزائر عام ١٨١٦م قد وصل الى تونس

ووجه اليها نفس التهديدات التى وجهها الى الجزائر ، مع فارق أن الجزائر لم تستسلم للانذار البريطانى وعمليات الأسطول البريطانى انعدائية ضد مدينة الجزائر واستمرت سفن الجزائر تباشر عمليات الجهاد البحرى ، بينما نجد أن باى تونس كان أسرع استجابة من داى الجزائر فى الرضوخ للضغط الأوروبى ، فسارع بالتعهد للدول الأوروبية بمنع سفن التونسيين من فرض الاتاوة على سفن الأوروبيين وبمنعهم من أسر المسيحيين فى عرض البحر أو حتى فى مياهه الاقليمية[٣] .

وكان لاستسلام باى تونس هذا نتائج سيئة على تونس وعلى علاقتها بالدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية على تونس ، ذلك أن قوة تونس البحرية ضعفت بل تقهقرت بسرعة حتى أنه عندما طالب السلطان العثمانى مساعدة الأسطول التونسى فى حرب اليونان مع سفن مصر والجزائر وطرابلس الغرب ، لم يجد خسرو باشا قبطان الأسطول العثمانى كثيرا من السفن التونسية التى يمكنها مساعدة الدولة فى أزمتها مع اليونان .

كما أثر هذا الموقف المتخاذل لباى تونس على موقف تونس من احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠م ، بل خضع الباى بسرعة للشروط التى أملتها الفرنسية البحرية عليه ، وتعهد بوقف التعرض للسفن الأوروبية والغاء عمليات الجهاد وحماية السفن الأوروبية فى المياه الاقليمية لتونس ومنع أسر الأوروبيين واسترقاقهم ، وكان خضوعه هذا فى رأيه حماية لتونس من غزو فرنسى مرتقب ، ومع ذلك لم يمنع هذا الخضوع من دخول القوات الفرنسية تونس عام ١٨٨١م وفرض الحماية عليها فى عام ١٨٨٣م .

رجال البحر الطرابلسيون

عاشت طرابلس الغرب قبل مجىء العثمانيين اليها عام ١٥٥١م فى جهاد بحرى ضد القوى الأوروبية المعادية ، وقد شهد الحوض الغربى للبحر المتوسط فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر نشاطا بحريا لسفن

---

(٣) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص ٩٣ .

الدويلات التى تعاقبت على الحكم فى طرابلس الغرب ، وكان الصدام الرئيسى مع الاسبان الذين قادوا الحركة الصليبية ضد المسلمين فى شمال افريقيا وانتهى الامر باستيلائهم على مدينة طرابلس الغرب عام ١٥١٠م ثم اهدوها لزملائهم فى التعصب فرسان القديس يوحنا عام ١٥٣٥م ، الذين بقوا بها حتى انتزعها منهم الاتراك العثمانيون عام ١٥٥١ م .

تولى العثمانيون مسئولية قيادة الجهاد البحرى بعد احتلالهم طرابلس الغرب وجعلها ولاية عثمانية ، ومن ثم رأينا ولاة طرابلس العثمانيين يقودون اساطيلهم ضد تحالف الأسبان وفرسان القديس يوحنا ، وقد رأينا أن « درغوت باشا » ثانى الولاة العثمانيين يستشهد اثناء حصار اسطوله الذى قاده بنفسه من طرابلس لحصار جزيرة مالطة ، وكانت غزواته ضد السفن الأوروبية تأتى له بمغانم كثيرة استخدمها فى انعاش حياة الطرابلسيين ، وفى بناء المزيد من السفن حتى صار له أسطول ضخم ، وعندما كان يتهيأ للولايه باشا قوى تستمر عمليات الجهاد البحرى ذات المردود المشجع للاستمرار فى هذه العمليات. حتى اذا استولى « أحمد القرمانلى » على الحكم فى ولاية طرابلس الغرب عام ١٧١١م وجعل الحكم فيها وراثيا لمدة ١٢٤ سنة تحت السيادة العثمانية اتخذت عمليات الجهاد البحرى سياسة ثابتة عند كل أمير من أمراء الأسرة القرمانلية ، فنجد « أحمد القرمانلى » مؤسس هذا الحكم الاسرى الوراثى يهتم بالأسطول ويعيد له شهرته التى كانت له أيام « درغوت باشا » ويعلن الجهاد البحرى ضد السفن المسيحية الأوروبية، وقد كسب من وراء مهاجمته لتلك السفن الأموال والغنائم الكثيرة ، وقد أدى تهديده المستمر لسفن الدول الأوروبية الى القاء الرعب فى قلوب الأوروبيين من القوة البحرية الاسلامية القرمانلية فى عهده ، كما ضمن عدم مهاجمة الشواطىء الطرابلسية من جانب السفن الأوروبية .

وكانت علاقات « أحمد القرمانلى » مع الدول الأوروبية تتسم بالعداء بسبب سياسة الجهاد البحرى القائمة على توجيه سفن الأسطول التى بناها لمهاجمة سفن الدول الأوروبية فى عرض البحر المتوسط ، وفرض على هذه الدول دفع اتاوات تنظمها معاهدات نظير عدم تعرض

سفن أسطوله لسفنهم وتجارتهم ، وكانت معظم الدول الأوروبية تخضع لشروطه ضمانا لسلامه سفنهم وكانت كل من انجلترا وهولندا من أوائل الدول الأوروبية التى سارعت الى دفع الجزية المعتادة لقاء عدم مهاجمه سفنها العامله فى البحر المتوسط •

وجاء بعد أحمد باشا ابنه محمد الذى حرص على تحسين علاقاته مع كل من فرنسا وانجلترا لأنهما لم تجاهرا بالعداء للمسلمين كما فعلت كل من أسبانيا وانبرتغال ، ورغم ذلك فقد استمر نشاط أسطوله ضد سفن الدول الأوروبية التى ليس بينه وبينها اتفاقات ، فأقلق ذلك الدول البحرية وأسرعت الى عقد المعاهدات معه لتأمين مهاجمة سفنه ، فتم عقد معاهدة مع حكومة النمسا عام ١٧٤٩م ومع الدانمرك فى نفس السنة ومع انجلترا عام ١٧٥١م ومع فرنسا عام ١٧٥٢م وكانت المعاهدات بين ولاية طرابلس الغرب والدول الضعيفة بحريا مثل النمسا والدانمرك تنص على ان تدفع هذه الدول جزية معلومة للباشا ، وأما الدول القوية مثل انجلترا وفرنسا فكانت تمارس الضغط على باشا طرابلس وتقوم بتظاهرات عنيفة فى ميناء المدينة ، وأما الباشا فكان يعرف كيف يفرق بين هذين النوعين من الدول فيتقبل هدايا النوع الأول بثقة ويقدم الترضيات للنوع الثانى •

ويصف المؤرخ الطرابلسى المعاصر لتلك الأحداث أحمد النائب الأنصارى عمليات الجهاد البحرى التى قام بها أسطول محمد باشا القرمانلى بقوله : وكان أمراء الأساطيل — يقصد السفن — أصحاب شجاعة واقدام ، وكانوا يهجمون بمراكبهم على الأعداء بسواحل البحر الأبيض فيقتلون ويسلبون • ويعلل النائب عقد الباشا معاهدة مع انجلترا بأنه جاء بعد ضغط من انجلترا نتيجة استمرار الغزوات التى قام بها أسطول طرابلس فى تلك الفترة(٤) •

وكان محمد باشا القرمانلى حريصا كما ذكرت منذ ولايته على استمرار العلاقات الطيبة بين الولاية والدول الأوروبية واحترام

---

(٤) احمد النائب : المنهل العذب ص ٣٣١ .

المعاهدات المبرمة بين الطرفين فأعلن ذلك أمام قناصل الدول الأوروبية الذين توجهوا لتهنئته بالولاية حاملين الهدايا فى أيام حكمه الأولى خوفا من نتائج الصدام ، الا آن أعضاء الديوان مارسوا على الباشا ضغطا لكى يستجيب لاستمرار أعمال الجهاد البحرى ضد السفن الأوروبية انطلاقا من أن تلك الأعمال جهاد اسلامى ضد المسيحيين ، وقد استطاع الباشا بصعوبة وبعد معارضة شديدة الحصول من الديوان على استثناء لسفن فرنسا وانجلترا ، وان كان هذا الاستثناء لم يتحقق بالكامل بسبب قيام قادة السفن الطرابلسية بمهاجمة السفن الفرنسية مما أوقع الباشا فى خلاف مع فرنسا ، وعندما حاول استرضاءها ثار عليه جند الانكشارية وخاصة من الألبان والأرناؤط المغامرين •

وتولى بعد محمد باشا ابنه على باشا الأول وله من العمر ثلاث وعشرون سنة وقد أدرك قادة الانكشارية حداثة سن الوالى الجديد فالتفوا حوله وأمسكوا بزمام السلطة الفعلية فى البلاد ومارسوا سياسة مهاجمة السفن الأوروبية مما أفسد العلاقات بين الولاية والدول الأوروبية ، ونتج عن ذلك تعرض مدينة طرابلس لقصف من مدافع السفن الأوروبية •

كما نتج عن الصدام بين الولاية والدول الأوروبية حدوث احتكاك بين سفن الولاية وبين سفن جمهورية البندقية المؤيدة من جانب انجلترا وفرنسا،كان سببه أن سفن الانكشارية الطرابلسية استولت على سفينتين من سفن تجار البندقية فطلب قنصلها فى طرابلس استردادهما من على باشا ، ولم يستطيع الباشا تحقيق هذا المطلب لاصرار الجند ولضعفه بينهم ، حتى اذا قدم أحد ضباط طرابلس بأسطوله الى موانى البندقية غازيا خرج اليه أسطولها واستولى على أسطول طرابلس بعد مقتل قائده ومجموعة من رفاقه ، ومن ثم قبل قادة الانكشارية الافراج عن سفينتى البندقية لقاء افراج البندقية عن سفن طرابلس • ومع ذلك لم تتوقف عمليات الجهاد البحرى التى قامت بها سفن ولاية طرابلس الغرب فى عهد على باشا الأول الذى حكم الولاية حوالى أربعين سنة ، ورغم المعاهدات بين الولاية والدول الأوروبية وذلك لاسباب كانتشار المجاعة والقحط منذ عام ١٧٦٧م أو تحت ضغط جند الانكشارية •

وكان يوسف باشا القرمانلى آخر باشوات الأسرة القرمانلية اتباعا لسياسة الجهاد البحرى ضد السفن الأوروبية فاجبر كلا من انجلترا وفرنسا وأسبانيا على دفع الاتاوات اللازمة لسلامة سفنها فى البحر المتوسط ، الا أنه لم يستطع أن يجبر الولايات المتحدة الأمريكية على دفع اتاوة له مما ادى الى حدوث صدام بين الطرفين اضطر بعده يوسف باشا الى مسالمة الولايات المتحدة مما اطمع الدول الأخرى فتعرضت طرابلس الغرب لهجمات أساطيلها .

ولأهمية الصدام البحرى بين يوسف باشا القرمانلى والولايات المتحدة الأمريكية وأثره فى انتهاء عمليات الجهاد البحرى على يد القرمانليين فى طرابلس الغرب نسوق القصة من بدايتها ... ذلك ان يوسف باشا انذر الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٠٠ بأنه ما لم تدفع السفن الأمريكية المارة فى البحر المتوسط مقابل الشواطىء الطرابلسية جزية سنوية وهدية سنوية أيضا لحكومته فان أسطوله سوف يهاجمها ويسلبها ما تحمله ، ولكن الحكومة الأمريكية رفضت الخضوع لتهديدات الباشا .

أمر يوسف باشا أسطوله باعتراض سفن الولايات المتحدة الأمريكية وسلبها ما تحمله وعندما قام الأسطول الطرابلسى بتنفيذ أوامر سيده وتعرضت المصالح الرأسمالية الأمريكية للخطر ، وتكرر اعتراض أسطول يوسف باشا للسفن الأمريكية أمر الرئيس الأمريكى بعض قطع الاسطول الامريكى الحربى بمهاجمة ميناء طرابلس الغرب عقابا للباشا ، وبالفعل قامت هذه القطع بما أمرت به وضربت الميناء بالقنابل ودمرت بعض سفن أسطول يوسف باشا .

ولكن حدث ان جنحت سفينة من سفن الأسطول الأمريكى تدعى « فيلادلفيا » على شاطىء الولاية قرب ميناء طرابلس فى ٣١ أكتوبر ١٨٠٣م فأحاط بها جند يوسف باشا وأخذوا بحارتها البالغ عددهم ثلاثمائة (٣٠٠) أسرى ، كما أخذوا ما تحمله من عتاد ومؤن ، وحاولت الولايات المتحدة التفاهم مع الباشا حتى يطلق سراح البحارة والسفينة خوفا من استرقاق هؤلاء الأسرى وتشغيلهم فى أعمال دنيا لا تناسب الجندى البحرى الا أن يوسف باشا رفض مطالب الولايات المتحدة ما لم

تتعهد بالاستجابة لمطالبه وتتصاع كثيرها فى دفع الاتاوات .

اتجهت الولايات المتحدة الأمريكية الى أسلوب آخر تجبر به يوسف باشا على اطلاق سراح السفينة وبحارتها ، وتولى هذه العملية القنصل الأمريكي فى تونس ويدعى «ايتون» الذى استطاع اقناع أحمد القرمانلى المقيم بمصر منذ أن فر من طرابلس الغرب أمام بطش أخيه الأصغر يوسف باشا ، اقنعه بأن يرافق حملة عسكرية قوامها البدو والمرتزقة المالطيين واليونانيين لكى يستعيد حكم الولاية من يوسف ؛ باعتبار أن يوسف مغتصب للحكم منه أى من أحمد .

وعندما تقدمت الحملة فى اقليم برقة — وهو الاقليم الشرقى من الولاية — باتجاه الغرب أى نحو العاصمة طرابلس ، وتمكنت الحملة من احتلال مدينة « درنة » فى ٢٦ أبريل ١٨٠٤م ، اضطر يوسف باشا الى طلب فتح باب المفاوضات مع الأمريكيين وقد انتهت المفاوضات باتفاقية نصت على تعهد يوسف باشا بعدم التعرض للسفن الأمريكية فى البحر المتوسط ، واطلاق سراح السفينة الأمريكية المحتجزة فيلادلفيا وبحارتها ، وفى مقابل ذلك دفعت الحكومة الأمريكية مبلغ ٦٠ ألف قرش ليوسف باشا على سبيل الهدية ، وأعاد القنصل «ايتون» أحمد القرمانلى الى مصر ثانية وأنهى الحملة العسكرية ضد يوسف باشا .

استمر حكم القرمانليين الى عام ١٨٣٥ عندما عاد الحكم العثمانى المباشر الى ولاية طرابلس الغرب ، والذى استمر حتى جاء الاحتلال الايطالى عام ١٩١١م ، وفى خلال تلك الفترة خبا الجهاد البحرى من طرابلس الغرب نظرا لأن الدولة العثمانية التى شاخت فى القرن التاسع عشر حرصت على عدم الاصطدام بالدول الأوروبية بل وعدم الدخول فى حروب معها حتى اذا اعتدت احدى الدول الأوروبية على جزء من ممتلكات الدولة العثمانية ، كما حدث عندما احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠م اذ اكتفت الدولة بالاحتجاج .

الفصل الرابع عشر

الجهـاد البحـرى الاسـلامى

فـى

الخليـج العـربى

* خبرة عرب الخليج فى الملاحة .
* القواسم والجهاد البحرى .
* عرب الخليج الآخرون والجهاد البحرى .
* المغـامرات البحـرية .

خبرة عرب الخليج فى الملاحة

قد يعتقد البعض أن قبائل شبه الجزيرة العربيــة على الاطلاق قبائل ذات صفة بدوية تمارس حياتها اليومية فى الصحراء بما تفرضه طبيعة الصحراء من أسلوب لحيــاة الناس ، وهم فى اعتقادهم هــذا لا يكادون يذكرون تأثير الخليج على القبائل العربية التى تعيش على سواحله ومن ثم فنحن مع القائلين بأن حياة القبائل العربية التى تسكن شواطىء الخليج العربى تختلف الى حد ما عن حياة القبائل العربية الضاربة فى صحراء شبه الجزيرة العربية ، كما أننا مع التسمية التى أطلقت على النوع الأول من القبائل وهى « القبائل البرمائية » تمييزا عن النوع الثانى المعروف بالقبائل البدوية .

وانطلاقا من التأكيد على دور القبائل البرمائية التى عاشت وتعيش على شواطىء الخليج العربى فى بناء حياتها كان لابد أن نشير الى خبرة هذه القبائل فى الملاحة ، تلك الخبرة التى فاقت فى شهرتها حياة القبائل البدوية ، بل وساعدت على الاتصال بالعالم الخارجى بينما بقيت القبائل البدوية محصورة فى حياة البداوة بكل ايجابياتها وسلبياتها المعروفة بل ان القبائل البرمائية الخليجية تحملت الكثير للدفاع عن مياه الخليج ضد الغزاة ومن هنا نراها كما حملت رسالة الخير خارج نطاق الخليج بالعمل فى نقل المتاجر وقيادة السفن على امتداد الخليج من ميناء البصرة بشمال الخليج حتى شرق أفريقيا والهند والصين ، رأيناها كذلك تقف بصلابة ضد هجمات الاستعمار على مياه الخليج وأراضيه .

امتاز عرب الخليج اذن بالقدرة على ركوب البحر والطواف بسفنهم خارج نطاق الخليج وذلك قبــل مجىء الاستعمار البرتغالى كأول قوة أوروبية معتدية على المياه العربية الجنوبية واشتهر من عرب الخليج ملاحون شهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء بالمهارة فى الملاحة وركوب البحر ولعل أشهر هؤلاء الملاحين الملاح العربى الخليجى « شهاب الدين أحمد ابن ماجد » الذى ولد « بجلفار » على ساحل عمان والذى قاد سفن

« فاسكو دى جاما » المغامر البرتغالى من « مالندى » بشرق أفريقيا الى الهند ببراعة سجلها له « دى جاما » •

وبخبرة أهل الخليج الملاحية شاركوا فى نقل متاجر الهند فى المحيط الهندى والبحر العربى متجنبين القراصنة الهنود الذين اتخذوا من جزر هذا المحيط وذلك البحر مأوى لهم ، حتى تصل المتاجر الى البحر الأحمر فمصر فالبحر المتوسط فأوروبا أو تصل الى الخليج العربى فالعراق فالشام فالبحر المتوسط الى أوروبا أى أن عرب الخليج المهرة فى الملاحة والتجارة ساهموا بدور لا يمكن انكاره فى رخاء أوروبا وفى تزويدها بمتاجر الشرق ، بل وفى بناء الحضارة الأوروبية الحديثة •

حتى اذا جاء البرتغاليون بقوتهم الصليبية ضد كل ما هو اسلامى سواء فى شمال أفريقيا ، ثم فى شرق أفريقيا حيث شارك عرب الخليج مع عرب الجنوب فى بناء حضارة عربية أفريقية ذات مدن مزدهرة مثل « مالندى » و « سفالة » و « كيلوة » و « ممبسة » و « دار السلام » وغيرها ، وقف عرب الخليج مع القوى الاسلامية المهتمة بسلامة الملاحة فى المحيط الهندى والبحر العربى ضد التدمير والعدوان البرتغالى وشاركوا فى معركة « ديو » البحرية عام ١٥٠٩م التى لم يكتب النصر فيها للتحالف الاسلامى بسبب قوة الأسلحة النارية للبرتغاليين •

وتحمل الخليجيون منذ أوائل القرن السادس عشر حتى أوائل القرن العشرين دورهم التاريخى فى مواجهة الغزاة المعتدين على الخليج وأهله ، سواء كان هؤلاء الغزاة برتغاليون أو هولنديون أو بريطانيون ، ورغم عدم التكافؤ بين قوة أهل الخليج الحربية وقوة الغزاة الحربية فان الخليجيين استخدموا ما يمكن أن نسميه حرب العصابات أو عمليات الجهاد البحرى ضد هؤلاء الغزاة أو العمليات التى امتلأت كتب المؤرخين الأوروبيين وصفا منها بالقرصنة ، وكأنما من يدافع عن دينه وأرضه وعرضه ضد عدوان غاشم صليبى يتهم بالقرصنة ويطلب من المجتمع الدولى العمل على محاربته •

وكان البرتغاليون بقوتهم الغاشمة قد نجحوا فى الاستيلاء على

جزيرة « هرمز » ١٥٠٨م ثم توالى استيلاؤهم على كل من مسقط والبحرين وبقية ساحل عمان ما عدا الاحساء ، واستخدموا الوحشية أسلوبا للتعامل مع عرب الخليج ولا عجب فى ذلك فان البرتغاليين صليبيون متعصبون ضد المسلمين أينما كانوا •

لم يسلم الخليجيون بالغزو والاستعمار من جانب البرتغال بل قاوموا ما وسعتهم المقاومة وشهدت الفترة من عام ١٦٤٠م حتى عام ١٦٥٠م انحسارا للوجود البرتغالى فى الخليج ساهم فيه الخليجيون بدور أساسى ، ومارسوا فيه عمليات الجهاد البحرى وشاركهم أيضا مغامرون أتراك مثل « بيرى بك » و « الريس مراد » و « على بك » الذين وقفوا ضد البرتغال فى الخليج والبحر العربى فى المدة من عام ١٥٥١م حتى عام ١٥٨١م • ومن الانصاف القول بأن القضاء النهائى على الوجود البرتغالى فى الخليج العربى اسهم فيه بدور كبير الانجليز والهولنديون عام ١٦٨٩م وان كان ذلك من أجل مصالح انجلترا وهولندا لا من أجل مصالح عرب الخليج •

تمرس عرب الخليج اذن على عمليات الجهاد البحرى بمقدم الغزاة البرتغاليين ، ومن ثم فلن يصعب عليهم بعد جلاء البرتغاليين عن أراضى ومياه الخليج ان يواجهوا القوى الأوروبية التى حاولت أن ترث تركة البرتغال فى الخليج ، ومن المؤسف حقا أن يتسبب الاستعمار فى تحويل عرب الخليج من بناة رخاء وحضارة لأوروبا وللعالم بنقلهم المتاجر بين الشرق والغرب ونقلهم الثقافات المختلفة ، الى مجاهدين فى البر والبحر دفاعا عن دينهم وأرضهم وعرضهم وحياتهم ، ومن ثم يتضاءل دورهم الحضارى العالمى ، وهو أمر لا شك فى أنه مخطط من جانب الاستعماريين•

استمرت علاقة عرب الخليج بالبرتغاليين متوترة حتى بعد اجلاء الأخيرين من الخليج ، فقد استطاع عرب الخليج بحملة بحرية انتزاع مدينة « ممبسة » الأفريقية العربية من أدى البرتغاليين عام ١٦٦٠ م كما استمرت عمليات الجهاد البحرى للخليجيين ضد سفن البرتغاليين فى الخليج العربى والبحر العربى والمحيط الهندى من عام ١٦٩٣ حتى عام ١٧٢٢م ، وشهدت مياه الخليج سواء قرب الشواطىء الشرقية

الايرانية أو فى المياه الاقليمية العربية من الخليج معارك ، وكانت سفن العمانيين فى مقدمة السفن الخليجية العربية فى تلك المعارك سواء أمام ميناء « كنج » الفارسى أو مقابل « مسقط » العربية ، أو عند ميناء ممبسة الأفريقية أو باتجاه مدينة « سورات » الهندية ، واذا لم يكن النصر حليف العرب فى كل تلك المعارك الا أنهم قاموا بعمليات الجهاد الاسلامى ثأرا من اعتداءات البرتغاليين السابقة على أراضى عرب الخليج .

وعندما جاء الهولنديون الى مياه الخليج اهتموا بالتجارة أكثر من اهتمامهم بالغزو والاستعمار ، وان كان هذا لا ينفى أنهم اشتركوا مع الانجليز فى طرد البرتغاليين من الخليج العربى ، ولعل هذا من أسباب عدم تطبيق عرب الخليج سياسة الجهاد البحرى ضد سفن الهولنديين ، ومن ثم مارست تلك السفن نشاطها فضلا عن سفن الانجليز وبعض المغامرين العرب الكارهين لكل ما هو أوروبى مسيحى .

وأما بالنسبة للانجليز فقد حرصوا على توفير الأمان لسفنهم العاملة فى الخليج العربى وفى البحر العربى والمحيط الهندى لضمان انتقال المتاجر دون عقبات بين انجلترا والهند عبر مياه الخليج العربى الهندى ، ثم ضمان المواصلات بين انجلترا ومستعمرتها فى الهند التى تكونت فى القرن الثامن عشر ، ومن ثم دخلت انجلترا فى منافسة مع الهولنديين للاستئثار بالنفوذ والعلاقات مع عرب الخليج ولحماية التجارة والمواصلات الانجليزية .

وما دمنا قد وصلنا الى القرن الثامن عشر والى بداية السيطرة البريطانية على مياه الخليج العربى فيجدر بنا أن نشير الى أن عرب الخليج كانت لهم السيطرة على مختلف ألوان النشاط البحرى فى مياههم خلال القرن الثامن عشر ، حيث مارسوا صناعة بناء السفن والغوص على اللؤلؤ ، كما أداروا حركة الملاحة التجارية بين موانى الخليج بعضها وبعض ، وبينها وبين موانى شرق أفريقيا والهند ، ومن ثم صارت لهم السيطرة على جزر الخليج وعلى أجزاء مختلفة من الشاطىء الشرقى للخليج أيضا .

كما يجدر بنا أن نفرق بين نوعين من العمليات البحرية العسكرية التى قامت بها سفن عرب الخليج ، النوع الأول موجه ضد سفن الدول الأوروبية انطلاقا من كراهية العرب لكل ما هو أوروبى بسبب ما لقوه على أيدى البرتغاليين من وحشية وهذا النوع هو ما نسميه بعمليات الجهاد البحرى الاسلامى . والنوع الثانى من تلك العمليات تلك التى تقوم بها سفن عربية ضد عربية اخرى فى الخليج لأسباب عدائية . كالتى تحدث فى الصحراء بين القبائل بعضها وبعض أو لمطامع رئيس قبيلة أو تنفيذا لسياسة قوة أخرى أكبر . ومن عجب أن يطلق الكتاب الاوروبيون على النوعين من العمليات البحرية اسم القرصنة .

وعلى هذا فاننا عند الحديث عن عمليات الجهاد البحرى نجد أن السفن الانجليزية العاملة بالخليج العربى لم تسلم من تلك العمليات على يد السفن العربية ، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فنقرأ قرارا أصدره مجلس مديرى شركة الهند الشرقية البريطانية المنعقد فى لندن الى وكيل الشركة فى الخليج ما نصه : اذا فشلت جميع الجهود المبذولة لقمع اتجاهات القرصنة — يقصد الجهاد البحرى — لدى الايرانيين والسلطات الأخرى فى الخليج فى تحصيل تعويضات عن الأضرار الناتجة عن القرصنة ، فان عليكم ابلاغ ذلك الى الرياسة لتعرض الأمر على قائد الاسطول الملكى فى جزر الهند الشرقية لمحاولة الحصول على المعونة فى الظروف والأحوال التى تقتضيها كل حالة بمفردها .

وكان ذلك نتيجة تأثر حركة التجارة الانجليزية منذ أوائل القرن الثامن عشر بعمليات الجهاد البحرى التى قام بها عرب الخليج والايرانيين المسلمين ، وكان خط الملاحة الرئيسى فى الخليج يسير بمحاذاة الساحل الشرقى ، ولم تغامر سفينة أوروبية بالتوجه الى القسم الغربى من الخليج منذ خروج البرتغاليين ، وكانت تتجنب دائما هذا الجانب من الساحل لأن القليل هو ما كان يعرف عنه ، وكان يعتبر منطقة غير مأمونة .

وفى هذا المقام سوف نناقش دور قبيلة القواسم فى العمليات البحرية ضد السفن الانجليزية ، ذلك الدور الذى بدأ عام ١٧٧٨م بهجوم قامت به ست سفن تابعة للقواسم على سفينة انجليزية تحمل رسائل رسمية وأسرها واقتيادها الى رأس الخيمة ، وقيام ثمانى سفن تابعة للقواسم أيضا بمهاجمة السفينة البريطانية « سكس » وهى فى طريقها من البصرة الى مسقط فى شهر يناير ١٧٧٩م ، ولكن هذه السفينة البريطانية نجحت فى الفرار ، كما هاجم أسطول القواسم السفينة « أستانس » فى فبراير ١٧٧٩م التى لاذت بالفرار والتجأت الى « بوشهر » .

واستمرت عمليات أسطول القواسم ضد السفن البريطانية ، فنجح فى أسر السفينة « بكلر بك » المبحرة تحت العلم البريطانى قرب « رأس مسندم » عام ١٧٩٠م ، وفى عام ١٧٩٧م هاجمت سفن القواسم السفينة البريطانية « باسين » بالقرب من جزيرة « قيس » وأسروها وقادوها الى رأس الخيمة ، وفى نفس العام هاجم الأسطول القاسمى الطراد البريطانى « فايير » بينما كان راسيا بالقرب من « بوشهر » وان كان الطراد قد نجح فى الفرار الا أنه خسر أكثر من ثلاثين من بحارته .

وخلال تلك العمليات زادت احتجاجات البريطانيين على عمليات القواسم وزادت تهديداتهم ، ومع ذلك كانوا يلجئون الى دفع التعويض والفدية المطلوبة أو قبول التبريرات التى يذكرها زعيم القواسم بأنهم مثلا كانوا فى حالة دفاع عن النفس أو أنهم اخطئوا الهدف وأنهم يقصدون سفن العمانيين وغير ذلك من التبريرات ، وفى كل الأحوال لجأت السلطات البريطانية الى حماية السفن التجارية التى ترفع العلم البريطانى بسفن حربية مسلحة .

وعندما صار القواسم حلفاء للدولة السعودية الأولى واعتنقوا عقيدة التوحيد التى دعا اليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وجدوا فى تلك العقيدة ما ما يوافق عملياتهم البحرية بمهاجمة السفن الأوروبية

المسيحية ، حيث استندوا الى مبدأ الجهاد فى الدعوة الوهابية فباشروا عمليات الجهاد البحرى فى الخليج باسم الدولة السعودية ، وصارت هذه العمليات جزءا من حركة الجهاد وبالتالى فان الاسلاب تعد غنائم حرب. كما ان هذه العمليات صارت أمرا لازما ضد منكرى تعاليم الوهابية •

ونتيجة لتأييد امراء الدولة السعودية للقواسم ، مد هؤلاء نشاطهم البحرى الى المحيط الهندى حيث ظهرت سفنهم أمام ساحل « الملبار » شمال « بومباى » عام ١٨٠٨م ، وتعرضوا للسفن الأوروبية وغيرها فى اطار الجهاد الدينى حتى وصفهم الأوروبيون بأنهم يعطون مبررات دينية لكل عمل حربى يقومون به ضد السفن المعادية ، وكان القواسم يرسلون خمس الغنائم التى يحملون عليها من عملياتهم البحرية الى السعوديين •

ورغم عقد معاهدة بين بريطانيا والقواسم عام ١٨٠٦م الا ان الخليج شهد منذ عام ١٨٠٨م نشاطا بحريا للقواسم بتولية زعيمهم الجديد « حسين بن على » امتد حتى هدد سواحل الهند نفسها ، بل وأخذ القواسم بقيادة زعيمهم يطفون فى المياه العربية بأعداد من سفنهم تراوحت بين خمسة وعشرين سفينة يقود كل منها قائد مسئول أمام زعيمهم ، وقد اقلقت هذه العمليات انجلترا المرة بعد المرة حتى بدأت تفكر فى اتخاذ اجراء لوقف القواسم عن مهاجمة السفن البريطانية •

فقد عززت بريطانيا حراسة مصالحها فى الخليج العربى بعدة سفن حربية وطرادات تحمل مدافع متعددة ، ومع ذلك تمكنت سفن القواسم من أسر عشرين سفينة تجارية هندية ترفع العلم البريطانى أواخر عام ١٨٠٨م وأوائل عام ١٨٠٩م فى البحر العربى والمحيط الهندى ، وقد ادى هذا النجاح الى مزيد من الجهاد البحرى قامت به سفن القواسم فى الخليج العربى والمحيط الهندى ، فهاجمت ٥٥ سفينة للقواسم بالقرب من راس مسندم سفينة تجارية ضخمة انجليزية تدعى « منيرفا » فى مارس ١٨٠٨م حيث تم أسرها ومن عليها وضمها الى أسطول القواسم ، ثم اطلق القواسم أسر البحارة لقاء جزية •

وقد بلغت جرأة القواسم حــدا جعلهم يهاجمون سفينة البحرية الملكية البريطانية الضخمة ذات الخمسين مدفعا خلال عام ١٨٠٩م • وكانت عملياتهم تقوم على محاولة الأسر بواسطة الاقتحام ، فتحاول سفنهم المناورة من أجل الاقتراب من الهدف لتلتصق به وعندها يندفع مقاتلوهم الى سطح السفينة المعادية مرددين عبارة الله أكبر ، وكانت قوة القواسم قد وصلت الى ٦٣٠ سفينة كبــيرة و ٨١٠ سفينة أصغر حجما ، وعدد الرجال العاملين على هذه السفن ٨٫٧٠٠ رجل ، استند عليهم زعيم القواسم فى مطالبـــة حكومة بومباى بدفع اتاوة من أجل السماح للسفن البريطانية بالمرور فى الخليج بحرية •

قررت بريطانيا التدخل ضد نشاط القواسم البحرى فجهزت ١٣ سفينة حربية محملة بالمدافع والمعــدات العسكرية وعــددا من الجنود والضباط يقدر بحوالى ألف وخمسمائة رجل حملتهم ٤ سفن حاملة جنود، وأعطى قائد الحملة التعليمات اللازمة من أجل تدمير القوة البحــرية للقواسم وبعدها عليه عقد معاهدة مع القواسم لفرض الشروط البريطانية على أن يتجنب الصدام مع الدولة السعودية حليفة القواسم •

وفى ١٢ نوفمبر ١٨٠٩م بدأت عمليات الانجليز ضد مدينة رأس الخيمة حيث مكث ضرب المدينة ثم الاستيلاء عليها والجلاء عنها بعد يومين أمام مقاومة القواسم ، وبعد ذلك توجه الانجليز فاستولوا على « لنجة » و « لافت » التابعتين للقواسم ثم عادت الحملة البريطانية الى مسقط ، وسجل قادتها ما يعتبر أحسن شهادة على بطولة القواسم وما يؤكد أن القواسم وان خسروا معارك حربيـــة فانهم لم يخسروا روحهم المعنوية ولن يتوقفوا عن سياسة الجهاد البحرى ، حيث سلمت من التدمير معظم سفنهم التى اختبأت فى الأخوار والخلجان العميقة فى الجانب الغربى من شبه جزيرة مسندم •

ومع ذلك ما كاد عام ١٨١٢م يبدأ حتى عادت السفن القاسمية الى مهاجمة السفن الانجليزية أو تلك التى ترفع العلم البريطانى ، حيث أصبح القواسم من جديد أقوى قوة على طول خطوط الملاحة فى الخليج

العربى • كما ظهرت سفن القواسم مرة أخرى أمام شواطىء الهند أواخر عام ١٨١٣م وأوائل عام ١٨١٤م حيث تم أسر عدة سفن ترفع العلم البريطانى ، وعندما احتج المقيم العام البريطانى فى « بوشهر » رد زعيم القواسم « حسن بن رحمة » فى مايو ١٨١٤م بأنهم لم يأسروا أية سفينة تحمل ترخيصا بريطانيا ، وأنه فى حالة وقوع مثل ذلك فانهم على استعداد لاعادة البضائع ، وأنه قد أصدر تعلماته الى رجال قبيلته بعدم التحرش أو الاقتراب من أية سفينة تبحر تحت العلم البريطانى •

وفى أكتوبر ١٨١٤م عقد القواسم مع المقيم العام البريطانى فى الخليج معاهدة نصت على تناسى أحداث الماضى بين الطرفين وأن يحترم القواسم العلم البريطانى فلا يهاجموا السفن التى تحمله ، وان يسمح القواسم للرعايا البريطانيين بالنزول والتجارة فى موانيهم وأيضا للسفن البريطانية ، وأن ترفع سفن القواسم أعلاما حمراء مكتوب على كل منها « لا اله الا الله محمد رسول الله » وان يعيد القواسم ما يغتنموه من السفن الأخرى ويخص الرعايا البريطانيين الى أصحابها •

وقد ظلت هذه الاتفاقية سارية لمدة عام حيث لم يقم القواسم بمهاجمة السفن التى تحمل العلم البريطانى ، ولكن ما كاد عام ١٨١٥م ينتصف حتى عادت سفن القواسم الى سابق نشاطها ضد السفن الأجنبية حتى ولو رفعت الأعلام البريطانية ، كما شهد العام التالى ١٨١٦م نشاطا متزايدا ضد السفن الأجنبية وامتد نشاطهم حتى المحيط الهندى والبحر الأحمر الى جانب الخليج العربى ، وشملت السفن التى هاجمتها سفن القواسم سفن أمريكية وفرنسية فى المحيط الهندى ، وثلاث سفن هندية ترفع العلم البريطانى عند مدخل البحر الأحمر فى مارس ١٨١٦م •

حاول الانجليز الرد على عمليات القواسم البحرية بمظاهرة بحرية لكنهم فشلوا حيث أكد زعيم القواسم أنهم لم يهاجموا أية سفينة انجليزية ولم يستولوا الا على ممتلكات تعود للهندوس ووثنيين آخرين من الهند ، وأنهم يحترمون اتفاقهم مع الانجليز • وقد زاد فشل المظاهرة البحرية البريطانية أمام جرأة القواسم وازدياد نشاطهم مما دفع الانجليز

الى مهاجمة مدينة رأس الخيمة فى عام ١٨١٩م وعندما نجحوا فى النزول الى البر بعد تدمير المدينة فرضوا على زعماء القواسم معاهدة صارت أساسا لمعاهدات أخرى وقعها مشايخ الخليج • ثم وفد على معسكر الحملة زعماء الشارقة سلطان بن صقر ، ووالد شيخ أبو ظبى المعروف طحنون بن شخبوط الفلاحى ، وشيخ دبى القاصر محمد بن هزاع ، وشيوخ عجمان وأم القيوين وجزيرة الحمراء • وبحث معهم قائد الحملة عقد معاهدة لأنهاء نشاط الجهاد البحرى • ومن عجب أن هذه المعاهدات التى وقعها هؤلاء الزعماء جميعا فى شهر يناير ١٨٢٠م صارت الأساس الذى ارتكزت عليه الهيمنة السياسية والاقتصادية البرطانية على أقطار الخليج العربى ، وتحددت علاقات بريطانيا بهذه المعاهدات باعتبارها جزءا لا يمكن الاستغناء عنه من امبراطوريتها فى الهند •

عــرب الخليج الآخرون

والجهــاد البحرى

فاذا كان شهر فبراير ١٨٢٠م قد شهد انتهاء العمليات العسكرية البريطانية ضد القواسم وبقية موانى الساحل العمانى التى تنطلق منها سفن الجهاد البحرى ، فقد اتجهت الحملة البريطانية الى بقية موانى الخليج التى شاركت سفنها فى مهاجمة السفن الانجليزية ، ولم يكن عسيرا عنيها اتمام هذه المهمة ، ولكن رغم المعاهدات التى كبلت زعماء القبائل العربية فان النشاط البحرى لن يتوقف تماما •

ومما تجدر ملاحظته ان البريطانيين حــين اصطدموا بالقواسم ادعوا أن ذلك من أجل القضاء على عملياتهم البحرية (القرصنة) ضد الملاحة فى الخليج العربى ، ولكن الدافع الحقيقى للموقف البريطانى يظهر من خلال شكاوى ممثلى شركة الهند الشرقية البريطانية فى الخليج التى أنصبت على استيائهم من منافسة التجار العرب لهم ، ومن ثم استندت السلطة البريطانيا على الادعاءات المتمثلة فى محاربة القرصنة ومحاربة تجارة الرقيق وهى تهدف فى الأصل الى القضاء على التجارة

والملاحة العربية . لأن معاهدات سنة ١٨٢٠م بين بريطانيا ومشايخ ساحل عمان كانت تمنع اشتباك سفن العرب بالسفن البريطانية أو تلك التى تحمل اعلاما بريطانية ، وأن هذه المعاهدات لم تقصد منع الاشتباكات بين سفن المشيخات العربية المختلفة فيما بينها .

ورغم معاهدات ١٨٢٠م بين بريطانيا من ناحية ومشيخات الساحل العمانى من جهة أخرى فقد حدثت عمليات جهاد بحرى قامت بها سفن عربية ضد السفن الانجليزية كتلك التى حدثت للسفينة البريطانية المسماه « سنبرى » فى ميناء الشارقة عام ١٨٢٩م استولى العرب على حمولة هذه السفينة وان كان شيخ الامارة قد اقتص من المشاركين فى هذه العملية بحرق أحد قواربهم المشترك فى الحادثة وجلد صاحبه .

كما حدثت عملية جهاد بحرى أخرى فى أبريل ١٨٣٥م بين ست سفن تابعة لعرب « بنى ياس » وسفينة حربية بريطانية تدعى « الفينستون » . لم يكن النصر النهائى فيها للسفن العربية مما أجبرهم على قبول الشروط البريطانية المجحفة والتى تمثلت فى التعهد بتسليم ١٥ سفينة كانوا قد استولوا عليها وما بقى من حمولتها ، ان يدفعوا مبلغ ١٠ آلاف دولار كتعويض نقدى والتعهد بدفع مبلغ اضافى قدره ١٦٠٠ دولار ، واطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا قد أسروهم ، وتسليم رجلين من رجال القبيلة تزعما العملية البحرية .

أخذت السلطات البريطانية تستعرض قوتها البحرية فى الخليج بظهور السفن الحربية فى دوريات مستمرة وزيادة موانى الخليج . وفرض ما عرف بنظام الهدنة البحرية والتى تحظر على سائر مشايخ الساحل العمانى ورعاياهم القيام بعمليات جهاد بحرى أو مغامرات بحرية وتعاقب من يقوم بها وقد اقتصرت تلك المعاهدات فى أول الأمر على موسم الغوص على اللؤلؤ ثم زادت لتظل سارية لمدة سنة تتجدد ، وأخيرا وفى عام ١٨٤٣م تجددت لمدة عشر سنوات مرة واحدة .

ورغم أن نظام الهدنة أصبح سارى المفعول منذ عام ١٨٣٥م الا أنه لم يشمل كل سواحل الخليج ، ومن ثم وجدنا عمليات الجهاد البحرى

تستمر فى المشيخات التى لم تدخل فى ذلك النظام مما دفع أسطول البحرية البريطانى الى ضرب مدن الدوحة والوكرة والعديد عام ١٨٣٦م بسبب قيام سفن عربية من تلك الموانى بعمليات جهاد بحرى ضد السفن البريطانية والهندية التى ترفع العلم البريطانى • وتجددت اعتداءات البحرية الانجليزية ضد الدوحة عام ١٨٤١م •

وعندما صار نظام الهندنة البحرية دائما بمعاهدة جديدة وقعها مشايخ الساحل العمانى وضمنتها السلطات البريطانية قلت الى حد كبير عمليات الجهاد البحرى ولم نسمع عن عمليات كبيرة كالتى كانت تحدث قبلا • بل وجدنا فى الوثائق البريطانية تعبير الاضطرابات البحرية بدل تعبير « القرصنة » ومع ذلك حدثت عمليات فردية معظمها ضد السفن الهندية كتلك التى جدثت أمام ساحل الاحساء أواخر عام ١٨٥٤م كانت نتيجتها تدمير السفن العربية المشتركة فى هذه العملية ، وتلك التى حدثت عام ١٨٥٥م فى الشارقة ضد سفينة من بومباى وأيضا فى عام ١٨٥٦م وعام ١٨٦٠م فى أبو ظبى • وفى كل تلك الحالات حصلت السلطات البريطانية على تعويض لمستحقى السفن التى هوجمت كما تم توقيع العقاب على العرب المشاركين فى تلك العمليات •

ومنذ معاهدات عام ١٨٢٠م بين السلطات البريطانية ومشايخ الساحل العمانى ، جعلت تلك السلطات من نفسها رجل بوليس فى الخليج يستخدم القوة لحماية مصالحه هو ويدعى أنه فى خدمة أهل الخليج والملاحة بل والمثل الانسانية عامة • فنجد هذا الوصف السلطات البريطانية يتجلى بوضوح فى مشروع « الكولونيل بيلى » المقيم السياسى البريطانى فى الخليج الذى قدمه لحكومة بومباى البريطانية عام ١٨٦٣م بهدف تثبيت النفوذ البريطانى وانفراده فى الخليج العربى •

وجاء فى هذا المشروع أن هدف التواجد البريطانى — من خلال مقيمية سياسية — فى الخليج هو مكافحة « القرصنة » ومحاربة تجارة الرقيق ، وتنمية التجارة « البريطانية بالقطع » وأن عملية « القرصنة » قد تم كبح جماحها الى حد كبير وان كان الأمر يتطلب استمرار المراقبة

من جانب الأسطول البريطانى • أما تجارة الرقيق فمازالت قائمة • ومن ثم فهو يدأب جعل مقر المقيمية البريطانية فى « رأس مسندم » بدل « بوشهر » • حتى يمكن السيطرة على مدخل الخليج فيمكن منع السفن المحملة بالرقيق من دخول الخليج ، وكذلك السيطرة على عمليات الجهاد البحرى للعرب الخليجيين ، وبالتالى مد النفوذ البريطانى فى شبه جزيرة العرب من ناحية وفى ايران من ناحية أخرى •

وثمة عمليات جهاد بحرى قامت رغم مظاهر القوة البريطانية فى الخليج من أمثال تلك العمليات هجوم سفن عربية على سفينة البريد التجارية البريطانية المسماه « كشمير » أثناء القاء مراسيها فى البصرة عام ١٨٧٢م ، وسلب ماعليها وقتل بعض رجالها وان كانت السلطات البريطانية قد تمكنت من استعادة أغلب ما سلب على يد المهاجمين وكانوا من عربستان واعدام سبعة من هؤلاء المهاجمين •

كما شهدت مياه أقليم الاحساء عمليات جهاد بحرى خلال أعوام ١٨٧٨م الى ١٨٧٩م ، ولم تستطع السفن البريطانية العمل فى تلك المياه لأن هذا الاقليم كان بصفة رسمية خاضعا للسيادة العثمانية وان كانت سفينة بريطانية قد استطاعت أسر سفينة عربية خارج مياه القطيف عام ١٨٧٩م • كما شهدت مياه شط العرب عام ١٨٨٠م عملية ضد البريطانيين كان من ضحاياها المشرف على محطة البرق البريطانية فى « الفاو » • وقد تمكنت السلطات البريطانية من تحصيل التعويضات اللازمة وحملت شيخ المحمرة — على الساحل الايرانى — على توقيع عقوبات شديدة ضد بعض أهله المسئولين عن مثل تلك العمليات •

وحينما استمرت عمليات الجهاد البحرى فى مياه الأحساء أصدرت السلطات البريطانية أمرا عام ١٨٨١ م لقائد بحريتها فى الخليج بدخول تلك المياه وتعقب السفن العربية وعدم التقيد بمسألة السيادة العثمانية ومن ثم ظلت هذه المنطقة هادئة حتى عام ١٨٩٩م حينما حدثت عملية بحرية عربية كبيرة قادها أحد أعضاء الأسرة الحاكمة فى البحرين والذى أفلت من المطاردة البريطانية ، واستمرت تلك العمليات بدرجات متفاوتة حتى عام ١٩٠٥م سواء أمام ساحل الأحساء أو على سواحل قطر •

وفى عام ١٩٠٠م شهد شط العرب نشاطا بحريا كبيرا كان موجها بالدرجة الأولى ضد السفن الانجليزية والهندية ، الى جانب اغارات متفرقة ضد سفن ايران والبحرين ولما كان شط العرب تحت سيطرة كل من ايران وتركيا — كل على جانب — فقد حاولت السلطات البريطانية مع هاتين الدولتين لكى تضمن تعاونهما ضد من يقوم بتلك العمليات البحرية كما قامت السفن البريطانية نفسها بعمليات حربية ضد السفن العربية فى تلك المياه وحصلت السلطات البريطانية من شيخ المحمرة على وعد بايقاف القائمين بتلك العمليات من بين عشيرته •

وشهدت سواحل قطر عمليات جهاد بحرى استاءت لها السلطات البريطانية وحاولت أكثر من مرة ضرب مدن قطر • كما هددت بالضرب وقامت بمظاهرات بحرية لارغام الشيخ جاسم بن محمد آل ثانى ومنذ عام ١٩٠٠م على التعاون معهـا للقضاء على القائمين بتلك العلميات البحرية من السواحل القطرية ، ومع ذلك لم تستطيع السلطات البريطانية السيطرة على الساحل الا بعد فرض الحماية على قطر عام ١٩١٦م ، وذلك بسبب عدم تعاون شيوخ قطر تعاونا كاملا مع السلطات البريطانية فى فرض السيطرة على القبائل التى تعيش على الأرض القطرية •

المغـامرات البحـرية

ان موضوعنا يستلزم الاشارة الى تلك العمليات التى قامت بها سفن عربية ضد سفن عربية أخرى ، تلك العمليات التى أطلقنا عليهـا اسم الحروب البحرية بين القبائل العربية أو المغامرات البحرية للعرب •

ذلك أنه حدثت بين القبائل العربية الخليجية حروب شهدتها مياه الخليج كما شهدتها صحاريه ، أى أن هذه الحروب امتدت من الداخل الى الساحل ومن الأرض الى البحر فهى اذن حروب لها أسبابها التى أهمها الصراع حول الامتلاك سواء للارض أو للميـاه خاصة لأماكن الغوص على اللؤلؤ • ومن هنا لا يمكن أن نطلق على تلك العمليات اسم « قرصنة » لأن « للقرصنة » مفهوم آخر ذكرناه وليس لها من أسباب سوى الرغبة فى السلب والنهب وتتجه فى الغالب نحو السفن الأجنبية كما رأينا •

ولعل قائل يقول بان السفن العربية التى كانت تغير على بعضها البعض كانت تخرج من هذه الاغارات بمغانم واسلاب ، فهى لا تفترق عن عملية القرصنه اذن • ولكننا نرد عليه بالقول بأن الحروب المعلنة تعطى للمنتصر حق الحصول على مغانم من العدو بل وأسرى ، وهى حروب رسمية بين طرفين يختار احدهما أو كليهما مكانها ويحدد زمانها • بينما عمليات القرصنة غير مشروعة لأنها عدوان لا مبرر له وهى سرقة فى الظلام •

وفى هذا المجال سوف نسوق عدة أمثلة على صحة ما ذهبنا اليه ، وهو ان العمليات البحرية التى قامت بها سفن عربية فى الخليج ضد أخرى عربية أيضا كانت حربا أو مغامرات فى أقل القليل منها ولم تكن أبدا قرصنة لندرك ما رمى اليه المغرضون حين ساووا فى الوصف بين تلك العمليات وبين العمليات الموجهة ضد السفن الأجنبية المعادية •

يمكن التأريخ لتلك الحروب البحرية بين السفن العربية بعضها وبعض بدخول القواسم النفوذ السعودى واعتناقهم لمبدأ التوحيد الذى دعا اليه الامام محمد بن عبد الوهاب ، ذلك أن القواسم اعترفوا بسيادة الدولة السعودية على ساحل عمان أواخر القرن الثامن عشر ، وصاروا أتباعا لتلك الدولة يطبقون مبادئها ، ومن ثم اعتبر القواسم عملياتهم البحرية ضد السفن العربية الخارجة على الوهابية جزءا من حركة الجهاد وبالتالى فان الاسلاب تعد غنائم حرب وعليها تأدية خمسها الى الحاكم الشرعى أى رئيس الدولة السعودية • وقد كانت معظم تلك العمليات موجهة ضد سفن سلطنة مسقط وعمان منذ أوائل القرن التاسع عشر •

كما حدثت تلك العمليات بين القواسم وبنى ياس منذ عام ١٨١٢م، وعندما استطاع الانجليز القضاء على قوة القواسم البحرية وفرضوا عليهم معاهدة عام ١٨٢٠م انضم مشايخ الساحل العمانى للمعاهدة التى فرضت عليهم عدم القيام بعمليات بحرية ضد أية سفينة بالخليج وأن تسوى القبائل المتعاهدة الخلافات الداخلية فيما بينها ، وأن تخضع السفن العربية لتفتيش السفن البريطانية ، وأن تتعاون القبائل فى محاربة القبيلة التى تخرج على هذه الشروط •

كما نصت اتفاقات الهدنة التى صارت دائمة منذ عام ١٨٥٣م على أن يتعهد مشايخ القبائل العربية الخليجية باحترام أمن الملاحة فى الخليج ويقدم هذا التعهد للمقيم العام البريطانى فى الخليج وان يقبل الرؤساء العرب بمقتضى هذا النظام الأحكام التى تصدرها بريطانيا فى حالة نقض الهدنة • ثم صارت بريطانيا حكما مستديما تفرض الغرامات على القبائل العربية التى تهاجم سفنها سفنا أخرى ومع ان هذا لا يعطى لبريطانيا حق التدخل الا فى الاشتباكات البحرية فأنها كانت تتجاوز اختصاصها فى كثير من الأحيان وتفرض وساطتها فى مشكلات تتعلق بالمناطق الداخلية •

ولقد نشطت عمليات الحرب البحرية بين سفن البحر الحربية العربية بعضها وبعض خاصة فى منطقة الأحساء والبحرين وباتجاه سواحل قطر ، لأن تلك المياه لم تشملها اتفاقات الهدنة ، وقادت قبائل بنى هاجر والعجمان وبنى مرة والمناصير وغيرهم تلك العمليات ، ونجد فى كتاب دليل الخليج شكاوى من بعض الملاحين المسلمين مقدمة للمقيم السياسى البريطانى بالخليج ضد سفن قبائل عربية خليجية لأنها هاجمت سفنهم واستولت على ما فيها ، وقد كثرت هذه الشكاوى خلال أعوام ١٨٦٥ — ١٨٧٠م بصفة خاصة •

كما انتقلت الحرب البرية بين قطر والبحرين وبين قطر وأبو ظبى الى الميدان البحرى وصارت عملية مهاجمة سفن أى من الطرفين لسفن الطرف الآخر أمرا عاديا بحكم الحرب والعداء بين هذه الأطراف ، وشهدت السنوات الباقية من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى عمليات حربية فى البحر بين سفن عربية تابعة لمشيخة أو قبيلة وسفن عربية أخرى تابعة لمشيخة أو قبيلة أخرى •

ومما شجع على استمرار هذه العمليات وانتقالها من البر الى البحر ضعف الحكم التركى فى الأحساء وقطر ، وقيام النزاعات القبلية ودخول القبائل فى عمليات ثأرية ، كالنزاع بين « بنى على » وقبيلة « العمامرة »، وكانت نتائج تلك العمليات الأخلال بالأمن واشاعة الفزع فى مغاصى اللؤلؤ مما كان له أكبر الاثر على حركة التجارة العربية فى الخليج وقد

فرضت انجلترا نفوذها بالقوة فى الخليج لم تعد فى وسع السفن الشراعية العربية منافسة السفن الأوروبية ، ومن ثم صارت مشيخات الخليج فى حاجة دائمة للمساعدات الخارجية ، وقد ضمنت انجلترا هذه الحاجة الذى تحكم قبضتها على مشيخات الخليج .

ومما هو جدير بالذكر ان القبائل الخليجية لم تكرس كل نشاطها للعمليات الحربية البرية والبحرية ، بل، أنها ساهمت بدور فعال سواء كانت قبائل الساحل العمانى أو قبائل قطر والبحرين والكويت ، وعرب سلطنة مسقط وعمان ، فى أعمال الغوص على اللؤلؤ وفى نقل التجارة بين الهند والخليج وشرق أفريقيا .

ولا يمكن استكمال الموضوع دون ذكر بعض الحقائق عن نشاط غير العرب أوروبيين وهنود — فى عملية القرصنة فى المياه الهندية والعربية والأفريقية لتتضح لنا الصورة كاملة بين ما يدعيه المؤرخون المغرضون عن « القرصنة » العربية ، وبين حقيقة القرصنة الأوروبية التى اتخذت لها نشاطا فى مياه المحيط الأطلنطى ، ونسوق الآن فصلا من عملياتها فى المياه الهندية والعربية .

يروى لوريمر فى كتابه دليل الخليج عن حدوث نزاع بين الانجليز والمغول فى الهند نتيجة أعمال القراصنة الأوروبيين وغيرهم خلال الأعوام من ١٦٩١ — ١٧٠٥م فيذكر أنه فى عام ١٦٩١م قامت سفينة انجليزية بعملية قرصنة ضد السفن الهندية مما دفع بسلطان المغول الى فرض حظر على كل السفن الأوروبية فى « سورات » وأنه وجد قرصانا دانيمركيا يعمل فى المياه الهندية .

وتعددت عمليات القرصنة الأوروبية سواء فى المياه الهندية أو فى مياه الخليج العربى ، ومن عجب أن نجد معظم القائمين بها انجليز يستخدمون سفنا تحمل العلم الانجليزى حتى اتفقت الدول الأوروبية فيما بينها عام ١٦٩٨م على ان تضمن انجلترا تطهير المياه الهندية من القراصنة ، وتتحمل فرنسا مسئولية حماية الملاحة فى الخليج العربى من القراصنة ، كما تقوم هولندا بمتابعة القراصنة فى البحر الأحمر .

ولم تذكر المصادر أن الأوروبيين أبرياء من هذه العمليات ، بل ان المصادر الأوروبية تذكر ان المغامرين الاوروبيين هم الذين شجعوا بعض المغامرين العرب من مسقط وبعض الهنود على القيام بتلك العمليات ، بل ان المصادر نفسها تذكر ان سفنا تحمل العلم البريطانى تهاجم سفنا تحمل هى الأخرى العلم البريطانى حتى صار الانجليز مكروهين فى تلك المياه كراهية البرتغاليين فى الهند •

ورغم محاولات الحكومة الانجليزية المساهمة فى القضاء على القراصنة فى المياه الهندية والعربية ، كما حدث عام ١٧٠٠م حين أعدمت تسعة من القراصنة الانجليز ورئيسهم ، فان التجارة قد تأثرت بتلك العمليات حتى ان تقارير المسئولين الانجليز فى الخليج ذكرت أن ظهور قرصان انجليزى واحد فى مياه الخليج قد أضر بالتجارة الانجليزية اضرارا بالغا •

الفصل الخامس عشر

الجامعـــة الاســـلامية

* مقـــــدمة ٠
* ظروف العالم الاسلامى ٠
* فكرة الجامعة الاسلامية ٠
* دعـــاة الفـــكرة ٠

١ ــ السيد محمد جمال الدين الافغانى ٠

٢ ــ الشيخ محمد عبده المصرى ٠

٣ ــ السيد محمد رشيد رضا اللبنانى ٠

٤ ــ السلطان عبد الحميد الثانى العثمانى ٠

* تقييم فكرة الجامعة الاسلامية ٠

مقـــدمة

تعتبر فكرة الجامعة الاسلامية التى روج لها الداعية الاسلامى السيد جمال الدين الأفغانى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مظهرا آخر من مظاهر اليقظة العربية الاسلامية ، حيث أنها استندت الى ظروف العالم الاسلامى المتردية لكى تهيب بالمسلمين لمواجهة أعدائهم سواء كان التخلف الحضارى أو التوسع الاستعمارى أو الفرقة بين شعوب الأمة الاسلامية على اختلاف أجناسها .

ذلك أن ظروف العالم الاسلامى خلال القرن التاسع عشر كانت قد وصلت الى حالة من السوء بسبب تسلط الحكم العثمانى بسلبياته على أجزاء من الوطن العربى ، وبسبب فقر وجهل المسلمين مما جعل اسلامهم تشوبه الشوائب ، وبسبب الغزو الاستعمارى الأوروبى لأجزاء من العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب .

ومن ثم جاءت فكرة الجامعة الاسلامية التى يعتبر السيد جمال الدين الأفغانى الأب الروحى لها والداعية الاكبر لتحقيقها بين حكام الأقطار الاسلامية لكى تواجه ظروف العالم الاسلامى وتتجاوزها وتنطلق بالمسلمين الى يقظة تعيد اليهم أمجادهم التى كانوا عليها فى العصور الاسلامية الأولى .

ولقد ارتبط بفكرة الجامعة الاسلامية شخصيات أدت دورا بارزا فى الترويج لها وكانت لها مواقفها المعينة من الفكرة ومن الداعية لها . فالى جانب السيد جمال الدين الأفغانى كان الشيخ محمد عبده أكبر نصير للفكرة فى مصر ، وشاركه السيد محمد رشيد رضا ، أما السلطان عبد الحميد سلطان الدولة العثمانية فقد تحمس للفكرة على أنها محققة مجدا شخصيا له .

ولكن هذه الفكرة لم يقدر لها التطبيق كما دعا لها أنصاره والمؤمنون لها بسبب عدة عوامل لعل أهمها الاستعمار الأوروبى المتحفز لالتهام الأقطار الاسلامية والسلطان عبد الحميد الذى فقد الحماس للفكرة عندما وجد أنها تطالب بحكم شورى يأخذ بأسباب الحضارة .

وهكذا أصبحت فكرة الجامعة الاسلامية مجرد ذكرى يسجلها التاريخ ، ولو تحققت كما كان يرجو المسلمون فى كل أنحاء العالم الاسلامى لكان للمسلمين فى أقطارهم شأن آخر .

* * *

ظروف العالم الاسلامى

يمكن القول أن العالم الاسلامى تعرض منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى لعوامل تخلف وفوضى نتيجة الغزو الصليبى والوجود التركى فى آسيا الصغرى ، ثم جاءت الغزوة المغولية عام ١٢٥٨م/٦٥٦هـ على الجناح الشرقى للعالم الاسلامى حتى وصلت الى فلسطين فأوقفها سلاطين المماليك فيما عرف بموقعة عين جالوت عام ٦٥٨ هـ/١٢٦٠م .. كل ذلك زاد من تخلف المسلمين وضرب الحضارة العربية الاسلامية بضربة قاصمة غير تلك الضربة التى لحقت بالعرب والمسلمين بخسارتهم للاندلس لصالح الكاثوليك الأسبان .

وكان سقوط العالم العربى تحت الحكم العثمانى منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى عاملا آخر لتدهور أحوال المسلمين بسبب ما اتصف به الحكم العثمانى من سلبيات أهمها العزلة التى فرضت على العرب ، فى الوقت الذى لم تكن فيه للأتراك حضارة يفيدون بها العرب ، وفى الوقت الذى أخذت فيه أوروبا تنهض وتسير فى طريق التقدم والعمران ، الى جانب الاستبداد والظلم التركى (العثمانى) بالعرب المسلمين المحكومين الذين تخلفوا فى كل نواحى الحياة حتى فقدوا قوتهم وباتوا لا قبل لهم بملاقاة الغرب فى أى ميدان[1] .

---

(١) محمود ابو ريه : جمال الدين الافغانى ص ٦ .

وزاد الطين بلة أن القرن الثامن عشر الميلادى شهد تدهورا أكبر فى أحوال العرب والمسلمين بظهور العصبيات المحلية فى الولايات العربية الخاضعة للحكم العثمانى ، تلك العصبيات التى كانت فى جملتها مغامرات شخصية لأفراد معظمهم من العنصر التركى أو من المماليك المغامرين ؛ كان هدف كل منهم ارتقاء كرسى الحكم والحصول على مغانم مادية كبيرة ، وكانت الضحية فى كل الأحوال الشعوب العربية والاسلامية فى الوقت الذى ضعفت فيه الدولة العثمانية فلم تقو على السيطرة على ممتلكاتها وخضعت لما فرض عليها مقتنعة بما يلقيه اليها هؤلاء المغامرون من فتات الأموال التى يجمعونها قسرا وبشراهة من الرعايا العرب والمسلمين .

وفى نفس القرن ــ الثامن عشر ــ وفى القرن التالى (التاسع عشر) أخذ الاستعمار الأوروبى يحقق وجوده بقوة فى الأرض الاسلامية . حيث تحققت السيطرة البريطانية فى شبه القارة الهندية وفى عدن وفى مصر والسودان وأقطار الخليج العربى ، بينما عبرت روسيا القوقاز وبسطت سيطرتها على أواسط آسيا ، فى الوقت الذى وجد فيه الاستعمار الفرنسى طريقة الى أقطار شمال أفريقيا العربية الاسلامية . وقد قاسى المسلمون تحت الحكم الاستعمارى الأوروبى فى حياتهم الاقتصادية والدينية والعلمية بما أثر فى قوتهم وفى حضارتهم التى كانت مزدهرة يوما ما(٢) .

كما كانت علاقة بقية القوى الاسلامية بالدولة العثمانية تسير على النحو التالى :

١ ــ خضعت كل من مصر وأقطار الشام والعراق والحجاز للسيادة العثمانية ، وأغلب مواطنى هذه الأقطار من المسلمين على المذهب السنى .

٢ ــ كانت دولة فارس الشيعية المذهب حكومة وشعبا على خلاف مع الدولة العثمانية ولا تقر لها بالزعامة على العالم الاسلامى .

---

(٢) د. رأفت الشيخ : قضايا اسلامية معاصرة ص ٨٨ .

٣ ــ كانت أفغانستان على الحيــاد بين فارس الشيعية والدولة العثمانية السنية ، وانشغلت بالأطمــاع الروسية فى وسط آسيا على حدودها الشمالية وبالأطماع البريطانية فى شبه القــارة الهندية على حدودها الشرقية •

٤ ــ انتشرت الدعوة السنوسية فى ليبيــا ومعظم أقطار شمال وغرب أفريقيا بصورة سلمية ولم تصطدم بالحكم العثمانى فى ليبيــا أو تونس بعد سقوط الجزائر فى يد فرنسا عام ١٨٣٠ كما هو معلوم •

٥ ــ أخذت دعوة محمد أحمد المهدى تجد لها طريقا بين السودانيين حتى اصطدمت مع الحكم المصرى التركى ابتداء من عام ١٨٨١م•

٦ ــ كان مسلمو شــبه القارة الهنــدية يستندون الى الخلافة الاسلامية العثمانية فى مقاومتهم للاستعمار البريطانى المسيحى الذى

بسيطرة شركة الهند البريطانية منذ منتصف القرن الثامن عشر ؛ باعتبار شبه القارة الهندية (الهند والباكستان وبنجلاديش حالية) ؛ مستعمرة بريطانية تخضع للتاج البريطانى منذ منتصف القرن التاسع عشر(٣) •

ويمكن أن نضيف الى ذلك تصويرا لأحوال المسلمين تحت الحكم العثمانى والأوروبى ، حيث خضع المسلمون لسوء الحكم وقسوة الحكام الذين ساهموا فى سوء أحوال المسلمين بابتزاز أموالهم بكل قوة ، وفرض الجهل والأهمال بينما يعطون المغامرين الأوروبيين امتيازات اقتصادية ودينية وقضائية وتعليمية وسياسية فى بلاد المسلمين لا يتمتع بها المسلمون أنفسهم •

وهكذا صارت حياة المسلمين نهبا للحكام الأتراك والأجانب المحتمين بالامتيازات ، فكانت تلك الايام وبالا على الحكام المسلمين وعلى الأهالى جميعا ، وكانت سعدا وربيعا للتجار وأرباب البنوكة (المصارف) الغرباء

---

(٣) نصر الدين عبد الحميد : مصر وحركة الجامعة الاسلامية ص ١١ .

الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئاب بين الأغنام ، فاثقلت كواهل الفلاحين وغيرهم من الوطنيين بالديون الهائلة ، واضطرهم العجز لبيع أملاكهم ورهن عقاراتهم وأراضيهم أو الانسلاخ منها بالكلية وأحاط بهم الفقر وصاروا فى أسوأ حال[٤] .

وكانت أحوال الشرق الاسلامى عامة تسير من سيء الى أسوأ ، فالجهل والخرافات والأوهام والعادات والبدع انتشرت بين المسلمين ، كما انتشر بينهم داء الفرقة والخلاف فلا رابطه اجتماعية تجمعهم لتحقيق الخير لهم ، فأخذهم الفقر فى كل أقطارهم على غنى بلادهم واتساعها وخصبها ، ولكنهم بجهلهم لا يعملون على الانتفاع ، وشملهم الذل والهوان على قوتهم وكثرة عددهم ، وتركوا بلادهم نهبا مقسما بين الأوروبيين ، ورضوا بأن يكونوا له خداما طائعين[٥] .

وكانت مصر منارة العالم الاسلامى آنذاك بوجود الجامع الأزهر بعلمائه ومؤسسات التعليم الحديث التى أوجدها محمد على وحفيده اسماعيل ، تعيش هى الأخرى عصرا من الفوضى وسوء الحكم ، فلم يكن المصريون آنذاك يرون شئونهم العاملة بل الخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ومن ينيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها بحسب ارادته ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان الى أمانته وعدله أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه فى ادارة بلاده ، أو ارادة يتقدم بها الى عمل من الأعمال يرى فيه صالحا لأمته ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم به الحكومة وتضربه عليهم ، وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت اسلامية أو أوروبية[٦] .

وفى حياة المسلمين الدينية والاجتماعية لعب رجال الدين المستبدون وغير الأمناء دورا سيئا ، حيث كثر عدد الأدعياء الجهلاء الذين يخرجون

---

(٤) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده جـ١ ص ٥٦ـــ٥٧ .
(٥) محمود ابو رية : المرجع السابق ص ١١ .
(٦) رشيد رضا : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٥ .

من مكان الى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويز والسبحات ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ، ويرغبونهم فى الحج الى قبور الأولياء ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن الكريم ، فصاروا يشربون الخمر ، وانتشرت الرذائل ، فقلت الأيدى وقعدت عن طلب الرزق ، وكاد العزم يتلاشى فى نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بوارا شديدا وأهملت الزراعة أيما اهمال(٧) .

كما أصاب المسلمين رذائل الأسراف والتبذير فى الانفاق على أزواجهم وأمواتهم حتى يخسرون أموالهم وممتلكاتهم التى يأخذها الأجانب ، الى جانب داء التواكل الذى كبل عقولهم عن التفكير وأيديهم وترجلهم عن العمل والسعى ، وأسلموا أمرهم للاجنبى ، وصاروا يتمسكون بأمثال مثبطة للهمم مؤدية للشلل الاجتماعى مثل قولهم : « سيبها على الله » و « لا تفكر ولها مدبر » و « اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب » و « مراد الخالق من الخلق ما هم عليه » و « لهم — أى للاجانب — الدنيا ولنا الآخرة » و « اذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور »(٨) .

وخير تصوير لحال المسلمين فى القرن التاسع عشر ما ذكره الكاتب الأمريكى « لوثروب ستودارد » عند حديثه عن اليقظة الاسلامية فى القرن التاسع عشر ، حيث قال : كان العالم الاسلامى فى القرن الثامن عشر الميلادى قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقيا من آثار التهذيب العربى ، واستغرقت الأمم الاسلامية فى اتباع الاهواء والشهوات ، ماتت الفضيلة فى الناس ، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الاسلامية الى مطايا استبداد وفوضى واغتيال ، فليس يرى فى العالم الاسلامى — فى ذلك العهد — سوى المستبدين الغاشمين ؛ كسلطان الدولة العثمانية وأواخر ملوك المغول فى الهند يحكمون حكما

---

(٧) محمود ابو رية : المرجع السابق ص ٨ .

(٨) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٠ .

واهنـــا[٩] .

كانت تلك أحوال المسلمين التى أثارت مصلحا مثل السيد جمال الدين الافغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده المصرى للتقدم بفكرة الجامعه الاسـلامية لعلاج تلك الأحوال التى كان أخطر ما فيها الاعتقاد الذى ساد بين المسلمين بوجود تعارض بين الاسـلام كدين وعقيدة وبين التقدم العلمى والمادى الحديث ، والنظر الى الحضارة الأوروبية الحديثة نظرة شك وخوف مما يدفعهم الى الابتعاد عن الأخذ بأسبابها : وساعدهم على ذلك وجود الحكم العثمانى الذى عمل على ابعاد العرب والمسلمين عن الأخذ بأسباب التقدم الحضارى الأوروبى ، وفى نفس الوقت اعطاء الاجانب امتيازات متنوعة فى الاقطار الاسـلامية حيث يمارسـون الاستغلال والاحتكار ويكرسـون فى المسلمين تخلفهم الحضارى[١٠] .

ويمكن أن نلخص ظروف العالم الاسلامى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، التى جاءت فكرة الجامعة الاسلامية لمعالجتها ، فيما يلى :

أولا : الحكم الاستبدادى العثمانى لكثير من الأقطار العربيـــة الاسـلامية البعيد عن الشورى الاسـلامية وروح الديمقراطية الغربية .

ثانيا : الجهـــل والفقـــر الذى خيم على المسلمين فانصرفوا عن الفضائل الى الرذائل ، وبعدوا عن جوهر الدين الاسلامى وحياة السلف الصـــالح .

ثالثا : البعد عن الأخذ بأسباب التقدم الحضارى الأوروبى اما خوفا على الدين واما لان الحكام العثمانيين فرضوا العزلة على المسلمين فى الوقت الذى عملت فيه البعثات التبشيرية المسيحية على نشر التعليم الحديث بين المسيحيين العرب .

رابعا : التعرض للغزو الاستعمارى الأوروبى الذى اهتم باضعاف نفوس المسلمين حتى يبعدوا عن الجهاد الاسلامى والوطنى ضد المعتدين.

---

(٩) لوثروب ستودارد (مترجم) : حاضر العالم الاسلامى ص٢٥٩ .
(١٠) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٠ .

فــكرة الجــامعة الاسلامية

قامت فكرة الجامعة الاسلامية التى نادى بها السيد جمال الدين الأفغانى على الأسس الآتية :

أولا — التحرر من التخلف :

ويدعو هذا الأساس الى ابعاد شبح الجمود الذى ران على أفكار المسلمين وكسر العزلة التى فرضت عليهم لكى يصلوا الى ما وصلت اليه الشعوب الأوروبية فى ميادين الحياة المختلفة ، والاعتماد فى ذلك على التعليم بمؤسساته التى تأخذ بأسباب العلم الحديث ، وتنفض عن نفسها الجمود فى الفكر وفى الأسلوب ، واظهار مرونة الاسلام أى أن الاسلام دين كل زمان وكل مكان ، وأنه لا تعارض مع التقدم العلمى الحديث بل يؤكده(١١) .

وأن التحرر من التخلف يتأتى من استخدام العقل للملائمة بين الاسلام والمسلمين من جهة ، ومتطلبات العصر الحديث من جهة أخرى . الرد على من يدعى أن الاسلام قد ذهب عهده ، وأنه اذا نشطت العقول وتمسكت الأمة الاسلامية بالدين واللغة قويت وتخلصت من التخلف الذى فرض عليها(١٢) . هذا الى جانب تخليص الاسلام من الشوائب التى علقت به واصلاح المساوىء الدينية والاجتماعية التى تفشت بين المسلمين(١٣) .

---

(١١) د. رافت الشيخ : نفس المرجع ص ٩٧ .

(١٢) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٢٨ — ٤١ .

(١٣) د. محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية ص ٥٨ .

ثانيا — التحرر من استبداد الحكام :

وهذا يعنى انهاء الحكم الاستبدادى المفروض على المسلمين سواء كان من سلاطين الدولة العثمانية أو من غيرهم من حكام الأقطار الاسلامية الأخرى ، لان هذا الحكم الاستبدادى لا يتفق مع الشورى التى دعا اليها الاسلام .

وفى هذا السبيل فقد دعا السيد جمال الدين الأفغانى الى النظام الدستورى وحكم الشورى فى مواجهة استبداد الحكام ، وقد تحولت الشورى التى نادى بها الى ادارة لازمة لانقاذ البلاد مما حل بها من المصائب وسوء الأحوال(١٤) .

ثالثا — تحقيق الوحدة الاسلامية :

كانت دعـوة السـيد جمـال الدين الأفغـانى تركز على الوحدة الاسلامية باعتبارها ضرورة تقضى بها الطبيعة والعادة ويؤيدها العقل والنقل ، وتقرها شواهد التاريخ وعوامل الاجتماع والألفة بين الأمم والشعوب ، وكان يضرب لذلك الأمثـال والسوابق فى تاريخ الوحـدة الاسلامية فى العهد الأول ، والوحدة الجرمانية فى العصر الحديث(١٥) .

وتحقيق الوحدة الاسلامية فى رأس السيد جمال الدين الأفغـانى أمر ممكن اذا انضوت جميع شعوب الأمة الاسلامية على اختلاف أوطانها وجنسياتها تحت حكم خليفة واحد تتجمع فى يديه السلطتين الدينية والزمنية ، وبذلك يعود للمسلمين ما كان لهم من قوة ومنعة زمن الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين والخلفاء العباسيين ، ولكن بشرط أن يتبنى الخليفة الواحد حكما حديثا يأخـذ بأسباب الحضارة الغربية المـادية التى لا تتعارض مع الدين الاسلامى الحنيف(١٦) .

---

(١٤) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٣٢ .
(١٥) نفس المرجع ص ٤٠ .
(١٦) احمد امين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ص ٦٨ .

وفى هذا المقام ذكر الأفغانى فى جريدة العروة الوثقى ما نصه : واعتصموا بحبال الرابطة الدينيه التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها العربى بالتركى ، والفارسى بالهندى ، والمصرى بالمغربى ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية ، حتى أن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر ، وان تناءت دياره وتقاصت اقطاره ... وأن المسلم فى تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل الى قبيل ، مادام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبها[١٧] .

وهكذا رأى السيد جمال الدين الأفغانى فى عبد الحميد الثانى سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين ، الأب الأكبر لعموم المسلمين ، وأن خلافته الكافلة للشريعة الحافظة للدين ، هى أجد الناس بالالتفات الى حركة الأعداء (يقصد الغزوات الاستعمارية الأوروبية) فى البلاد الاسلامية . وأن الانضواء تحت راية الخليفة الاعظم يسانده فى شدة جذوره واعداده العدة لابطال مكايد أوروبا[١٨] .

رابعا ــ مقاومة الاستعمار :

يقول السيد جمال الدين الأفغانى فى العروة الوثقى : لقد نظرت الى الشرق وأهله فوجدت أقتل أدوائه انقسام أهله وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم[١٩] .

اذن الوحدة طريق مقاومة الاستعمار الزاحف نحو الأقطار الاسلامية والذى كون مستعمرات فى تلك الأقطار فى آسيا وأفريقيا ،

---

(١٧) د . محمود صالح منسى : المرجع السابق ص ٥٩ .

(١٨) نفس المرجع ص ٦٠ .

(١٩) العروة الوثقى ص ١٣ .

خاصة أنه صاحب الغزو الاستعمارى غزو تبشيرى هدد الفكر الاسلامى.
وكان المبشرون يستخدمون أدوات الحضارة الحديثة فى التعليم والطب وخلافه ، وهى أشياء يجهلها المسلمون ، ومن ثم وجب مقاومة الاستعمار بنفس أدواته أى بنفس السلاح الحضارى المادى الذى لا يتعارض مع الاسلام ومبادئه .

وكان جمال الدين الأفغانى يرى فى الخطر الأوروبى ليس فقط موجها ضد الاوطان الاسلامية ولكنه فى المقام الاول خطر يقوم على أساس دينى ، بل هو حركة نصرانية موجهة ضد الاسلام[٢٠] . وأن هذا الخطر ليس مجرد استعمار انجليزى أو استعمار فرنسى أو استعمار روسى بل ان أدوات الاستعمار الحضارية خطر على الاسلام والمسلمين لا يمكن التصدى له الا بتجمع اسلامى[٢١] .

* * *

---

(٢٠) محمود صالح منسى : المرجع السابق ص ٥٨ .

(٢١) نصر الدين عبد الحميد : ص ٣٩ .

دعـــاة الفـــكرة

ساد الاعتقاد بأن فكرة الجامعة الاسلامية كظاهرة من ظواهر اليقظة الاسلامية فى القرن التاسع عشر ارتبطت بشخصية السيد جمال الدين الأفغانى وأنها ماتت بموته ، والحقيقة غير ذلك ، اذ أن فكرة الاصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى وجدت عند السيد جمال الدين وهو فى بلاده افغانستان ، كما وجدت عند تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده فى مصر ، وعند السيد محمد رشيد رضا بعد اتصاله بالشيخ محمد عبده .

كما أن السلطان عبد الحميد الثانى سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين ارتبط اسمه أيضا بفكرة الجامعة الاسلامية حين أراد استغلالها لتدعيم سلطانه وفرض نفوذه على كل المسلمين حتى على أولئك الذين لم يخضعوا من قبل لسلطان الدولة العثمانية .

ولهذا كان علينا ونحن ندرس ظاهرة الجامعة الاسلامية أن نعرف مكونات كل شخصية من الشخصيات التى ارتبطت بها بشكل أو بآخر ، والجهود التى بذلتها كل شخصية فى سبيل تحقيق فكرة الجامعة الاسلامية .

أولا ــ السيد جمال الدين :

ظهرت فكرة الجامعة الاسلامية على يد السيد جمال الدين الأفغانى الذى يعتبر من رواد حركة الاصلاح الدينى والاجتماعى فى العالم الاسلامى ، وقد ترك أثرا عميقا على المسلمين فى الأقطار الاسلامية فى العصر الحديث ، وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر على وجه الخصوص[٢٢] .. فمن هو جمال الدين الأفغانى وما هى شخصيته ؟

---

(٢٢) د. محمود صالح منسى : المرجع السابق ص ٥٧ .

هو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر الحسينى الأفغانى . ولد بمدينة « أسعد آباد » من أعمال « كابل » فى عام ١٢٥٤ هـ الموافق لعام ١٨٣٨[٢٣] ، من أسرة تنتسب الى آل البيت حيث ينتهى نسبه الى الحسين بن على رضى الله عنهما ، وهذا هو السبب فى تسميته بالسيد ، ولعشيرته منزلة عالية فى قلوب الأفغانيين يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف[٢٤] .

وبهذا نشأ السيد محمد جمال الدين فى بيت شريف وبيت علم ودين ، وقد استزاد علما من مدارس « كابل » القديمة بأخذه علوم اللغة العربية والتاريخ والعلوم الدينية والفلسفة على أيديهم ، الى جانب علوم الطب والفنون الرياضية، وأضاف الى دراسته لهذه العلوم استفادته من دراسة أحوال الشعوب الاسلامية بتنقله بين أفغانستان والهند وفارس والحجاز ومصر وتركيا ، وتمرسه فى الأعمال الادارية والسياسية بارتباطه بالأمير الأفغانى « دوست محمد خان » والامير « محمد أعظم خان » ، والخديوى اسماعيل بمصر لمدة ثمان سنوات من عام ١٨٧١ م الى عام ١٨٧٩ م وحكام الدولة العثمانية بالآستانة وعلى رأسهم السلطان عبد الحميد الثانى[٢٥] .

وكانت شخصية السيد محمد جمال الدين بما تميزت به من أسلوب عملى واخلاص علمى منارة له فى كل قطر اسلامى ينزل فيه . ففى مكة المكرمة أنشأ جمعية أطلق عليها جمعية « أم القرى » عام ١٨٥٧ م ، وأصدر لها مجلة تنطق باسمها عرفت باسم « أم القرى » ، وتدافع

---

(٢٣) عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الاسلام ص ٤٩٠ .

(٢٤) محمود ابو رية : المرجع السابق ص ١٥ ، ويذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق ان والد جمال الدين اسمه « صفدر » وهى كلمة فارسية من القاب الامام على بن ابى طالب مركبة من كلمة « صف » العربية و « در » من فعل «دريدان» الفارسى بمعنى افترس اواقتحم . . العروة الوثقى ص١٧ .

(٢٥) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٢ .

عن أهداف الجمعية المتمثلة فى وحدة المسلمين لمواجهة الأخطار المحيقة بهـــم[٢٦] .

وعندما انتقل الى الهند وأثنـــاء وجوده فى بلده أفغانستان أثار السيد جمـــال الدين المسلمين هناك ضد الحـــكم البريطانى وسياسته الاســـتبدادية والاســـتغلالية ، وفى اســـتانبول اســـتقبل هنـــاك عام ١٨٧٠م استقبالا وديا من قبل الحكومة والأوساط العلمية ، هذه الأوساط التى استطاع أن يحدث فيها تأثيرا بعيدا بما ألقى من دروس ومحاضرات فى الجامعة المنشأة حديثا[٢٧] .

وقد عاش السيد جمال الدين ثمانى سنوات فى مصر فى ظل رعاية وترحيب من الخـــديوى اسماعيل الذى شـــجعه على المضى فى دعوته الاصلاحية ، لأن ذلك يوافق غرض اسماعيل فى التصدى للنفوذ الأجنبى الذى يحاول سلب السلطة من صاحبها الشرعى ، وعلى هذا فقد نجح السيد جمال الدين فى تشكيل حزب من أنصاره وتلاميذه عرف بالحزب الوطنى أو الحزب الأهلى أو حزب الفلاحين[٢٨] .

وقد ساعد السيد جمال الدين على تشـــكيل هذا الحزب وجود جمعيات ناشئة مثل الجمعية السرية التى ألفها على الروبى سنة ١٨٧٦م من ضباط الجيش ، وكان من بين أعضائها أحمد عرابى ، وكان هدف هذه الجمعية تخليص الجيش المصرى من العناصر التركية والشركسية التى كانت تستأثر بالمناصـــب دون المصريين ، وتتمتع وحـــدها بالترقيات والعلاوات والمناصب القيادية . هذا الى جانب جمعية مصر الفتـــاة التى تشكلت بمدينة الاسكندرية عام ١٨٧٩م من المتعلمين الذين تأثروا بأفكار الأفغانى مثل أديب اسحاق وسليم النقاش . وكانت تطـــالب

---

(٢٦) عبد المتعال الصعيدى : المرجع السابق ص ٤٩١ .

(٢٧) كارل بروكلمان « مترجم » : تاريخ الشعوب الاسلامية ص٦١٧ .

(٢٨) محمود او رية : المرجع السابق ص ١٨ .

بحياة نيابية سليمة ، وجمعية حلوان التى تكونت عام ١٨٧٩م أيضا من كبار ملاك الأراضي الزراعية • وكان من نتيجـة الاتصال بين تنظيم الجيش وجمعية حلوان أن أعلن عن قيـام الحزب الوطنى السـابق ذكره[٢٩] •

وعندما نجحـت بريطانيا فى حمـل السلطان العثمانى على عزل الخديوى اسماعيل وتوليه ابنه محمد توفيق مكانه عام ١٨٧٩م ، غضب اعتقد ان هذه الدعوى سوف تؤدى الى الحكم الجمهورى ، كما أن دعوة السيد جمال الدين المنطقية هيجت عليه شيوخ الأزهر المتحفظين فرموه بالفسوق ، كما أن دعوته أوغرت عليه كذلك صدر قنصل بريطانيا العام فى مصر • وانتهى الأمر بنفى السيد جمال الدين من مصر الى الهـند عام ١٨٧٩م[٣٠] •

ترك السيد جمال الدين مصر بعد أن استطاع أن يبث فى نفوس الشباب المصريين الأمل فى التحرر من السيادة الأوروبية اذ ما اقتبسوا ثقافة الغرب المادية ومناهجه التعليمية ابتغاء الدفاع عن الاسلام بوصفه دينا أكثر امعانا فى مضمار الرقى[٣١] • وقد جاءت تأثيرات السيد جمال الدين الأكثر وضوحا على طلاب الجامع الأزهر أثناء اقامته بمصر فى الفترة من شهر مارس ١٨٧١م الى شهر سبتمبر ١٨٧٩م[٣٢] •

وقد انتقل السيد جمال الدين من الهند الى أوروبا حيث أقام فى باريس منذ عام ١٨٨٣م ، وهناك التقى بالشيخ محمد عبده حيث أصدرا جريدة « العروة الوثقى » التى نطقت بأفكارهما الداعية الى محاربة تدخل الدول الاستعمارية الأوروبية فى شئون الأمة الاسلامية ، ومن

---

(٢٩) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٢٢ .

(٣٠) محمود ابو رية : المرجع السابق ص ١٨ .

(٣١) كارل بروكلمان : المرجع السابق ص ٦١٨ .

(٣٢) Holt. P.M. : Egypt and the Fertile Crescent ; p. 212.

باريس انتقل السيد جمال الدين الى لندن عام ١٨٨٦م ، ثم عاد اليها مرة أخرى فى عام ١٨٩٢ م واشترك فى تأسيس مجلة شهرية سميت « أخبار الخافقين » التى كانت تصدر باللغتين العربية والانجليزية[٣٣].

وعندما انتقل السيد جمال الدين من فرنسا عام ١٨٨٦ م الى لندن اتجه الى فارس ثم زار روسيا ، وقد بقى فى فارس (ايران) حتى اضطر لمغادرتها بسبب هجومه على شركة الدخان الانجليزية العاملة فى فارس ، فسافر الى أوروبا ، حتى اذا كان عام ١٨٩٢ م استدعاه السلطان عبد الحميد الثانى الى الآستانة حيث بقى بها لمدة خمس سنوات وافته المنية بعدها فى ٩ مارس عام ١٨٩٧م ، وقد ذكر أنه مات مسموما .

كان هذا هو السيد محمد جمال الدين الأفغانى الذى نذر نفسه للدفاع عن حقوق الشعوب الاسلامية فى مواجهة قوى الاستبداد المحلية وقوى الاستعمار الأوروبى ، وتلك كانت صفاته التى جعلت الجميع يعرفونه بلقب « حكيم الشرق » وصارت هذه الصفة تتردد فى كتب الأدب العربى[٣٤] ، ذلك أنه كان يدعو الى اصلاح أحوال المسلمين فى الدنيا والدين ، ويقصد به جميع المسلمين فى كل الأقطار ، وقد تأثر بدعوته هذه بعض طلاب الاصلاح فى مصر وفارس والدولة العثمانية[٣٥] وكان يتصور عودة الشعوب الاسلامية للعيش فى ظل حكومة اسلامية واحدة تتخلص من تأثيرات وتدخلات الأجانب السيئة .

ورغم أن السيد جمال الدين من أفغانستان وأنه زار كثيرا من الأقطار الاسلامية والأوروبية الا أنه لم يتعلق ببلد من البلاد على أنه وطن ولم تدخل فكرة الوطنية بهذا المعنى فى مذهبه الاجتماعى[٣٦] .

---

(٣٣) محمود ابو رية : المرجع السابق ص ١٩ .

(٣٤) Kedaurie, E. : Afghani and Abduh, p. 1.

(٣٥) عبد المتعال الصعيدى : المرجع السابق ص ٤٩٥ .

(٣٦) مصطفى عبد الرازق : العروة الوثقى ص ٢٨ .

على الرغم من أنه أكد على أهميــة تحدث كل المسلمين اللغة العربيــة بالرغم من اختلاف جنسياتهم لأن اللسان العربى هو لسان الدين . وأنه كان لغير المسلمين ولم يزل من أعز الجامعات وأكبر المفاخر ، ومن ثم أخذ يردد عبارة « جامعة اللسان » وأنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم(٣٧) .

وكان السيد جمال الدين يسعى الى تحويل الامبراطورية العثمانية الى « مملكة الممالك » أى مركز لاتحاد اسلامى ، بتنظيمها على أساس لا مركزى حقيقى ، وأن هذا الاتحاد ــ الى جانب الخوف من الاستعمار الأوروبى ــ سيدفع فارس وأفغانستان والامارات الاسلامية فى الهند الى الانضمام الى الامبراطورية العثمانية فى شكلها الجديد ، وبذلك يصبح السلطان العثمانى ــ فى نظر السيد جمال الدين ــ ملك الملوك . يصير سيدا على دولة قوية تستطيع أن تعيد للاسلام أمجاده ، وتحمى البلاد الاسلامية من السيطرة الأجنبية ، الا أن السلطان عبد الحميد لم يستجب لأفكار الافغانى(٣٨) .

واشترط السيد جمال الدين لتحقيق فكرة الدولة الاتحادية الاسلامية بزعامة السلطان عبد الحميد الثانى : أن يستعرب العثمانيون ويعدلوا فى هل هذه الدولة وأن يسيروا سيرة المسلمين الأول حتى يصبحوا أغنى دول العالم وأعزها منعة وقوة .

كما اشترط تحويل الممالك الاسلامية القائمة الى ممالك دستورية ، ومن ثم تصبح الدولة الاتحادية الاسلامية دولة دستورية ، ويفضل العمل على زيادة الوعى الدستورى بين الشعوب الاسلامية حتى ترغم حكامها على اصدار دساتير فتبدو من صنع الشعب وبذلك يكون الشعب المسلم مستعدا للدفاع عنها ، بعكس ما اذا كانت الدساتير منحة من الحكام يستطيعون حجبها عن شعوبهم كلما شاءوا ، وضرب مثلا لذلك بقول

---

(٣٧) د. محمود صالح منسى : المرجع السابق ص ٦١ .

(٣٨) نفس المرجع ص ٦٤ .

مدحت باشا من أنه لا مانع من أن يكون الدستور منحة من السلطان ، ثم ألغاه السلطان[٣٩] .

ثانيا ــ الشـــيخ محمد عبـــده :

هو محمد عبده حسن خير الدين المصرى ولد بقرية « شبشير » من قرى مديرية الغربية ، ونشأ ببلدة « محلة نصر » احدى قرى مركز شبراخيت بمديرية البحـــيرة سنة ١٢٣٦هـ/١٨٤٩م حيث نشـــأ والده ونشأت أسرته من قبله[٤٠] . وقد تعلم كما تعلم أبناء مصر آنذاك فى القرى حيث حفظ القرآن الكريم ثم انتقل الى الجامع الأحمدى بطنطا فالجامع الأزهرى بالقاهرة عـــام ١٨٦٦م ، وقد تعلم على يد مشايخ الجامعين (الأحمدى والأزهرى) وعلى طريقتهم فى التعليم ، وان كان قد وقف على أحوال هؤلاء المشايخ الذين يعيشون فى عزلة عن العالم فلا يشعرون بما أصاب الاسلام والمسلمين ، ولا يهمهم الا أنفســـهم داخل الأزهر ، وبذوا على الجمود فى العلوم القديمة[٤١] .

وقد استفاد محمد عبده من علم وتوجه بعض المشايخ المتنورين أمثال الشيخ درويش الصوفى النزعة السلفى المذهب والذى كان يكره الجهل والبدع والشعوذة ، وأمثال الشـــيخ حسن الطويل من علمـــاء التجديد ، وفى نفس الوقت ضاق ذرعا ببعض المشايخ الجامدين أمثال الشيخ « عليش » الذى كان معروفا بجموده الفكرى .

ونتيجة لموقف محمد عبده من المشايخ الجامدين المتحفظين ذلك الموقف المتسلم بالضيق والنقد ، فقد نال شهادة العالمية من الدرجة الثانية بعد امتحان ظهر فيه أن المشايخ ينقمون عليه نزعاته الفكرية المتأثرة

---

(٣٩) نفس المرجع ص ٦٤ .

(٤٠) د. زكريا سليمان : التيارات السياسية والاجتماعية ص ٢١ .

(٤١) عبد المتعال الصعيدى : المرجع السابق ص ٥٢١ .

بمذهب أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى[٤٢] .

وقد انتقد محمد عبده طريقة التعليم فى الأزهر ووصفها بأنها كانت فى أغلبها جامدة وعقيمة ومحصورة فى مختصرات لا تهم وشروح وحواشى وتقارير ، كما أنها لم تكن تصل فى أغلبها بالحياة اليومية الا فى اطار العبادات ، فضلا عن ان أغلب مشايخ الأزهر لا يشعرون بما أصاب الاسلام والمسلمين من تدهور ، وانحصرت أهميتهم على أنفسهم[٤٣] .

كما استفاد محمد عبده من أفكار السيد جمال الدين الأفغانى فارتبط به وبشخصيته ليتم معه الرسالة الاصلاحية للمسلمين التى يعمل من أجلها ، ومن ثم تعاون الرجلان خلال فترة وجود الأفغانى فى مصر . وعندما رحل الأفغانى عن مصر استمر محمد عبده يدعو الى الاصلاح حتى نفاه الخديوى توفيق الى لبنان ، ومن هناك ذهب الى باريس والتقى بالأفغانى وأصدرا هناك مجلة العروة الوثقى الناطقة بلسان جمعية العروة الوثقى ، ثم عاد الى مصر بعد أن عفا عنه الخديوى توفيق[٤٤] .

وكان الشيخ محمد عبده بعد حصوله على العالمية من الجامع الأزهر عام ١٨٧٧م قد شغل عدة وظائف بدأها بالتدريس فى الجامع الأزهر ، ثم نقل للتدريس بمدرسة دار العلوم فى العام التالى (١٨٧٨م) لتدريس التاريخ،ثم عمل مدرسا للغة العربية بمدرسة الألسن،الىجانبأنه كان يكتب مقالات أدبية واجتماعية بجريدة الأهرام تؤكد ميله الى العلوم العصرية والبحث فى الأصول الدينية[٤٥] .

وبسبب خضوع الشيخ محمد عبده لتأثيرات أفكار الأفغانى —

---

(٤٢) مصطفى عبد الرازق : العروة الوثقى ص ٣٢ .

(٤٣) د. زكريا سليمان : المرجع السابق ص ٣٨ .

(٤٤) د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٤ .

(٤٥) د. زكريا سليمان : المرجع السابق ص ٣٩ .

تلك التأثيرات التى بدأت قبل أن يحصل محمد عبده على العالمية — فقد فصل من التدريس عام ١٨٧٩م وهو العام الذى نفى فيه الأفغانى من مصر ، ثم عمل فى العام التالى بجريدة الوقائع المصرية ، ثم صار عضوا بمجلس ادارة الأزهر ، وقد اشترك فى الحزب الوطنى وأيد مطالب العرابيين . وبعد الاحتلال البريطانى نفى الى لبنان وبعد عودته من المنفى عين عام ١٨٩٩م مفتيا للديار المصرية . وفى عام ١٩٠٠م أسس جمعية أحياء العلوم الاسلامية[٤٦] .

ومن الثابت أن السيد جمال الدين الأفغانى استفاد من بلاغة وفصاحة الشيخ محمد عبده فى الترويج للافكار الاصلاحية التى شارك الرجلان فى اظهارها ، وبذلك استحق الشيخ محمد عبده اسم « الأستاذ الامام » الذى أطلق عليه[٤٧] .

ويرجع السبب فى تسمية الشيخ محمد عبده بالأستاذ الامام الى أن دعوته الاصلاحية كانت تقوم على أمور ثلاثة هى :

١ — تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لا يخضع لسلطان غير سلطان البرهان ، ولا يتحكم فيه زعماء الدنيا ولا زعماء الأديان .

٢ — اعتبار الدين صديقا للعلم لا موضع لتصادمهما ، اذ لكل منهما وظيفة يؤديها ، وهما حاجتان من حاجات البشر لا تغنى احداهما عن الأخرى .

٣ — فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الأولى .

كما كان الشيخ محمد عبده محبوبا معظما معترفا له بقام الامامة الذى لا يساميه مقام بين الطوائف الراقية من المصريين ، وبين طوائف

---

(٤٦) نفس المرجع .

(٤٧) Kedourie, E. : Ibid, p. 1 .

الأجانب فى مصر[٤٨] .

وقد اتفق الشيخ محمد عبده مع السيد جمال الدين فى أفكاره الداعية الى تحرير العقل الاسلامى من الجمود الفكرى والسخط على حكام المسلمين المستبدين ، وبأن وحدة المسلمين تحقق نهضتهم ، وأن تكون الوحدة قائمة على مبادىء دستورية مع الأخذ بالعلم الحديث الذى نهضت به شعوب أوروبا .

ورغم اتفاق الرجلين حول هذه الأمور فانهما اختلفا فى الوسائل المحققة للاصلاح المنشود ؛ فبينما كان السيد جمال الدين يريد الاصلاح عن طريق السياسة وتحرير الشعوب الاسلامية من الاستعمار الأوروبى وجمع كلمتها تحت ظل الخلافة العثمانية ، كان الشيخ محمد عبده يؤمن برسالة العلم والموعظة الحسنة ، وينادى بضرورة تثقيف المسلمين وأخذهم بأسباب الحضارة الأوروبية الحديثة ، والنهوض بالأمة بالتدريج دون تهور أو اندفاع وبعيدا عن السياسة ، ولذلك كان يقول : ما دخلت السياسة شيئا الا أفسدته[٤٩] .

وهذا الأسلوب السلمى جر عليه غضب العرابيين وهو لا يقلل من قيمته أو جهوده ، التى قصرها على اصلاح الأزهر والأوقاف الاسلامية والمحاكم الشرعية التى تولى الاشراف عليها فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى ، حيث كان الشيخ محمد عبده يعتقد أنه لتجنب الصدام مع الانجليز المسيطرين بقوات احتلالهم على مقدرات الأمور فى مصر فان اصلاح هذه النواحى يؤدى الى نهضة دينية واجتماعة تصلح بها نفوس الناس ، واذا صلحت نفوس الناس تمسكوا بحقهم فى تحرر بلادهم من السيطرة البريطانية[٥٠] .

---

(٤٩) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٤٤ .

(٤٨) مصطفى عبد الرازق : العروة الوثقى ص ٣٦ — ٣٧ .

(٥٠) د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٥ .

ورغم أن الشـــيخ محمد عبـــده حرص على الاصـــلاح الدينى والاجتماعى والثقافى وتجنب الخوض فى الاصلاح السياسى ، الا انه كان شديد الحرص على تحقيق برامجه الاصلاحيه فى هذه المجالات . وقد أنتج هذا الحرص حربا لا هوادة فيها من رجال الدين الجامدين الذين كان يحركهم الخديوى عباس حلمى الثانى ، حيث حاربوه ورموه بالالحاد والكفر ، واعتبروا الدعوة التى كان يدعو اليها دعوة الحادية وجدير بصاحبها أن يبوء بغضب صاحب العرش والجمهور(٥١) .

ونتيجة لما لاقاة الشيخ محمد عبده من عنت المشايخ الجامدين ومن تعسف الأتراك الحاكمين لاشتراكه فى الثورة العرابية حتى نفى خارج مصر ، ونتيجة لما بذله من جهود كبيرة لتحقيق برنامجه الاصلاحى ، فقد تأثرت صحته حتى وافته المنية عام ١٩٠٥ م . وله من العمـــر حوالى ستين سنة فقط .

وقد اتفق الشيخ محمـــد عبده مع أستاذه السيد جمـــال الدين الأفغانى فى الدعوة الى الجامعة الاسلامية بزعامة الدولة العثمانية التى اعتبر أن المحافظة عليها ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله ، فانها وحدها ــ فى رأيه ــ المحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته ، وليس للدين سلطان سواها(٥٢) .

ثالثا ــ السيد محمد رشيد رضا :

كون الشيخ محمد عبده مدرسة فكرية للاصلاح كان أكبر تلاميذها السيد محمد رشيد رضا صاحب جريدة المنار ، والذى يعزى اليه الفضل فى الدعوة الى الجامعة الاسلامية على صفحات جريدة المنار وبجولاته فى البلاد الاسلامية . وبهذا يمكن اعتبار السيد محمد رشيد رضا حامل

---

(٥١) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٤٢ .

(٥٢) د. زكريا سليمان : المرجع السابق ص ٨٦ .

أفكار كل من السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده معا[٥٣] .

والسيد محمد رشيد رضا لبناني المولد حيث ولد بقرية قرب طرابلس الشام ، تعلم فيها القرآن الكريم والخط وقواعد الحساب ، ثم دخل المدرسة الرشيدية ، كان التعليم فيها باللغة التركية كما دخل عدة مدارس دينيـة ، وأخذ بشيء من التصوف فبعد عن الوظائف الحكومية[٥٤] .

وهكذا تكونت شخصية السيد محمد رشيد رضا تكوينا عصريا دينيا معا ، فان دراسته بالمدارس الابتدائية الحديثة التى أنشأها الحكم العثمانى فى الشام على غرار المدارس الحديثة التى بدأ محمد على فى انشائها بمصر ، ثم التحاقه بالمدرسة الرشيدية التى تقابل الآن المدرسة الاعدادية أو المتوسطة ، وهى مدرسة من مدارس السلم التعليمى الحديث أيضا ، ثم دراسته ببعض المدارس الدينية ، كل ذلك جعل شخصية السيد محمد رشيد رضا أقرب الى الأفكار الاصلاحية وجعله يتصل بالشيخ محمد عبده ويلازمه حوالى سبع سنوات فى مصر .

وكان السيد محمد رشيد رضا يتابع الحركة الاصلاحية التى يقودها السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، ويقرأ كل ما يصدر عنهما خاصة فى مجلة العروة الوثقى ، والتقى بالامام الشيخ محمد عبده فى طرابلس الشام مرتين عندما كان الامام منفيا فى لبنان .

وقد رحل السيد محمد رشيد رضا الى مصر عام ١٨٩٨م ولازم الأستاذ الامام ، وأصدر مجلة « المنار » التى حلت من حيث رسالتها محل مجلة العروة الوثقى . وبعد وفاة الشيخ محمد عبده استمر السيد محمد رشيد رضا فى حمل الأمانة ، وان كان قد داهن الساسة كما فعل عندما أيد الملك فؤاد ملك مصر فى اتخاذ لقب خليفة بعد الغاء الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال أتاتورك .

---

(٥٣) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٥٨ .

(٥٤) عبد المتعال الصعيدى : المرجع السابق ص ٥٣٩ .

ويعتبر البعض السيد محمد رشيد رضا داعيا للحركة الوهابيه باعتبارها دعوة سلمية وانه جند مجله المنار للدفاع عن دعوة التوحيد (المعروفة بالدعوة الوهابية) ، ومع ذلك فان السيد محمد رشيد رضا كان يخالف بعض ائمة هذه الدعوة انطلاقا من تاثره بالطرق الصوفية . وقد ظلت مجله المنار تنطق باسم دعوة الاصلاح التى بدأها السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، حتى وفاة السيد محمد رشيد رضا عام ١٩٣٥م(٥٥) .

رابعا ــ السلطان عبد الحميد :

صادفت فكرة الجامعة الاسلامية هوى فى نفس السلطان عبدالحميد سلطان الدولة العثمانية والذى تقلد السلطنة منذ عام ١٨٧٦م ، ورأى أن السلاطين الذين سبقوه فقدوا مكانتهم الدينية نتيجة لتفكك العالم الاسلامى ، واستيلاء دول الاستعمار الأوروبى على مناطق تسكنها شعوب اسلامية منها مناطق كانت من ممتلكات الدولة العثمانية كمصر والسودان التى احتلتها قوات بريطانية ، والجزائر وتونس التى صارت مستعمرات فرنسية هذا الى جانب سيطرة انجلترا على الهند وسيطرة روسيا على وسط آسيا .

وكان سقوط هذه الأقطار ــ وخاصة العربية منها ــ فى يد الاستعمار الأوروبى يعنى خروج هذه الأقطار عن السيادة العثمانية المطلقة ، وبالتالى لم يعد للخليفة العثمانى زعيم المسلمين سلطة كاملة على هذه الأقطار ، ومن ثم حاول السلطان عبد الحميد أن يجعل للسلطان العثمانى سلطة مطلقة أكثر مما كانت متاحة للسلاطين العثمانيين السابقين ، تكون مؤيدة بفكرة الخلافة الاسلامية والجامعة الاسلامية(٥٦) .

ورغم أن فكرة الجامعة الاسلامية عند السيد جمال الدين الأفغانى

---

(٥٥) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٦ .

(٥٦) Holt, P.M. op. cit, p. 172.

والشيخ محمد عبده لم تكن بالضرورة لتتحقق فى ظل الخلافة العثمانية ، فان السلطان عبد الحميد الثانى استخدم الفكرة من أجل تقوية مركزه كسلطان للامبراطورية العثمانية يتمتع بمكانة خاصة فى قلوب رعاياه المسلمين باعتباره خليفتهم وظل الله على الأرض وحامى حمى الحرمين الشريفين .

وقد أحاط السلطان عبد الحميد — تبعا لذلك — نفسه بالعلماء واستخدم الوعاظ للدعاية لشخصه ، كما أبعد عن مجالسه وتصوره كل ما لا يتفق مع تعاليم الاسلام ، واستخدم شريف مكة نفسه فى الدعاية له . خاصة وأنه أظهر الكرم فى الأنفاق على المؤسسات الاسلامية داخل ولايات الدولة العثمانية وخارجها ، حيث اعتقد بتحسين مركز الامبراطورية العثمانية بين الشعوب الاسلامية الخاضعة للحكم الانجليزى والفرنسى والروسى ، فينال هو شخصيا رئاسة كل مسلمى العالم الاسلامى[٥٧] .

وكان يمكن لفكرة الجامعة الاسلامية أن تجد قبولا وصدى أوسع وتنتشر بين الشعوب الاسلامية لو لم يتسم حكم السلطان عبد الحميد الثانى بالاستبداد مما جعل المعارضة لمشروعاته تتسع لتشمل الى جانب الأتراك ، العرب والفرس والهنود ، بل وغير المسلمين من أهل الولايات العثمانية ، هذا الى جانب الدولة الأوروبية التى أخذت تستغل أخطاء السلطان عبد الحميد فى ضرب أفكاره ومنعها من التطبيق باثارة العرب ضد الأتراك ، وكشف ادعاءات السلطان عبد الحميد الاصلاحية باظهار استبداده وكبته للحريات ، والغائه للاصلاحات الدستورية ، وابعاد الشخصيات المصلحة من على مسرح السياسة العثمانية بل والاسلامية .

وعندما قامت الثورة التركية عام ١٩٠٨م أجبر حزب تركيا الفتاة السلطان عبد الحميد الثانى على اعادة الدستور العثمانى الذى كان قد صدر بجهد مدحت باشا الصدر الأعظم فى ٢٣ ديسمبر عام ١٨٧٦ م .

---

(٥٧) د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٨ .

بعد طول ايقافه ــ حيث أوقف السلطان عبد الحميد العمل بالدستور وعزل مدحت باشا فى ١٤ فبراير سنة ١٨٧٧ أى بعد أقل من شهرين — ولكن لم يؤد تمسكه بالخلافة الاسلامية الى نجاحه الدائم اذ قامت ضده الحركة الانقلابية بزعامة جماعة الاتحاد والترقى التى تم خلعه على أثرها الذى تم فى أبريل عام ١٩٠٩م[٥٨] .

* * *

(٥٨) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٦٢ .

تقييم فكرة الجامعة الاسلامية

لم يتهيأ لفكرة الجامعة الاسلامية أن تصبح حقيقة واقعة وظلت مجرد فكرة سجلتها صفحات التاريخ مع جهود الدعاة الذين نشطوا لكى يضعونها موضع التنفيذ ، ولكن حال دون ذلك العوامل الآتية :

أولا : حقيقة كانت الفكرة الاسلامية هى الفكرة السائدة بين الشعوب العربية والاسلامية ولم تكن الفكرة القومية أو الفكرة الوطنية تفرض وجودها ، ولذلك لم يألف المسلمون عربا أو فرسا أو هنودا من أن يحكمهم حكاما أتراك طالما كانوا مسلمين ، ومع ذلك لم يتحمس المسلمون بصفة عامة للفكرة بسبب سلبيات الحكم العثمانى فى المنطقة العربية .

ثانيا : عمل الاستعمار الأوروبى خاصة الانجليزى والفرنسى والروسى على عدم تحقيق فكرة الجامعة الاسلامية ، لأن الفكرة من أهدافها مواجهة الأطماع الاستعمارية الأوروبية ولان الدول الاوروبية وخاصة منذ مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م قد بدأت سياسة تقطيع أوصال الامبراطورية العثمانية وتحقيق الأطماع الاستعمارية فى الأقطار العربية والاسلامية .

ثالثا : سعت بعض القطاعات فى الأقطار الاسلامية التى تاكيد الروح الوطنية وعدم التحمس لفكرة الجامعة الاسلامية ، مثل حزب الأمة المصرى الذى أخذ يروج لفكرة القومية المصرية[٥٩] . ومثل سكان جبل لبنان من الموارنة والدروز وغيرهم ، هذا الى جانب غلاة المسيحيين (الأقباط) فى مصر الذين نادوا بالقومية الفرعونية ردا على فكرة الجامعة الاسلامية . وسعوا الى احياء اللغة القبطية ، لأنها كما قالوا لغة البلاد

---

(٥٩) نفس المرجع ص ٧٧ .

المصرية ولغة العبادة المسيحية ولغة المدينة القديمة والجديدة فى رأيهم[٦٠] .

رابعا : موقف السلطان عبد الحميد الثانى الذى أراد استخدام فكرة الجامعة الاسلامية لتحقيق أغراضه هو ولم يعمل على وضعها موضع التنفيذ ، فعلى سبيل المثال لم يحقق مبدأ تحرر المسلمين من استبداد الحكام ، ولم يحقق مبدأ تحرر المسلمين من التخلف والبدع ، ولم يحقق مبدأ الحكم الدستورى ، ولم يحقق الحكم العصرى أسوة بالمجتمعات الناهضة فى أوروبا ، ومن ثم انصرف الناس عن الفكرة رغم تعلق بعض المثقفين بها أمثال زعامة الحزب الوطنى فى مصر ، وكان هذا التعلق بهدف ضرب المحتلين البريطانيين استنادا الى الوحدة الاسلامية بزعامة الخليفة العثمانى .

هذه هى الجامعة الاسلامية التى هى مظهر من مظاهر اليقظة العربية الاسلامية ، أقول العربية الاسلامية حيث أن السيد جمال الدين الأفغانى حاول التوفيق بين فكرة الاسلام وفكرة العروبة ، فكان يرى أن الاسلام كعقيدة انما هو طريق للتعرب واكتساب خصائص الأمة العربية .

ولذلك نجد السيد جمال الدين الأفغانى يقول : لو أن العثمانيين اتخذوا اللغة العربية لغة لكل الامبراطورية فان كل شعوبها سوف يصبحون وقد جمعتهم رابطتان بدلا من رابطة واحدة فتقوى وحدتهم .

ويقول كذلك : لو تعربت الدولة العثمانية وانتفى من بين الأمتين النعرة القومية وزال داعى النفور والانقسام بالتركى والعربى وصاروا أمة عربية بكل ما فى اللسان من معنى وما فى الدين الاسلامى من عدل ، وما فى سيرة أفاضل العرب من أخلاق وفى مكارمهم من عادات لكان اعادة عصر الرشيد (يقصد هارون الرشيد الخليفة العباسى) للمسلمين ميسورا[٦١] .

---

(٦٠) المرجع السابق ص ٨٤ .

(٦١) د. محمود صالح منسى : المرجع السابق ص ٦١ — ٦٢ .

ولكن شاءت ارادة الله ألا تتحقق فكرة الجامعة الاسلامية لا فى صورة وحدة أو اتحاد كما دعا اليها السيد جمال الدين الأفغانى ؛ حتى أحييت فيما عرف بمنظمة المؤتمر الاسلامى الذى يحقق الوحدة الاسلامية الأشمل فى قارات العالم ، تلك المنظمة التى بدأت تمارس وجودها من مكة المكرمة منذ عام ١٩٦٩م وما زالت وستظل ان شاء الله ..

* * *

المصـــادر العربيـــة

١ ـــ ابن زنبل احمد الرمال : آخرة المماليك فى مصر .

٢ ـــ ابن تيمية (تقى الدين ابى العباس احمـــد بن تيمية) : كتاب الزيارة من مجلد الجامع الفريد .

٣ ـــ د. احمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراســات تاريخيـــة فى النهضـة العربية الحديثة : القاهرة .

٤ ـــ د. احمد مصطفى ابو حاكمة : تاريخ شرقى الجزيرة العربيـــة فى العصـور الحديثة : القاهرة ١٩٦٨ .

٥ ـــ احمد امين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث لجنـــة التاليف والنشر : القاهرة ١٩٤٨ م .

٦ ـــ احمد عبـــة : معجزة فوق الرمال : بيروت ١٩٦٦ .

٧ ـــ د. السيد رجب حراز : التوســع الايطالى فى شرق افريقية . القاهرة ١٩٦٠ م .

٨ ـــ د. السيد رجب حراز : المدخـــل الى تاريخ مصر الحديث : القاهرة ١٩٧٠ م .

٩ ـــ د. ابراهيم العدوى : يقظة السـودان : القاهرة ١٩٥٦ م .

١٠ ـــ ابراهيم فوزى باشــــا : الســودان بين يدى غوردون وكتشنر جزان : القاهرة ١١٠١ م .

١١ ـــ احمد شـفيق باشـا : مذكراتى فى نصف قرن جزان : القــاهرة ١٩٣٤ ـــ ١٩٣٦ .

١٢ ـــ بو المحاسـن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهر ٨ اجزاء .

١٣ ـــ احمد حسنين : فى صـحراء ليبيا : مطبعة مصر بدون تاريخ .

١٤ ـــ أحمد صدقى الدجانى : احاديث عن تاريخ ليبيـــا فى القــرنين ١٨ ، ١٩ : طرابلس ١٩٦٥ م .

١٥ ـــ ابن غلبون (ابو عبد الله محمد بن خليل غلبون) تاريخ طرابلس

الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار عنى بنشره وتحقيقه الطاهر الزاوى : القاهرة ١٣٤٩ هـ .

١٦ ــ احمد النائب الانصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب جزان ، الآستانة : ١٨٩٩ م .

١٧ ــ الطاهر احمد الزاوى : ولاة طرابلس من بداية الفتح العربى الى نهاية الحكم التركى : بيروت ١٩٧٠ م .

١٨ ــ الطاهر احمد الزاوى : معجم البلدان الليبية : طرابلس ١٩٦٨م.

١٩ ــ التعليم الدينى فى ليبيا : بحث مقدم لوزارة التربية والتعليم والوزراء المسئولين عن التخطيط الاقتصادى فى الدول العربية المنعقد فى طرابلس : ابريل ١٩٦٦ م .

٢٠ ــ جامعة السيد محمد بن على السنوسى الاسلامية ماضيها وحاضرها : طرابلس ١٩٦٢ م .

٢١ ــ د. جلال يحيى : الثورة المهدية واصول السياسة البريطانية : القاهرة ١٩٥٩ م .

٢٢ ــ د. جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق افريقية : القاهرة ١٩٥٩ .

٢٣ ــ د. جميل صليبا : الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام وأثرها فى الأدب الحديث : القاهرة ١٩٥٨ .

٢٤ ــ جورج كيرك تعريب عمر الاسكندرى : موجز تاريخ الشرق الأوسط : القاهرة ١٩٥٧ .

٢٥ ــ حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين : القاهرة ١٩٣٥ م .

٢٦ ــ حسين بن غنام : تاريخ نجد او روضة الأفكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوى الاسلام : القاهرة ١٩٦١ م .

٢٧ ــ د. حسن سليمان محمود : المملكة العربية السعودية : القاهرة ١٩٦٠ م .

٢٨ ــ د. حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضى والحاضر : القاهرة ١٩٦٢ م .

٢٩ ــ د. حسين فوزى النجار : الشرق العربى بين حربين : القاهرة .

٣٠ ــ د. حسن صبرى الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين : القاهرة ١٩٧٠ م .

٣١ ــ د. حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية : القاهرة ١٩٦٣ م .

٣٢ ــ حافظ عوض : فتح مصر الحديث .

٣٣ ــ خليفة المنتصر : ليبيا قبل المحنة وبعدها : طرابلس ١٩٦٠ م .

٣٤ ــ د. رافت الشيخ : تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة : طرابلس ١٩٧٢ م .

٣٥ ــ د. رافت الشيخ ود. محمود متولى : افريقيا فى العلاقات الدولية : القاهرة ١٩٧٥ م .

٣٦ ــ ريتشارد فوللى ترجمة عمر الديراوى : عشر سنوات فى بلاط طرابلس : طرابلس ١٩٦١ م .

٣٧ ــ رحلة الحشائشى الى ليبيا (عثمان الحشائشى التونسى) تحقيق على مصطفى المصرانى : بيروت ١٩٦٥ م .

٣٨ ــ رودلفو ميكاكى تعريب طه فوزى : طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلى : القاهرة ١٩٦١ م .

٣٩ ــ د. زاهر رياض : شمال افريقيا فى العصر الحديث : القاهرة ١٩٦٧ م .

٤٠ ــ د. زاهر رياض : استعمار افريقيا : القاهرة ١٩٦٥ م .

٤١ ــ ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية : بيروت ١٩٦٠ م .

٤٢ ــ سليمان البارونى : صفحات خالدة من الجهاد : تحقيق زعيمة سليمان البارونى : القاهرة ١٩٦٠ م .

٤٣ ــ سردار بانيكار ترجمة عبد العزيز جاويد : آسيا والسيطرة الغربية : القاهرة ١٩٦٢ م .

٤٤ ــ د. صلاح العقاد : المغرب العربى : القاهرة ١٩٦٩ م .

٤٥ — د. صلاح العقاد : تطور السياسة الفرنسية في الجزائر : القاهرة ١٩٥٩ م .

٤٦ — د. صلاح العقاد : الجزائر المعاصر : القاهرة ١٩٦٤ م .

٤٧ — د. صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي : القاهرة ١٩٧٤ م .

٤٨ — عزيز سامح ترجمة عبد السلام ادهم : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية : ١٩٦٩ م .

٤٩ — عبد الكريم الخطيب : الدعوة الوهابية طبعة ثانية : القاهرة ١٩٧٤ م .

٥٠ — د. عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى : القاهرة ١٩٦٩ م .

٥١ — د. عزت النص : احوال السكان في العالم العربي : القاهرة ١٩٥٥ م .

٥٢ — عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار .

٥٣ — د. على ابراهيم عبده : المنافسة الدولية في أعالي النيل : القاهرة ١٩٥٨ م .

٥٤ — عبد العزيز عبد المجيد : التربية في السودان والأسس النفسية والاجتماعية التي قامت عليها ٣ اجزاء : القاهرة ١٩٤٩ م .

٥٥ — عبد المجيد عابدين : الثقافة العربية في السودان : القاهرة ١٩٥٣ م .

٥٦ — عبد الرحمن الرافعي : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال : القاهرة ١٩٦٦ م .

٥٧ — د. فيليب رفلة : الجغرافيا السياسية لأفريقيا : القاهرة ١٩٦٥ م .

٥٨ — كارل بروكلمان تعريب نبيه امين ومنير البعلبكي : تاريخ الشعوب الاسلامية : بيروت ١٩٦٥ م .

٥٩ — الليدى آن بلنت ترجمة محمد انعم غالب : رحلة الى بلاد نجد : الرياض ١٩٦٧ م .

٦٠ لوثروب ستوارد ترجمة عجاج نويهض : حاضر العالم الاسلامى .

٦١ ــ مصطفى بعيو : المجمل فى تاريخ لوبيا : القاهرة ١٩٤٧ م .

٦٢ ــ مصطفى بعيو : دراسات فى التاريخ اللوبى : القاهرة ١٩٤٥ م .

٦٣ ــ محمد رشيد رضا : الوهابيون والحجاز : القاهرة ١٩٢٥ .

٦٤ ــ محمود الشنيطى : قضية ليبيا : القاهرة ١٩٥١ م .

٦٥ ــ محمد مصطفى بازامة : بداية المأساة او التمهيد السياسى للاحتلال الايطالى : بنغازى ١٩٦١ م .

٦٦ ــ محمد مصطفى بازامة : العدوان او الحرب بين ايطاليا وتركيا فى ليبيا : طرابلس ١٩٦٥ م .

٦٧ ــ محمد الطيب الأشهب : عمر المختار : القاهرة ١٩٥٦ م .

٦٨ ــ محمد الطيب الأشهب : السنوسى الكبير .

٦٩ ــ محمد بن على السنوسى : الدرر السنية الادريسية بنغازى ١٩٦٨ م .

٧٠ ــ د. محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة : القاهرة ١٩٤٨ م .

٧١ ــ د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسيادة على السودان ــ الوضع التاريخى للمسالة : القاهرة ١٩٤٦ م .

٧٢ ــ د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن ١٩ : القاهرة ١٩٥٧ م .

٧٣ ــ د. محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة : القاهرة ١٩٢٧ م .

٧٤ ــ د. محمد رفعت رمضان : على بك الكبير : القاهرة ١٩٥٠ م .

٧٦ ــ محمود القبانى : السودان المصرى والانجليز مجموعة رسائل نشرت اصلا فى الأهرام : القاهرة ١٨٩٦ م .

٧٧ ــ د. مكى شبيكة : السودان عبر القرون : بيروت ١٩٦٤ م .

٧٨ ــ د. مكى شبيكة : مملكة الفونج الاسلامية : القاهرة ١٩٦٤ م .

٧٩ ــ د. محمد عوض : السودان الشمالى سكانه وقبائله : القاهرة ١٩٥١ م .

٨٠ ــ محمد بن عبد الوهاب : كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد .

٨١ ــ محمد بن عبد الوهاب : ثلاث عشر رسالة فى مجلد الجامع الفريد .

٨٢ ــ محمد بن عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول .

٨٣ ــ محمد بن عبد الوهاب : كتاب كشف الشبهات فى التوحيد فى مجلد الجامع الفريد .

٨٤ ــ محمد كرد على : القديم والحديث .

٨٥ ــ د. محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى . القاهرة ١٩٦٥ م .

٨٦ ــ د. محمد انيس ود. السيد حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر : القاهرة ١٩٦٧ م .

٨٧ ــ محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٣ اجزاء : القاهرة ١٩٥٧ م .

٨٨ ــ د. محمد انيس : ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ٣ اجزاء: القاهرة ١٩٦٩ م .

٨٩ ــ د. محمد مصطفى صفوت : الاحتلال البريطانى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه : القاهرة ١٩٥٢ م .

٩٠ ــ د. محمد صفوت : مؤتمر برلين ١٨٧٨م واثره فى البلاد العربية : القاهرة ١٩٥٧ م .

٩١ ــ د. محمد محمود السروجى : العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية الى الاستقلال .

٩٢ ــ د. محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر : القاهرة ١٩٤٨ م .

٩٣ ــ د. نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال الايطالى الى الاستقلال القاهرة ١٩٥٨ م .

٩٤ ــ د. نقولا زيادة : برقة الدولة العربية الثامنة : بيروت ١٩٥٠ م.
٩٥ ــ نعوم شقيق : تاريخ السودان الحديث وجغرافيته ٣ اجزاء : القاهرة ١٩٠٣ م .
٩٦ ــ كرومر : تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان سنة ١٩٠٣ رفعة الايرل كرومر قنصل جنرال دولة انكلترا ووكيلها السياسى فى مصر الى جناب المركيز لنسدون نلظر خارجتها .
٩٧ ــ آنخل جنثالث بالنثيا ترجمة د. حسين مؤنس : تاريخ الفكر الاندلسى ــ القاهرة ١٩٥٥ م .
٩٨ ــ محمد لبيب البتنونى : رحلة الأندلس الطبعة الثانية القاهرة د.ت
٩٩ ــ احمد شوقى بك : دول العرب وعظماء الاسلام : مطبعة مصر القاهرة ١٩٣٣ م .
١٠٠ ــ احمد شوقى بك : الشوقيات ، الجزء الأول دار الكتب : القاهرة ١٩٤٦ م .
١٠١ ــ جلال يحيى : المغرب الكبير (العصور الحديثة) : الاسكندرية ١٩٧٤ م .
١٠٢ ــ محمود ابو رية : جمال الدين الأفغانى الطبعة الثانية : القاهرة ١٩٧١ م .
١٠٣ ــ د. رافت الشيخ وآخر : قضايا اسلامية معاصرة : القاهرة ١٩٨٠ م .
١٠٤ ــ نصر الدين عبد الحميد : مصر وحركة الجامعة الاسلامية : ١٩٧٩ م .
١٠٥ ــ رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده ٣ اجزاء القاهرة ١٩٣١ م .
١٠٦ ــ د. محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية:القاهرة ١٩٦٩ م .
١٠٧ ــ احمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث : القاهرة ١٩٤٨ م .
١٠٨ ــ مصطفى عبد الرازق : العروة الوثقى القاهرة .
١٠٩ ــ عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الاسلام من القرن الأول الى الرابع عشر (١٠٠ ــ ١٣٧٠ هـ) القاهرة د . ت .
١١٠ ــ د. زكريا سليمان : التيارات السياسية والاجتماعية : القاهرة.
١١١ ــ Holt, P.M. : Egypt and Fertile Crescent.
١١٢ ــ Kedawie, E. : Afghani and Abduh.

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الباب الأول : الوطن العربى تحت الحكم العثمانى	١١
الفصل الأول : الزحف العثمانى نحو الأقطار العربية	١٣
موقع الوطن العربى	١٥
الوطن العربى قبيل قدوم العثمانيين	١٩
العلاقات العربية الأوروبية قبيل قدوم العثمانيين	٢١
أسباب الزحف العثمانى نحو الوطن العربى	٢٣
الفصل الثانى : نظم الحكم العثمانى فى الوطن العربى	٢٩
مقدمة	٣١
ايجابيات الحكم العثمانى	٣٤
سلبيات الحكم العثمانى	٣٧
الباب الثالث : الحركات الاستقلالية فى الوطن العربى	٤٣
مقدمة	٤٥
الفصل الثانى : الأسرة المعنية فى لبنان	٤٩
لبنان	٥١
الأمير فخر الدين الأول	٥٢
الأمير فخر الدين الثانى	٥٣
الأسرة الشهابية	٥٧
لبنان بعد الشهابيين	٥٨
الفصل الرابع : أسرة حسن باشا فى العراق	٦١
احوال العراق منذ الفتح العثمانى	٦٣
أسرة حسن باشا	٦٥
العلاقات بين المماليك والدول الأجنبية	٦٨
العراق بعد حكم المماليك	٧١
الفصل الخامس : الأسرة الحسينية فى تونس	٧٥
تونس قبل الأسرة الحسينية	٧٧
الأسرة الحسينية	٧٨
تونس بعد الأسرة الحسينية	٨٠

الموضـــوع | الصـفحة

الفصل السادس : الأسرة القرمانلية فى ليبيا ٨٣
احوال ليبيا قبل القرمانلين ٨٥
احمد القرمانلى ٨٩
محمد القرمانلى ٩٤
على القرمانلى الأول ٩٧
احمد القرمانلى الثانى ١٠٠
يوسف القرمانلى ١٠١
على القرمانلى الثانى ١٠٨
تقييم للحكم القرمانلى ١٠٩
العصر العثمانى الأخير ١١١
الفصل السابع : آل العظم فى الشام ١١٥
سوريا قبل آل العظم ١١٧
اسرة العظم ١١٩
سوريا بعد آل العظم ١٢٢
الفصل الثامن : ظاهر العمر فى فلسطين ١٢٣
ايالة صــيدا ١٢٥
ظاهـــر ١٢٧
ظاهر والدولة العثمانية ١٢٩
ظاهر العمر وعلى بك الكبير ١٣٢
نهاية الشيخ ظاهر ١٣٥
ظاهر العمر والدول ١٣٦
تقييم حركة ظاهر ١٣٩
ماذا بعـد ظاهر ١٤٠
الفصل التاسع : على بك الكبـير فى مصر ١٤٣
احـوال مصـر ١٤٥
على بك ١٤٧
على بك واستقرار الأمور ١٤٨
على بك والدولة العثمانية ١٥١
على بك والدول الاجنبيــة ١٦٠
تقييم حركة على بك ١٦٤
مصر بعد على بك ١٧١

الموضـــوع	الصـفحة
الباب الثالث : الحركة السلفية فى الوطن العربى	١٧٥
مقـــدمة	١٧٧
الفصل العاشر : الدعوة الوهابية	١٨١
نجـــد	١٨٣
محمد بن عبـد الوهاب	١٩٠
اسس الدعوة الوهابية	١٩٤
اسلوب الدعوة الوهابية	٢٠٧
موقف العثمانيين من الدعوى	٢١٤
موقف القوى الخارجية من الدعوة	٢٢٣
تقييم الدعــوة	٢٢٧
الفصل الحادى عشر : الدعوة السنوسية	٢٣٧
برقـــة	٢٣٩
محمد بن على السنوسى	٢٤٢
اسس الدعوى السنوسية	٢٤٦
اسلوب الدعــوة	٢٥٤
علاقة السنوسية بالدولة العثمانية	٢٦٦
السنوسية والقوى الخارجية	٢٧١
تقييم الدعــوة السنوسية	٢٧٦
الفصل الثانى عشر : الدعوة المهدية	٢٧٩
الســودان	٢٨١
محمد احمــد	٢٨٦
اسس المهـدية	٢٨٩
اسـلوب الدعــوة	٢٩٨
الدعوة المهدية والقوى الخارجية	٣٠٥
تقييم الدعــوة المهـدية	٣١٣
الباب الرابع : بعض مظاهر اليقظة العربية الاسلامية	٣١٩
مقـــدمة	٣٢١
الفصل الثالث عشر : خروج المسلمين من الأندلس والجهاد البحرى الاسلامى فى البحر المتوسط	٣٢٣
خروج المسلمين من الأندلس	٣٢٥
الجهاد البحرى الاسلامى	٣٣١
رجال البحر المراكشيون	٣٣٨

الموضـــوع	الصفحة
رجال البحر الجزائريون	٣٤٣
رجال البحر التونسيون	٣٤٧
رجال البحر الطرابلسيون	٣٤٩
الفصل الرابع عشرة : الجهاد البحرى الاسلامى فى الخليج العربى	٣٥٥
خبرة الخليج فى الملاحة	٣٥٧
القواسم والجهاد البحرى	٣٦٢
عرب الخليج الآخرون والجهاد البحرى	٣٦٦
المغـامرات البحرية	٣٧٠
الفصل الخامس عشر : الجامعة الاسلامية	٣٧٥
مقـدمة	٣٧٧
ظروف العـالم الاسـلامى	٣٧٨
فكرة الجامعة الاسلامية	٣٨٤
دعـاة الفـكرة	٣٨٨
اولا — السيد جمال الدين	٣٨٨
ثانيا — الشيخ محمد عبده	٣٩٤
ثالثا — السيد محمد رشيد رضا	٣٩٨
رابعا — السلطان عبد الحميد	٤٠٠
تقييم فكرة الجامعة الاسلامية	٤٠٣
المصادر العربية	٤٠٦
فهرست الكتاب	٤١٣

رقم الايداع بدار الكتب ٩٢/٢٥٦٣

الرقم الدولى

I. S. B. N.

977 — 237 — 070 — 4

دار الثقـافة للطبـاعة والنشر